

علي مولا

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



الفرس المنتصر

Alexandros

رواية متسلسلة/الكتاب الأول

فتى الحلم

Il Figlio Del Sogno



فاليريو ماسيمو مانفريدي
VALERIO MASSIMO MANFREDI

الأمير المستتر

Alexandros

رواية متسلسلة / الكتاب الأول

فتى الحلم

Il Figlio Del Sogno

تأليف

فاليريو ماسيمو مانفريدي
Valerio Massimo Manfredi

ترجمة

سعيد الحسنية

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة كتاب

Alexandros, Vol 1: Il Figlio Del Sogno

by Valerio Massimo Manfredi

Alexander: Child of a Dream

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من الناشر

Arnoldo Mondadori Editore S.p.A., Milano

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © 1998 Arnoldo Mondadori Editore S.p.A., Milano

All rights reserved

Arabic Copyright © 2010 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-614-01-0083-1

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

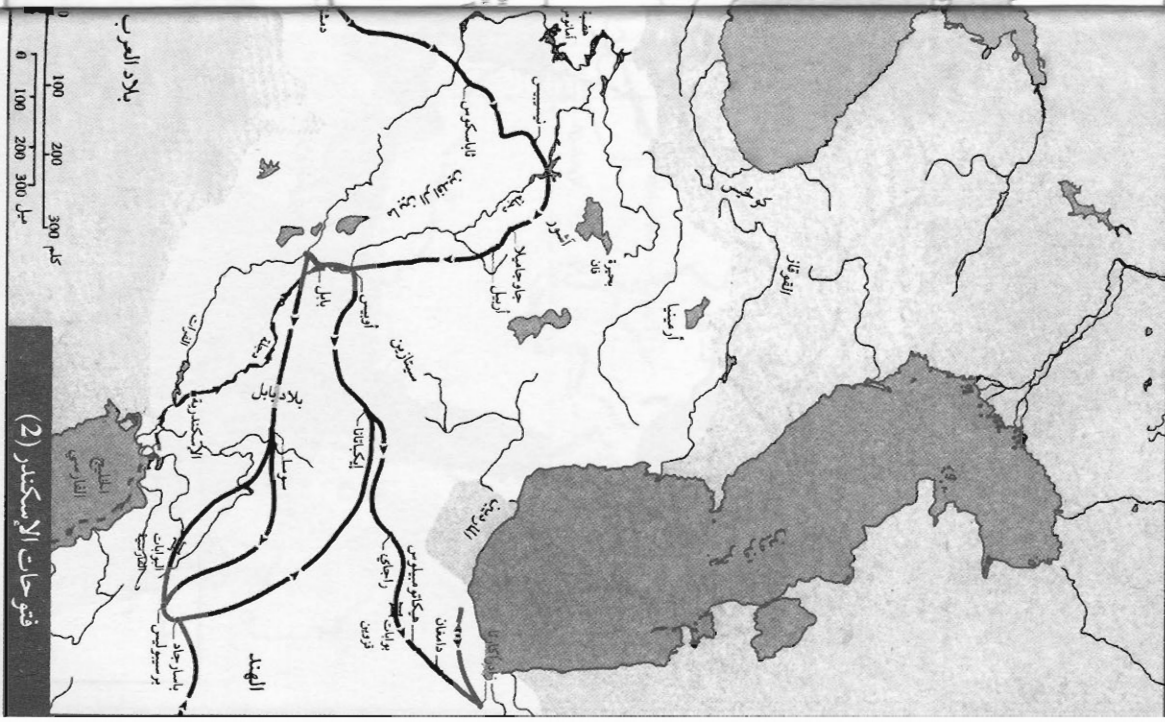
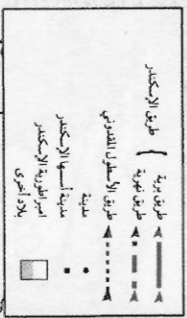
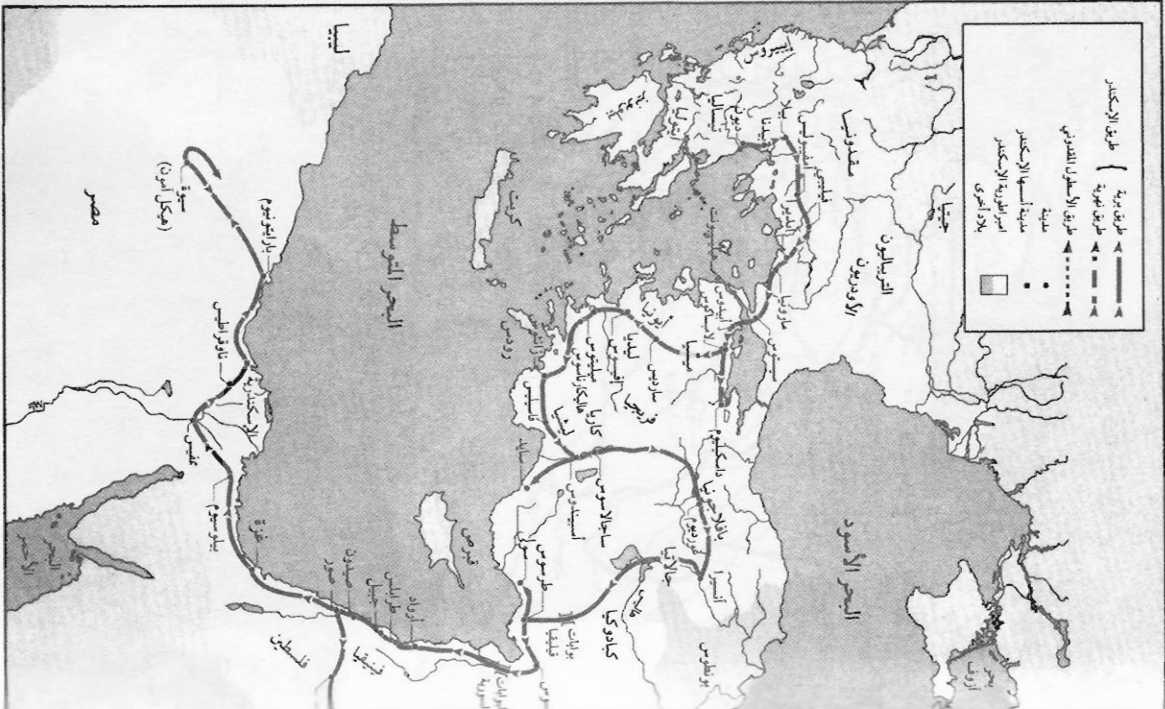
الموقع على شبكة الإنترنت: <http://www.asp.com.lb>

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

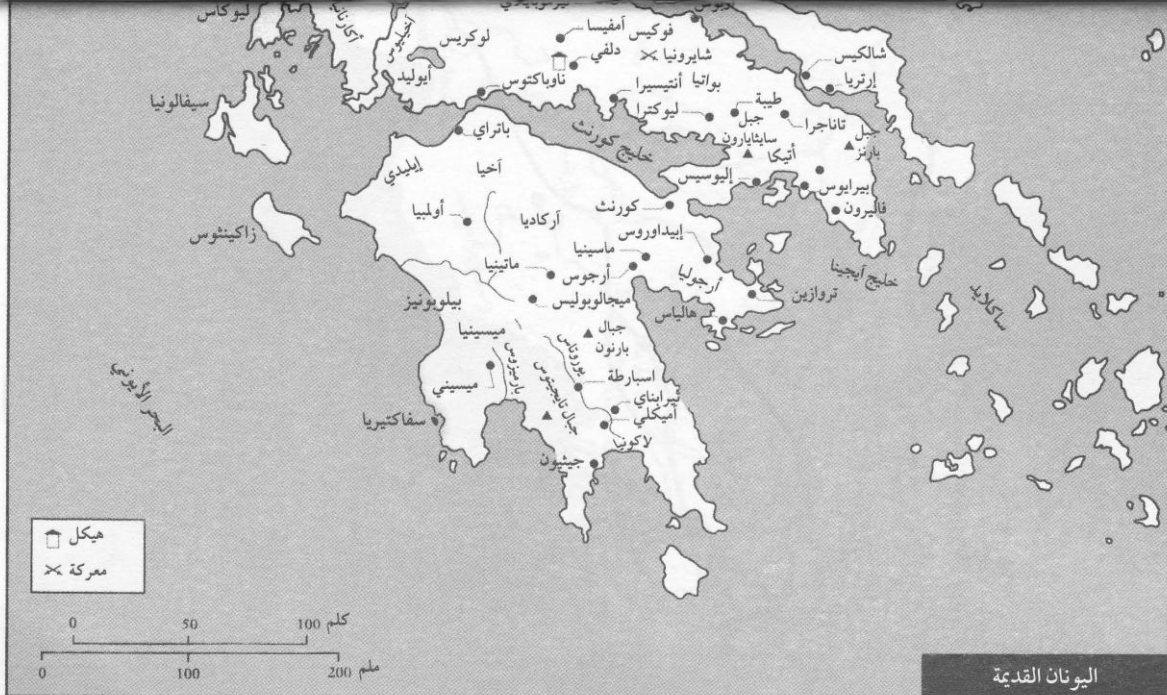
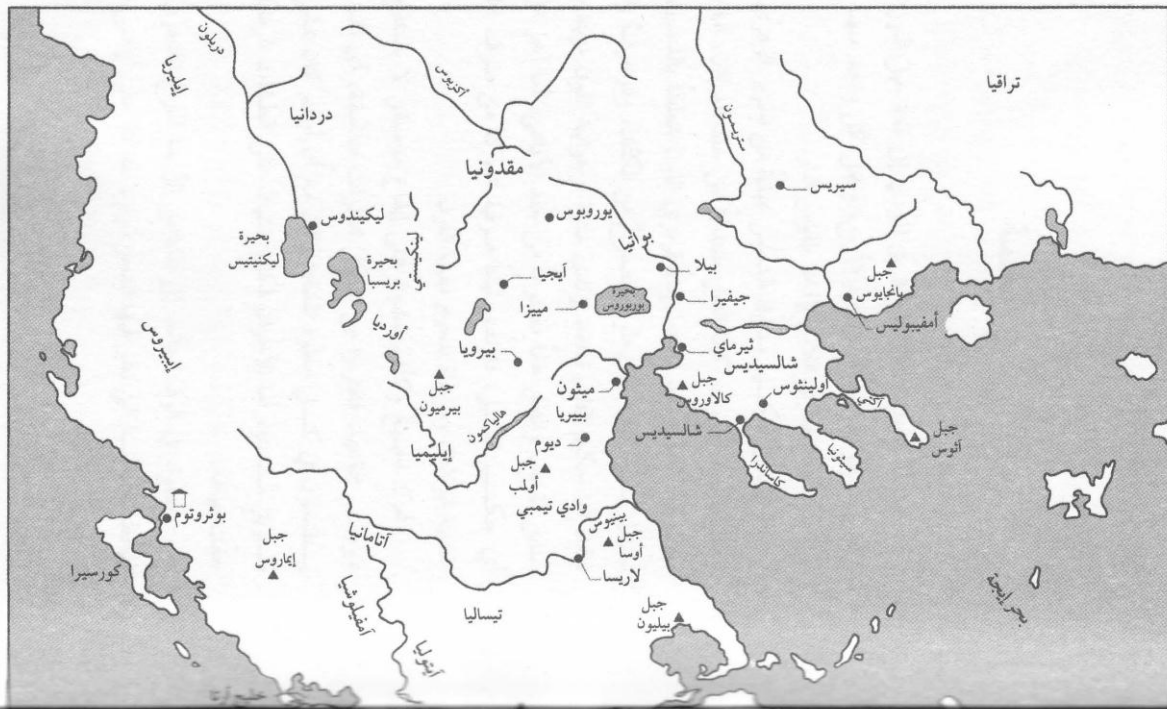
إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل.



التوزيع وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)



فتوحات الإسكندر (2)



 هيكل
 معركة

0 50 100 كلم
 0 100 200 ملم

مقدمة

صعد الحكماء الأربعة الطريق المؤدي إلى قمة جبل النور ببطء، وكانوا قد أتوا من جهات البلاد الأربع، وحمل كل واحدٍ منهم كيساً مليئاً بالخشب العطري اللازم لإقامة طقوس النار.

ارتدى حكيم مشرق الشمس عباءةً من الحرير الزهري اللون المظلل باللون الأزرق، كما انتعل صندالاً من جلد الغزلان، أما حكيم مغرب الشمس فقد ارتدى رداءً قرمزي اللون مخططاً بالذهب، بينما تدلى من كتفيه شالٌ طويل مصنوعٌ من الكتان، ومزخرفٌ بالألوان ذاتها، أما حكيم الظهيرة فقد ارتدى سترة أرجوانية اللون مزينة برسوم سنابل القمح، وانتعل خفاً مصنوعاً من جلد الأفاعي، أما آخر الرجال، أي حكيم الليل، فارتدى ثياباً صوفيةً محبوكةً من صوف الحملان الحديثة الولادة، وموشاةً بنجوم فضية اللون.

تحرك الجميع وكأنهم يمشون على إيقاع موسيقى لا يستطيع أحدٌ غيرهم سماعها، فاقتربوا من الهيكل بخطوات متناسقة، أي أنهم كانوا يتقدمون في كل خطوة المسافة ذاتها، مع أن أولهم كان يمشي على طريقٍ مستوٍ، أما الآخرون فكانوا يمشيان على الطبقات الرملية لنهرٍ جفت مياهه.

وصلوا، في الوقت ذاته، إلى المداخل الأربعة للبرج الحجري، وفي اللحظة ذاتها التي نشر فيها الفجر أنواره المتألثة على أراضي الهضبة المهجورة وفوقها.

انحنى الأربعة، وتطلع كل واحد منهم في وجوه رفاقه عبر أقواس
المدخل الأربعة. بدأ حكيم مشرق الشمس بإقامة طقوسه، فنشر
أغصان خشب الصندل على شكل مربع، ثم جاء دور حكيم الظهيرة،
الذي أضاف حزماً من أغصان شجر الأكاسيا، ونشرها بشكل قطري.
تقدم حكيم مغرب الشمس، ووضع أخشاب الأرز التي جمعت من
غابة أرز جبل لبنان، والتي نُزعت عنها قشورها. أخيراً، جاء حكيم
الليل الذي وضع أغصاناً يابسة من شجر السنديان القوقازي، وهي
أغصانٌ سبق أن ضربها البرق، وجفت تحت شمس الجبال. تناول
الحكماء الأربعة أحجار الصوان المبجلة من أكياسهم، وراحوا يقرّبون
الشرارات الزرقاء من قاعدة الهرم الصغير حتى بدأت ألسنة النار
بالاشتعال. بدأت النيران ضعيفة في البداية، وراحت تتمايل، ثم ازدادت
قوة قبل أن تنطلق بنشاط، وما لبثت ألسنة النار القرمزية أن تحولت إلى
اللون الأزرق، وحتى إنها كادت تصبح بيضاء اللون، أي مثل النار
المبجلة، ومثل أنفاس آهورا مازدا المبجلة، سيد الحقيقة والمجد، وسيد
الزمن والحياة.

لم يُسمع في تلك اللحظة سوى حسيس النيران الواضح الذي
يهمس بشعره الغامض داخل ذلك البرج الحجري العظيم، ولم تُسمع
حتى أنفاس الحكماء الأربعة الذين وقفوا من دون حراك في مركز
الوسط تماماً بين بلادهم المترامية الأطراف.

راقب الحكماء الأربعة بنشوة بالغة، بينما أخذت ألسنة النار
المبجلة تغير أشكال الأغصان البسيطة التي وُضعت بعناية على المذبح
الحجري. حدّق الحكماء إلى أنقى أشكال النور، وراحوا يراقبون رقصة
النيران الرائعة، وما لبثوا أن رفعوا تضرعاتهم نيابةً عن الناس والملك،
الملك العظيم، ملك الملوك الذي كان يجلس بعيداً جداً في قاعة فخمة

في قصر برسيبوليس المليء بغابة من الأعمدة المطلية باللونين الأرجواني والذهبي، والتي تقبع تحت حراسة الثيران والأسود المجنحة المنتشرة بكثرة.

كان الهواء في ذلك المكان الفاتن والمنزل، وفي تلك الساعة من الصباح الباكر، ساكناً تماماً، وهو أمر ضروري كي تتخذ النار المبحلة أشكال طبيعتها وحركاها، كانت هذه الطبيعة بالذات هي التي تدفع ألسنة اللهب عالياً، فهي المصدر الأصلي الذي انبثقت عنه. فجأة، نفخت قوة هائلة فوق ألسنة اللهب فأطفأها، فراح الحكماء الأربعة يراقبون بذهول، ورأوا كيف أن الجمر الأحمر قد تحوّل فجأة إلى فحم أسود اللون.

لم يلاحظ الحكماء أي علامة أخرى، عدا عقعة صقر شقّ طريقه نحو السماء الخالية، كما لم تُسمع أي كلمات، تحلّق الرجال الأربعة حول المذبح مذهولين من فأل الشؤم هذا، بينما انهمرت دموعهم وسط الصمت المطبق.

*

وفي تلك اللحظة بالذات، ارتعشت في بلاد بعيدة تقع إلى الغرب امرأة في مقتل العمر كانت في طريقها إلى معبد قديم. جاءت المرأة وتدعى أوليمبيا كي تحصل على بركة لابنها الذي شعرت أنه يتحرك في تلك اللحظة في بطنها فهمست الرياح في أثناء هبوبها بعناد من خلال الأغصان القديمة باسم الطفل: "الإسكندر"، فيما راحت تحرك الأوراق اليابسة المنتشرة حول جذوع الشجرات العملاقة.

قرّرت أوليمبيا زيارة معبد دودونا بسبب هاجسٍ غريبٍ شعرت به خلال نومها إلى جانب زوجها فيليب الثاني، ملك المقدونيين، الذي اضطجع قريبا في تلك الليلة بعد أن أتخم نفسه بأصناف الطعام والشراب. حلمت أوليمبيا أن ثعباناً يتلوى ببطء في الممر خارج غرفتها، ثم ما لبث أن دخل غرفة نومها بصمت، وتمكّنت من رؤية الثعبان، لكنها لم تقدر على الحراك، ولم تتمكن من الصراخ. انزلق ذلك الزاحف الكبير فوق الأرض الحجرية، وما لبث ضوء القمر المتسلل من نافذة الغرفة أن التمع على جلده بألوان نحاسية وبرونزية.

أرادت، للحظة، أن توقظ فيليب كي يحتضنها بذراعيه، ويقربها من صدره القوي المقتول العضلات، ويلطفها بيديه اللتين تعودتا على القتال، لكنها التفتت بغتة، وتطلعت مجدداً نحو ذلك الثعبان، أرادت أن تلقي نظرةً على ذلك الحيوان الضخم الذي يتحرك مثل شبح، أو ثور، ومثل تلك المخلوقات التي تستدعى من أعماق الأرض عندما تدعو الحاجة.

شعرت أوليمبيا، فجأةً، أنها لم تعد خائفة من الثعبان، ولم تعد تشعر بالقرص منه، بل لقد شعرت، في واقع الأمر، بأنها أكثر انجذاباً إليه، وحتى إنها شعرت أنها مفتونة بحركته المتعرجة، وبقوته وحركته الرشيقة والصامتة.

شقّ الثعبان طريقه تحت أغطية السرير، وما لبثت أن شعرت أنه تمكّن منها، حدث ذلك بخفة وبرودة، ومن دون أذيةٍ أو إكراه.

حلمت أن بذرتة قد اختلطت مع البذرة التي سبق لزوجها أن دفعها إليها بقوة تماثل قوة ثور، وبحماسة تماثل تلك التي يتميز بها دب بري، وذلك قبل أن ينهار بفعل الإجهاد والشراب.

وضع الملك في اليوم التالي دروعه، وتناول اللحم مع قادة جنده، وشربوا حليب ماعز، وأكلوا الجبن المصنوع من حليب الماعز، ثم غادروا جميعاً للقتال، كان فيليب وقادته يخوضون حرباً ضد شعب أكثر همجية من شعبه المقدوني، وهم القبليون الذين يرتدون جلود الدببة، ويعتمرون قبعات من فراء الثعالب، ويعيشون على ضفاف نهر إستر، أكبر أنهار أوروبا في ذلك الوقت.

كان كل ما قاله لأوليمبيا زوجته: "تذكرني أن تقدمي القرابين إلى الأسدياد خلال فترة غيابي، وليكن جنينك صبيّاً يشبهني كي يكون ورثتي". ثمّ امتطى بعد ذلك جواده البني اللون الضارب إلى الحمرة، وانطلق مع قادته، في حين ردّدت الساحة أصداً وقع حوافر الجياد الأصبلة مع قعقة أسلحتهم.

أخذت أوليمبيا حماماً ساخناً، بينما راحت خادمتها يمسدن ظهرها بإسفنجات مليئة بعطر خلاصة الياسين وورود بيريا، وما لبثت أن استدعت آرميس، وهي التي حضنتها عندما كانت طفلة. وكانت آرميس قد تقدّمت بالسن في هذا الوقت، ولكن صدرها كان لا يزال بارزاً، كما أن ردفها كانا لا يزالان متناسقين. وكانت آرميس متحدّرة من أسرة طيبة وجاءت بها أوليمبيا من إيبيروس عند قدومها كي تتزوج بفيليب.

راحت أوليمبيا تسرد حلمها على مسامع آرميس ثمّ سألتها: "ما معنى هذا الحلم يا آرميس الطيبة؟".

طلبت آرميس من سيدتها أن تخرج من حمامها الساخن، وبدأت تحفّفها بمناشف من القطن المصري.

"إن الأحلام، يا صغيرتي، هي دوماً رسائل من الأسياد. ولكن، قليلون من يستطيعون تفسيرها. أعتقد أنه عليك الذهاب إلى أقدم معبد في موطننا إيبيروس لتستشيري الضالعين في دودونا، فمنذ أقدم الأزمنة توارث الضالعون هناك فنّ التعرف على صوت زيوس العظيم. إذ يتحدث الصوت عندما تهب الرياح من خلال أغصان أشجار السنديان القديمة الموجودة حول المعبد، وذلك عندما تجعل الأوراق تهمس في الربيع، أو في الصيف، أو حين تهمز هذه الرياح الأوراق اليابسة، وتجعلها تتحرك حول جذوع الأشجار خلال الخريف والشتاء.

هكذا مضت أوليمبيا بعد أيام قليلة قاصدة المعبد الذي شيّد فوق أجمل الأماكن، وفي أحضان أشجار غابات الجبال الخضراء.

تفيد الأخبار المتوارثة أن هذا المعبد من بين أقدم المعابد الموجودة على وجه الأرض. وقيل كذلك إن حمامتين قد طارتا من يد زيوس بعد أن لحق بوالده كرونا في العلى. حطّ إحدى الحمامتين على شجرة سنديان في دودونا، أما الأخرى فقد حطت فوق شجرة نخيل في واحة سيوه، وسط صحراء ليبيا الحارة، وهكذا فإن صوت زيوس يُسمع في هذين المكانين منذ ذلك الزمن.

سألت أوليمبيا الضالعين في معبد الهيكِل: "ما معنى حلمي هذا؟".

جلس الضالعون فوق مقاعد حجرية وسط مرج أخضر مزّين بالأقحوان وأزهار الخوذان، وأخذوا بالاستماع إلى الريح التي تمرّ من خلال أوراق السنديان، وقد استغرقوا في تفكير عميق.

مرّت فترة لا بأس بها قبل أن يتكلم أحدهم: "يعني ذلك أن ولدك الذي تحملينه سيكون من نسل زيوس وأحد البشر، ويعني كذلك أن دم نسل سيد الأسياد زيوس قد امتزج بدم رجلٍ من البشر داخل رحمك.

سيشعّ الطفل الذي تحملينه بطاقةً عجيبة. ولكن، مثلما يستهلك
الذهب الذي يشع بنور أشدّ جوانب المشعل، ويستهلك الزيت الذي
يغذيه بسرعة أكبر، فإن روحه قد تُحرق القلب الذي يأويها.
"تذكّري يا ملكتي قصة آخيل سلف أسرتك العظيمة، والذي
أعطى الخيار ما بين عيشة قصيرة مليئة بالجد، وبين حياة طويلة
وملّة. فاختار الخيار الأول، وضحى بحياته من أجل لحظة من الجد
الكاسح".

سألت أوليمبيا بتردد: "وهل هذا قدرٌ محتوم؟".
أجابها أحد الضالعين: "هناك احتمالٌ واحد، يُمكن للإنسان أن
يسلك طرقاً عدة. لكن، بعض الرجال يمتلكون منذ الولادة الهبة التي
يعطيها الأسياد، وهي الهبة التي تهدف دوماً إلى الرجوع إليهم. لكن
يتعيّن عليك أن تُبقي هذا السر لنفسك إلى حين تحين اللحظة المناسبة
التي تكشف فيها طبيعة ولدك عن نفسها. استعدّي في تلك اللحظة
لكل شيء، وأي شيء؛ حتى لخسارته، لأنه لن يستطيع أي شيء تفعلينه
منعه من تحقيق قدره، ولن يكون في إمكان أي شيء إيقاف أخبار
شهرة من الانتشار إلى جهات الأرض الأربع".

كان الضالع لا يزال يتكلم عندما تحول النسيم الذي كان يهب
عبر أوراق السنديان إلى ريح دافئة وقوية، كانت من القوة بحيث
جعلت أغصان الشجر العالية تنحني، وهذا ما جعل الضالعين يغطون
رؤوسهم بعباءاتهم.

ترافقت الريح مع ضباب كثيف يميل إلى اللون الأحمر غطّى
الوادي بأكمله بوشاح من الظلمة. لفّت أوليمبيا عباءتها حول
جسمها ورأسها، وجلست ساكنةً وسط الدوامة فبدت مثل تمثال من
دون وجه.

هدأت الريح فجأةً كما بدأت، وظهرت جميع الأعمدة بعد أن انزاح الضباب مغطاةً بطبقة رقيقة من الغبار الأحمر. لمس الضالع الذي كان آخر من تكلم هذا الغبار بطرف إصبعه، وقرّبها من فمه: "جاء هذا الغبار مع الرياح الآتية من ليبيا، وهي أنفاس زيوس آمون التي تتواجد بين أشجار نخيل بحيرة سيوه. إنه حدثٌ استثنائي، ونذير مدهش، لأن الحمامتين اللتين طارتا من يد زيوس وهما الأقدم على وجه الأرض، واللّتين تفصل مسافة عظيمة ما بينهما قد هدلتا في اللحظة ذاتها، سمع ابنك الأصوات الآتية من بعيد، ولعله فهم الرسالة، وهو سيسمعها مجدداً في أحد الأيام داخل جدران معبدٍ عظيم محاطٍ برمال الصحراء".

عادت الملكة بعد سماعها هذه الكلمات إلى العاصمة بيلا، المدينة التي يغطي الغبار طرقاتها في الصيف، وتكون موحلة في الشتاء. وانتظرت هناك بخوفٍ وارتعاشٍ يوم ولادة ابنها.

*

جاءت آلام المخاض في النهاية في إحدى أمسيات الربيع، وبعد مغيب الشمس. فأضاءت النساء المشاعل، بينما أرسلت آرتميس في طلب إحدى القابلات، وأحد الأطباء الذي يُدعى نيقوماخوس، وهو الذي كان طبيب الملك السابق إمينتاس، والذي سبق له أن أشرف على ولادة عدد من الأمراء الشرعيين، أو غير الشرعيين.

كان نيقوماخوس جاهزاً، وعلم أن الوقت قد حان، فوضع مئزراً على وسطه، ثم أمر بإحضار الماء الساخن، والمزيد من المشاعل بحيث يتوفر له ضوء كافٍ.

سمح الطبيب بأن تقترب القابلة من الملكة أولاً، وذلك لأن المرأة تفضّل أن تلمسها امرأة أخرى في اللحظة التي تلد فيها ابنها في هذا

العالم. فالمرأة وحدها تعرف العذاب والوحدة التي تتكوّن فيهما حياة جديدة.

وفي اللحظة عينها، كان الملك فيليب يضرب حصاراً حول مدينة بوتيديا، ولم يكن مستعداً لمغادرة جبهة القتال لأي سبب من الأسباب. كان المخاض عسيراً وطويلاً، لأن حوض أوليمبيا كان ضيقاً، ولأن بنيتها كانت ضعيفة.

مسّدت آرميس حاجب سيدتها: "تشجعي يا ابنتي، ادفعي! عندما ترين ابنك ستسعين كل الألم الذي تعانين منه الآن". ثمّ بلّلت شفتي أوليمبيا بمياه النبع المحفوظة في وعاء فضي، والذي تستمر الخادومات في إبدال مياهه.

تدخل نيقوماخوس عندما تزايد الألم إلى المرحلة التي شعرت فيها أوليمبيا أنها على وشك الإغماء، وراح يوجّه يدي القابلة، ويأمر آرميس بأن تضغط على بطن الملكة لأنّ قواها قد خارت ولأن الجنين كان يعاني من ضغوط كبيرة.

وضع أذنه على القسم الأسفل من بطن أوليمبيا، فلاحظ أن خفقات قلب الطفل كانت تتباطأ.

أمر الطبيب آرميس: "ادفعي بأقصى قواك. يجب أن يولد الطفل الآن".

أرخت آرميس بكل ثقلها على الملكة التي ما لبثت أن أطلقت صرخة مرعبة قبل أن تضع طفلها.

ربط نيقوماخوس الحبل السري بخيوط من الكتان، ثم قطعه على الفور مستخدماً مقصاً برونزياً، ثم نظّف الجرح بالخمير.

بدأ الطفل الوليد بالصراخ، وما لبث نيقوماخوس أن سلّمه إلى النسوة اللواتي كنّ سيغسلنه ويلبسنه الثياب.

كانت آرتيميس أول من رأى وجهه، فشعرت بالسرور، وراحت تسأل وهي تمسح جفونه وأنفه بقماش صوفي مبلل بالزيت: "أليس رائعاً؟".

غسلت القابلة رأسه، وما لبثت أن قالت متعجبة: "لديه شعر مولود بعمر ستة أشهر، وخصلات شقراء جميلة، يبدو مثل آيروس الصغير!".

انشغلت آرتيميس في هذا الوقت بإلباسه عباءة صغيرة من الكتان، وذلك لأن نيقوماخوس لم يوافق على العادة التي تمارسها معظم العائلات التي كانت تعتمد إلى لفّ المولود الجديد بأقمشة وشدها حول جسمه.

سألت آرتيميس القابلة: "ما لون عينيه برأيك؟".

قربت المرأة مشعلاً من عيني الطفل اللتين التمتعا بفعل الضوء الذي انعكس عليهما. "لا أعرف، يصعب عليّ القول، بدا أنهما زرقاوان في السبد، ثم ظهرتا داكنتين، وفي النهاية ظهرتا سوداوين تقريباً. ويُحتمل أن يعود ذلك إلى أن والديه بعيدان كثيراً عن بعضهما...".

كان نيقوماخوس يعتني بالملكة التي كانت تنزف، كما هي العادة مع النساء اللاتي يلدن للمرة الأولى. قلق الطبيب منذ البداية من هذا الأمر الحتمي، ولذلك أحضر معه الثلج الذي جمعه من سفوح جبل بيرميون.

صنع الطبيب ضمادات من الثلج، ووضعها فوق بطن أوليمبيا، لكنّه لم يستطع إلا أن يشعر بالأسى تجاهها، لكنه تابع وضع الضمادات الباردة حتى توقف النزيف كلياً.

نزع نيقوماخوس المفزر عن وسطه، وغسل يديه، ثم ترك الملكة تحت رعاية النسوة، وسمح لهن باستبدال أغطية سريرها، وبغسلها

بإسفنجات ناعمة مبلّلة بالماء. وبعد ذلك، غيّر لها رداءها بعد أن أحضرن لها رداءً نظيفاً من خزانة ملابسها، ثم ناولنها بعض الماء كي تشربه.

كان نيقوماخوس هو الذي أحضر الطفل إلى أوليمبيا: "هذا هو ابن فيليب يا ملكتي، لقد أنجبت صبياً جميلاً".

توجّه الطبيب بعد ذلك إلى الممر، حيث كان فارس من الحرس الملكي في انتظاره، وكان جاهزاً للانطلاق: "هيا، انطلق إلى الملك بسرعة البرق، وأخبره أن ولده قد أبصر النور. أخبره أنه صبي، وأنه وسيم، وبصحة جيدة، وقوي".

وضع الفارس عباءته فوق كتفيه، ووضع حزام حقيبتته، ثم انطلق. ولكن، قبل أن يختفي في نهاية الممر الطويل صرخ به الطبيب قائلاً: "أخبره كذلك أن الملكة بصحة جيدة".

لم يتوقف الفارس عن السير، وبعد لحظة، سمعت أصوات صهيل جواد صادرة من الباحة الفسيحة في الأسفل، ثم سمعت أصوات عدو الجواد التي سرعان ما تلاشت ليسود الصمت بعد ذلك طرقات هذه المدينة النائمة.

2

تناولت آرميس الطفل، ووضعتة فوق السرير إلى جانب الملكة، رفعت أوليمبيا نفسها مستندة إلى مرفقيها، وأسندت ظهرها إلى وسادات، ثم نظرت إلى طفلها.

كان جميلاً، وكانت شفتاه ممتلئتين، وملامحه دقيقة، وبشرته متوردة، أما شعره فكان ذا لون بني فاتح يلتمع بظلال ذهبية، بينما تجمعت في وسط جبهته خصلة صغيرة من شعره، وهي التي وصفتها القابلة على أنها لعقة بقرة⁽¹⁾.

بدا أن عينيه تميلان إلى الزرقة. ولكن، في عمق عينه اليسرى ظهر نوع من الظل الأسود الذي جعل العين تبدو أذكى قليلاً كلما تغير الضوء.

حملته أوليمبيا، وقربته منها، ثم أرجحته قليلاً حتى توقّف عن البكاء، ثم قدمت له فهدا بعد ذلك كي يرضعه، لكن آرميس اقتربت منها وقالت: "يا ابنتي ستهتّم المرضعة بهذا الأمر، لا تسيئي إلى هديك، لأن الملك سيعود سريعاً من القتال، لذلك يتعيّن عليك أن تكوني جميلة ومرغوبة أكثر من أي وقت مضى".

مدّت آرميس ذراعيها لتأخذ الطفل، ولكن أوليمبيا بدلاً من أن تناولها الطفل قربته من ثديها، وأرضعته من حليها حتى غفا بكل طمأنينة.

(1) لعقة البقرة: عبارة عن خصلة شعر نامية في اتجاه مخالف للاتجاه الذي يتخذه نمو سائر الشعر، وتكون عادة فوق الجبين مباشرة.

في ذلك الوقت، تابع الفارس المبعوث مسيرته كي يصل إلى الملك في أسرع وقت ممكن. ووصل إلى نهر أكزيوس عند منتصف الليل، فنخس جواده كي يحثه على عبور الجسر الذي يتشكل من مجموعة من القوارب التي تصل ما بين ضفتي النهر. كان الظلام لا يزال مخيماً عندما غيّر جواده في ثيرماي، واستمر بالتقدم نحو المناطق الداخلية من شبه جزيرة خالكاديكي.

طلع عليه الفجر عند الشاطئ، حيث التمع الخليج الواسع بنور الشمس المشرقة، فبدا مثل مرآة وضعت أمام النيران. شقّ الرجل طريقه صعوداً في سلسلة جبال كالورو عبر أرض وعرة وقاسية، وبين صخور صلبة، وهي التي تشكل هنا وهناك منحدرات صخرية عالية فوق البحر، نحتتها أمواج البحر في الأسفل.

*

كان الملك منهمكاً في حصار مدينة بوتيديا القديمة، التي ظلت ما يقارب نصف قرن تحت السيطرة الأثينية. لم يفعل فيليب ذلك بسبب رغبته في دخول صراع مع أثينا، بل لأنه اعتبر أن هذه المدينة تقع ضمن أراضي مقدونيا، ولهذا أراد أن يؤكد سيطرته على هذه المنطقة التي تمتد ما بين خليج ثيرماي وبين البوسفور. كان فيليب، في تلك اللحظة بالذات، محشوراً مع جنوده داخل برج هجومي، وكان يحمل كل أسلحته، وهو مغطى بالغبار والعرق والدم، ويستعد لشن هجومه الحاسم.

دوّت صرخته: "أيها الرجال! إذا كنتم جنوداً، فيمكنكم أن تبرهنوا على ذلك في هذه اللحظة بالذات! سأهدي أفضل جواد موجود في إسطنبولي إلى الرجل الأول الذي يمتلك الشجاعة لمهاجمة الأعداء معي، لكنني أقسم إنني إذا رأيت رجلاً واحداً يظهر الجبن عندما

يحين وقت المواجهة، فسأسلخ جلده، سأفعل ذلك أنا شخصياً، هل تسمعونني؟".

"إننا نسمعك أيها الملك!".

أصدر فيليب أمره، وهو يومئ إلى رجاله أن يرفعوا الفرامل عن الرافعات، فحطّ الجسر على الجدران التي خُرقت مسبقاً، وكادت تنهار بفعل المنحنيات التي أوسعتها ضرباً. أسرع الملك بالتقدم إلى الأمام وهو يصيح ويلوّح بسيفه، وكان يفعل ذلك بسرعة يعجز المرء عن مجاراتها. وبما أنّ جنوده كانوا يعرفون أن الملك بقي بوعوده على الدوام، فلقد اندفعوا جميعاً بدروعهم، وكأنهم رجل واحد، وراحوا يدحرجون أعداءهم عن جوانب الجدران والشرفات. كان الأعداء متعبين من جرّاء الصعوبات التي فرضها الحصار، والليالي التي عجزوا فيها عن النوم، والتعب الذي أصابهم نتيجة مشاركتهم في القتال الذي استمر أشهراً متواصلة. اندفع بقية الجنود وراء فيليب وحرّاسه، ودخلوا مثل السيل، وانشغلوا بقتال رهيب مع آخر المدافعين الذين كانوا يضعون العوائق على الطرقات، ومداخل المنازل.

ومع مغيب الشمس، أخضعت مدينة بوتيديا وطلبت عقد هدنة.

*

كان الظلام قد أرخى سدوله لدى وصول الفارس المبعوث بعد أن استنفذ جهود جوادين إضافيين. رأى الفارس المبعوث، عندما نظر من فوق التلال التي تطل على بوتيديا، حلقةً من النيران حول الجدران، وتمكّن من سماع صرخات الجنود المقدونيين الذين كانوا يحتفلون بنصرهم الساحق.

دفع الفارس المبعوث كعب حذائه في بطن الجواد، فوصل في فترة وجيزة إلى المعسكر، وسرعان ما طلب أن يؤخذ إلى خيمة الملك.

سأله الضابط المولج بالحراسة، وكان حسب ما دلت عليه لهجته من الشمال: "ما الأمر؟ الملك مشغول، والمدينة قد سقطت، والحكومة قد أرسلت وفداً للتفاوض".
أجاب الفارس المبعوث: "وُلدَ الأمير".
دفع هذا الخبر الضابط كي يستعيد كل انتباهه، فقال للرجل: "اتبعني".

كان الملك جالساً في خيمته محاطاً بقادته، ولم يكن قد نزع عنه دروع المعركة بعد. فيما جلس نائبه أنتياتر وراءه مباشرة. جلس مندوبو بوتيديا صامتين، وهم ينصتون إلى فيليب الذي كان يفرض شروطه بدلاً من أن يناقشوا الأمر معه.
أدرك القائد أن الملك لن يتحمل مقاطعته، ولكن الملك لن يسامحه على أي تأخير في إعلان حدثٍ مهم كهذا، لذلك قال على الفور: "سيدي، جاءتنا أخبار من القصر، لقد ولد ابنك!".
نظر مندوبو بوتيديا إلى بعضهم بعضاً، وبدوا شاحيين ومتعبين، ثم وقفوا أمام المقاعد التي أمروا أن يجلسوا عليها، ثم تنحوا جانباً. فيما تأهب أنتياتر، واستعدّ لتنفيذ أي أوامر تصدر عن الملك.
وصل فيليب إلى وسط الجملة التي كان يتلفظ بها: "سُيطلب من مدينتكم أن تقدّم... لكنّه أكمل بصوتٍ مختلفٍ تماماً..."
ابن!".

عجز المندوبون عن إدراك ما يجري، فنظر ببعضهم إلى بعض بذهول، ولكنّ فيليب هبّ واقفاً فتهاولى كرسيه إلى الأرض، وأسرع إلى تنحية القائد جانباً، ثم أمسك بالفارس المبعوث من كتفيه.
أضاء اللهب المتصاعد من المشاعل وجهه راسماً عليه ظلالاً شديدة التباين، فبانّت نظراته القلقة وصاح بالفارس المبعوث، بالنيرة ذاتها التي

يستخدمها عندما يأمر محاربيه بالقفز إلى حتفهم من أجل مجد مقدونيا:
"أخبرني، كيف يبدو".

أحسنّ الفارس المبعوث بالعجز عن الإجابة عن هذا السؤال،
وأدرك أنه لا يمتلك سوى كلمات ثلاث يقولها للملك، فتنحى قليلاً،
وأعلن بصوت جهوري: "سيدي، ابنك وسيم الطلة، وبصحة جيدة،
وقوي!".

"كيف عرفت؟ هل رأيته؟".

"ما كنت لأتجرأ على رؤيته يا سيدي، كنت في الممر بحسب
الأوامر التي أصدرت إليّ، وكانت عباتي وحقيبي، وأسلحتي كلها
جاهزة. خرج نيقوماخوس وقال لي... بالحرف الواحد انطلق إلى الملك
بأقصى سرعة، وقل له إن ابنه قد وُلد. قل له إنه وسيم، وبصحة جيدة،
وقوي".

"هل قال لك إن الصبي يشبهني؟".

تردّد الفارس المبعوث قليلاً قبل أن يجيب: "كلا، لم يقل لي ذلك،
لكني متأكد من أنه يشبهك".

التفت فيليب نحو أنتياتر الذي تقدم منه كي يعانقه، وفي تلك
اللحظة بالذات تذكر الفارس المبعوث أنه سمع شيئاً آخر عند نزوله
مسرعاً على درج القصر.

"قال الطبيب إن...".

التفت فيليب على الفور، وسأله: "ماذا؟".

قال الفارس المبعوث أخيراً بنفس واحد: "قال لي إن الملكة بخير".
"ومتى حدث ذلك؟".

"في الليلة ما قبل الماضية، وبعد مغيب الشمس مباشرة. حضرت
إلى هنا من دون توقف، ولم أتناول شيئاً من الطعام، لكنني شربت

بعض الماء من قريتي، ولم أترجل عن جوادي إلا لتبديله... لم أستطع أن أتأخر أبداً عن نقل هذه الأخبار إليك".

عاد فيليب، وربّت على كتفه.

"أحضروا بعض الطعام والماء إلى صديقنا هنا، وقدموا إليه كل ما يريده، احرصوا على أن ينال نوماً عميقاً لأنه نقل إليّ أفضل الأخبار على الإطلاق".

هناّ المندوبون الملك، لكنهم سعوا إلى الاستفادة من هذه اللحظة المؤاتية كي يختموا مفاوضاتهم، ويحصلوا على بعض الشروط المناسبة لهم، وذلك بسبب تحسّن مزاج الملك فيليب كثيراً، لكن الملك قال بحزم: "ليس الآن". وخرج على الفور متبوعاً بمستشاره الميداني.

استدعى الملك على الفور قادة قواته المسلحة، وأمر بإحضار الشراب، وطلب من الجميع مشاركته إياه. ثم أصدر أوامره بعد ذلك: "انفخوا الأبواق لتجميع الصفوف، أريد أن يصطفّ جيشي بصفوف منتظمة، الفرسان والمشاة على حدّ سواء. أريد أن يجتمع كل الجنود هنا". ترددت أصوات الأبواق في أنحاء المعسكر، وسرعان ما هبّ الرجال واقفين، وكان عدد كبير منهم ثملين، أو نصف عراة في خيمهم مع الخليلات. تناولوا دروعهم، وحملوا رماحهم، وأسرعوا للتجمع في صفوف، لأن ضجيج الأبواق كان يمثل إلحاح الملك نفسه عندما يصبح في الليل.

وقف فيليب فوق منصة عالية محاطاً بضباطه، وعندما انتظمت الصفوف، تقدم أكبر الجنود سناً، كما جرت العادة، وصاح بالجنود: "لماذا استدعيتنا يا سيدي؟ ماذا تريد من جنودك؟".

تقدّم فيليب قليلاً، وكان واضعاً دروعه الحديدية والذهبية المخصّصة للاستعراض، بالإضافة إلى ارتدائه العباءة الطويلة ذات اللون

الأبيض. وكانت ساقاه مغطاتين بدرعين فضيين مزخرفين واقفين للساقيين.

لم يخرق السكون المخيم سوى سهيل الجياد، وأصوات الحيوانات الليلية التي جذبتها نيران المعسكر، أما القادة الواقفون قرب الملك فقد لاحظوا أن وجهه يميل إلى الاحمرار، وكأنه كان جالساً قرب نيران المعسكر، وقد ترققت الدموع في عينيه.

صاح الملك: "يا رجال مقدونيا! وضعت الملكة في قصري في بيلا ولداً لي. إنني أعلن هنا، وأمامكم، أنه ورثي الشرعي، وأنا أودعه أمانة عندكم، أما اسمه فهو:

الإسكندر!"

أصدر الضباط الأمر بتقديم السلاح: فرفع المشاة حراهم العديدة، والتي يبلغ طول الواحدة منها اثني عشرة قدماً، أما الفرسان فقد رفعوا نحو السماء غابة من الرماح، بينما طرقت الجياد بحوافرها، وصهلت. راح الجنود يصرخون بصوت واحد منتظم الإيقاع باسم الأمير:

الإسكندر! الإسكندر! الإسكندر!

كما قرعوا مقابض رماحهم على دروعهم، وتصاعد الصخب الناتج نحو السماء ونجومها.

اعتقد الجميع أن مجد ابن فيليب سيسطع بهذه الطريقة، وسيتصاعد مع أصواتهم مثل الضوضاء التي أحدثتها أسلحتهم، وأنه سيشق طريقه إلى منازل الأسياد الموجودة بين الجحرات التي تملأ السماء.

عاد الملك إلى خيمته برفقة أنتياتر ومستشاريه الآخرين بعد أن فرّق الجمع، واكتشف أن مندوبي مدينة بوتيديا لا يزالون ينتظرونه بصبر وأناة. قال فيليب معترفاً: "يكمن حزني الوحيد في أن بارمينيون ليس موجوداً هنا كي يحتفل معنا الآن".

كان القائد بارمينيون، في تلك اللحظة بالذات، مرابطاً مع جيشه في جبال إيليريا، أي في مكان لا يبعد كثيراً عن بحيرة لايكينيدوس. أما مهمة الجيش فكانت حماية حدود مقدونيا في تلك المنطقة. قيل بعد ذلك إنه في اليوم ذاته الذي تلقى فيه فيليب خبر ولادة ابنه، تمكن جيشه من إخضاع مدينة بوتيديا، كما تلقى أخبار انتصارين آخرين: نصر بارمينيون على سكان إيليريا، والنصر الذي أحرزته عربته التي تجرها أربعة جياد في الألعاب الأولمبية. وقال الضالعون، لهذا السبب، إن الطفل الذي يولد في يوم إحراز الانتصارات الثلاثة سيكون رجلاً لا يُقهر بالتاكيد.

في الحقيقة، نجح بارمينيون، في قهر سكان إيليريا مع بداية فصل الصيف، وأتت بعد ذلك الألعاب الأولمبية وسباق العربات، لكن الإسكندر وُلد مع ذلك في سنة واعدة، كما أن كل الدلائل أشارت إلى مستقبلٍ يتعلق بسيد مبجل أكثر مما يتعلق برجل. حاول مندوبو مدينة بوتيديا متابعة مفاوضاتهم من حيث قد وصلت، لكن فيليب أشار إلى نائبه وقال: "يعرف القائد أنتيباتر رأيي جيداً في هذه المسألة، يمكنكم أن تتحدثوا معه". تدخل أنتيباتر هنا، وقال: "لكن يا سيدي، يتعين على الملك أن...".

وضع فيليب عباءته على كتفيه قبل أن يتمكن القائد من إنهاء جملته، وصفر مستدعيًا جواده. تبعه أنتيباتر، وقال له: "يا سيدي، استغرقت هذه الحملة أشهراً من الحصار والقتال الشديد كي نصل إلى هذه النقطة، ولهذا فلا تستطيع...".

صاح الملك: "لكن بالطبع أستطيع!" وما لبث أن قفز على صهوة جواده ونخسه. فهزّ أنتيباتر رأسه، والتفت عائداً إلى الخيمة الملكية،

ولكنّ فيليب ناداه قائلاً: "اسمع! خذ هذا". ثم نزع خاتمه الرسمي، ورماه إلى نائبه في القيادة. "ستحتاج إليه، لكن تأكد من عقد معاهدة جيدة يا أنتيباتر لأنها كانت حرباً مكلفة جداً!".

تناول أنتيباتر الخاتم الذي يحتوي على الختم الملكي، ووقف للحظة كي يراقب جواد فيليب وهو يقفز عبر المعسكر، ويخرج من خلال البوابة الشمالية. صاح بحراسه: "اتبعوه أيها الحمقى! كيف تسمحون له بالمغادرة وحيداً؟ تحركوا، عليكم اللعنة!".

بدأ الحراس بالتحرك على الفور، وكان باستطاعة أنتيباتر رؤية عباءة فيليب تلمع تحت ضوء القمر، وذلك عندما وصل إلى سفح الجبل، وما لبث أن اختفى بعد ذلك. عاد أنتيباتر إلى الخيمة، وطلب من مندوبي بوتيديا الذين ازدادت دهشتهم الجلوس، ثم قال وهو يجلس بدوره: "حسناً، إلى أين وصلنا في حديثنا؟".

*

سار فيليب بجواده طوال الليل وطوال اليوم التالي، ولم يتوقف إلا عندما غيّر، أو عندما شرب شيئاً من الماء، أو عند سماحه للجواد بالشرب من أحد الينابيع أو الجداول. فوصل إلى مشارف بيلا عند مغيب الشمس، أي عندما أضفت آخر أشعتها لونا أرجوانياً على قمم جبل بيرميون المكسوة بالثلوج. أما عند الأسفل، فكانت قطعان من الجياد تتدفق مثلما يتدفق مدّ بحري، كما سارعت ألوف الطيور بالهبوط كي تنام فوق مياه بحيرة بوربوروس.

سطعت نجمة المساء بشدة، وكأنها ترغب في منافسة القمر الذي كان يرتفع ببطء من مستوى سطح البحر. كانت تلك نجمة الأركاديين، وهي السلالة التي بقيت تحكم البلاد منذ زمن هرقل، وهي نجمة خالدة، وأكثر جمالاً من أي نجمة أخرى في السماء.

جذب فيليب عنان جواده كي يتأمل النجمة، ويتضرّع إليها.
وقال من أعماق قلبه: "أحرسى ابني أيتها النجمة، ودعيه يحكم من
بعدي، ودعي أبناؤه يحكمون من بعده، وكذلك أبناؤه من
بعدهم".

ثمّ تابع صعوده بعد ذلك نحو القصر، ودخل من دون مراسم،
وكان مجهّداً ومبلّلاً بالعرق. استقبلته عند دخوله حركة ناشطة،
وصدرت أصوات خفيف ثياب النساء اللواتي أسرعن في الممرات،
وأصوات قعقة أسلحة الحراس.

نظر فيليب من خلال باب غرفة النوم، فرأى الملكة جالسة على
كرسي فخم عالي الظهر، ولم يكن يستر جسمها العاري سوى عباءة
نوم أيونية مزخرفة بأجمل الطيّات، ولاحظ أن رائحة ورود من بيريا
تبعق فيها، وشاهد آرتميس تحمل صبيّاً بين ذراعيها.

ساعد خادمان الملك فيليب على فكّ دروعه وإبعادها عن كتفيه،
كما نزعوا السيف من جنبه حتى يتمكن من الشعور ببشرة ابنه على
جلده هو، حمل فيليب الإسكندر بين ذراعيه بعناية، وجعل رأس الطفل
يرتاح ما بين عنقه وكتفه. وأحسّ بشفتي ابنه فوق ذلك الجرح القديم
على كتفه، وتنفس عطر الزنابق الذي يفوح من بشرة ابنه الناعمة.

أغمض فيليب عينيه، ووقف منتصباً غير قادرٍ على الحراك وسط
الغرفة التي يسودها الصمت. وتلاشى من مخيلته، وفي تلك اللحظة
بالذات، ضجيج المعارك، وأصوات الأخشاب المتداعية نتيجة أدوات
الحصار، والعدو الشرس للجياد. وقف فيليب جامداً كالصخر، وأصغى
إلى صوت أنفاس ابنه.

3

أنجبت الملكة أوليميا في العام التالي طفلة للملك فيليب، أطلقا عليها اسم كليوباترا. بدت الطفلة مثل أمها، وكانت رائعة الجمال بالفعل، وكانت محبوبة إلى درجة أن الخاديات كن يلاعبنها وكأنها لعبة، وكن يغيّرن لها ملابسها على الدوام.

أما الإسكندر الذي بدأ بالمشي قبل ثلاثة أشهر، فلم يُسمح له بالدخول إلى غرفة أخته إلا بعد مرور أيام عدة على ولادتها، وبعد أن حمل معه هدية صغيرة كانت الخاديات قد أعددها له. اقترب من السرير، ووقف إلى جانبه ناظراً إلى كليوباترا. اتسعت حدقتا عينيه من فرط الدهشة والفضول، ومال برأسه إلى جهة واحدة، اقتربت منه إحدى الخاديات لأنها قلقت من احتمال أن يشعر الصبي بالغيرة من ولادة شقيقته، ومن احتمال أن يُقدم على أذيتها لهذا السبب، لكن الإسكندر أمسك بيد شقيقته وعصرها بلطف، وكأنه أدرك بالفعل، أن هذه الطفلة الصغيرة تتصل معه برابطة خاصة، وأنها ستكون رفيقته الوحيدة لبعض الوقت.

أصدرت كليوباترا صوتاً، فقالت آرميس: "أترى؟ إنها مسرورة جداً لرؤيتك، لم لا تعطيهما هديتك؟".

فكّ الإسكندر من حزامه حلقة معدنية تحتوي على أجراس فضية صغيرة، وبدأ بهزّها أمام الطفلة التي بدت وكأنها تمدّ يديها كي تُمسك بها، تأثرت أوليميا كثيراً وهي تراقبهما، وقالت وكأنها تفكر في صوت عالٍ: "أليس رائعاً لو أننا نتمكن من إيقاف الزمن عند هذه اللحظة بالذات".

انشغل فيليب بعد مرور وقتٍ طويلٍ على ولادة ولديه بحروب مستمرة. وأمن سلامة حدوده الشمالية حيث قهر بارمينيون سكان إيليريا، أما إلى الغرب فكان على صداقة مع دولة إبيروس التي كان على رأسها آرياس، وهو عم أولمبيا، أما إلى الشرق فتمكن بعد سلسلة من الحملات من سحق القبائل التراقية، وهكذا تمكن من توسيع السيطرة المقدونية حتى حدود نهر إستر. وتمكن فيليب بعد ذلك من احتلال كل المدن التي بناها الإغريق على سواحل مقدونيا: أمفيوليس، ميثون، وبوتيديا، كما شارك في الصراعات التي عذبت سكان شبه الجزيرة الهلينية. حاول بارمينيون تحذير فيليب من مخاطر هذه السياسة، وحدث ذات يوم، وفي أثناء مجلسٍ حربيٍ عقده الملك في مستودع أسلحة القصر، أنه قرّر الكلام فقال:

"تمكنت يا سيدي من تأسيس مملكة قوية وموحدة، ومنحت المقدونيين شعور الفخر بأمّتهم، فلماذا تسعى الآن إلى التدخل في صراعات اليونانيين الداخلية؟".

قال أنتياتر: "بارمينيون على حق، لأن صراعاتهم لا معنى لها، إنهم يحاربون بعضهم بعضاً، إننا نرى أن حلفاء الأمس يحاربون بعضهم بعضاً بكل شدة، أما الخاسر بينهم فيعمد إلى تشكيل تحالف مع ألدّ خصومه، لا لسبب إلا لإغاية المنتصر".

قال فيليب معترفاً: "إن ما تقوله صحيح، لكنّ اليونانيين يملكون كل الأشياء التي نفتقدها: الفن، والفلسفة، والشعر، والمسرح، والطب، والموسيقى، والهندسة المعمارية، ويمتلكون فوق كل ذلك علم السياسة، وفنون الحكم".

اعترض بارمينيون قائلاً: "إنك ملك، أي أنك لا تحتاج إلى علم، يكفيك أن تصدر الأوامر حتى تُطاع".

قال فيليب: "لكن ذلك صحيح طالما أنني أمتلك القوة، وطالما أنه ليس هناك أحد يدخل خنجراً بين ضلوعي".

لم يُجب بارمينيون، لأنه يعرف تماماً أنه ما من ملك مقدوني مات لأسباب طبيعية. ولكن، سرعان ما كسر أنتياتر جدار الصمت الذي أصبح أثقل من معدن الرصاص.

"إذا كنت مصمماً على وضع يدك في فم الأسد، فإن شيئاً مما أقوله لن يقوى على تغيير قرارك، لكنني أنصحك بأن تتصرف بالطريقة الوحيدة التي تمكّنك من النجاح".
وهي؟

"توجد قوة وحيدة في اليونان هي أقوى من كل القوى الأخرى، وهي الصوت الوحيد الذي يمكنه أن يُخرس سائر الأصوات..."

قال الملك: "أتقصد معبد أبولو في دلفي؟".

"أو بالأحرى رجاله، والمجلس الذي يحكمهم".

قال فيليب موافقاً: "أعرف ذلك، إن أي جهة تتحكم في هذا المعبد تتحكم بقدر كبير من السياسة اليونانية. إنه زمن صعب بالنسبة للمجلس: أعلن المجلس حرباً ضد الفوكيين، وذلك بتهمة زراعة أراضٍ تعود ملكيتها إلى أبولو، لكنّ الفوكيين هاجمهم على حين غرة، وتمكنوا من سلب الكنز الموجود في المعبد، واستخدموا المال لدفع أجور آلاف المرتزقة، إن مقدونيا هي القوة الوحيدة التي يمكنها أن تغيّر نتيجة هذا الصراع".

ختم بارمينيون بالقول: "إذاً، لقد قررت دخول الحرب".

"بشرط واحد: إذا كسبت الحرب فإنني أريد أن أشغل المقعد الذي يشغله الفوكيون، وأن أشارك بالتصويت مع رئاسة مجلس المعبد".

أدرك أنتيباتر وبارمينيون أن الملك لم يرسم خطته مسبقاً فقط، بل إنه سيطبقها مهما كان الثمن، ولذلك لم يبدل الرجلان أيّ جهدٍ في محاولة ثنيه عن عزمه.

*

طال أمد هذا الصراع المريع كثيراً، وعرف الطرفان فترات انتصارٍ وفترات هزيمة. كان الإسكندر في الثالثة من عمره عندما هُزم فيليب للمرة الأولى واضطر إلى سحب قواته، واثمه أعداؤه أنه فرّ من ميدان المعركة، لكنّ فيليب ردّ بالقول: "لم أنسحب، لكنني تراجعْتُ قليلاً كي أحسّن وضعي، فأحنيت رأسي كي أعود وأهاجم خصمي مثل كبشٍ غاضب".

هكذا كان فيليب، الرجل الذي يتمتع بقوة روحية وإرادة خارقتين، وحيوية لا تُقهر، وبعقلٍ حادٍّ لا يهدأ، لكنّ رجالاً من هذا النوع يميلون إلى أن يصبحوا منعزلين لأنهم يجدون أنفسهم، وبشكل متزايد، غير قادرين على إعطاء أي شيءٍ للذين يحيطون بهم.

وعندما بدأ الإسكندر يعي ما يدور حوله أكثر فأكثر، وعرف مكانة والده ووالدته، كان قد بلغ السادسة من عمره. بدأ الصبي يتحدث بثقة، وتمكّن من فهم المناقشات المعقدة والصعبة التي تدور أمامه.

كان يتسلّل خارج غرفة الملكة عندما يعلم أن والده موجود في القصر، وكان يتوجّه إلى القاعة التي يعقد فيها فيليب مجلسه مع قادته الذين بدوا مستنّين جميعاً في عيني الصبي، وقد ظهرت على وجوههم آثار المعارك العديدة التي خاضوها وخرجوا منها سالمين، ومع ذلك كان عمر الواحد منهم لا يتجاوز الثلاثين سنة، باستثناء بارمينيون الذي قارب الخمسين من عمره، والذي كاد الشيب أن يغطي رأسه

بالكامل. وكان الإسكندر ينطلق في تأدية أغنية تعلّمها من آرميس،
وذلك كلما وقعت عيناه على هذا القائد الأشيب الشعر:

يتوجه ذلك الجندي الطائش إلى الحرب
ويسقط أرضاً، يسقط أرضاً!

كان الإسكندر يترنح بعد ذلك على الأرض بنفسه وسط
قهقهات الناظرين وسرورهم.

لكنّ الإسكندر كان يركّز اهتمامه على والده، فيراقب باهتمام
طريقة تصرفاته، وطريقة تحريكه يديه وعينيّه، ونبرة صوته ونغمته،
وطريقة تحكّمه بأقوى الرجال وأشدّهم نفوذاً في المملكة، وذلك بمجرد
التطلع إليهم.

كان الإسكندر يقترب أكثر عندما كان والده يترأس المجلس
الاستشاري، وكان يتبعه خطوة خطوة، أما عندما يصل فيليب إلى
نقطة الذروة في حديثه، أو جداله، فقد كان الإسكندر يحاول الصعود
إلى ركبتيه، وكأنّه كان يغتئم اللحظة المناسبة كي لا يلاحظه أحد وهو
يفعل ذلك.

كان فيليب ينتبه لوجود ولده في مثل تلك اللحظات ويقرّبه من
صدره، من دون أن يتوقف عن الكلام، ومن دون أن يخرج عن
موضوع حديثه، لكنّه كان يلاحظ أن قاداته يغيّرون من وضعية
جلوسهم، ويتحولون بأعينهم نحو ذلك الولد، بينما كانت الابتسامات
تعلو وجوههم، وذلك بغضّ النظر عن جاذبية الموضوع الذي كان
يحدّثهم عنه. وكان بارمينيون يبتسم بدوره، ويأخذ بالتفكير في أغنية
الإسكندر وحرّكاته.

كان الإسكندر ينسحب بمثل الهدوء الذي يرافق دخوله، ويتوجّه
أحياناً إلى غرفته، وهو يأمل أن يتبعه والده، وكان يعتمد في أحيان

أخرى إلى الجلوس في إحدى شرفات القصر كي يحدّق إلى الأفق البعيد. وكان قد اعتاد على الجلوس هناك من دون أن يتكلم ومن دون حراك، مأخوذاً بعظمة السماء والأرض.

وعندما كانت والدته تقترب منه بهدوء في تلك اللحظات، كانت تلاحظ الظلال التي تخيم على عينه اليسرى، وهي تزداد عمقاً، وكأن الليل يرخي بسدوله على روح ذلك الأمير الصغير.

كان مشدوهاً بكل أنواع الأسلحة. وقد عثرت عليه الخادמות أكثر من مرة في المستودع، وهو يحاول أن يستل أحد سيوف الملك الثقيلة من غمده.

ذات يوم، وفيما كان يحدّق إلى مجموعة هائلة من الأسلحة البرونزية تعود إلى جده إمينتاس الثالث، أحسّ الإسكندر أن شخصاً ما يقف خلفه. التفت وراءه ليكتشف أنه أمام رجلٍ طويل ونحيف ذي لحية، وعينين عميقتين وغامضتين. قال الرجل إن اسمه ليونيداس، وأنه سيكون معلمه.

سأل الإسكندر: "ولماذا؟".

كان ذلك أول سؤال من لائحة طويلة من الأسئلة التي تأكد ليونيداس من عجزه عن الإجابة عنها.

ومنذ تلك اللحظة، تغيّرت حياة الإسكندر بشكل كبير. إذ صار يلتقي بوالدته وشقيقته مرات أقل، ولكنه كان يمضي أوقاتاً أطول مع معلمه. بدأ ليونيداس بتعليمه الأحرف الأبجدية، فبدأ الفتى في اليوم التالي بكتابة اسمه بطريقة صحيحة على رماد موقد مستعيناً بطرف عصا.

علّمه معلمه كيف يقرأ ويعدّ، وهما أمران تعلمهما الإسكندر بسرعة وسهولة، ولكن من دون أن تكون لديه فيهما أي اهتمامات خاصة. ولكن، عندما بدأ ليونيداس يروي له أخبار الأسياد والناس،

وقصص تكوين العالم، لاحظ أنّ وجهه يتهلّل سروراً وأنّه يصغي باهتمام بالغ.

إذ كان الصبي يميل نحو الألباز والدين. وذات يوم، اصطحب ليونيداس الإسكندر إلى معبد أبولو الذي يقع قرب ثيرماي، وسمح له بتقديم البخور. تناول الإسكندر حفنات كبيرة من البخور، ورمّاها فوق السوءاء النحاسي، لكنّ معلمه صاح به: "البخور غال جداً! ستكون قادراً على استهلاك الكمية التي تشاء منه، لكن بعد أن تقهر البلاد التي تنتجه".

فسأله: "وأين تقع هذه البلاد؟"، ثمّ سأله بعد ذلك: "أليس صحيحاً أن والدي هو صديق عظيم لأبولو؟".
"ربح والدك حرباً، ولذلك فقد سُمّي رئيساً لمجلس معبد دلفي، وهو مركز ضالعي أبولو".

"وهل ما يُقال عن أن الضالع يقول لأي شخص ما يتعيّن عليه فعله أمر صحيح؟".

أمسك ليونيداس بيد الإسكندر، وخرج به إلى الهواء الطلق وأجابّه: "ليس تماماً. أترى، عندما يريد الناس القيام بشيء هام فإنهم يستشيرون سيّداً، ويسألونه على سبيل المثال: "أيجب أن أقوم بهذا الأمر، أم لا؟ وإذا قمت به، فماذا سيحدث؟". وهناك ضالعة تدعى بيثيا، والسيد يجيب عن طريقها، وكأنه يقوم باستخدام صوتها، هل فهمت؟ يُضاف إلى ذلك أن الكلمات تكون غامضة على الدوام، ويصعب تفسيرها، وهذا هو سبب وجود الضالعين، أي من أجل شرح كلمات السيد للناس".

التفت الإسكندر، وتطلّع نحو أبولو الذي كان منتصباً فوق قاعدته، وكان جامداً لا يقدر على الحركة، بينما ظهر شبح ابتسامة

على شفّيته، وهكذا فهم الفتى سبب حاجة الأسياد إلى الرجال عندما تريد التحدث مع البشر.

وعندما سافرت العائلة المالكة إلى إنجلترا - وهي العاصمة القديمة - كي تقدم القرابين إلى قبور الملوك السابقين، اصطحب ليونيداس الإسكندر إلى برج أحد القصور، حيث تمكنا من رؤية قمة جبل أولبوس الذي تغطيه الغيوم المحملة بالعواصف الرعدية.

حاول ليونيداس أن يشرح ذلك: "أترى، إن الأسياد ليست تلك التماثيل التي تُعجب بها في المعابد، وذلك لأنها تعيش هناك في منازل غير مرئية. إنها هناك، وهي تجلس وتتغذى على السلسبيل والطعام المخصّص لها، إن هذا البرق يرميه زيوس بذاته، إنه يستطيع إصابة أي شخص، وأي شيء، في أي جزء من العالم".

فحدّق الإسكندر نحو قمة الجبل المخيفة طويلاً، وهو فاغر فمه. وفي اليوم التالي، عثر أحد ضباط القصر على الإسكندر وهو يتجول خارج المدينة. وكان يمشي برشاقة فوق ممر يؤدي إلى الجبل. سأله الضابط بعد أن ترجل عن جواده: "إلى أين تذهب أيها الأمير؟".

أجاب الصغير وهو يشير إلى جبل الأولب: "إلى هناك". فرفعه الضابط، ثم أعاده إلى ليونيداس الذي جزع كثيراً، وبدأ يحسب حساب العقاب الذي ستُنزله به الملكة إذا ما حدث أي مكروه لابنها. كان على فيليب أن يكافح طيلة ذلك العام مرضاً خطيراً أصيب به نتيجة الصعوبات التي تحمّلها خلال حملاته العسكرية، والحياة غير المستقرة التي عاشها خارج أوقات القتال.

كان الإسكندر مسروراً من بقاء والده في القصر، لأنه أصبح بإمكانه أن يمضي معه أوقاتاً أطول. وكان نيقوماخوس مسؤولاً عن الإشراف على

معالجة الملك، فأرسل خادمين مساعدين له إلى غابات الجبال القريبة من عيادته في ستاجيرا، من أجل جمع الأعشاب والجذور اللازمة لصنع أدويته. فُرض على الملك نظام غذائي صارم، وكان خالياً من الشراب تقريباً. ووصل الأمر إلى حدّ عدم تجاسر أحد على الاقتراب منه. فلم يستطع أي شخص غير نيقوماخوس الاقتراب منه عندما يكون في مزاج سيئ.

كان أحد الخادمين المساعدين في الخامسة عشرة من عمره، وكان اسمه فيليب أيضاً.

فقال الملك يوماً حين رآه: "أخرجوه من هنا، لا أسرّ أبداً بوجود فيليب ثان في هذا المكان. أعرف ما الذي سأقوم به، أريد أن أعيّنه طبيباً لوالدي، ولكن تحت إشرافك بالطبع".

وافق نيقوماخوس على هذا التعيين، وهو الذي تعود سماع رغبات الملك.

شرب فيليب ذات يوم منقوع الهندباء البرية، وكثّر عندما ابتلعه، وسأل نيقوماخوس: "ماذا يعمل ابنك أرسطو؟".

أجاب الطبيب: "إنه يعيش في أثينا، ويدرس على يد أفلاطون، في الحقيقة، بلغني أنه أفضل تلامذة أفلاطون".

"مدهش. وما هي الموضوعات التي يدرسها؟".

"إن ابني يشبهني تماماً، إنه يحب ملاحظة الظواهر الطبيعية، بدلاً من اهتمامه بالشائعات المحضة".

"وهل يهتم بالسياسة؟".

"أجل بالطبع، وهو يُظهر كذلك ميلاً خاصاً نحو نُظُم الظواهر السياسية المتعددة، أكثر من ميله إلى علم السياسة بحدّ ذاته، إنه يجمع الدساتير المختلفة، ويحضّر دراسات مقارنة عنها".

"وماذا يقول عن الحكم الملكي؟".

"لا أظن أنه كَوّن رأياً حول هذه المسألة، إنه يرى الملكية، وببساطة، صيغةً من صيغ الحكم التي تناسب مجتمعات معينة من دون غيرها. أتعلم، يا سيدي، أظن أن ولدي مهتم بمعرفة العالم كما هو، أكثر مما يهتم بوضع مجموعة من القواعد التي يتوجب على العالم أن يطبقها".

تجرّع فيليب آخر جرعة من المنقوع تحت ضغط تحديق طبيبه به، والذي بدا أنه يأمره بتجرّع الشراب حتى آخر قطرة، مسح فيليب فمه بطرف عباءته الملكية، وقال: "دعني أعرف أخبار ابنك يا نيقوماخوس، لأنني مهتم به".

"سأفعل، إنني مهتم به بدوري، فهو ابني".

أمضى الإسكندر معظم تلك الفترة مع نيقوماخوس لأنه كان رجلاً لطيفاً ومليئاً بالمفاجآت، بينما كان ليونيداس شرساً إلى حدّ ما، وحازماً بشدة.

وذات يوم، دخل الإسكندر عيادة القصر، ورأى نيقوماخوس وهو يفحص ظهر والده، ويراقب نبضات قلبه فسأله: "ماذا تفعل؟".

"إنني أفحص سرعة نبضات قلب والدك".

"وما الشيء الذي يحرك القلب؟".

"الطاقة الحيوية".

نظر نيقوماخوس إلى عيني الصبي، فلاحظ فيهما نهماً للمعرفة لا حدود له، وحادّة مشاعر تثير الدهشة. فمرّر إصبعه فوق خدّ الصبي، بينما استغرق فيليب في المشاهدة، وقد شدّه بما يجري. قال نيقوماخوس: "آه! لا أحد يعرف الإجابة عن هذا السؤال".

عاد فيليب بسرعة إلى مزاولة نشاطاته في إدارة الحكومة بعد أن استعاد كامل طاقاته، فخيّب بذلك آمال الذين ذهبوا بعيداً في توقعاتهم بشأن موته.

لم يشعر الإسكندر بالسرور لهذا التطور لأنه يعني أنه لم يعد في استطاعته أن يرى والده كثيراً، وكذلك أصبح مضطراً إلى أن يتعرف على أترابه من الأولاد، بعضهم كانوا في مثل سنه، وبعضهم الآخر كانوا أكبر منه بقليل، وهم أولاد نبلاء المقدونيين الذين كانوا يترددون على باحة القصر، ويعيشون في القصر تلبيةً لرغبة الملك. اعتبر فيليب أن هذه هي الطريقة لإبقاء المملكة موحدة، أي عبر التقريب بين أقوى العائلات في المملكة، أي أنه أراد أن يجمع كل زعماء القبائل والطوائف تحت سقف واحد، ألا وهو سقف الملك.

كان بعض هؤلاء الأولاد يحضرون الدروس التي يلقيها ليونيداس، ومنهم بيرديكاس، لايسماخوس، سلوقس، ليوناتوس، وبيلاطس وهو ابن القائد بارمينيون. فيما كان آخرون، وهم أكبر سناً، مثل بطليموس، وكراتيروس، يحملون لقب متدرب Page، وكانوا كلهم يعتمدون على الملك في تعليمهم وتدريبهم.

كان سلوقس في هذه الفترة لا يزال صغيراً جداً، لكن ليونيداس أحبه لأنه كان ناجحاً في دروسه. إذ كان ماهراً في التاريخ والرياضيات بشكل خاص، وكان يتمتع بحكمة وتوازن مدهشين بالنسبة إلى صغر سنه. وكان في استطاعته جمع أعداد معقدة في فترات

قصيرة، كما كان يستمتع بالتنافس مع رفاقه الذين كان يتفوق عليهم في أحيان كثيرة.

أعطته عيناه العميقتان نظرةً نفاذة، كما أن شعره الأشعث كان علامةً على قوته واستقلاليته. وبالرغم من أنه لم يكن ذا شخصية متمردة على الإطلاق، إلا أنه كان يلفت النظر إليه خلال الدروس. بملاحظاته، لكنه لم يحاول مطلقاً أن يتملق معلمه، كما أنه لم يقدم على شيء يبهز معلميه ويدهنهم.

كان لايسيماخوس وليوناتوس أبعد تلميذين عن النظام، لأنهما أتيا من داخل البلاد، وشبّا في الغابات والبراري على حريتهما، وكانا يأخذان الجياد لترعى في الحقول، ويمضيان معظم أوقاهما خارج المنزل، وكانا يعتبران أن العيش داخل أربعة جدران بمثابة السجن لهما.

كان لايسيماخوس، وهو أكبر سنّاً بقليل من رفاقه، الأسرع في التأقلم مع حياته الجديدة، فيما كان ليوناتوس، الذي كان في السابعة من عمره فقط يبدو مثل ذئب صغير بسبب مظهره القاسي، وشعره الأحمر، وبقع النمش التي تنتشر على أنفه وحول عينيه. أما عندما كان يتعرض للعقاب فكان يرد بالركل والعض، فيسارع ليونيداس إلى تهدئته عبر تجويعه وحبسه في غرفة، بينما كان الآخرون يستغرقون في اللعب. وكان المعلم يُكثر من استخدام عصاه المصنوعة من خشب الصفصاف. لكن ليوناتوس كان ينتقم عند رؤيته معلّمه يظهر في آخر الممر، إذ يبدأ بالغناء بأعلى صوته:

ها قد أتى وظهر،

الغراب العجوز

فينضمّ إليه الأولاد الآخرون في تأدية هذه الأغنية، بمن فيهم الإسكندر، وكان وجه ليونيداس يحمرّ من الغضب، ويفقد أعصابه أحياناً، فيلاحقهم ويلوّح بعصاه فوق رأسه.

أما عندما كان ليوناتوس يدخل في عراك مع رفاقه، فلم يكن يتقبل فكرة الخسارة أبداً، حتى إنه كان يلاكم الأولاد الأكبر منه، وكانت النتيجة ظهور الجروح والخدوش على وجهه بشكل شبه دائم، أي أن مظهره لم يكن لائقاً في معظم المناسبات الرسمية، أو في الاحتفالات التي تقام في الميدان. أما بيرديكاس فكان على العكس منه تماماً، فهو الذي يتمتع بأكثر قدر من الوعي بين رفاقه، وكان أكثرهم مواظبة على حضور الدروس والألعاب والتمارين التي كانت تُجرى في الميدان، كان يكبر الإسكندر بعامٍ واحدٍ فقط، وكان يشارك بيلاطس في الألعاب ذاتها.

ولقد اعتاد بيرديكاس أن يقول لبيلاطس، الذي كان الأكثر شبهاً به من بين كل رفاقه: "عندما أكبر سأصبح قائداً مثل أليك".

كان بيلاطس في الرابعة عشرة من عمره تقريباً، وكان سميناً بعض الشيء، وممتلئاً قياساً إلى عمره. ظهرت البقع على وجهه، وكانت ملامحه مضحكة بعض الشيء، مع أنف كبير الحجم، وشعر أشعث على الدوام تتخلله بعض الخصلات المدببة. ولقد اعتاد رفاقه على السخرية منه، وكانوا يقولون إنه بدأ في تنمية أنفه أولاً، لكن ذلك لم يزعجه كثيراً، حتى إنه كان يرفع سترته كي يُري رفاقه الدمامل الأخرى التي كانت تنتشر في جسمه بمثل سرعة انتشارها على أنفه.

كان بطليموس ولداً طيباً بغض النظر عن التعالي الذي كان يظهره في بعض الأحيان، وكان مولعاً بالقراءة والكتابة. دعا في أحد الأيام الإسكندر إلى غرفته وعرض عليه الكتب التي بحوزته، وكان يمتلك عشرين كتاباً على الأقل.

فصاح الأمير وهو يقترب كي يلمسها: "لديك الكثير من الكتب!".

قال بطليموس وهو يمنعه من التقدم: "قف عندك".
"إنها أشياء حساسة، لأن ورق البردى هش جداً، ويتحلل بسهولة، ويتعين على المرء أن يعرف الطريقة الصحيحة لفتحها وإغلاقها، كما يجب حفظها في مكان جاف وجيد التهوية، كما يتعين عليه أن يحتفظ بمصيدة الفئران قريبة منها، لأن الفئران تحب ورق البردى، وإذا تمكنت من الوصول إلى هذه اللغائف فهي ستلتفها كلياً. يمكن لهذه الفئران أن تلتف كتابين من الإلياذة، أو كتاباً عن إحدى المسرحيات التراجيدية التي كتبها سوفوكل، وذلك في ليلة واحدة، انتظر لحظة كي أحضر إليك أحدها". ثم تناول كتاباً يحمل بطاقة حمراء صغيرة الحجم.

"ها هو، أترى؟ إنه كتاب عن إحدى المسرحيات الكوميدية التي كتبها أريستوفان، تدعى هذه المسرحية ليزيزتراطا، وهي المفضلة عندي. إنها تدور حول حادثة معينة عندما كانت نساء أثينا وإسبارطة متبرمات من الحروب التي أبقت رجالهن بعيدين عن المنازل، وكن متشوقات لـ..." توقف قليلاً هنا عندما لاحظ أن الإسكندر قد فغر فاه. "حسناً دعنا نتجاوز هذه القصة، لأنك ما زلت صغيراً على هذه الأشياء. سأخبرك عنها في ما بعد، اتفقنا؟".

سأل الإسكندر: "وما هي الكوميديا؟".
سأله بطليموس، وقد بانت الصدمة على وجهه: "ألم تقصد المسرح من قبل؟".

"إنهم لا يسمحون للصغار بالذهاب، لكنني أعرف أن الأمر يشبه الإصغاء إلى قصة لكن مع وجود رجال حقيقيين يضعون أقنعة على وجوههم، ويتظاهرون أنهم هرقل أو طاسيوس، حتى إن بعضهم يتظاهرون أنهم نساء".

أجاب بطليموس: "هكذا هو الأمر تقريباً، لكن أخبرني ما هي موضوعات الدروس التي يعطيك إياها المعلم؟".

"أستطيع أن أجمع وأطرح، وأعرف الأشكال الهندسية، كما يمكنني التمييز بين كوكبة الدب الأكبر والدب الأصغر في السماء، بالإضافة إلى نحو عشرين مجرة أخرى، كما أستطيع أن أقرأ وأكتب، بالإضافة إلى أنني قرأت أساطير يعسوب Aesop's fables".

علّق بطليموس وهو يعيد اللفافة إلى مكانها بكل عناية: "هممم، إنها كلها موضوعات للأولاد".

"أعرف كذلك تسلسل أجدادي بالكامل، سواء أكان من جهة والدي، أم من جهة والدي، أتعرف بأنني سليل هرقل وأخيل؟".
"ومن كان هرقل وأخيل؟".

"كان هرقل أقوى بطل في العالم، وقد أنجز اثني عشر عملاً. أتريدني أن أحدثك عنها؟ مثل أسد نيمين Nemean، وهند سيري Hind of Cery، وسيرين...". وهنا لم يستطع الصبي أن يتلفظ بالأسماء بالطريقة الصحيحة.

"فهمت، فهمت، أنت ممتاز، لكن إذا أحببتَ سأقرأ لك بعض المؤلفات الممتعة التي أحتفظ بها في غرفتي... ما رأيك؟ والآن، لماذا لا تبدأ بالعدو واللعب؟ أتعرف أن أحد الفتيان قد وصل لتوه إلى بيلا، وأنه يقاربك بالسن؟".

أضاء وجه الإسكندر، وسأل: "أين هو؟".
"رأيتَه في الباحة وهو يلعب بالكرة، يبدو أنه قوي البنية".
ركض الإسكندر بأقصى ما يستطيع من سرعة، وجلس تحت رواق كثير الأعمدة كي يراقب هذا الضيف الجديد من دون أن يتجرأ على التكلم معه.

ر كل ذلك الصبي الجديد الكرة بقوة أكبر، فتدحرجت حتى وصلت إلى قدّمي الإسكندر. ركض القادم الجديد وراء الكرة، وما لبث الصغيران أن وجدا نفسيهما وجهاً لوجه.

"أتريد أن تلعب معي؟ من الأفضل أن يتشارك اثنان في هذه اللعبة، سأركل الطابة بينما تقوم أنت بالإمساك بها".

سأله الإسكندر: "ما اسمك؟".

"هيفاستيون، وأنت؟".

"الإسكندر".

"حسناً، تعال إذاً إلى جانب ذلك الجدار، سأركل الكرة أولاً، وإذا تمكّنت من التقاطها فستحصل على نقطة، أما إذا لم تتمكن من ذلك فإنني سأحصل على نقطة، ثم أركل الكرة مجدداً، هل فهمت؟".

أوماً الإسكندر بالموافقة، وبدأ باللعب، وسرعان ما امتلأ الملعب بصياحهما، ولم يتوقفاً إلا حين شعرا بالإجهاد، وعندما بدأ العرق يتصبب منهما.

سأل هيفاستيون وهو يجلس على الأرض: "هل تعيش هنا؟".

جلس الإسكندر إلى جانبه، وأجاب: "بالطبع، إنه قصري".

"لا تكذب عليّ، إنك صغير جداً على امتلاك قصرٍ بهذه الضخامة".

"هذا هو قصري، لأنه ملك والدي، الملك فيليب".

صاح هيفاستيون ملوحاً بيده في الهواء من فرط الدهشة: "بحق زيوس!".

"أتريد أن نكون صديقين؟".

"بالطبع، لكن إذا أردنا أن نكون صديقين، فسيتوجب علينا أن نتبادل بعض تذكارات الصداقة".

"وما هو تذكّار الصداقة؟".

"أقوم بإعطائك شيئاً، وأنت تعطيني شيئاً بالمقابل".

بحث هيفاستيون في جيبه، وتناول قطعةً بيضاء اللون.

"ما هذه! سنّ؟".

"أجل". وراح هيفاستيون يصفر من خلال الفجوة التي تركها

فقدانه لإحدى أسنانه الأمامية. "سقطت هذه السنّ من فمي منذ ليالٍ

قليلة، وكدت أن أبتلعها، خذها، إنها لك".

أخذ الإسكندر السنّ، لكنه شعر فوراً بالأسى لأنه لا يمتلك شيئاً

يعطيه بالمقابل، بحث في جيوبه، بينما وقف هيفاستيون أمامه، ومدّ يده

متوقفاً أن يأخذ شيئاً.

أما الإسكندر فاكتشف أنه لا يملك هدية تساوي ما تلقاه في

الأهمية، فأطلق تنهيدة عميقة، وبلع ريقه، ثم أدخل إصبعين من أصابعه

في فمه، وأمسك بإحدى أسنانه التي كانت تتخلخل لأيام عدة، لكنها

بقيت مع ذلك في مكانها.

بدأ الفتي يحرك السنّ إلى الخلف وإلى الأمام، ويدفعها إلى الداخل

ويسحبها إلى الخارج، ثم حاول منع تساقط دموعه نتيجة الألم إلى أن

سقطت السنّ في النهاية، بصق الفتي بعض الدم، ثم غسل السنّ في مياه

النبع، ثم سلّمها إلى هيفاستيون.

تمتم الإسكندر: "إليك هذه، والآن أصبحنا صديقين".

وضع هيفاستيون التذكّار في جيبه: "حتى الموت؟".

أجاب الإسكندر: "حتى الموت".

*

كانت أيام فصل الصيف قد قاربت نهايتها عندما أبلغت أوليمبيا

ولدها أن خاله الإسكندر حاكم إبيروس، سيزورها.

كان الإسكندر يعرف أن لديه خالاً، أي شقيق والدته الأصغر، وكان يعرف أنهما يتشاركان الاسم ذاته. وكان قد سبق للإسكندر أن رأى خاله في مناسبات عدة، ولكنه لم يكن يتذكره جيداً لأنه كان صغيراً جداً.

رأى الأمير إسكندر سميّه يصل على صهوة جواده في إحدى الأمسيات، وكان بصحبة مرافقيه ومعلميه.

كان صبيّاً وسيماً يبلغ الثانية عشرة من عمره. أما شعره فداكن، وعيناه زرقاوان عميقتان، وكان يحمل معه كل الأوسمة التي تدل على رتبته العالية. إذ كان يضع شريطاً مذهباً حول شعره، ويرتدي عباءة أرجوانية، كما أنه يحمل صولجاناً من العاج في يده اليمنى، لأنه كان ملكاً بدوره، بالرغم من صغر سنّه ويحكم بلاداً تتألف كلها من الجبال.

التفت الإسكندر إلى هيفاستيون، الذي كان يجلس قربهِ ويمدّ رجله على الشرفة، وصاح به: "انظر! إنه خالي إسكندر. إنه يحمل اسماً مثل اسمي، وهو ملكٌ أيضاً، هل كنت تعرف هذا؟".
سأله صديقه متابعاً تحريك ساقه: "ملكٌ ماذا؟".
"إنه ملك المولوشوين Molossians".

كان لا يزال يتكلم عندما أمسكته آرميس من الخلف، وقالت له: "تعال! يتعيّن عليك أن تكون جاهزاً للقاء خالك".

راح الإسكندر يركل برجليه لأنه لم يرغب في ترك هيفاستيون، لكنّ آرميس حملته إلى حمّام والدته حيث نزعَت عنه ثيابه، وغسلت له وجهه، وجعلته يرتدي سترة وعباءة مقدونية موشاة بالذهب، ووضعت حول رأسه شريطاً فضياً، ثم أوقفته على كرسي، وراحت تتأملهُ بإعجاب. "تعال أيها الملك الصغير، إن والدتك تنتظرك".

قادت آرميس الإسكندر إلى غرفة ملكية حيث كانت الملكة أوليمبيا تنتظره، وقد ارتدت ملابسها، ووضعت عطرها، ورتبت شعرها فبدت رائعة. كانت عيناها السوداوان في تباين تام مع شعرها الأحمر، أما شالها الأزرق المزخرف بالأوراق المذهبة على طول طرفيه فقد غطى سترة بلون الشال ذاته مصنوعة على الطراز الأثيني، والتي كانت قصيرة بعض الشيء، وكان خيطان رفيعان يثبتانها عند الكتفين.

أما ثنية الشق الذي يتوسط صدرها، والتي تركتها السترة مرئية بعض الشيء فقد كانت مزينة، بشكل رائع، بقطعة من الكهرمان يماثل حجمها حجم بيضة حمامة، وكانت موضوعة داخل غلاف من الذهب على شكل بلوطة، وهي هدية الزفاف التي تلقتها من فيليب.

أمسكت أوليمبيا بيد الإسكندر، وتوجهت كي تجلس على العرش إلى جانب زوجها الذي كان يستعد لاستقبال شقيق زوجته. دخل الشقيق من آخر القاعة، وانحنى للملك أولاً، وفقاً لموجبات البروتوكول، ثم انحنى لشقيقته الملكة.

كان فيليب مليئاً بالفخر نتيجة انتصاراته العسكرية، وكان ثرياً نتيجة مناجم الذهب التي احتلها في جبل بانجايوس، وكان مدركاً بالكامل أنه الأقوى في شبه الجزيرة الهلينية، أو ربما الأقوى في العالم كله بعد الإمبراطور الفارسي. ولقد دفعت كل هذه الأسباب بالرجل إلى التصرف بهذه الطريقة من أجل بثّ الرهبة في نفوس زائريه، ولقد فعل ذلك من خلال ملابسها الفاخرة وعظمة الزخارف التي حملها.

طُلب من الملك الشاب التوجه إلى جناحه بعد انتهاء مراسم الترحيب، وذلك كي يحضر نفسه للمأدبة التكرمية التي ستقام على شرفه.

أحب الإسكندر أن يشارك في ما يجري، لكن والدته أخبرت أنه لا يزال صغيراً جداً، وأنه يستطيع أن يلعب بتمثيل الجنود المصنوعة من السيراميك، وهي التماثيل التي طلبت من أحد الخزافين في ألوروس أن يصنعها لأجله.

دعا فيليب شقيق زوجته في ذلك المساء، وبعد انتهاء مأدبة العشاء، إلى غرفة خاصة كي يتحدثا بأمور السياسة، فشعرت أوليمبيا بالانزعاج لسببين: أولاً، لأنها ملكة مقدونيا. وثانياً، لأن ملك إبيروس كان شقيقها.

أما في واقع الأمر فقد كان الإسكندر، ملك إبيروس، ملكاً بالاسم، وليس بالفعل. وكانت إبيروس في الحقيقة واقعة تحت حكم عمه آرياس، الذي لم تكن لديه النية للتنازل عنه. وكان فيليب، بقوته، وجيشه، وذهبه هو الوحيد الذي يمتلك القوة لتنصيب الإسكندر وتثبيتته في الحكم.

كانت لدى فيليب مصلحة في القيام بهذا العمل، لأنه يضمن بذلك بقاء الملك الشاب مديناً له، كما أنه يُحمد طموحات أوليمبيا. فلقد شعرت أوليمبيا مراراً أن زوجها يهملها، وهكذا وجدت في ممارسة السلطة بعض الرضا في الحياة، والتي كانت من دونها رتيبة، ومن دون لون.

راح فيليب يشرح للملك الشاب: "عليك بالصبر لسنوات قليلة قادمة، أي خلال الوقت الذي أحسنه من أجل تلقين المدن الساحلية بعض الدروس، وهي المدن التي لا تزال مستقلة حتى الآن، ولكي أتأكد من أن الأثينيين يفهمون من هو الأقوى في هذه المنطقة، إنني لا أكنّ عداءً لهذه المدن من هذه الناحية، لكنني لا أريد أن تقف في طريقي هنا في مقدونيا. وأريد كذلك أن أسيطر على المضائق ما بين تراقيا وآسيا".

شعر الملك الإسكندر بالسرور لأنه يتلقى اهتمام رجلٍ كبيرٍ وملكٍ حقيقي، بالرغم من صغر سنّه، فأجاب: "لك ما تريد يا صهري العزيز، أعرف أنه توجد لديك أمور أهم بكثير من جبال إبيروس، لكنك إذا تمكنت ذات يوم من مساعدتي فسأكون مديناً لك طيلة حياتي".

كان الملك الشاب ذا عقل راجح بالرغم من كونه مراهقاً، ولذلك تأثر فيليب كثيراً برجاحة رأيه.

سأله فيليب: "لماذا لا تبقى معنا هنا، فالأوضاع ستزداد خطورة في إبيروس، ولهذا فإنني أفضّل أن أتأكد من أنك بأمان. إن شقيقتك الملكة هنا، وهي تريد مصلحتك، وسيكون لك جناحك الخاص، وستحصل على مرتبك الملكي، وعلى كل التكريم الذي يستأهله مركزك. وأنا سأرافقك شخصياً عندما يحين الوقت كي تسترجع عرش أبيك".

قبل الملك الشاب العرض بكل سرور، وهكذا بقي في القصر في بيلا حتى أكمل فيليب برنامجه السياسي والعسكري، وهو البرنامج الذي جعل من مقدونيا أغنى وأقوى دولة في أوروبا، والدولة المهيمنة الجانب في تلك المنطقة.

في تلك الأثناء، توجهت الملكة مستاءةً إلى جناحها حيث انتظرت شقيقتها كي يأتي ليتها لها ليلة سعيدة، ويُعرب عن احترامه لها قبل توجهه إلى جناحه. وتناهدت إلى مسامعها من إحدى الغرف القريبة من غرفتها أصوات هيفاستيون والإسكندر، وهما يلعبان بتمائيل الجنود ويصيحان:

"أنت ميت!"

"لا، لم أمت! أنت الذي مات!"

وتلاشت أصواتهما وسط الصمت المخيم، وهكذا تحولت طاقات
المحاربين الصغيرين إلى النوم، بينما كان القمر يظهر على صفحة
السماء.

كان الإسكندر بعمر السابعة، أما خاله ملك إبيروس فكان بعمر الثانية عشرة، عندما هاجم فيليب مدينة أولينثوس وتحالف خالكاديكي Chalcidicean، وهو الاتحاد الذي سيطر على شبه جزيرة خلقدونيا التي تأخذ شكل رمح ثلاثي. أما الأثينيون الذين كانوا حلفاء أولينثوس فقد سعوا إلى المفاوضة، لكن تبين لهم أن فيليب كان عنيداً تماماً، إذ أعطى جواباً لم يترك أمامهم مجالاً كبيراً للمناورة، ثم قال للوفد: "إما أن تغادروا هذا المكان، أو تطردوني خارج مقدونيا".

حاول القائد أنتيباتر حث فيليب على النظر إلى المشكلة من زاوية أخرى، وما إن غادر أعضاء الوفد الأثيني - وكانوا في حالة غضب شديد - حتى قال: "إن موقفك هذا يا سيدي من شأنه مساعدة أعدائك في أثينا، وعلى الأخص ديموستين". قال الملك وهو يهز كتفيه: "أنا لا أخافه".

"أجل، لكنّه خطيب مفعّو، بالإضافة إلى كونه سياسياً ماهراً، إنه الشخص الوحيد الذي يفهم استراتيجيتك، وهو الذي لاحظ أنك لم تعد تستخدم جنود المرتزقة، وأنك أنشأت جيشاً وطنياً موحداً ومندفعاً، وأنك جعلت منه ركيزة أساسية من ركائز حكمك، إنه مقتنع أن ذلك يجعلك العدو الأخطر لأثينا، لا يمكننا تجاهل الخصم الذكي يا سيدي".

صُعب على فيليب إيجاد الكلمات المناسبة عند هذه النقطة، لكنه قال: "أريدك أن تراقب ديموستين من خلال بعض رجالنا في أثينا، أريد أن أعرف كل شيء يقوله عني".

أجاب أنتياتر: "يمكنك اعتبار الأمر منتهياً يا سيدي". وبادر الرجل على الفور إلى تنبيه المخبرين في أثينا، وأبلغهم بضرورة التأكد من إرسالهم أخبار نشاطات ديموستين بسرعة وفعالية. وترافق وصول نصوص خطابات ذلك الخطيب العظيم إلى بيلا مع حدوث مشاكل في كل مرة، وكان الملك يسأل عن عنوان الخطاب أولاً وقبل كل شيء. فيأتي الجواب المنتظر: "ضد فيليب".

كان فيليب يستشيط غضباً عندها ويصيح: "مجدداً؟". وكانت نصوص الخطابات تثير في نفسه الانزعاج إلى درجة أنه إذا وصلت تلك الأخبار السيئة بعد تناوله وجبة طعامه مباشرة كان يصاب بعسر الهضم على الفور. وكان يجول في الغرفة جيئةً وذهاباً مثل أسد في قفص، بينما كان مساعده يقرأ له الخطاب بصوت عالٍ، لكنه كان يقاطعه بين وقت وآخر صائحاً به: "ماذا كان ذلك؟ اللعنة! كرّر ذلك... اقرأ ذلك المقطع مجدداً!" كان رد فعله شرساً جداً بحيث شعر المساعد أن الكلمات التي يقرأها كانت كلماته هو بالفعل.

أما الأمر الذي أثار قلق الملك أكثر من أي أمر آخر فكان إصرار ديموستين على وصف مقدونيا على أنها "دولة بربرية من الدرجة الثانية!".

صاح فيليب: "بربرية؟". ثم أوقع كل شيء أرضاً. "درجة ثانية؟ سأريه ماذا تستطيع دولة من الدرجة الثانية أن تفعل!".

قال المساعد في محاولة منه لتهديته: "يتعين عليك أن تتذكر يا سيدي أن رد فعل الشعب تجاه هجاء ديموستين كان فائراً تقريباً، وذلك لأن سكّان أثينا مهتمون بمعرفة كيفية حل مشاكل ملكية الأراضي وتوزيعها على الفلاحين في أتيكي، وهذا لا يقلل من اهتمامهم بطموحات ديموستين السياسية".

وأُتبعَت تلك الخطابات الحماسية ضد فيليب بخطابات أخرى تؤيد أولينثوس، وذلك في محاولة من ديموستين لإقناع الشعب بالتصويت لصالح إرسال المساعدات العسكرية للمدينة المحاصرة. ولكن، حتى مجهوده هذا لم يعطِ إلا نتائج ضئيلة.

سقطت المدينة في السنة التالية، فأقدم فيليب على تسويتها بالأرض، وذلك من أجل إرسال رسالة واضحة وصريحة لمن تسوّل له نفسه تحدّيه. وحين دعا أنتيباتر فيليب كي يعلّق على نتائج هذا العمل المتطرف في أثينا، وفي اليونان كلها، صاح الملك: "يملك ديموستين الآن سبباً وجيهاً كي ينعتني بالبربرية!".

أدى هذا القرار العنيف في واقع الأمر إلى تأجيج الصراعات داخل شبه الجزيرة الهلينية، فانقسمت جميع المدن والقرى اليونانية ما بين مؤيدة لمقدونيا، أو معادية لها.

أما فيليب، فقد شعر من جهته أنه أقرب إلى زيوس، من حيث المجد والقوة. وشعر بالرغم من ذلك أن الصراعات المستمرة التي أقحم نفسه فيها - مثل كبشٍ غاضبٍ على حدّ تعبيره هو - كانت قد بدأت تفعل فعلها. وكان يستغرق في معاقرة الشراب في الفترات الفاصلة ما بين حملةٍ وأخرى، كما كان يفرط في كل شيء يفعلُه في أثناء فترات معاقرة الشراب التي كانت تستمر من الغسق وحتى الفجر.

في تلك الفترة، لجأت الملكة أوليمبيا إلى العزلة بشكل متزايد، وكرّست نفسها للعناية بولديها، وللتعبّد. وتباعدت الفترات التي كان فيليب يأتي فيها ليشاطرها السرير؛ حتى أصبحت نادرة. وحتى في تلك المرات القليلة لم تكن جيدة، كانت باردة وبعيدة في أفكارها، وكان يغادر لقاءهما مع شعورٍ بالإهانة، مدركاً أن حماسه اليائسة والمتسعة كانت تترك الملكة جامدة ومن دون مشاعر.

لم تكن أولمبيا تلك المرأة الضعيفة مقارنة بزوجها، كما أنها كانت تحرص على كرامتها. وكانت ترى في شقيقتها، وفي ابنها بشكل خاص، مثال الشاين للذين سيحمان شرفها وكرامتها في يوم من الأيام، والذين سيرجعان إليها الهيبة والقوة اللتين كانتا ملكها عن جدارة، واللذين جرّدها فيليب منهما بغطرسته في كل أيام حكمه.

وكانت المهمات الدينية الرسمية بمثابة واجبات بالنسبة إلى الملكة، ولكنّها كانت بلا معنى حقيقي بالنسبة إليها. كانت متأكدة من أن أسياي الأولمب، هذا إن وجدت، لا تهتم أبداً بشؤون البشر. كانت مفتونة أكثر بعبادات أخرى، وخاصة ديونيسوس، وهو سيد غامض قادر على السيطرة على العقل البشري، وعلى تغييره وجرّه إلى دوامة من العواطف العنيفة والمشاعر الغريزية.

سرت شائعات تفيد أنّها انضمت إلى تلك الطائفة سرّاً، وأنها تشارك سرّاً في طقوس التقرب من ديونيسوس ذلك، والتي تتضمن شرب الأشرطة المزوجة بأدوية فعالة، وأنها تشارك بالرقص إلى حدّ الإجهاد والهلوسة، ويحدث كل ذلك على أنغام آلات موسيقية بدائية. كانت الملكة تشعر وهي في تلك الحالة بأنّها تركض في الغابات ليلاً، وكانت ملابسها الملكية الفاخرة تتمزق إرباً إرباً فوق أغصان الأشجار في أثناء مطاردتها الحيوانات البرية التي كانت تمسك بها، وتسارع إلى أكل لحمها الذي لا يزال ينبض بالحياة، ثمّ كانت تسقط أرضاً من فرط الإجهاد قبل أن تغط في نوم عميق فوق ما يبدو أنه بطانية من الأشنّة المعطرة.

وكانت ترى وهي في حالة نصف اليقظة تلك مخلوقات الغابة، وهي تخرج ببطء من جحورها، ورأت حوريات ذات بشرة بمثل خضرة أوراق الشجر، وأنصاف أسياي بمعاطف خشنة، وهي أساساً

أنصاف رجال وأنصاف ماعز. رأتهما جميعاً وهي تتقدم من شبه صورة تمثل عضواً عظيم الحجم، ثم تضع عليه أوراق البلباب والعنب، وتغمسه بالشراب. كان المشاركون في ذروة ممارسة طقوسهم ويشربون شراباً غير مخفف، ويندفعون في أعمال تزاوج وحشية تؤدي بهم في نهاية الأمر إلى احتكاك مباشر، ويجري كل ذلك وسط حالة من النشوة المسعورة إلى حد أن ديونيسيوس ذاته تسيطر عليه هذه الحالة.

كان آخرون يتقدمون خلسة وهم في حالة من الإثارة، وهم ينظرون بجرأة نحو جسد أوليمبيا العاري، وكلهم شوقٌ لتلبية رغباتهم الحيوانية...

هكذا كانت الملكة تستسلم لطبيعتها البربرية والوحشية، وللطقوس التي تحرر أكثر العناصر عدوانية وعنفاً في روحها وجسدها، أما في ما عدا هذه الحركات المتطرفة فقد كانت حياتها - في واقع الأمر - عادية وتسير بحسب ما هو متوقع من أي زوجة وشريكها، وكانت قادرة على العودة إلى تلك الحياة وكأنها تغلق باباً داخلياً محكماً يفصلها عن كل الذكريات وكل المشاعر.

كانت الملكة تعلم الإسكندر، وسط الهدوء الذي يحيط على جناحها، كل ما يستطيع فتى صغير تعلمه من مبادئ تلك الطائفة، وكانت تخبره عن المغامرات والرحلات التي قام بها ديونيسيوس برفقة موكب من أنصاف البشر وأرواح الغابات التي كانت تضع تيجاناً تتألف من أوراق الأشجار على رؤوسها. وصلت هذه الرحلات إلى بلاد بعيدة مثل بلاد النمرور والفهود، أي الهند.

لكن إذا كان تأثير الوالدة مهماً في تشكيل شخصية الإسكندر، فإن التربية الصارمة التي أمر بها الوالد ورغب فيها لم تكن أقل تأثيراً في شخصيته، هذا إذا لم نقل بأنها كانت أشد من تأثير الوالدة.

فلقد أمر فيليب ليونيداس، وهو المدير الرسمي المسؤول عن تعليم الصبي، أن ينظّم تعليم ابنه من دون أن يهمل أي شيء، وهكذا كان معلمون جدد ينضمون إلى فريق المدربين والمشرفين مع تقدم الإسكندر في تلقي العلم.

وما إن تمكن الإسكندر من تذوّق الشعر حتى بدأ ليونيداس في قراءة أشعار هوميروس، وعلى الأخص الإلياذة، لأنها تُظهر قواعد الشرف والتحمل التي تليق بأمرٍ من أسرة الأركاديين Argeads المالكة. وتمكّن المعلم المسنّ بهذه الطريقة من كسب ليس فقط عقل الإسكندر وعقول رفاقه الصغار، بل كسب قلوبهم كذلك، ومع ذلك بقيت الأغنية التي تعلن عن قدوم ليونيداس إلى الصف كما هي:

ها قد أتى وظهر،
الغراب العجوز

أصغى هيفاستيون مع الإسكندر إلى أشعار هوميروس، وتمكّن الولدان، وسط حالة من التأثر، من تخيل كل تلك المغامرات الغريبة، بما فيها ذلك الصراع الشائك الذي شارك فيه أقوى الرجال وأجمل النساء في العالم، وحتى أن الأسياد ذاقوا قد شاركت فيه، وكان كل واحد منها ينتصر لطرف من أطراف الصراع، ويمتلك دوراً فيه.

وتمكّن الإسكندر في ذلك الوقت من إدراك طبيعة مركزه، والعالم الذي يدور من حوله، والدور الذي اختارته له الأقدار وحضّرتة لإنجازه.

كانت النماذج التي تقدّم إليه هي نماذج البطولة، ومقاومة الألم، والشرف، واحترام المرء لكلمته، والتضحية إلى درجة التضحية بالذات. وكان الإسكندر يزداد تعلقاً بهذه النماذج يوماً بعد يوم، ليس من منطلق الطاعة المفروضة، بل بسبب ميوله الطبيعية الكامنة فيه.

وكشفت طبيعة الإسكندر عن حقيقتها بصورة تدريجية: فلقد أظهرت الطبيعة القاسية والعدوانية التي تميز والده، أي المزاج الملكي الذي يتمتع كصاعقة، وأظهرت في الوقت عينه الفتنة الغامضة التي تميز والدته، بالإضافة إلى فضولها لاكتشاف المجهول، وتوقها الدائم إلى الألغاز.

وتعلق الإسكندر بأمه بعمق، وكان الرّابط بينهما مرعباً تقريباً، لأنه كان يحتفظ في الوقت ذاته بتقدير لا حدود له لوالده. وتحول إعجابه هذا تدريجياً، ومع مرور الوقت، إلى رغبة تزداد قوة مع الزمن بمنافسته ومحاكاته. وجاء أخيراً اليوم الذي سبّب فيه أخبار نجاحات فيليب المتواترة حزناً لدى الإسكندر بدلاً من أن تفرحه. فبدأ الفتى يفكر في أنه إذا تمكن والده من قهر كل شيء، فلن يبقى لديه أي مكان كي يبرهن من خلاله عن قيمته وشجاعته.

كان الإسكندر في تلك المرحلة أصغر من أن يدرك مدى اتساع العالم.

وحدث ذات مرة أن دخل الإسكندر غرفة صف ليونيداس مع رفيقه كي يبدأوا بتلقي دروسهم، فشاهد فتى تبدو عليه أمارات الحزن، يبلغ الثالثة عشرة، أو الرابعة عشرة من عمره، وكان يتحرك مسرعاً من دون أن يتوقف ليتكلم.

فسأل الإسكندر معلمه ذات يوم: "من ذلك الفتى؟".

فأجاب ليونيداس قبل أن يغيّر الموضوع: "هذا ليس من شأنك".

كان طموح فيليب الأكبر منذ أن أصبح ملكاً أن يفرض سيطرة مقدونيا على العالم اليوناني، لكنه كان يعلم جيداً أن تحقيق هذا الهدف يتطلب الاستخدام المفرط للقوة. ولهذا السبب، عمل الملك على جعل بلاده قوة عسكرية حديثة، وعلى انتشارها من وضعها القبلي المؤلف من رعاة ومربي ماشية.

عمل فيليب على تطوير الزراعة في السهول، وأحضر خبراء مهرة من الجزر اليونانية ومدن آسيا الصغرى، كما عمل على تعزيز أنشطة التعدين في جبل بانجايوس، حيث كان يُستخرج نحو ألف تالنت (مكيال كان يُستخدم قديماً) من الذهب والفضة سنوياً.

فرض فيليب سيطرته على قادة القبائل، وجعلهم يعتمدون عليه، سواء أكان ذلك عبر القوة أو عبر فرض التحالف معه. كوّن الرجل كذلك جيشاً من رجال لم تقع الأعين على أمثالهم من قبل. تألف ذلك الجيش من قوات مشاة عظيمة التسلّح، ومن قوات مشاة خفيفة وسهلة الحركة، وكثائب عديدة من الفرسان الذين لا يخشون أي قوة في منطقة بحر إيجه.

لم يكفِ كل هذا كي يتم قبول فيليب بوصفه إغريقياً (يونانياً)، وهكذا تابع ديموستين، بالإضافة إلى عدد كبير من الخطباء ورجال السياسة في أثينا وكورينث، وميجارا، وسيكيون، تسمية الملك فيليب بالبربري. اعتبر الإغريق أن اللهجة المقدونية تدعو إلى الضحك، وهي التي تأثرت كثيراً بلهجة شعوب غير متحضرة كانت تسكن على حدود

مقدونيا الشمالية، وكانوا يسخرون كذلك من إفراط المقدونيين في الشراب، وفي تناول الطعام، وفي ممارسة الحميمة القصوى في أثناء مهرجاناتهم، والتي سرعان ما كانت تتحول بانتظام إلى طقوس عريضة، واعتبر اليونانيون أن الدولة التي تُبنى على روابط الدم بدلاً من حقوق المواطنة، والتي يحكمها ملك بطريقة مطلقة، بحيث يكون فوق القانون، هي دولة تستحق أن تُعتبر بربرية.

وبالرغم من كل ذلك، تمكّن فيليب من تحقيق أهدافه عندما هزم الفوكيين Phocaeans في الحرب المجلة وطردهم من مجلس المعبد، وهو أكثر المجالس نبالة وأرفعها منزلةً في كل بلاد اليونان. وحصل ملك مقدونيا بهذه الطريقة على صوتين من أصوات المندوبين، وحصل الملك كذلك على الشرف الكبير عندما عين رئيساً للألعاب البيثية Pythian Games، وهي أهم منافسات في البلاد بعد الألعاب الأولمبية. توجت هذه المكاسب المجيدة جهوداً متناصرة استمرت عشر سنوات، وتزامنت مع الذكرى العاشرة لميلاد ابنه الإسكندر.

ألقى إيسوقراط، وهو أحد أعظم الخطباء الأثينيين في تلك الحقبة، خطاباً مدح فيه فيليب بوصفه حامي اليونانيين، وبوصفه الرجل الوحيد الذي يؤمل أن يسحق البرابرة في الشرق، أي الفرس، والذين بقوا لفترة تزيد عن قرن من الزمن يهددون الحضارة والحرية في البلاد الهلينية.

بقي الإسكندر على علم بكل هذه الأحداث عبر معلميه، لكن هذه الأخبار أقلقته كثيراً. فلقد شعر الإسكندر أنه كبير بما يكفي كي يلعب دوراً في تاريخ بلاده، لكنه أدرك جيداً أنه كان أصغر من يكون قادراً على التحرك.

خصّص الوالد وقتاً متزايداً لإمضائه مع الأمير، وكأنه كان يعتبره رجلاً، لكنه أبعدته عن مغامراته الخطرة. لم يكن هدف فيليب في واقع

الأمر السيطرة على شبه الجزيرة اليونانية، لأن ذلك كان مجرد وسيلة، بل وصلت طموحاته الحقيقية إلى أبعد من ذلك بكثير، إلى أبعد من البحر. وصلت هذه الطموحات إلى أراضٍ لا حدود لها تشكل قارة آسيا.

كان فيليب في فترات استراحته التي يمضيها في القصر أحياناً يصطحب الإسكندر إلى أعلى برج، وذلك بعد الانتهاء من تناول الغداء، وكان يشير إليه نحو الأفق الشرقي، حيث كان القمر يرتفع في السماء فوق أمواج البحر.

"أتعرف ماذا يوجد هنالك؟".

كان الجواب يأتي سريعاً: "آسيا يا ولدي، البلاد التي تشرق منها الشمس".

"وهل تعرف كم هي كبيرة آسيا؟".

"قال لي كراتيبوس، معلم الجغرافيا عندي، إنها أكبر من عشرة آلاف ستاديا stadia".

"إنه مخطئ يا ولدي، إن آسيا هي أكبر من ذلك بمئة مرة. التقيت محارباً من سكاثيا Scythian عندما كنت أحارب بالقرب من نهر إستر، وكان يتكلم اللغة المقدونية، أخبرني ذلك المحارب أنه وراء النهر يمتد سهل واسع يمثل اتساع البحر، ثم تتواجد جبال عالية بحيث تكاد تخترق السماء بقممها. شرح لي كذلك أنه توجد صحار شديدة الاتساع بحيث يستغرق قطعها فترة عشرة أشهر، وقال لي إنه في الطرف المقابل توجد جبال غنية بالأحجار الكريمة الثمينة، مثل اللازورد الأزرق، والياقوت، والعقيق.

أخبرني كذلك أن آلاف القطعان من الجياد الشرسة، لكن النشيطة، والتي تقدر على الجري لأيام عدة عبر مساحات لا متناهية،

تتواجد في تلك السهول، كما قال لي: هناك مناطق مكسوة بالثلوج والجليد، حيث يسود الظلام الدامس مدة نصف عام، وتوجد مناطق أخرى تشع فيها الشمس بحرارتها اللاهبة في كل الفصول، وهناك مناطق لا تنمو فيها الأعشاب على الإطلاق حيث تكون الأفاعي سامة، وحيث تكفي لدغة عقرب واحدة لقتل إنسانٍ على الفور. هذه هي آسيا يا ولدي.

تطلع الإسكندر نحو والده، ورأى عينيه تفيضان بالأحلام، فأدرك طبيعة ما يتوهج في روحه.

مرّت فترة تزيد عن العام على تلك الليلة التي صعد فيها مع والده إلى البرج. وذات يوم، دخل فيليب فجأة إلى غرفة الإسكندر، وقال له: "أريدك أن ترتدي ذلك السروال من تراقيا، وضع عليك عباءة صوفية خشنة، لا تضع أيّ إشارات أو زينة، سنغادر على الفور".

"وإلى أين سنذهب؟"

"رتبت أمر تحضير الجياد والطعام، سنغيب لبضعة أيام، لأنني أرغب في أن أريك شيئاً".

لم يطرح الإسكندر أيّ أسئلة إضافية، بل ارتدى الملابس التي أمره والده بارتدائها، تطلع لحظة من خلال الباب الذي يؤدي إلى جناح والدته كي يودّعها قبل رحيله، ثم أسرع بالنزول إلى الباحة حيث كان عدد قليل من فرسان الملك وجوادان بانتظاره.

كان فيليب ممتطياً جواده الخاص، وسرعان ما انطلقا إلى خارج القصر من خلال البوابة المفتوحة.

تابع فيليب والإسكندر المسير شرقاً لعدة أيام، سارا في البداية بمحاذاة الشاطئ، ثم غيّرا اتجاههما نحو الداخل، لكنهما ما لبثا أن عادا مجدداً ليسيرا بمحاذاة الشاطئ، مرّاً عبر ثيرماي، وأبولونيا، وأمفيبوليس،

وكانا يمضيان الليلي في المشارب الريفية الصغيرة، ويتناولان الأطعمة المقدونية التقليدية، أي لحم الماعز المشوي، ولحوم الطرائد، والجبن الدسم المستخرج من حليب النعاج، والخبز المحضّر فوق الجمار. سلكا بعد مغادرتهما أمفيوليس طريقاً وعرّاً شديد الانحدار إلى أن رأيا، على حين غرة، أراضي مقفرة تمتد أمامهما. جُرد الجبل من غطاءه النباتي من الأشجار، وكانت جذوع الأشجار المقطوعة، وبقايا الأشجار المستحمة، تنتشر في كل مكان، كما انتشرت في هذه الأرض الجرداء الحفر التي توزعت في أماكن كثيرة، ورأيا أمام هذه التجاويف التي تشبه الكهوف أكوام الأحجار الصغيرة، فبدت مثل التلال التي تبنيتها جماعات النمل العملاق.

بدأ المطر يهطل من دون انقطاع، وسرعان ما وضع موكب الفرسان أغطية على رؤوسهم وحثوا الجياد على الإسراع في مسيرها. وما لبث أن تفرع طريق الجياد هذا إلى متاهة من الطرقات التي كان يسير فوقها عدد كبير من الرجال المحمّدين من ذوي البشرة الداكنة والمجعدة، وكانوا كلهم يحملون سلالاً ثقيلة مليئة بالأحجار الصغيرة. شاهدنا من بعيد عموداً من الدخان الأسود الكثيف يتصاعد نحو السماء بشكل لفائف متباطئة. نشر الدخان طبقة من السخام غطت المنطقة بأكملها، وهو الأمر الذي جعل من التنفس عملية صعبة. أمر فيليب ابنه على حين غرة: "أريدك أن تغطي فمك بعباءتك".

انتشر صمت غريب في أنحاء المكان، ولم يُسمع صوت حركة بالرغم من العدد الكبير لتلك الأقدام، وكأن الأصوات قد أُخمدت بفعل الطبقة السميكة من الوحول التي نتجت عن الأمطار التي هطلت على طبقة الغبار.

تطلّع الإسكندر حوله بدهشة. كان هذا المنظر هو الصورة التي وضعها في خياله للجحيم، وجعله هذا المنظر يتذكر بعض أشعار هوميروس:

يقع هناك عالم الشتاء ومنطقته المختبئان وسط الضباب والغيوم. ولا تضيء أبداً عين هيليوس، سيد الشمس، عندما يصعد فضاءات النجوم على هؤلاء الرجال في الصباح، ولا عندما يهبط من السماء نحو الأرض، وسرعان ما يجثم الليل المدمر على هؤلاء البؤساء^(*).

كُسِر الصمت المخيم على نحو مفاجئ، كسره ضجيج إيقاعي شديد، وكأن قبضة سيكلوب العملاقة تقرر بوحشية على منحدرات ذلك الجبل البائس، نخس الإسكندر جواده بقدميه لأنه أراد أن يتأكد من مصدر هذا الضجيج القوي، والذي بات الآن قوياً جداً إلى درجة أنه تسبب باهتزاز في الأرض.

وصلا إلى قمة صخرية، وسرعان ما رأى الإسكندر أمامه نهاية كل الطرقات الفرعية، كما رأى آلة عملاقة، كانت نوعاً من أنواع الأبراج، ولكنه برج قائم على دعائم وأعمدة خشبية، ويدعم هذا البرج بكرة موضوعة في أعلى نقطة فوقه. رأى الإسكندر مطرقة حديدية ضخمة مربوطة بجبل من القنب، بينما كان الطرف الآخر من الجبل ملفوفاً حول رافعة يقوم بتشغيلها مئات الرجال التعساء، كانوا يدفعون الرافعة كي يجعلوا الجبل يدور حول بكرة، وهكذا ترتفع المطرقة الموجودة داخل البرج الخشبي. وعندما كانت المطرقة تصل إلى الأعلى كان أحد المراقبين يقوم بفكّ الفرامل، وهكذا تتحرر بكرة الرافعة - والتي تدور في الاتجاه المعاكس بسبب ثقل المطرقة - وتقع المطرقة عندها من دون أي عائقٍ يعترض طريقها، وتطحن الأحجار

(*) الأوديسة، الكتاب الحادي عشر.

التي يتم دفعها باستمرار داخل البرج من السلال التي يحملها العمال بأنفسهم من الجبل.

وبعد ذلك، كان الرجال يقومون بتجميع المواد الخام المطحونة، ثم يملأون بها سلالاً أخرى، ويحملونها متتبعين طرقات أخرى تؤدي إلى باحة مفتوحة، حيث يقوم العمال هناك بطحنها في أوان معدنية كي تصبح أدق حجماً، ثم يقومون بغسلها بتيار من المياه التي جلبت عبر سلسلة من السدود والمنحدرات، وهكذا تُفصل حبيبات الذهب عن التراب في الأحجار المطحونة.

شرح فيليب لابنه: "هذه هي مناجم جبل بانجايوس. تمكنت بواسطة هذا الذهب من تسليح جيشنا، وبنيت بواسطة القصور، كما طوّرت قوة مقدونيا".

سأل الإسكندر والده، وقد بانّت رنة من الأسى في صوته: "لماذا أحضرتني إلى هذا المكان؟". وفي تلك اللحظة، انهار أحد العمال إلى الأرض، وكاد أن ينتهي به الأمر تحت حوافر جواد الإسكندر. تأكد أحد المشرفين من موت الرجل، ثم أومأ إلى بائسين آخرين، فسارعا إلى وضع سلتيهما أرضاً، ثم جرّا جثة الرجل إلى مكان بعيد. سأل الإسكندر مجدداً: "لماذا أتيت بي إلى هنا؟". لاحظ فيليب مدى القلق الذي يرتسم على محيا ابنه.

أجاب الوالد: "لم ترَ أسوأ ما في الأمر بعد، أتريد أن ننزل إلى عمق المنجم؟".

صرّح الصبي بحزم: "لست خائفاً من أي شيء".
"اتبعني إذاً".

ترجّل الملك، وتقدم نحو مدخل أحد الكهوف، فرفع المراقب سوطه ليمنعهما، لكنه توقف مصعوقاً عندما رأى النجمة الذهبية

التي تميّز سلالة الأركاديين Argeads والتي تلتصق على صدر فيليب.

اكتفى فيليب بالإيماء، فتراجع المراقب وأضاء مشعلاً، ثم تحضّر كي يكون دليلهما في عمق المنجم.

تبع الإسكندر والده. ولكنه ما إن دخل الكهف حتى شعر أنه يكاد يختنق نتيجة الرائحة غير المحتملة الصادرة عن بول الرجال، وعرقهم، وإفرازاتهم. تعيّن عليهم الانحناء في بعض الأحيان، حتى أنّهم انحنوا حتى الأرض أحياناً خلال سيرهم في طريق ضيق مليء بصدى الضجيج المتواصل الناتج عن سحق الأحجار، والأنفاس المنخوقة الراكدة، والسعال، وحشرجات الموت.

كان المراقب يتوقف بين حين وآخر حيث كانت مجموعات من العمال تعمل بمعاولها من أجل استخراج الأحجار الخام. بين الفينة والفينة كان الثلاثة يتوقفون أمام طرف إحدى الحفر، حيث التمع فيها إلى أسفل المشعل ظهرٌ عظمي موصول بذراعين عظيمتين.

رفع عمال المنجم الموجودون في أسفل الحفرة رؤوسهم لدى سماعهم وقع الأقدام، أو أصوات القادمين، وهكذا شاهد الإسكندر وجوه الرجال التي شوّوها التعب المتواصل، والمرض، ورعب عيش هذا النمط من الحياة.

أضف إلى ذلك مشاهدتهم إحدى الجثث في أسفل إحدى الحفر. شرح المراقب الأمر: "يقدم كثيرون منهم على الانتحار، فيقدمون على دفع أنفسهم فوق معاولهم، أو يطعنون أنفسهم بالأزاميل التي يستخدمونها".

التفت فيليب كي ينظر إلى الإسكندر. كان الأمير صامتاً ومرتباً نتيجة ما يشاهده، كما خيّمت ظلمة الموت على عينيه.

نخرجوا من الجهة المقابلة للجبل عبر ممرٍ ضيقٍ، فوجدوا جيادهم
والموكب المرافق في انتظارهم.
حدّق الإسكندر إلى أبيه، وظهر الشحوب على وجهه عندما
سأله: "ماذا فعل هؤلاء الناس ليستحقوا كل هذا".
أجاب الملك: "لم يفعلوا شيئاً، عدا عن أنهم جاءوا إلى هذه
الدنيا".

امتطى فيليب وابنه جواديهما، وعادا للسير على الطريق وسط المطر الذي ما لبث أن اضمحمر مجدداً، وسار الإسكندر إلى جانب والده بصمت.

"أردتك أن تعرف أن هناك ثمناً مقابل الحصول على أي شيء، أردتك أن تعرف كذلك نوع هذا الثمن الذي يُدفع. إن عظمتنا، وفتوحاتنا، وقصورنا، والملابس الفاخرة التي نرتديها... تتطلب كلها ثمناً يجب أن يُدفع".

"لكن، لماذا هؤلاء بالذات؟".

"لا شيء اسمه لماذا وما السبب في هذا المجال. إن القدر هو الذي يسيّر العالم، وعندما وُلد هؤلاء الرجال كان مقدراً عليهم أن يموتوا بتلك الطريقة، أي تماماً مثلما كُتبت علينا أقدارنا عندما ولدنا، لكن نتائج هذه الأقدار لن تظهر لنا حتى اللحظة المناسبة.

إن الإنسان وحده، ومن بين جميع الكائنات الحية، هو القادر على ملامسة مراكز الأسياد، وعلى الغرق إلى مستويات أدنى من الوحوش. سبق لك أن رأيت مراكز الأسياد، وعشتَ في قصر الملوك، لكنني شعرت أنه يجب عليك أن تعرف المصير الذي قد ينتظر أي إنسان. تضم صفوف التعساء الذين يعملون هناك رجالاً لربما كانوا من الزعماء أو من النبلاء في يومٍ من الأيام، والذين وضعتهم أقدارهم على نحوٍ مفاجئ في عالم التعاسة".

"لكن إذا كان ذلك هو القدر الذي ينتظر كل البشر فلماذا لا نكون رحماء طالما يبتسم الحظ لنا؟".

"هذا ما أردت أن أسمع منك، يجب عليك أن تكون رحيماً
عندما تقدر على ذلك، لكن عليك أن تتذكر أنه ليس في مقدورنا أن
نغيّر طبيعة الأمور".

رأى الإسكندر في تلك اللحظة فتاةً أصغر منه سناً بقليل تتقدم
باتجاههما. كانت تحمل سلّتين ثقيلتين مليئتين بالفاصولياء العريضة
والحمّص، ولعلها كانت تحملهما من أجل المشرفين على العمل.
ترجّل الأمير ووقف أمامها، كانت نحيفةً وعارية القدمين،
أما شعرها فوسخّ، لكنّ عينيها الكبيرتين والداكنتين كانتا مليئتين
بالحزن.

سألها الأمير: "ما اسمك؟".

بقيت صامتة.

أما فيليب فقال: "لعلها لا تقدر على الكلام".

التفت الإسكندر إلى أبيه وقال: "أستطيع أنا تغيير قدرها، وأنا
أريد تغييره".

أوماً فيليب وقال: "تستطيع أن تغيّره إذا أردت، لكن تذكر أن
أفعالك لن تغيّر العالم".

ساعد الإسكندر الفتاة على الصعود إلى صهوة جواده، ووضعها
خلفه كما غطاها بعباءته.

كانت الشمس قد شارفت على المغيب عندما عادا إلى
أمفيبوليس، وأمضيا الليل في منزل أحد أصدقاء الملك. أمر الإسكندر
أن تُغسل الفتاة، وأن تُعطى ملابس تناسبها، ثم جلس يراقبها وهي
تتناول الطعام.

حاول أن يكلمها، لكنها لم تُجب إلا بالفاظٍ وحيدة المقاطع،
لذلك لم يفهم شيئاً مما قالت.

شرح فيليب الأمر لابنه: "لا بد من أنما تتكلم لغةً بربرية، وإذا أردت أن تتكلم معها فعليك أن تنتظر حتى تتعلم اللغة المقدونية".
أجاب الإسكندر: "سأنتظر".

تحسّن الطقس في اليوم التالي، فتابعا رحلة عودتهما، وعبرا جسر القوارب مجدداً كي يصلا إلى ستريمون. ولكن، عند وصولهما إلى بروميسكوس، اتجها جنوباً بمحاذاة شبه جزيرة جبل أثوس، وسارا طيلة النهار فوصلا عند غروب الشمس إلى مكان أمكنهما فيه رؤية خندق كبير كان قد حُفر عبر شبه الجزيرة من طرفها حتى طرفها. عندها، جذب الإسكندر أعنة جواده الملكي، وجلس من دون حراك، أو كلام، وراح يتأمل هذا العمل الهائل.

سأله والده: "أترى هذه القناة؟ لقد حفرها Xerxes، ابن داريوس الأول، وهو إمبراطور بلاد فارس، منذ مئة وخمسين عاماً تقريباً، وذلك كي يسمح لأسطول سفنه بالمرور متجنباً خطر درجة الصخور فوقها من جبل أثوس. عمل عشرة آلاف رجل ليلاً ونهاراً على حفر هذه القناة. وعمل الإمبراطور قبل حفره هذه القناة على إقامة جسرٍ من القوارب فوق البوسفور، وهكذا وحّد ما بين آسيا وأوروبا.
سنستقبل في غضون أيام قليلة وفداً فارسياً، أردتك أن تأخذ فكرة عن قوة الإمبراطورية التي ستفاوض معها".

أوماً الإسكندر، وراح يحدّق إلى هذا الإنجاز العظيم، ظل يحدّق لسوقتٍ طويل من دون أن يتكلم، لكنه عندما رأى والده ينطلق مجدداً امتطى جواده وتبعه.

قال الإسكندر وهو يسير بجواده إلى جانب والده فيليب: "هناك شيء أريد أن أسألك عنه".
"إنني أصغى".

"هناك صبي في بيلا يداوم على حضور دروس ليونيداس، لكنه لا يجلس معنا، التقيته في مناسبات قليلة ولاحظت أنه يتجنب التحدث معي، وأنه يبدو حزيناً جداً في معظم الأوقات، وحتى إن الأمر يصل به إلى السوداوية. يرفض ليونيداس أن يقول لي من يكون، لكنني متأكد من أنك تعرف هويته".

أجاب فيليب من دون أن يلتفت: "إنه إمينتاس ابن عمك، إنه ابن شقيقي الذي مات وهو يحارب قبيلة إيليريا. كان ولياً للعهد قبل أن تولد أنت، وكنت أحكم مكانه بصفتي وصياً على العرش".
"أتعني أنه كان يجب أن يكون ملكاً بدلاً منك؟".

أجاب فيليب: "إن العرش يا ولدي هو ملك من يستطيع أن يدافع عنه، تذكر ذلك. وتذكر أيضاً أن كل من تسلّم الحكم قد قام بقتل كل من يدّعي حقّه فيه".

"لكنك تركت إمينتاس يعيش".

"إنه ابن شقيقي، لكنه لا يشكل أي تهديد بالنسبة إليّ".

"أتعني أنك... كنت رحيماً".

"أجل، إذا شئت أن تقول ذلك".

"سيدي؟".

التفت فيليب عندها، لأنه يعرف أن الإسكندر لا يناديه بهذا اللقب إلا إذا كان غاضباً منه، أو إذا أراد أن يطرح سؤالاً في منتهى الخطورة.
"إذا قُدِّر لك أن تموت في ميدان المعركة، فمن سيرث الحكم، إمينتاس أم أنا؟".

"الأجدر بينكما هو الذي سيرث".

لم يطرح الإسكندر أي سؤال جديد، لكنّ إجابة والده تركت عنده انطباعاً عميقاً، وتركت أثراً في طريقة تفكيره طيلة حياته.

وصلا إلى بيلا بعد مرور ثلاثة أيام، فطلب الإسكندر من آرميس أن ترعى الفتاة التي أنقذها من الرعب الذي يحيط بجبل بانجاوس.

قال لها مؤكداً بكبرياء طفولي: "ستكون في خدمتي من الآن فصاعداً، وستقومين بتعليمها كل شيء تحتاج إلى تعلّمه".
سألت آرميس: "لكن، أليس لديها اسم على الأقل؟".
"لا أعرف اسمها، لكنني سأطلق عليها اسم لبيتين".
"اسم جميل... ويناسب تماماً هذه الفتاة الصغيرة".

انتشرت في ذلك اليوم بالذات أخبار وفاة نيقوماخوس العجوز، فحزن الملك عليه كثيراً لأنه كان طيباً بارعاً، وهو الذي أشرف على ولادة ابنه وقدمه إلى هذا العالم.

لم تُثقل عيادة نيقوماخوس لدى وفاته، وذلك بالرغم من أن ولده أرسطو فضّل اتخاذ منحى آخر في الحياة. إذ كان وقتها في آسيا، وفي مدينة آتارنيوس تحديداً، حيث أسّس مدرسة جديدة للفلسفة بعد موت معلمه أفلاطون.

تابع مساعد نيقوماخوس الشاب، ويدعى فيليب، العمل في العيادة، ومارس المهنة بمهارة وقدرة عظيمنتين.

أما الشبان الصغار الذين عاشوا مع الإسكندر في جنبات القصر فقد كبروا قليلاً خلال ذلك الوقت، سواء أكان ذلك في أجسادهم وفي شخصياتهم أو في ميولهم التي أظهروها عندما كانوا أطفالاً، وهي الميول التي تعزّزت كثيراً. إن رفاق الإسكندر الذين كانوا يقاربونه سناً من أمثال هيفاستيون، والذي أصبح الآن صديقه الحميم، وبيرديكاس، وسلوقس، قد أصبحوا مقرّبين منه جداً بحيث شكّلوا فريقاً متجانساً في اللعب وفي الدراسة على حدّ سواء، كما تكيّف كل من لايسيماخوس

وليوناتوس، مع مرور الوقت، على الحياة العامة وتمكّنا من إيجاد متنفسٍ لطاقتهما في الألعاب التي تتطلب مجهوداً ومهارة جسدية.

كان ليوناتوس، بشكلٍ خاص، ماهراً في المصارعة، لذلك لم يكن مرتباً في هندامه، وكانت الجروح والخدوش تملأ وجهه، أما الرفاق الأكبر سناً، مثل بطليموس وكراتيروس، فقد أصبحا شابين في ذلك الوقت وبدأا يتلقيان تدريبات عسكرية قاسية مع فرقة الفرسان.

انضم أحد اليونانيين الذي يحمل اسم إيومينيس إلى مجموعة الأصدقاء هذه، وعمل هذا الرجل بصفته مساعداً في مجموعة مستشاري الملك، وكان محترماً جداً بفضل ذكائه وحكمته. أراد فيليب أن يتلقى الرجل التعليم ذاته مثل بقية الشبان. وهكذا وجد ليونيداس مكاناً له في المكان المخصص لسكن التلامذة. وبدأ ليوناتوس، وعلى الفور، في تحدي القادم الجديد، ودعاه إلى مبارزته في المصارعة. فنزع سترته القصيرة، وبدأ يتبخر عاري الصدر، ثم قال له: "إذا أردت أن تكون جديراً بمكانك هنا، فسيتعين عليك أن تقاتل من أجله".

لم يحاول إيومينيس حتى مجرد النظر نحوه، لكنه قال له: "هل أنت مجنون؟ أنا لا أحلم في ذلك أبداً". وبدأ بعد ذلك بترتيب ملابسه في الخزانة الموضوعة عند طرف سريره.

بدأ لايسيماخوس بالسخرية منه، وقال له: "سبق لي أن قلت لكم إن هذا اليوناني صغير وتافه". فبدأ الجميع بالضحك بمن فيهم الإسكندر.

دفع ليوناتوس الشاب الجديد، فوقع على الأرض متدحرجاً. "والآن، ما رأيك؟ هل أنت مستعد للمصارعة أم لا؟".

نفض إيومينيس وهو يستشيط غضباً، وراح يسوي ملابسه، ثم قال: "مهلاً لحظة، سأعود على الفور". توجه نحو الباب وسط دهشة

الحاضرين، وما إن أصبح خارجاً حتى اقترب من أحد الجنود الذي كان في نوبة حراسته على الشرفة العليا من القصر، كان الجندي متين البنية، ومن منطقة تراقيا. تناول إيومينيس بعض النقود ووضعها في يد الجندي، ثم قال له: "تعالَ معي، فلدي مهمة في انتظارك". دخل غرفة سكن التلامذة، وأشار إلى ليوناتوس قائلاً: "أترى ذلك الشاب هناك الذي يعلو النمش وجهه، ذا الشعر الأحمر؟" أوماً الجندي العملاق. "حسناً، أمسكه وأشبعه ضرباً".

أدرك ليوناتوس على الفور أنه وقع في ورطة، وأن الظروف ضده، فما كان منه إلا أن اندفع من خلال رجلَي ذلك الجندي التراقي بالطريقة ذاتها التي لا بد وأن يوليسيس قد استخدمها من أجل دفع سيكلوب بوليفيموس كي يتدحرج على الدرج.

عاد إيومينيس إلى ترتيب أغراضه الشخصية، وسأل الحاضرين: "أريد أحدكم أن يقول شيئاً؟".

قال الإسكندر: "أجل، أريد أن أقول شيئاً". توقف إيومينيس وتطلع نحوه، ثم قال بصوت ينضح بالاحترام: "سأصغي إليك لأنك السيد هنا، لكن لا يحق لأيٍّ واحد من هؤلاء السخفاء أن يناديني بتافه صغير".

انفجر الإسكندر بالضحك مجدداً: "أهلاً بك إلى مجموعتنا أيها السيد الأمين العام".

انضم إيومينيس منذ تلك اللحظة إلى المجموعة بشكلٍ فعلي، وأصبح البارز بين أفرادها في إطلاق كل أنواع النكات والمقالب على كل الأشخاص الموجودين في القصر. لكن معظم نكاته كانت موجهة ضدّ معلّمهم ليونيداس العجوز، وهو الذي تحمل عبء كل تلك المقالب التي اشتملت على وضع سحالي في سريره، وضافادع حية في

طبقه الذي يحتوي على حساء العدس مثلاً. جاءت كل هذه التصرفات انتقاماً من إفراط المعلم في استخدام عصاه عندما يقصّر تلامذته في دروسهم.

وذات مساء، أعلن ليونيداس بفخر، وكان لا يزال على رأس المدرسة، أن ملكهم سيستقبل في اليوم التالي الوفد الفارسي، وأنه سيشارك شخصياً في المحادثات الدبلوماسية بسبب معرفته بآسيا، وعادات الشعوب التي تسكنها، أخبرهم كذلك أن الشاب الأكبر سناً بينهم سيخدم في حرس الشرف الملكي، وسيرتدي ثياباً مدرعة، بينما سيقوم الأصغر سناً بينهم بمهمات مشاهة إلى جانب الأمير الإسكندر.

أحدثت هذه الأنباء ضجة كبيرة بين تلامذة ليونيداس، لأن أياً منهم لم يسبق له أن شاهد رجلاً فارسياً من قبل، كما أن كل ما كانوا يعرفونه عن آسيا جاء من خلال قراءاتهم لكتابات هيرودوتس أو ستيسيلاس، أو يوميات زينون الأثيني الشهيرة باسم *Anabasis*، والمعروفة كذلك باسم *مسيرة العشرة آلاف*. وسرعان ما بدأ الجميع بتلميع أسلحتهم، وتحضير ملابسهم التي تتوافق مع المناسبة.

قال هيفاستيون: "تحدث والذي مع رجل شارك في مسيرة العشرة آلاف، وكان رجلاً شاهد الجيوش الفارسية وهي تحتشد قبالة في معركة كوناكسا".

شارك سلوقس في الحديث وقال: "أستطيعون أن نتخيلوا أيها الشبان مليون رجل". وضع يديه مقابل وجهه وفتحهما مثل المراوح، وكأنه يحاكي ذلك التقدم الضخم للمحاربين.

صاح لايسيمachus: "وماذا بشأن العربات ذات الأسنان القاطعة؟ إنها تطير مثل الرياح التي تقطع الحقول وهي مزودة بقواطع حادة تبرز من أسفل العربات ومن وسط محاورها، حاصدة الرجال

مثل حصادها القمح. لا أريد أن أجد نفسي ضحية لها في ميدان المعركة".

كان الإسكندر صامتاً في تلك الأثناء يصغي إلى تعليقات أصدقائه. ولكنه قال: "إنها كلها خدعٌ تثير من الضجيج أكثر مما تسببه من أضرار حقيقية. أورد زينون ذلك في مذكراته، سنتمكن، على كل حال، من معرفة كيفية استخدام الفرس لأسلحتهم، لأن والدي الملك نظم مطاردة أسود في إيورديا على شرف ضيوفنا".

ضحك بطليموس وقال: "وهل سيُسمح للصغار بالذهاب؟". وقف الإسكندر أمام زميله الأكبر سناً، وقال: "بلغتُ الثالثة عشرة من عمري، وأنا لا أخاف شيئاً، أو أي شخص، جرب أن تقول ذلك مرة أخرى، وسأتكفل بإسقاط أسنانك عبر حنجرتك".

عضّ بطليموس على شفته بينما توقف الآخرون عن الضحك، لأنهم تعلموا جميعاً عدم إثارة الإسكندر، حتى ولو أنه لم يكن قوياً بما يكفي من الناحية الجسدية. علماً أنه أظهر طاقاتٍ مذهشة في أكثر من مناسبة، بالإضافة إلى تحركه بسرعة كبيرة.

تدخل إيومينيس هنا مقترحاً أن يشارك الجميع في لعبة نرد على مصروفهم الأسبوعي، وهكذا كانت نهاية جدالهم. انتهى معظم المال في جيوب إيومينيس، لأنه كان يحب المقامرة والذهب من كل قلبه.

بردت أعصاب الإسكندر قليلاً، فترك رفاهه يكملون ألعابهم، وتوجه لزيارة والدته قبل ذهابه إلى النوم. عاشت أولمبيا في تلك الفترة حياة منعزلة، بالرغم من احتفاظها بقدرٍ من النفوذ في البلاط بوصفها والدة ولي العهد، وكادت لقاءاتها مع فيليب تقتصر على المناسبات التي يقتضيها البروتوكول.

تزوج الملك في تلك الفترة من نساء أخريات لأسباب سياسية، لكنه احتفظ باحترام خاص تجاه أولمبيا، كما أنه كان يظهر لها أن الشوق، الذي كان يكتنه تجاهها في الماضي، لم يتبدد كلياً لو أنها كانت أقل شراسة وصعوبة.

كانت الملكة جالسة على مقعد ذي ظهر عالٍ ومسندين قرب مشعل ذي ألسنة لهب خمسة. فتحت الملكة لفافة بردى وبسطتها فوق ركبتيها، وكانت الغرفة مظلمة كلياً خارج دائرة الضوء. دخل الإسكندر بسرعة وهدوء، وخاطبها قائلاً: "ماذا تقرئين يا أماه؟".

رفعت أولمبيا رأسها وأجابت: "سافو. إن شعرها رائع، ومشاعر الوحدة التي تتحدث عنها قريبة جداً من مشاعري...". وقفت، ثم مشت نحو النافذة، ونظرت خارجها، إلى السماء المزينة بالنجوم، وراحت تلو الأَشعار التي قرأتها لتوها، وكان صوتها متذبذباً وحزيناً:

"انتصف الليل في مسيرته

وطلع القمر ونجوم الثريا

وأنا مستلقية في سريري... وحيدة"^(*).

تحرك الإسكندر نحو والدته، فرأى تحت ضوء القمر دمعاً ترتعش للحظة بين رموشها قبل أن تنساب ببطء تاركةً في انسيائها أثراً على خدّها الشاحب.

(*) سافو، مقتطفات، ص 168.

أمر المسؤول عن المراسم بنفخ الأبواق، فتقدّم وجهاء الوفد الفارسي بمهابة داخل قاعة العرش. كان مرزبان فريجيا [آسيا الصغرى] Phrygia، آرساميس، على رأس ذلك الوفد الذي ضمّ الحاكم العسكري لتلك المقاطعة، بالإضافة إلى وجهاء آخرين ساروا خلفه بخطوات.

أحاط بهذا الوفد حرسٌ مؤلفٌ من اثني عشر عنصراً من فرقة الرجال شديدي البأس، وهم جنود الحرس الإمبراطوري، وقد تمّ اختيارهم بناءً على بنيتهم الجسدية الفائقة القوة، وقدرتهم العجيبة على التحمل، وعلى رفعة أنسابهم.

اعتمر المرزبان تاجاً ناعماً، وهو أرفع غطاء رأس بعد التاج الصلب الذي كان مخصصاً للإمبراطور فقط. أما الرداء الذي لبسه فكان منسوجاً من خيوط حريرية خضراء، ومزخرفاً برسوم التنانين الفضية، كما ارتدى تحت ذلك الرداء سروالاً مزخرفاً، بينما انتعل حذاءً مصنوعاً من جلد ظبي. أما وجهاء الوفد الآخرون فقد ارتدوا ملابس مزخرفة، وعباءات جميلة.

لكن أكثر ما جذب انتباه الناظرين كان رجال فرقة الرجال شديدي البأس التابعين للملك العظيم. إذ بلغ طول الواحد منهم نحو ست أقدام، وكانوا ذوي بشرة داكنة، وذوي لحى سوداء ذات خصلات، أما شعر رؤوسهم فكان ممشطاً وملفوفاً. ارتدى هؤلاء أرديةً مصنوعة من أقمشة حريرية مذهّبة تصل إلى كواحلهم، فوق ستراتٍ زرقاء منسوجة من

خيوط حريرية، وسراويل باللون ذاته موشاة برسوم نخل مذهبة. حملت هذه المجموعة فوق أكتافها أقواسها المزودة والمميتة، وحافظات الأسهم المصنوعة من خشب الأرز، والمرصعة بالعاج والفضة.

تقدم الوفد بخطوات بطيئة وإيقاعية، وجعلوا رماحهم، التي تنتهي بكرات مذهبة ومصنوعة على شكل رمانات، تلامس الأرض. وعلق كل واحد من هؤلاء الرجال شديدي البأس عند وركه أجمل سلاح صنعه صانع أسلحة في العالم المعروف، وهو الأكيناكي المذهل، أي الخنجر المصنوع من الذهب الخالص والموضوع في غمد مزين بأنماط من رسوم طائر العنقاء الذي يمتلك عينين من الياقوت. أما الغمد ذاته فمصنوع من أنقى أنواع الذهب، ويتدلى من مفصل متحرك معلق بحزام كل من الرجال شديدي البأس. يعني ذلك تأرجح السلاح من دون عائق مع كل خطوة يخطوها أحد الرجال شديدي البأس، كما أن لمعان تلك المعادن الثمينة قد أضاف المزيد من الإيقاع إلى هيبه حركات هؤلاء المحاربين.

أما فيليب الذي كان ينتظر عرضاً يمثل هذه الفخامة فقد حضر استقبلاً لائقاً. كانت كل جهة من جهات القاعة تضم صفين من الجنود ذوي البنية المتينة، فيما يضم كل صف ستة وثلاثين جندياً من نخبة مشاة الصفوف الأمامية. قدّم هؤلاء الجنود الذين تغطيهم دروعهم البرونزية دروعهم المزركشة بالنجوم الفضية، التي كانت شعار الأركادين، كما أمسكوا بجراهم التي يبلغ طول الواحدة منها اثني عشرة قدماً والتي صنعت مقابضها من خشب القرانيا المدماة. كانت رؤوس الحراب لامعة مثل المرايا، وكادت تلامس السقف.

كان الإسكندر يرتدي أول بذلة مدرعة له، وهي بذلة صممها شخصياً لأحد الحرفيين كي يصنعها له. أحاط بالإسكندر حرسه الشخصي، وكان واقفاً قرب والده فوق منصة. أما من الجهة الأخرى

فقد جلست شقيقته كليوباترا بجمالها الأخاذ قرب الملكة أولمبيا. ارتدت كليوباترا رداءً مصنوعاً في أتيكي، وهو الرداء الذي أبقي ذراعيها وكتفيها مكشوفة، وكانت طياته الأنيقة تحيط بصدرها الفتي، كما انتعلت حذاء مصنوعاً من شرائط فضية.

انحنى آرساميس، عند وصوله إلى العرش، أمام الملك والملكة قبل أن يتنحى جانباً كي يسمح للوفد بالتقدم مع الهدايا التي يحملونها، والتي كانت عبارة عن حزام للملكة محبوك بالذهب ومرصع بالزمرد وأحجار كعيني النمر، أما الملك فكان نصيبه درعاً مرصعاً للصدر مصنوعاً من بيوت السلاحف.

أمر فيليب مدير المراسم أن يتقدم بهداياه إلى الإمبراطور والإمبراطورة، والتي ضمت خوذة مذهبة من سيثيا، وعقداً من المرجان والفضة مصنوعاً في قبرص.

دُعي الضيوف بعد انتهاء هذه المراسم إلى غرفة مجاورة حيث جلسوا على أرائك مريحة، وذلك من أجل مناقشة الاتفاقية التي كانت موضوعة على جدول أعمال ذلك اليوم. سُمح للإسكندر بالحضور لأن فيليب أراده أن يبدأ بأخذ فكرة عن المسؤوليات التي يضطلع بها رجل الحكومة، وكيفية إدارة العلاقات مع الحكومات الخارجية.

تطرقت المفاوضات إلى موضوع شبه الحماية التي أراد فيليب فرضها على المدن اليونانية في آسيا، وذلك مع استمرارية الاعتراف بالسيادة الفارسية على المنطقة. أما الفرس فقد أعربوا عن قلقهم تجاه تقدم فيليب نحو المضائق، وهي المنافذ المحورية بين قارتين ومنافذ التقاء ثلاث مناطق عظيمة: آسيا الصغرى، وآسيا، وأوروبا.

حاول فيليب عرض موقفه من دون التسبب بقلق كبير بين أعضاء الوفد: "ليست لدي أي مصلحة في زعزعة السلم في المناطق المحيطة

بالمضائق. إن هدي الوحيد هو تثبيت السيطرة المقدونية في المناطق الممتدة ما بين خليج الأدرياتيك والساحل الغربي للبحر الأسود، وهو الأمر الذي لا بد وأن يجلب الاستقرار إلى البوسفور بوابة التنقل والتجارة، وهما الأمران اللذان يمثلان حاجة حيوية لنا جميعاً".

منح فيليب المترجم بعض الوقت، ثم راقب الملامح التي ارتسمت على وجوه الضيوف خلال تحوّل كلماته واحدة تلو الأخرى من اليونانية إلى الفارسية.

لم يُظهر آرساميس أي رد فعل ينم عن مشاعره، لكنه التفت إلى فيليب، وتطلع في عينيه مباشرة وكأُهما كانا يتكلمان لغةً واحدة، ثم قال: "إن المشكلة التي يود الملك العظيم أن يحلها هي علاقتكم مع السكان اليونانيين في آسيا، ومع ممالك يونانية تتواجد على الشواطئ الشرقية لبحر إيجه. كنا نفضّل على الدوام استقلال هؤلاء السكان، كما رغبتنا دائماً بأن يحكم اليونانيون المدن اليونانية... إنهم أصدقاؤنا كما تعلمون، إننا نرى أن استقلالاً كهذا هو حلّ سليم، يحترم هذا الحل تقاليدهم ويحفظ كرامتهم من ناحية، ويحفظ مصالحهم ومصالحنا من ناحية أخرى". توقف قليلاً كي يسمح للمترجم بإتمام كلامه، ثم تابع بالقول: "إننا نتعامل مع مشكلة حدود كانت على الدوام مصدراً للاحتكاك والصراع المرير، أو حتى للحرب على نطاق واسع".

بدأ النقاش في ملامسة نقاط صعبة أخرى. أراد فيليب أن يربط الأجواء قليلاً، فأوماً إلى مدير المراسم، وسرعان ما دخل بعض الشبان الوسيمين جداً والشابات الفاتنات، والذين لم يرددوا جميعاً سوى قدرٍ قليل من الملابس. تقدّم هؤلاء ليقدموا الحلويات والشراب القوي مع قطع ثلجٍ من جبل بيرميون كانت قد حُفظت في جرارٍ موجودة في المستودع الملكي، أما الأكواب الفضية فكانت مغطاة بطبقة رقيقة من

الثلج، مما أضفى نوعاً من اللمعان المعتم إلى هذه الأكوام المعدنية، وأعطى إحساساً بالبرودة المنعشة يروق للعين قبل اليد. سمح الملك لضيوفه الأجانب أن ينتقوا ما طاب لهم من شراب وحلوى قبل أن ينتقي حصته مما تبقى.

"أعرف تماماً ما تقصده يا ضيفي المبجل، إنني أدرك أنه وقعت في الماضي عدة حروب بين اليونانيين والفرس، لكنها لم توصلنا إلى أي حل محدد، أحب أن أذكرك أن بلدي وأسلافي، وملوكنا، قد عملوا دائماً بوصفهم وسطاء، ولذلك أرجوك أن تُبلغ الملك العظيم أن صداقتنا مع المدن اليونانية في آسيا هي نتيجة وعينا لأصولنا المشتركة، ولدينا المشترك، وكذلك للروابط العائلية القديمة وواجبات الضيافة..."

أصغى آرساميس من دون أن يُظهر أي انفعالات وكان وجهه يشبه وجه أبي الهول، وقد أحاط الكحل بعينه وأعطاه مظهراً غريباً من السكون، راقب الإسكندر من مركزه العالي والده وضيفه وكل منهما يحاول فهم ما يخبئه الآخر وراء ستار الكلمات المعسولة.

صمت فيليب لبرهة قصيرة، ثم قال: "أنا لا أنكر أننا مهتمون كثيراً بالتبادل التجاري مع هذه المدن، كما أن لدينا اهتماماً أكبر بخبراتهم الهائلة في كل ميادين المعرفة. إننا نريد أن نتعلم كيف نبني، وكيف نُبحر، وكيف نسيطر على مجاري مياهنا في أراضينا..."

تكلم رئيس الوفد الفارسي، لغرابة الأمر، قبل أن يُنهي المترجم كلامه: "وماذا تعرضون علينا في المقابل؟".

تمكّن فيليب من إخفاء دهشته ببراعة، فأجاب بكل هدوء: "الصداقة، والهدايا، والمنتجات التي لا يستطيع غير المقدونيين توفيرها، مثل أخشاب غاباتنا، والجياد القوية، والعبيد الأقوياء من السهول

المخاضية لنهر إستر. أريد، وببساطة، أن ينظر كل اليونانيين الذين يعيشون حول بحرنا إلى ملك مقدونيا على أنه صديقهم الطبيعي، لا أريد أكثر من هذا".

بدا الفرس سعداء بما قاله الملك. فلقد أدركوا، على كل حال، أنه حتى ولو كان يكذب عليهم، فإن الواقع يقول إنه عاجز في الوقت الحاضر عن البدء في مشاريع عدوانية، وهو كل ما يهم في الوقت الراهن. اقترب الإسكندر من أبيه ما إن غادر الوفد الغرفة ليتوجه إلى قاعة المآدب، ثم همس له في أذنه: "ما نسبة الصدق في ما أخبرتم إياه".

خرج فيليب إلى الرواق بعد أن أجاب ابنه: "لا شيء تقريباً".
"وهو الأمر الذي يعني أنهم بدورهم..."

"لم يقولوا لي أي شيء يحمل قيمة حقيقية".
"إذاً، ما فائدة هذه الاجتماعات؟".

"إننا نجسّ نبض بعضنا بعضاً".

سأل الإسكندر: "تجسّون نبض بعضكم بعضاً؟".

"بالضبط، إن السياسي الحقيقي لا يحتاج إلى الكلمات، لأنه يضع ثقة أكبر في حدسه. إنني أسألك، على سبيل المثال، من تظنه يفضل: الفتيات أم الفتیان؟".

"من تقصد؟".

"أتحدث عن ضيفنا، بالطبع".

"حسناً... في الواقع، لا أعرف".

"إنه يحب الفتیان، لكنه أعطانا انطباعاً أنه يراقب الفتیات، كان يراقب، بطرف عينيه، ذلك الفتى الأشقر الذي كان يقدم الشراب المثلج، سأبلغ مدير المراسم أن يتأكد من القيام بما هو لازم. جاء الفتى من بثنيا، وهو يتكلم الفارسية، يُحتمل أن تتمكن هذه الطريقة من

معرفة أفكار ضيفنا الحقيقية، يمكنك أن تكون دليلاً لضيوفنا، وتريهم القصر وما حوله".

أوما الإسكندر بالموافقة، وعندما حان الوقت قام بمهمته بكل طيبة خاطر، سبق للإسكندر أن قرأ الكثير عن الإمبراطورية الفارسية، وهو يحفظ كتاب تعليم سيروس الذي ألفه زينون الأثيني عن ظهر قلب تقريباً. سبق له أن قرأ كذلك كتاب بيريسكا الذي ألفه ستيسياس، وهو كتاب تاريخي مليء بالمبالغات الخيالية، لكنه مشوّق، بالرغم من ذلك، بسبب الملاحظات التي سجّلها عن عادات الناس وطبيعة بلادهم. كانت تلك أول مناسبة على الإطلاق أتاحت للإسكندر فرصة تبادل الحديث مع الفرس شخصياً.

رافقه مترجم في أثناء تعريف الضيوف إلى القصر، وأجنحة النبلاء الصغار، وهناك سجّل ملاحظة ذهنية كي يتأكد من توجيه تأنيب إلى لايسيماخوس بسبب تركه سريره في حالة غير مرتبة بالطريقة اللائقة. شرح الإسكندر للوفد أن أبناء الأرستقراطيين المقدونيين كانوا يتعلمون معه في البلاط.

علّق آرساميس قائلاً إن هذا الإجراء ذاته متبع في سوسا عاصمة بلادهم، وبهذه الطريقة لا يأمن الملك ولاء زعماء القبائل فقط، لكنه يربي جيلاً كاملاً من النبلاء المتعلقين بالعرش.

عرّفهم الإسكندر على إسطبلات المسؤولين، وهم الأرستقراطيون الذين يخدمون في سلاح الفرسان، والذين يستحقون لقب رفاق الملك، وراقب مع الوفد تدريب بعض الجياد الممتازة الآتية من تساليا.

علّق أحد وجهاء الوفد الفارسي بالقول: "إنها حيوانات عظيمة". سأل الإسكندر بشيء من الصراحة: "هل تمتلكون جياداً جميلة كهذه؟".

ابتسم ذلك الوجيه وقال: "ألم تسمع أبداً، أيها الأمير، بجياد نيسيا؟".
شعر الإسكندر بالخرج، وهزّ رأسه بالنفي.

"إنها حيوانات قوية ذات جمال رائع، والتي لا يُسمح لها بالرعي إلا في مرتفعات ميديا، وهناك ينمو العشب الغني جداً بالسّمات الغذائية التي تدعى مديكا. إن أزهار الأعشاب ذات اللون الأرجواني هي أغنى أجزاء النبتة، كما أن جواد الإمبراطور يرعى أزهار المديكا فقط، والتي يجمعها عمال الإسطبل زهرةً زهرة، وتقدم طازجةً في الربيع والصيف، لكنها تقدّم مجففة خلال فصلَي الخريف والشتاء".

ذهل الإسكندر من هذه الرواية، وحاول أن يتخيّل شكل ذلك الجواد الذي يتغذى على الأزهار.

توجه الوفد بعد ذلك لزيارة الحدائق التي زرعت فيها الملكة أولمبيا كل أنواع ورود بيريا المعروفة، والتي كانت تفوح منها في ذلك الوقت من السنة رائحة عطرية قوية.

قال الإسكندر: "يحضّر المشرفون على الحدائق عندنا أنواع النقيع، والمستخرجات النباتية، لسيدات البلاط من هذه الورد، لكنني قرأت عن حدائقكم، والتي نطلق عليها نحن اليونانيين اسم جنّات، هل هي حقاً جميلة إلى هذا الحد؟".

"جاء أسلافنا من الجبال والمنحدرات التي تقع في المناطق الشمالية القاحلة، لذلك كانت الحدائق أحلاماً بالنسبة إلينا، إننا نطلق على هذه الحدائق في لغتنا اسم جنّات وهي أماكن مسوّرة محاطة بجدران سميكة، وتقطعها أنظمة أفنية ري متطورة، وهي التي تُبقي المروج العشبية خضراء طوال أيام السنة. تقوم عائلات النبلاء بزرع كل أنواع النباتات المحلية والغريبة، كما يملأونها بحيوانات جميلة يأتون بها من أنحاء الإمبراطورية كافة: الدراج، والطاووس، والبغاء، وحتى النمر،

والنمور البيضاء، والنمور السوداء. إننا نسعى جاهدين كي نعيد إنشاء عالم آهورا مازدا، تمجّد اسمه، لأول مرة".

اصطحب الإسكندر الوفد بعد ذلك في عربة مقفلة كي يروا العاصمة وأنصائها، ومعابدها، وأروقتها ذات الأعمدة، وساحتها. قال شارحاً: "لدينا عاصمة أخرى، وهي إيجية التي تقع على أسفل سفوح جبل بيرميون، وهي المدينة التي انحدرت منها عائيتي، بالإضافة إلى أن ملوكنا مدفونون هناك. هل صحيح أن لديكم، بدورك، أكثر من عاصمة واحدة؟".

أجاب آرساميس: "أجل أيها الأمير الشاب، لدينا أربع عواصم. وتعدل مدينة باسارجادي مدينة إيجية عندهم، ولقد كانت مركز ملوكنا الأوائل. أما عند الهضبة التي تعصف فيها الرياح فيقع مدفن سيروس العظيم مؤسس السلالة. وتأتي بعد ذلك إسباتانا في عيلام، وهي العاصمة الصيفية، وتقع في جبال زاغروس، ويكسوها الثلج معظم أيام السنة. إن جدران القلعة هناك مغطاة ببلاط مصنوع من ألواح ذهبية، وهكذا عندما تقع عليها أشعة الشمس، فإن المبني بكامله يلتمع مثل جوهرة وسط خلفية من الثلج. إنه منظر مؤثر بالفعل أيها الأمير. أما العاصمة الثالثة فهي سوسا، حيث يسكن الملك العظيم خلال فصل الشتاء، أما المدينة الرابعة فهي برسيبوليس العظيمة، والتي شُيّدت في مكان عال، وعُطّرت بعبور الأرز والبخور، وهي تربض فوق غابة من الأعمدة ذات الألوان الأرجوانية والذهبية. إن الكنز الملكي محفوظ هناك، وهو الكنز الذي لا تحيط بعظمته الكلمات، أمل أن تقوم بزيارته في يوم من الأيام".

أصغى الإسكندر مأخوذاً بما سمع، وكاد يرى بمخيلته تلك المدن الرائعة، وحدائق الأحلام تلك، وكنز القرون الغابرة، وتلك الأراضي

التي لا حدود لها. وعندما رجع الضيوف إلى القصر طلب منهم الجلوس فوق مقاعد حجرية، وأمر بإحضار أكواب من العسل المذاب بالماء، فسألهم الإسكندر وهم يشربون: "أخبروني، ما مدى اتساع إمبراطورية الملك العظيم".

أضاءت عينا المرزبان وامتلاً صوته بالمشاعر، وراح يقول مثل شاعرٍ يتغنى بجمال البلاد التي ولد فيها: "تمتد إمبراطورية الملك العظيم شمالاً إلى النقطة التي يعجز عن العيش فيها أي إنسان بسبب البرد، وتمتد جنوباً إلى حيث لا يستطيع أي إنسان العيش فيها بسبب الحرارة. إنه يحكم ما يزيد عن مئة شعب، بدءاً من ذوي البشرة السوداء والشعر الأجمع، والذين يرتدون جلود الفهود، إلى ذوي البشرة السوداء والشعر الأملس والذين يرتدون جلود النمرور.

تتواجد ضمن حدود الإمبراطورية صحارٍ لا يجرؤ أحدٌ على عبورها، وجبال لم تحسر أيّ أقدام بشرية على تسلقها، وهي عالية إلى حدّ أن قممها تكاد تلامس القمر. إن أكبر أنهار الأرض الأربعة، والتي تقدسها الأسىاد والبشر، تمر من خلال أراضي الإمبراطورية، وهي النيل، ودجلة، والفرات، والسند هذا بالإضافة إلى آلاف غيرها مثل الأراكس الوحشي، وهي التي تصب كلها في بحر الخزر⁽¹⁾، وهو بحر غامض لا تزال حدوده غير معروفة حتى الآن، وهو من الاتساع بحيث يعكس خمّس السماء... كما يوجد طريق من مدينة سرديس يعبر أراضي نصف مقاطعات الإمبراطورية، بحيث يصل إلى العاصمة سوسا، وهو طريق معبّد بالأحجار بكامله، ومزوّد ببوابات مصنوعة من الذهب".

(1) بحر الخزر هو بحر قزوين في أيامنا هذه، ودعي بالخزر نسبة إلى مملكة الخزر اليهودية التي قامت على شواطئه الشمالية.

صمت آرساميس فجأة، وتطلع في عيني الإسكندر. رأى في عيني
هذا الأمير الصغير توقاً قوياً إلى المغامرة ونور قوة حيوية لا تقهر، ففهم
عندها أن روحاً أقوى من تلك التي عرفها في حياته تشتعل داخل هذا
الشاب، تذكر بعد ذلك قصة حادثة وقعت قبل سنين عديدة، وهي
حادثة ترددت أصداؤها كثيراً في بلاد فارس: ذات يوم هبت رياح
(أنفاس) مفاجئة داخل معبد النار في جبل النور، آتية من المجهول،
وأطفأت النار المبحلة.
شعر آرساميس بالخوف في هذه اللحظة.

بدأت المطاردة عند انبلاج خيوط الفجر الأولى، وشارك فيها أصغر الشبان الذين يعيشون في البلاط، وذلك بناءً على رغبة الملك. وكان الإسكندر برفقة أصدقائه بيلاطس، وسلوقس، وهيفاستيون، وبيرديكاس، ولايسسيماخوس، وليوناتوس، بالإضافة إلى بطليموس، وكراتيروس وآخرين.

دُعي إيومينيس كذلك للمشاركة، لكنه اعتذر بسبب اضطرابات في معدته، وأبرزَ مذكراً من الطبيب فيليب الذي طلب منه الراحة التامة لعدة أيام، بالإضافة إلى دواء يعتمد على بيضٍ مسلووقٍ لمدة طويلة. أرسل الإسكندر ملك إبيروس مجموعةً من كلاب الصيد التي يحتفظ بها، كانت تلك كلاب صيدٍ خاصة تمتلك حاسة شمٍ ممتازة، والتي أطلقها المساعدون في هذا الوقت، وهم الذين أخذوا أماكنهم قبل ليلة في طرف الغابة التي تقع في قمة الجبل. جُلبت أسلاف هذه الكلاب من الشرق قبل أكثر من مئة سنة، وتأقلمت في منطقة إبيروس بشكل جيد. تواجدت أفضل مراكز تدريب الكلاب في البلاد التي يسكنها شعب مولوشا، وكذلك الأمر بالنسبة إلى كلاب الصيد، والتي أصبحت تُدعى Molossians. إن قوة هذه الكلاب، وبنيتها الكبيرة، وقدرتها على تحمل الألم، جعلتها أفضل نوع من الكلاب المناسبة لصيد الحيوانات الكبيرة.

أبلغ رعاة الماشية عن وجود أسد في المنطقة، وهو ذكرٌ ارتكب عدة مجازر إذ قتل العديد من النعاج والأبقار. تعمد فيليب انتظار هذه

المناسبة الخاصة للبدء في مطاردة الحيوان، فلقد أراد تعريف ابنه على التسلية الوحيدة التي تليق بالأرستقراطيين، وأن يقدم إلى ضيوفه الفرس تسلية تليق بمراكزهم العالية.

انطلق الجميع من بيلا قبل ثلاث ساعات من طلوع الفجر، وما إن طلعت الشمس حتى أدركوا أنهم في أسفل الجبال التي تفصل وادي أكسيوس عن وادي لودياس. كان الأسد يختبئ في مكان ما يفصل ما بين غابتي السنديان والزان اللتين تغطيان هذه الجبال.

أوماً الملك، وسرعان ما أسرع رؤساء حملة الصيد إلى نفخ أبواقهم. تضخم الصوت نتيجة الصدى، وارتحل عالياً إلى القمم المكسوة بالأشجار فسمعه المساعدون الذين سارعوا إلى حث الكلاب على الانطلاق، ثم تبعوها مشياً على الأقدام، شارك هؤلاء في حملة إحداث الضجيج وراحوا يدقون حلقات معدنية معلقة على رماحهم وعلى دروعهم الواقية.

ردّد الوادي أصوات نباح مجموعة الكلاب، فجهّز الصيادون أنفسهم، وألفوا نصف دائرة على امتداد نحو خمس عشرة ستاديا.

كان فيليب في مركز هذه الدائرة مع قاده: بارمينيون، وأنتياتر، وكليتوس، وبلاك، فيما انتشر الفُرس على الجناح الأيمن. لكن الجميع دُهِشوا للتغيّر الذي حدث في مظاهرهم: إذ اختفت السترات المزركشة والعباءات الفاخرة. كان المرزبان، وفرقته، يرتدون ثياباً مثل أسلافهم البدو ومجهزين مثلهم، أي أنهم ارتدوا سراويل جلدية، وسترات، واعتمدوا قبعات صلبة، وحمل كل واحد منهم رمحين داخل حافظة رماح، وقوساً مزدوجاً، مع علبة تحتوي على عدد من السهام. وقف الإسكندر ملك إبيروس إلى يسار فيليب، وكذلك اصطفت معه بطليموس وكراتيروس، ثم وقف خلفه أصغر الصيادين في المجموعة، أي الإسكندر، وهيفاستيون، وسلوقس، وآخرون.

انسابت غلالة رقيقة من الضباب بمحاذاة مجرى النهر، ونشرت ما يماثل حجاباً شفافاً فوق السهل الأخضر المليء بالأزهار، والذي كانت ظلال الجبل تخيم على معظم مساحته. قطعت صرخة مفاجئة السكون المخيم على المكان، وحجبت نباح الكلاب البعيد، كما صهلت الجياد بشدة، ثم راحت تضرب الأرض بحوافرها، بحيث كان من الصعب إعادتها إلى هدوئها.

بقي الجميع في مكانهم بطريقة ما، كما تمكنوا من انتظار الأسد حتى يخرج إلى العراء، انطلق في بداية الأمر زئيراً آخر، لكنه أعلى هذه المرة، وعلى الفور ترددت أصوات زئير آخر من بعيد، وبدأ أنه قادم من النهر، كانت اللبوة مجتمعة مع شريكها!

خرج الذكر الكبير أخيراً من بين الأشجار، فأطلق زئيراً أقوى كاد أن يهزّ الجبل هذه المرة، لكنه أفلح في إخافة الجياد، وذلك بعد أن اكتشف أنه محاصر، وظهرت الأنثى بدورها بعد وقت قصير: تردد هذان في التقدم إلى الأمام لأن الصيادين يتحلقون حولهما، لكن لم يستطع أيّ منهما الرجوع بسبب تقدّم المساعدين، وهكذا اندفعا نحو النهر.

أطلق فيليب إشارة بدء المطاردة، واندفع الجميع نحو السهل في اللحظة ذاتها التي طلعت فيها الشمس من وراء قمة الجبل غامرة الوادي بالأنوار.

كان الإسكندر ورفاقه جالسين في موقع قريب من ضفة النهر، وكانت هذه المجموعة حريصة على إظهار شجاعتها، فأطلقت كلاب صيدها من أجل اعتراض طريق الأسدين.

قلق الملك في هذا الوقت من احتمال أن يتعرض الشبان لخطر مؤكّد، لذلك انطلق بدوره حاملاً رمحه بيده في جهوزية تامة، بينما

وسَّعَ الفُرسُ دائرةَ تواجدهم، ودفعوا جيادهم كي تزيد من سرعتها من أجل منع الأسدين من العودة إلى الغابة مجدداً ومواجهة الكلاب.

شعر الإسكندر بالإثارة نتيجة هذه المطاردة، وكان على وشك رمي رمحه نحو الجهة المكشوفة من الأسد الذكر عندما اندفعت كلاب الصيد خارجةً من الغابة وعندها، استدارت اللبوة إلى الجهة المقابلة بسبب خوفها، ووثبت على مؤخرة جواده، فدفعته إلى الأرض. أحاطت الكلاب باللبوة على الفور، فأجبرت على إرخاء قبضتها بحيث تمكّن الجواد من الوقوف على قوائمه وانطلق هارباً، وراح يرفس، ويصهل، وينزف دماً خلال ركضه فوق العشب.

وقف الإسكندر في مواجهة اللبوة، كان الأمير أعزل من سلاحه في هذه اللحظة لأنه فقد رمحه خلال سقوطه. ولكن، في تلك اللحظة بالذات وصل هيفاستيون ملوّحاً بسلاحه، وتمكّن من جرح اللبوة جرحاً طفيفاً، الأمر الذي جعلها تطلق زئيراً نتيجة الألم الذي شعرت به.

تمكّنت اللبوة من جرح رقاب عدة كلاب صيد واستدارت نحو شريكها الذي كان يهاجم هيفاستيون بشراسة، دافع الفتى عن نفسه بشجاعة بواسطة رمحه، لكنّ الأسد كان يهاجمه بوحشية، ويزأر ضارباً جهتي ظهره بذنبه.

اقترب فيليب وبارمينيون في هذا الوقت، لكن كل شيء كان يحدث بسرعة، إذ تمكّن الإسكندر من التقاط رمحه وصوبه نحو الهدف، لكنه لم يدرك أن اللبوة كانت جاهزةً للانقضاض عليه مرة أخرى.

رفع أحد المحاربين الفرس قوسه في تلك اللحظة، وهو الذي كان على مسافة بعيدة عن المكان، ومن دون أن يوقف جواده شدّ السهم وأطلقه في الجو، قفزت اللبوة في اللحظة ذاتها التي صفر بها السهم مخترقاً

الهواء، فاخترق جنبها، ووقعت على الأرض بعد أن أصاب السهم منها مقتلاً.

وصل فيليب وبارمينيون إلى الأسد فدفعاه برفق للابتعاد عن الفتيين. وجّه الملك الضربة الأولى، لكن الإسكندر وهيفاستيون ما لبثا أن عادا على الفور إلى الهجوم مرة أخرى، وتمكّنا من جرح الأسد هذه المرة بحيث إن كل ما تبقى على بارمينيون فعله هو توجيه الضربة الأخيرة.

راحت جميع الكلاب بالنباح والعيول وكأنها ممسوسة، وسمح لها المساعدون بلعق دم الأسدين كي تتذكر الرائحة في المطاردة التالية. ترجّل فيليب وعانق ابنه قائلاً: "لقد أخفّيتني يا بني، لكنك جعلتني أفخر بك كذلك. ستكون ملكاً ذات يوم بالتأكيد، وملكاً عظيماً". عانق هيفاستيون أيضاً، وهو الذي خاطر بحياته من أجل إنقاذ حياة الإسكندر.

هدأ الجميع قليلاً بعد حين، فبدأ كبار الصيادين بسلخ جلدي الأسدين، لكن الجميع تذكّروا تلك اللحظة الحاسمة، لحظة انقضاء اللبوة.

استدار الجميع فرأوا رجلاً غريباً، كان من فرقة الرجال شديدي البأس، لكنه كان يقبع ساكناً فوق صهوة جواده من دون حراك، وكان قوسه المزدوج لا يزال في يده، وهو القوس الذي رمى به اللبوة من مسافة تزيد عن مئة قدم، كان الرجل يتسم مظهره صفين من الأسنان الأنصع بياضاً وسط لحيته الكثيفة السوداء.

أدرك الإسكندر في هذه اللحظة أن وجهه مليء بالجراح والخدوش، كما لاحظ أن هيفاستيون ينزف من جرح سطحي، وإن كان مؤلماً، أحدثته محالب الأسد. أمسك بصديقه بقوة، وأمر بنقله إلى

الجراحين كي يتمكنوا من مداواة جراحه، ثم التفت بعد ذلك إلى المحارب الفارسي الذي كان يراقبه من بعيد، من فوق صهوة جواده النيسي.

سار الإسكندر نحو الرجل الذي أنقذ حياته، وعندما أصبح على بعد خطوات قليلة منه نظر في عينيه وقال: "أشكرك، أيها الضيف الغريب، لن أنسى ذلك أبداً".

لم يفهم الضيف كلمات الإسكندر لأنه لم يكن يونانياً، لكنه أدرك معناها تماماً، ابتسم الرجل مرة أخرى، وأحنى رأسه، ثم نخس جواده بقدميه، وأسرع كي ينضم إلى رفاقه.

بعد قليل، استؤنفت المطاردة، واستمرت حتى مغيب الشمس، أي عند إعطاء الإشارة الأخيرة، فجمع المساعدون كل الطرائد التي وقعت بين أيدي الصيادين: أيلًا واحدًا، وثلاثة حيوانات مقززة، وزوجاً من الطباء.

اجتمع الصيادون مع حلول المساء تحت خيمة كبيرة كان الخدم قد نصبوها وسط السهل، وراحوا يضحكون، ويصرخون، ويسترجعون أحداث اللحظات المثيرة التي مرّت عليهم في ذلك اليوم، بينما اهتمك الطبّاخون في تنظيف الطرائد وتقطيعها إلى قطع صغيرة، ثم قدموها إلى المجتمعين. بدأوا بالملك أولاً والضيوف، ثم الأمير، وبعد ذلك الآخرين.

بدأ الشراب يدور بكثرة بعد وقت قصير، حتى إن الإسكندر وأصدقائه نالوا قسطهم منه. كانت أفعالهم في ذلك اليوم دليلاً واضحاً على أنهم بلغوا مبالغ الرجال.

ووصلت النسوة بدورهن في وقت محدّد: عازفات الناي، والراقصات، كنّ ماهرات في إضفاء الحيوية والحركة على هذه المأدبة عبر رقصهن، ونكاتهن، وطاقاتهن الشبابية في الحميمية.

كان فيليب مبتهجاً بشكل خاص، وقرّر أن يشاركه كل ضيوفه في لعبة الكوتوبوس، ثم طلب من المترجم أن يفسّر للضيوف الفُرس ما يقوله:

"أترون تلك الفتاة الواقفة هناك؟" وأشار إلى إحدى الراقصات التي كانت تنزع ثيابها في تلك اللحظة بالذات. "يتعيّن عليكم أن تصيبوها بين ساقبها بآخر قطرات الشراب التي تبقى في أكوابكم، إن أي شخص يصيب الهدف ستكون هي جائزته، انتبهوا، هكذا، راقبوا جيداً!" أنزل سبابته وإصبعه الوسطى من خلال مسكتين، وقذف الشراب باتجاه الفتاة، أصابت قطرات الشراب وجه أحد الطباخين، فانفجر الجميع بالضحك، وتعالّت الصيحات: "يتعيّن عليك أن تأخذ الطباخ الآن يا سيدي! الطباخ! الطباخ!"

هزّ فيليب كتفيه، وحاول مرةً أخرى، ولكن، بالرغم من اقتراب الفتاة منه وإمكانية إصابتها بسهولة إلا أن الملك أخطأ الهدف بفارق بسيط.

لم يكن الفُرس معتادين على شرب الشراب غير المخفّف، ولهذا كان معظمهم يتلون على الأرض تحت الطاولات. أما بالنسبة إلى آرساميس، وهو ضيف الشرف، فلم يتمكن من التوقف عن التودد إلى الفتى الأشقر الذي رافقه في الليلة السابقة.

جرت محاولات عدة، لكن اللعبة لم تحرز نجاحاً كبيراً لسبب بسيط، وهو أن الضيوف كانوا ثملين جداً كي ينجحوا في لعبة كهذه، وهي التي تتطلب حداً معيناً من المهارة. نال كل شخص أول فتاة صادفها في طريقه، بينما نال الملك، بصفته المضيف، الفتاة التي وعد بتقديمها كجائزة. فحين شارفت الوليمة على النهاية، انتهت إلى أعمال عردة كما جرت العادة.

وقف الإسكندر، وارتدى عباءته، ثم سار مبتعداً عن الستارة، وتوجّه نحو النهر، كان تحرير المياه يتردد بين الصخور والأحجار، وكان القمر لا يزال يتسلّق قبة السماء فوق قمة جبل بيرميون، وهكذا أضفى نوره غلالة فضية على المياه ونشر لمعاناً خفيفاً فوق السهل.

خفتت في هذه الأثناء الصيحات المتصاعدة من تحت الخيمة، بينما قويّ صوت الغابة: حفيف أوراق الأشجار، وخفق أجنحة الطيور، والهمسات قبل أن ينطلق صوت أغنية على حين غرة، بدا الصغير وكأنه آت من مصدر سري، سُمع رنين كان مخنوقاً في البداية، ثم ما لبث أن أصبح أكثر حدة ووضوحاً. بدا الأمر وكأن عازف قيثارة على مستوى عالٍ من المهارة، يعزف من أعماق الغابة التي تفوح منها روائح زكية، لكن ذلك كله كان ترنمة عندليب.

وقف الإسكندر في مكانه مذهولاً وهو يصغي إلى ألحان هذا المطرب الصغير، ولذلك لم ينتبه إلى مرور الوقت. ولكنه أدرك، فجأة، وجود شخصٍ إلى جانبه. التفت ليجد لبيتين، الفتاة التي أحضرها كي تساعد على إعداد موائد الطعام.

كانت تراقبه، وقد شبكت يديها في حضنها، بينما كانت نظراتها صافية وهادئة، تماماً مثل السماء فوقهما. داعب الإسكندر وجهها بيديه، ودعاها إلى الجلوس إلى جانبه، وما لبث أن احتضنها بقوة بين ذراعيه، وبصمت.

*

بدأ الجميع، بمن فيهم الضيوف الفُرس الذين تلقوا دعوةً للبقاء حتى إقامة الوليمة الرسمية التي كانت مقررة في اليوم التالي، بالعودة إلى بيلا مع خيوط الفجر الأولى.

استدعت الملكة أوليميا ابنها فور عودته، وضمته بشدة بين ذراعيها عندما رأت الجراح والخدوش التي انتشرت فوق ذراعيه وساقيه، لكنه تراجع وسط شعوره بالخجل.

"أبلغوني بما فعلت، كان يُمكن أن تموت".

"أنا لا أخاف الموت يا أمي، لا يمكن تبرير السلطة والمجد اللذين يتمتع بهما الملك، إلا إذا كان مستعداً للتضحية بحياته عندما تحين اللحظة المناسبة".

"أعرف ذلك، لكن ما حدث يجعلني أرتجف من الخوف، أرجوك أن تُبقي جرأتك تحت التحكم، وأتوسل إليك ألا تُقدم على مخاطرات لا معنى لها. إنك لا تزال صبيّاً، ولا تزال بحاجة إلى فترة كي يكتمل نمو جسمك، وعليك أن تضع قوة أكبر في أطرافك".

حدّق الإسكندر إليها مليّاً، وقال لها: "يتعيّن عليّ أن أمضي قُدماً كي ألقى قدري، أما رحلتي فقد بدأت، أنا متأكد من ذلك، لكن ما لا أعرفه يا أماه، هو إلى أين يُمكن أن تقودني هذه الرحلة، ومتى ستنتهي".

قالت الملكة بصوت مرتعش: "لا أحد يعلم ذلك يا بني، إن القدر يخفي وجهه بحجاب داكن".

دخل الإسكندر ملك إيبيروس إلى غرفة ابن شقيقته في اليوم التالي لرحيل الفُرس، حاملاً بيده رزمة صغيرة بين ذراعيه. سأله الإسكندر: "ما هذه؟".

"إنه يتيم صغير عاثر الحظ، قُتلت والدته على يد لبوة منذ أيام قليلة. أتريده؟ إنه من مولوشيا، وإذا عاملته بالحسن فسيعيد إليك إحسانك إليه ألف ضعف".

فتح الإسكندر الرزمة فوجد جرواً ذا لون بني مائل إلى البرتقالي، يتميز ببقعة أفتح لوناً في جبهته. "اسمه بيريتاس".

رفع الإسكندر الجرو نحوه، وأجلسه على ركبتيه ثم بدأ بتمسيده، وقال: "اسم جميل، وهو جروٌ جميل، هل أستطيع الاحتفاظ به؟".

أجاب خاله: "إنه لك، لكن، يجب عليك الاهتمام به، لأنه لم يُفطم بعد".

"ستهتم لبنتين بكل هذه الأمور، وسيكبر بسرعة، وسيكون كلب الصيد الخاص بي، ورفيقي كذلك. شكراً جزيلاً لك".

تحمست لبنتين كثيراً للمهمة الجديدة التي أوكلت لهما، وبدأت هما على الفور بإحساس كبير بالمسؤولية، وكانت علامات طفولتهما البائسة قد بدأت بالتلاشي تدريجياً من ذاكرتهما، وبدأت تزداد نضارة يوماً بعد يوم. إذ بدأ لون بشرتهما يميل إلى أن يصبح أفتح، وأكثر إشراقاً، أما عيناهما فقد أصبحتا أكثر صفاءً، وأكثر تعبيراً، كما أن شعرها البني أصبح أكثر التماعاً مع خصلات بلون النحاس، وحتى أكثر إشراقاً.

سأل هيفاستيون وهو يقهقه: "هل ستدعوها إلى الحميمة عندما تصبح جاهزة؟".

أجاب الإسكندر: "يُحتمل ذلك، لكن ذلك ليس السبب الذي دفعني لانتشالها من البؤس الذي وجدتها تعيش فيه".

"لا؟ لماذا فعلتَ ذلك إذا؟".

لم يعطِ الإسكندر إجابة عن هذا السؤال.

*

كان الشتاء التالي قاسياً بشكلٍ خاص، وتعرّض الملك لنوبات من الألم الحاد في ساقه اليسرى مراراً، وكان ذلك نتيجة جرحٍ قديم رفض التماثل إلى الشفاء بالرغم من مرور السنين.

سَخّن الطبيب فيليب أحجاراً فوق النار ثم لفّها بقماشٍ صوفي كي يمتصّ الرطوبة الزائدة، ثم مسّد المنطقة المؤلمة بزيت التربنتين الذي جاء به من شجرة التربنتين، ثم عمدَ في بعض الأحيان إلى إجبار الملك على طي ركبته حتى يلامس كاحله ردفه، وكان ذلك هو التمرين الذي يكرهه الملك أكثر من غيره لأنه كان أشدّ التمارين إيلاماً، لكنّ الخطر كان في احتمال أن تستمر هذه الساق بالتقلص، مع العلم أنّها أقصر من الساق الثانية.

لم يكن يخفى على أحد الأوقات التي يكون الملك فيها قد وصل إلى أقصى درجات احتماله، لأنه سرعان ما كان يبدأ بالزئير مثل أسد محاصر، ثم يأتي دور ضجيج الصحون والأكواب المهشمة، وكلها كانت دليلاً واضحاً على أنه أنهى رمي كل المراهم، والنقوع النباتية، والأدوية التي وصفها له سميّه الطبيب، عرض الحائط.

كان الإسكندر يتعمد بين وقتٍ وآخر ترك القصر في بيلا كي يعزل نفسه في إيجية، العاصمة القديمة التي تقع في كنف الجبال. كان

يُشعل ناراً في غرفته، ويجلس لساعات متأملاً الثلج المتساقط، والذي كان يغطي القمم، وغابات التنوب الأزرق، وكل الأودية.

أحب الإسكندر مراقبة الدخان المتصاعد من أكواخ الرعاة المتناثرة على سفوح الجبل، ومن بيوت القرى، وكان يستمتع بالصمت المخيم في فترات محددة من المساء أو الصباح على ذلك العالم الرائع المعلق ما بين السماء والأرض. وكان يبقى مستيقظاً لفترة طويلة من الوقت، وسط الظلام، حتى بعد أن يأوي إلى سريره، مصغياً إلى أصوات عواء الذئاب المتردد مثل أصوات النواح عبر الأودية البعيدة.

تعود الإسكندر في أوقات غروب الشمس، وعندما تكون السماء صافية، أن يتأمل مشدوهاً قمة جبل الأولمب، وقد تحولت إلى اللون الأحمر، وكذلك السحب التي تدفعها الرياح الشمالية بلطف دافعة إياها نحو بلاد بعيدة، كان يحدّق كذلك إلى أسراب الطيور المهاجرة، ويتمنى لو كان في مكانه أن يخلّق معها فوق أمواج المحيط، أو إلى كرة القمر المشرقة فوق أجنحة صقر أو نسر.

ولكنه أدرك مع ذلك، أن كل هذه الأمنيات مستحيلة، وأنه سيرقد بدوره، ذات يوم، تحت ربوة عالية في وادي إيجية، أي مثل الملوك الذين جاءوا من قبله.

أدرك الإسكندر أن طفولته قد أوشكت على الانتهاء، وأنه سرعان ما سيصبح رجلاً، لكن هذه الفكرة ترافقت مع كآبة وحماسة شديديتين. وتباينت حالات المزاج هذه حسب ما يتأمله: سواء أكان أضواء مغيب شمس الشتاء المتلاشية تدريجياً مع آخر شعاع أرجواني عبر جبل الأسياذ، أو دوامة النار في المشاعل التي يشعلها المزارعون في الجبال كي تنقل الطاقة إلى الشمس وهي تختفي وراء الأفق كي يُقبل الليل.

الستف بيريتاس على قدمي سيده قرب النار، وراح يراقب ويثن، وكأنه بالفعل يفهم كل شيء يجول في فكر الإسكندر.

أما لبيتين، فكانت منشغلة في مكان بعيد من القصر، ولم تظهر إلا بعد استدعائها من أجل تحضير غداء الإسكندر، أو من أجل تجهيز ميدان المعركة التي ستدور فيها اللعبة، وهي لعبة يدخل فيها جنود من السيراميك. أتقنت لبيتين اللعبة إلى درجة كبيرة، حتى إنها نجحت في هزيمة خصمها الملكي في بعض الأحيان، وكان وجهها يضيء عندما يحدث ذلك، وتضحك عيناها، ثم تقول: "إنني أفضل منك في هذه اللعبة! يجب أن تجعلني قائداً!".

ذات مساء، أمسك الإسكندر بيدها عندما لاحظ أنها سعيدة جداً، ثم سألها: "البيتين، ألا تتذكرين شيئاً من طفولتك؟ ما اسمك؟ ومن أين أتيت؟ ومن أهلك؟".

تغيير وجه الفتاة فجأة، وأحنت رأسها مرتبكة، ثم بدأت بالارتجاف وكأن أطرافها أصيبت بنوبة من البرد. وسمعتها الإسكندر أكثر من مرة في تلك الليلة وهي تصرخ في نومها، وبلغاتٍ مختلفة.

*

تغيرت أشياء كثيرة مع عودة الربيع، إذ بدأ الملك فيليب في ذلك الفصل بالاهتمام بنشر أمجاد ابنه داخل مقدونيا وخارجها. وقدم الملك فيليب ابنه إلى جيشه المتجمع أكثر من مرة، وحتى إنه قد اصطحبه معه في عدة حملات عسكرية قصيرة.

سمح فيليب للإسكندر في هذه المناسبات بحمل أجمل الأسلحة وأغلاها، والتي صنعها له صانع أسلحته الخاص، كما أمر بارمينيون أن يتأكد من حصول الإسكندر على حماية من أشجع الجنود، وكذلك

طلب منه أن يسمح له بالوصول إلى الخطوط الأمامية، وذلك كي يشتم رائحة الدم، كما قال.

كان الجنود يطلقون على الإسكندر لقب الملك تحبباً، وعلى فيليب لقب القائد، وكان الوالد تابع لابنه، وسرّ الملك كثيراً لهذا. وكذلك طلب فيليب من فنانيين عديدين رسم لوحات للإسكندر، وأمر بصنع ميداليات وتمائيل نصفية ولوحات تمثلهما معاً، وذلك من أجل إعطائها كتذكارات إلى الأصدقاء، وعلى الأخص إلى الوفود الأجنبية، أو إلى المدن اليونانية في شبه الجزيرة. ظهر الإسكندر في تلك التماثيل واللوحات، بحسب القواعد اليونانية المتبعة، على أنه شاب مجتد، كما ظهرت أجمل سماته، وتحديدًا خصلات شعره الذهبية.

ازدادت وسامة الأمير مع مرور الأيام، وكانت حرارة جسده الطبيعية أعلى من المعدل، كما أن وجهه كان خالياً من العلامات والبقع الجلدية التي كانت تبدو عادة على وجوه المراهقين. كانت ملامح وجهه ناعمة، وممتلئة، وخالية من العيوب، لكنّ بقعاً زهرية اللون ظهرت على خديّه وصدره. كان شعره كثيفاً، وناعماً، ومتموجاً، أما عيناه فكانتا واسعتين ومعبرتين، كما أنه تميز بطريقة فريدة في إمالة رأسه نحو كتفه اليمني، وهو الأمر الذي أضفى عمقاً خاصاً إلى نظرته، إذ كان يبدو وكأنه يدقق في أعماق أصدقائه.

ذات يوم، دعاه فيليب إلى غرفته الخاصة، والتي كانت عبارة عن غرفة متواضعة تغطي الرفوف جدرانها، والتي يحمل بعضها وثائق تتعلق بالعلاقات مع الدول الأخرى، بينما تحمل رفوف أخرى أعمالاً أدبية. كان الملك يستمتع بقراءتها.

حضر الإسكندر على الفور، وترك بيريتاس في الخارج، لكن هذا الجرو كان يتبعه إلى أي مكان، حتى إنه كان ينام في غرفته.

"إنها سنة في غاية الأهمية يا بني، إنها السنة التي ستصبح فيها رجلاً". مرّر فيليب إصبعه فوق شفة الإسكندر العليا، وأضاف: "أجل... بدأت بعض الشعيرات الصغيرة بالظهور هنا، لديّ هدية لك".

تناول علبة خشبية صغيرة مزينة بنجمة الأركادين ذات الستة عشر طرفاً، ثم سلمها إلى الإسكندر، الذي فتحها، فوجد فيها شفرة برونزية، وقد شُحذت إلى الحد الأقصى، ووجد معها مسناً كي تبقى كذلك.

"شكراً لك. لكن لا أعتقد أنك استدعيتني لأجل هذا الأمر فقط".

أجاب فيليب: "كلا، بالفعل".

"ولماذا استدعيتني إذا؟".

"سنغادر بيلا في غضون وقت قصير".

"هل تقوم بإبعادي عن هذا المكان؟".

"أجل، إلى حدّ ما".

"وإلى أين تريدني أن أذهب؟".

"إلى مييزا".

"إنه مكان قريب، لأنه أبعد بقليل من مسيرة يوم واحد. لكن

لماذا؟".

"ستُمنّني السنوات الثلاث القادمة في إتمام تعليمك. توجد في بيلا أشياء كثيرة تلهيك عن الدراسة: حياة البلاط، النساء، المآذب، والحفلات، أما في مييزا فقد أعددت لك مكاناً جميلاً: حديقة يجري عبرها جدول من أنقى وأعذب المياه، وغابة من أشجار السرو، والغار، والورود البرية...".

قاطعه الإسكندر: "أبي، ما خطبك؟".
 ذهل فيليب، وقال: "أنا؟ لا شيء، لكن لماذا؟".
 "أنت تتحدث عن الورود، وعن الغابات... يشبه الأمر الإصغاء إلى دبٍّ وهو يتلو قصيدة للشاعر ألكايوس".
 "يا بني، إن ما أحاول أن أقوله لك هو إنني أعددت لك أجمل مكان أستطيع توفيره لك، والأكثر راحة. يمكنك أن تتابع تعليمك هناك، وتكوينك كرجل".
 "رأيتني أمتطي الجياد، وأفاتل، وأصيد الأسود، وأعرف الرسم، وأعرف الهندسة، كما أنني أتحدث اللغتين المقدونية واليونانية...".
 "إن هذه الأمور غير كافية يا بني، أعلم ما هو اللقب الذي يطلقه عليّ اليونانيون بعد أن رجحت حربهم اللعينة، وبعد أن ضمنت لهم السلام والرخاء في بلادهم؟ إنهم يدعونني فيليب البربري، أعرف ما يعنيه هذا اللقب؟ يعني ذلك أنهم لن يقبلوا أن أكون مرشدهم وقائدهم لأنهم لا يكتفون لي إلا البغضاء مع أنهم يخافون مني.
 توجد وراءنا سهول لا حدود لها تسكنها قبائل بدوية وبربرية، أما أمامنا فتتواجد المدن اليونانية، وهي كلها تشعّ، ويعكس البحر صورةً أبنيته. ولقد وصل الإنسان فيها إلى أعلى مستويات التفوق في الفنون، والعلوم، والشعر، والهندسة، والسياسة. إننا نشبه شخصاً يجلس قبالة نار مخيم في ليلة شتائية، أي أن وجوهنا مضاءة بوهج النار، وصدرنا دافئ نتيجة ألسنة لهبها، أما ظهورنا فمعرضة للظلمة والبرد.
 هذا هو السبب الذي دفعني إلى الحفاظ على سلامة مقدونيا ضمن حدود محكمة، وسأقوم بكل ما في وسعي كي أتأكد من أن ابني يظهر أمام اليونانيين كرجل يوناني، سواء أكان ذلك في تفكيره، أو في عاداته، أو حتى في صورته الجسدية، ستحصل يا بني على أفضل تعليم

وأكثره اكتمالاً من أيّ تعليمٍ يمكن أن يحلم أي رجلٍ حي في هذه الأيام بالحصول عليه. ستكون قادراً على استشارة أعظم دماغ في العالم الإغريقي الشرقي والغربي".

"قل لي من هي تلك الشخصية الاستثنائية؟".

ابتسم فيليب وأجابه: "إنه ابن نيقوماخوس، الطبيب الذي أشرف على مجيئك إلى هذه الدنيا، إن معلمك الجديد هو أشهر تلميذ عند أفلاطون وألمعهم، واسمه أرسطو".

سأل الإسكندر بعد أن أصغى إلى الخطط التي يعدها والده:
 "أيمكنني أن أصطحب أي شخصٍ معي؟".
 "يمكنك أن تصطحب أي شخصٍ من الخدم".
 "أريد أن أصطحب لبيتين. وهل أستطيع أخذ أصحابي أيضاً؟".
 "أعني هيفاستيون وبيرديكاس، وسلوقس، والآخرين؟".
 "أحب أن يأتوا معي".

"يمكنهم أن يرافقوك، لكن ستكون هناك دروس خاصة مخصصة لك فقط، وهي الدروس التي ستجعلك مختلفاً عن الآخرين، سيقرّر معلمك طريقة تعليمك، والمواد التي ستدرسوها، والمواد المخصصة لك وحدك. أما النظام فسيكون صارماً، أي أن عدم الطاعة غير مسموح به، مهما كان نوعه. ولا يُسمح بأنواع اللهو، أو الكسل في التحصيل، وستنال عقابك إذا كنت تستحقه، مثلك مثل رفاقك".

"ومتى أغادر؟".

"قريباً جداً".

"متى بالتحديد؟".

"ستغادر بعد الغد، أريدك أن تحضّر أغراضك، ودع الفتاة تستعد للرحيل، ويمكنك كذلك أن تختار الخدم الآخرين الذين تحتاج إليهم، ويمكنك أن تمضي بعض الوقت مع والدتك".

أوماً الإسكندر، ثم وقف صامتاً، نظر فيليب نحو ابنه بتمعّن، ولاحظ أنه يعضّ شفته كي يخفي دموعه.

اقترب منه فيليب قليلاً ووضع يده على كتفه، ثم قال له: "يتعين علينا أن نفعل ذلك يا بني، صدّقني. أريدك أن تصبح يونانياً، وأريدك أن تصبح جزءاً من الحضارة الوحيدة في العالم التي تُنتج رجالاً بدلاً من الخدم، وهي خزان التعليم الأكثر تقدماً، وهي الثقافة التي تتكلم لغة الإلياذة والأوديسة، اللتين تظهران الأسياد كرجال، والرجال كالأسياد، لا يعني ذلك أنك ستتنكر لأصولك، لأنك ستبقى مقدونيا في أعماق روحك، ولأن أشبال الأسود ستكون أسوداً".

لم يقل الإسكندر شيئاً، لكنه أبقى يديه مشغولتين بالعبة التي تحتوي على أداة حلاقته الجديدة.

راح الملك يداعب شعر الإسكندر بيده الكبيرة والخشنة، ثم استأنف حديثه: "لم نكن أبداً بهذا القرب في الماضي، يا بني، لم يكن لدينا وقت كاف. أترى، إنني جندي. لكنني فعلت ما في وسعي لأجلك: لقد أخضعت عالماً هو أكبر بثلاث مرات من العالم الذي ورثته عن جدك إمينتاس، كما جعلت اليونانيين، والأثينيين منهم بشكل خاص، يدركون أننا نمتلك في مقدونيا قوة عظيمة ينبغي عليهم احترامها، لكنني غير قادرٍ على قولبة عقلك. إذ لا أستطيع أنا أو المعلمون الذين علموك حتى الآن في القصر القيام بذلك، إنهم لا يمتلكون أي شيء إضافي كي يعلموك إياه.

قال الإسكندر: "سأتصرّف بحسب رغبتك، وسأذهب إلى

مميزاً".

"أنا لا أرسلك إلى المنفى يا بني لأننا سنرى بعضنا بعضاً، وسأزورك، كما ستمكن والدتك وشقيقتك من زيارتك في بعض الأحيان، إن كل ما أردته هو تجهيز مكان لائق لدراستك. أما المدربون الذين يدربونك على السلاح فسيرافقونك كذلك، بالإضافة إلى

مدربك الخاص لركوب الخيل، وكذلك كبير رجال الصيد، إنني لا أريد فيلسوفاً، بل ملكاً".

"كما تريد يا والدي".

"هناك أمرٌ آخر، إن خالك الإسكندر سيغادرنا".

"ولماذا؟".

"كان يكتفي حتى الآن بالقيام بدور الملك، أي أنه كان ممثلاً على مسرح، إنه يرتدي ثوب السيادة والتاج، بينما بقيت بلاده في أيدي آرياس. بلغ خالك الآن العشرين من عمره، لكنّ الوقت أصبح مناسباً كي يبدأ دوره في الحياة. أريد أن أتخلص من آرياس، وأن أضع الإسكندر على عرش إبيروس".

قال الإسكندر، الذي تعود الإصغاء إلى خطط والده وكأنها أخذت طريقها إلى التنفيذ فعلاً: "إنني مسرور لأجله، لكنني سأتأسف لذهابه. أدركُ كذلك أن آرياس يتمتع بدعم الأثينيين، وأن أسطولا أثينياً يرباط في كورسيرا، وأن فريقاً من المشاة على أتم جهوزية كي ينزل إلى الشاطئ".

هل صحيح أن الأثينيين موجودون في كورسيرا، ويستعدون للنزول إلى الشاطئ تمهيداً للغزو؟ أعتقد أنك ستنتهي بخوض صراعٍ معهم".

"لا أعاني من خصومة مع الأثينيين، إنني أكنُّ لهم احتراماً كبيراً في واقع الأمر. لكن، يتعيّن عليهم أن يفهموا أن الاقتراب من حدودي يشبه كثيراً وضع أيديهم في فم أسد، أما بالنسبة إلى خالك، فإنني متأسفٌ أنا أيضاً لمغادرته. إنه شابٌ رائع وجندي ممتاز و... إنني أتفاهم معه بشكل أفضل مما أتفاهم مع والدتك".

"أعرف ذلك".

"سبدو لي أنه لم يبقَ عندنا ما نناقشه، لا تنسَ توديع شقيقتك،
وعمالك بطبيعة الحال، وكذلك ليونيداس الذي لا يُعتبر فيلسوفاً شهيراً،
لكنه رجلٌ طيّب علّمك كل ما يقدر عليه، وهو فخور بك وكأنك
ابنه".

تناهسى إلى أسمعهما في الجهة المقابلة من الباب صوت بيريتاس
وهو يخذش بمخالبه محاولاً دخول الغرفة.

أجاب الإسكندر: "سأفعل، هل أستطيع المغادرة الآن؟".

أوماً فيليب، ثم توجه إلى المنضدة، وبدا وكأنه يبحث عن وثيقة
ما، لكنه، في واقع الأمر، كان يرغب في إخفاء دموعه التي ملأت عينيه
عن ابنه.

في اليوم التالي، توجه الإسكندر لزيارة والدته، وكانت الشمس قد شارفت على الغيب. وحين وصل كانت أمه قد أنهت وجبتها للتو، وأخذت الخادومات يرفعن الأطباق، فأومأت الملكة إليهنّ بالتوقف وإحضار كرسيّ.

سألته: "هل تناولتَ طعاماً؟ هل أحضر إليك شيئاً؟".
 "لقد تناولت طعام العشاء الذي أقيم لوداع شقيقك يا أمي".
 "أعرف... أعرف، سأودعه شخصياً قبل توجهي إلى النوم.
 إذا... سيكون يوم غد يوماً مهماً بالنسبة إليك".
 "يبدو الأمر كذلك".
 "هل تشعر بالحزن؟".
 "نوعاً ما".

"لا أريدك أن تكون حزينا، هل تعرف كم سيتكلف والدك من أجل نقل نصف الأكاديمية إلى مبيزا؟".
 "ولماذا نصف الأكاديمية؟".
 "لأن أرسطو ليس وحده، سيرافقه قريبه وتلميذه كاليستين، بالإضافة إلى ثيوفراستوس، العالم الكبير".
 "كم سيُنفق؟".

"سيُنفق خمس عشرة تالنتاً كل سنة، على مدى ثلاث سنوات. يعلم زيوس أنه يستطيع تحمّل هذه النفقات، لأن مناجم بانجايوس تدر عليه ألف تالنت ذهباً كل سنة، أنفق فيليب مقادير كبيرة من الذهب

على مساعدة الأصدقاء، وعلى نشر الفساد بين الأعداء، وتمويل مشاريعه، كما وضع أموالاً كبيرة في التداول على مدى الأعوام الخمسة الماضية بحيث ارتفعت الأسعار في اليونان خمسة أضعاف، بما في ذلك أتعاب الفلاسفة!".

"ألاحظُ بأنك في مزاجٍ سيئ".

"وكيف لا أكون في مزاجٍ سيئ؟ أنت ستغادرن، وكذلك شقيقي، سأبقى وحيدة".

"لكنّ كليوباترا ستظل هنا، إنها تحبك. أعتقد فعلاً أنها تحبك، إنها فتيةٌ جداً، ومع ذلك فإن لديها شخصية قوية وواثقة".

أومأت أوليمبيا: "بالطبع".

ساد الصمت لفترة طويلة، ثم تناهى إلى مسامعهما صوت إيقاعي ناتج عن تقدم خطوات الحرس الذين سيبدأون نوبة حراستهم الليلية. "ألا توافقين على مغادرتي يا أمي؟".

هزت أوليمبيا رأسها، وقالت: "كلا، ليس تلك هي المشكلة، في الحقيقة هذا القرار هو من أفضل القرارات التي اتخذها فيليب، أعتقد أن السبب يكمن في صعوبة حياتي يا بني، وهي تزداد صعوبة يوماً بعد يوم، ينظر إليّ الجميع هنا في بيلا على أنني الأجنبية، وهم لم يتقبلوني أبداً. لم أكن أهتم أبداً طالما أن والدك أحبني... وحتى إن الأمر كان ممتعاً. ولكن، الآن...".

"أعتقد أن والدي...".

"والدك ملك، إنه ليس كباقي الرجال الآخرين، فهو يتعين عليه الزواج عندما تتطلب مصالح مملكته ذلك. وهو كسائر الملوك الذين يفعلون ذلك مرة، أو مرتين، أو حتى ثلاث مرات، وأحياناً يضطرون إلى نبذ زوجاتهم للسبب ذاته وأحياناً إلى خوض حروب طويلة،

ويضطرون إلى التخطيط، وإلى عقد تحالفات، وإلغاء هذه التحالفات، وإلى خيانة الأصدقاء والأشقاء إذا لزم الأمر. أعتقد فعلاً أنه يوجد مكاناً لامرأة مثلي في قلب رجل كهذا؟ لكن، لا أريدك أن تشعر بالأسف لأجلي، فأنا لا أزال ملكة رغم كل شيء، وأنا أم الإسكندر." "سأفكر فيك كل يوم يا أمي، سأكتب إليك، وسأحضر لزيارتك كلما أمكنني ذلك، لكن تذكّري أن والدي أفضل من كثير من الرجال، وحتى أفضل من معظم الذين أعرفهم." وقفت أوليمبيا واقتربت منه، ثم قالت: "أعرف، هل أستطيع أن أعانقك؟".

ضمّها الإسكندر إلى صدره، وشعر بدفء دموعها على خديّه، ثم توجه نحو الباب وخرج من الغرفة، عادت الملكة إلى كرسيّها مجدداً، وجلست هناك من دون حراك لفترة طويلة، وراحت تحدّق إلى الفضاء.

*

ما إن رأت كليوباترا شقيقها حتى انهمرت دموعها وعانقته. صاح الإسكندر: "مهلاً! إنني لا أذهب إلى المنفى، بل إلى مبيزا فقط، إنها على بعد مسيرة ساعات قليلة فقط من هنا، أي أنك قادرة على زيارتي بين حين وآخر، وهذا ما قاله والدي." جففت كليوباترا دموعها، وهدأت من روعها، ثم قالت وسط تنهداتها: "إنك تقول هذا كي ترفع من معنوياتي." "كلا، ليس ذلك بصحيح، يوجد فتیان هنا في البلاط، حتى إنني سمعت أن واحداً أو اثنين منهم قد أظهرها اهتماماً خاصاً بك." هزّت كليوباترا كتفيها. "أتعنين أنك لا تحبين أحداً منهما؟". لم تعلق كليوباترا.

سألها شقيقها: "أتعلمين ماذا سمعت؟".

ملأها الفضول فجأة، وقالت: "ماذا؟".

"سمعتُ بأنك تحبين بيرديكاس، بينما يقول آخرون إنك تحبين إيومينيس، لكنني أتساءل أحياناً ما إذا كنت تحبين الاثنين معاً".

عانقته مجدداً ثم قالت: "إنك الشخص الوحيد الذي أحبه!".

قال الإسكندر: "إنها كذبة رائعة، لكنني سأظاھر بأھا الحقيقة، لأنني أحب هذه الفكرة كثيراً، وعلى كل حال، حتى لو كنت تحبين شخصاً ما، فلا بأس عندي. يتعين عليك ألا تفكر في أشياء غريبة لأن أبي هو من سيقدر مسألة زواجك، وسيحدد لك زوجك عندما يحين الوقت. ولكن، إذا حدثت وكنت تحبين شخصاً آخر فستعانين كثيراً".

"أعرف ذلك".

"لو كان الأمر يرجع إليّ لكنت سمحت لك أن تتزوجي من أي شخص ترغبين في الزواج منه، لكنني أعرف والدي جيداً. وهو لن يدع أي فائدة سياسية تفوته من وراء زواجك، إنني لا أعرف رجلاً على هذه الأرض لا يظهر استعداداه لفعل أي شيء بإمكانه كي يتزوج بك. إنك في غاية الجمال! إذاً هل ستعدينني بأنك ستأتين لزيارتي؟".

"أعدك بذلك".

"عديني كذلك بأنك لن تبدئي بالبكاء فور خروجي من ذلك

الباب؟".

أومأت كليوباترا، بينما انهمرت دموعها بصمت فوق خديها، طبع الإسكندر قبلةً أخيرة على خد أخته ثم غادر.

أمضى الإسكندر ما تبقى من المساء مع أصدقائه الذين حضّروا له احتفالاً وداعياً، وهو الحفل الذي ثل في المرة الأولى في حياته. هذا

الآخرون حذوه، لكنهم شعروا بالتوعك نتيجة عدم اعتيادهم على الشرب، وما لبثوا أن بدأوا بالتقيؤ. لم يبقَ بيريتاس بعيداً عن جو المجون هذا، وراح يتبول على الأرض.

أدرك الإسكندر عندما حاول التوجه إلى غرفة نومه أن المشي لم يكن تلك العملية السهلة. وفي وقت ما، ظهرت امرأة تحمل مشعلًا وسط الظلمة، وسرعان ما أعانته على السير وعلى الاستلقاء على سريره، ومسحت وجهه بقطعة رطبة، ورطبّت شفثيه بعصير الرمان قبل أن تغادر الغرفة. ثم عاودت الظهور بعد وقت قصير، لكنها كانت تحمل معها هذه المرة كوباً يتصاعد منه البخار، وجعلته يشرب منقوع البابونج، وذلك قبل تغطيته بملاءات السرير. تمكّن الإسكندر بعد استعادته قدرًا معيناً من الوعي من التعرف إليها، كانت ليبتين.

*

كانت مبيّزا ذاتها مكاناً رائعاً. وكانت تختبئ بين تلال جبل بيرميون الخضراء، والتي يعبرها جدول مياه، وتحيط بها غابات السنديان، أما المسكن الذي جهّزه فيليب فكان بغاية الروعة بحيث راح الإسكندر يتساءل ما إذا كان البستاني لم يتعلّم شيئاً من ضيوفه الفُرس، وكل ذلك بهدف جعل مقدونيا مثل عيلام أو سوسيانا الموجودتين في بلادهم.

لاحظ الإسكندر أنه تمّ ترميم مركزٍ للصيد بشكلٍ رائع، بحيث تمّ تحويله كي يتضمن غرف جلوس للضيوف، بالإضافة إلى غرف للمطالعة والدرس متصلة بالمكتبات، وصالة موسيقى، ومسرح صغير يصلح لتمثيل المسرحيات، ولا سيما المسرحيات التراجيدية والمسرحيات الهزلية.

كما كانت هناك غرفة درسٍ مخصصة لتصنيف النباتات، ومختبر صيدلاني. لكن الأمر الذي أدهش الإسكندر أكثر من أي شيء آخر كان مشغل الرسم والتلوين، بالإضافة إلى مسبك متصل مع المشغل، كان المسبك مجهزاً بأحدث الأدوات والمواد المرتبة ترتيباً جيداً على رفوفها: الطين، والشمع، والرصاص، والنحاس، والفضة، وكلها تحمل ختم النجمة الأركادية ذات الستة عشر طرفاً، وهو الختم الذي يُعتبر ضماناً لقيمتها ومصدرها.

عرف الإسكندر أنه ماهر بالرسم، لذلك كان يتوقع رؤية مشغل صغير ولامع يحتوي على بضعة ألواح بيضاء وبعض أعواد الفحم، لكن هذه التجهيزات الرائعة بدت وكأنها أكثر من اللازم بطريقةٍ ما.

*

قال الحارس موضحاً: "وصل الضيف الذي كنا نتوقعه، لكن والدك أمرني بحزم كي لا أثيرك أي شيء عنه. قال إن ذلك سيكون مفاجأة لك".

سأله الإسكندر: "أين هو؟".

"تعال". قاده الحارس إلى نافذة في الطبقة السفلية، لكنها تطل على الباحة الداخلية للبناء، قال الحارس مشيراً إلى أكبر الرجال سناً بين ثلاثة كانوا يسرون تحت الجناح الشرقي من الرواق المعمد: "هاك هو".

كان رجلاً يقارب الأربعين من عمره، وكان نحيلاً، ومنتصب القامة في أثناء سيره، وهادئاً، ورزيناً، وحتى متفكراً في طريقة تحركه ووقوفه. وكانت عيناه صغيرتين، وتشعان بالحياة، وتتبعان كل إشارة من إشارات رفاقه، وحتى كل حركة من حركات شفاههم. ولكن، مع ذلك، لم يفته أي شيء مما يدور حوله.

أدرك الإسكندر على الفور أن ذلك الرجل كان يراقبه من دون أن يتطلع نحوه مباشرة، ولو حتى للحظة واحدة. توجه الإسكندر إلى الخارج، ووقف قبالة الباب منتظراً أن يكمل الضيف نصف الدائرة المتبقية من الرواق قبل وصوله إلى الباب.

وجد الإسكندر نفسه، بعد فترة وجيزة، أمام أرسطو بعينه الرماديتين اللتين تستظلان جبهة عالية وعريضة يميّزها خطّان عميقان عند وسطها. أما خداه فكانا بارزين ومعزّزين أكثر بفعل وجهه النحيل، فيما كان فمه منتظماً ومظلاً بشارب كثيف، ولحية مشدبة جداً بدت وكأنها إطار للوجه، الأمر الذي أضفى على ملامحه هالة من العمق في التفكير.

لم تفت الإسكندر ملاحظة أن الفيلسوف يمشط شعره بدءاً من خلف رقبته وصعوداً نحو الأعلى، وذلك كي يغطي صلعته التي احتلت منطقة أعلى رأسه. أدرك أرسطو المنطقة التي يتطلع إليها الإسكندر فجمّدت نظرتة على الفور. وما كان من الأمير إلا أن أخفض بصره.

قدّم الفيلسوف يده للسلام، وقال له: "إنني مسرور بلقائك، أريدك أن تتعرّف إلى مساعدتي: ابن شقيقي كاليستين الذي يدرس الأدب والتاريخ، وثيوفراستوس". وأشار إلى رفيقه الذي وقف إلى يساره. "يُحتمل أنك سمعتَ عن مهارته في علم الحيوان والنبات، وعندما التقينا والدك للمرة الأولى في آزوس الواقعة في طرود، ذهل ثيوفراستوس على الفور لدى رؤيته أعواد الساريس. ولكن، عندما انتهى الملك من الكلام همس ثيوفراستوس في أذني: قُطعت هذه من شجرة القرانيا المدماة، وذلك في شهر آب، وفي غمرة أنوار القمر الجديد، وأضيفت التوابل إليها، ثم صُقلت بالخفّان وشمع العسل. أتوجد مادة أشد صلابة ومرونة منها في عالم النبات؟ أليس هذا أمراً رائعاً؟".

ترك الإسكندر يد أرسطو، وأكد له: "حقاً، هو كذلك". تابع بعد ذلك مصافحة أيدي مساعديه، فبدأ بكاليستين، ثم جاء دور ثيوفراستوس محترماً بذلك الترتيب الذي اتبعه معلمه في تقديمهما إليه. قال الإسكندر متابعاً: "أهلاً بكم في مبيزا، سأتشرف إذا تناولتم طعام الغداء معي".

لم يتوقف أرسطو عن عملية تفحص الأمير، وذلك منذ اللحظة الأولى التي رآه فيها. فلقد أعجب به كثيراً، إذ امتلك ابن فيليب، وهو الاسم الذي كان يُعرف به في أثينا، عمقاً شديداً في نظريته، وتناسقاً مذهشاً في ملاحظه، ونبرة صوت حيوية. كان كل ما يتعلق بالأمير الشاب يوحى برغبة مدمرة بالعيش والتعلم، وبقدرة كبيرة على الالتزام بالمسؤوليات والتطبيق.

انطلق في تلك اللحظة بالذات نباح بيريتاس الترحيبي، فترددت أصداؤه في الباحة، وسرعان ما بدأ الجرو بعضاً أربطة حذاء الإسكندر مقاطعاً بذلك التواصل الصامت الذي كان جارياً ما بين المعلم وتلميذه. فلاحظ ثيوفراستوس ذلك قائلاً: "إنه جروٌ جميل".

انحنى الإسكندر كي يرفعه بين يديه، وقال: "اسمه بيريتاس، أعطاني إياه خالي كهدية، سبق للبوّة أن قتلت أمه في آخر مطاردة شاركنا فيها". علّق أرسطو بالقول: "إنه متعلق بك كثيراً".

لم يجب الإسكندر، لكنه تقدّم الجميع إلى غرفة المائدة، وقدم إليهم مقاعد كي يستريحوا فيها، ثم ما لبث أن استرخى بدوره في مقعده، فيما جلس أرسطو في المقعد المقابل له.

أحضر أحد الخدم وعاءً من الماء وحوضاً للغسل، ومنشفة. وبدأ خادماً آخر بتقديم الوجبة المؤلفة من بيض طيور مسلوق، وبعض المرق مع دجاجة مسلوقة، وخبز، وحمّامة مشوية، بالإضافة إلى شراب أحمر

من ثاسوس. فيما وضع خادم ثالث على الأرض قرب الإسكندر وعاءً يحتوي على طعامٍ مخصصٍ لبيريتاس.

راح الإسكندر يراقب جروحه وهو يهز ذيله، ثم سأل: "أعتقد حقاً أن بيريتاس متعلق بي؟".

ردّ أرسطو بالقول: "بالتأكيد".

"لكن، ألا يعني ذلك أن الجرو يمتلك مشاعر، وهو الأمر الذي يعني أنه يمتلك روحاً؟".

قال أرسطو ملاحظاً وهو منهمك بتقشير بيضة: "إن هذا السؤال أكبر منك، وأكبر مني كذلك، إنه سؤال ليست له إجابة محددة. ولكن، تذكرَ أمراً واحداً أيها الإسكندر، وهو أن المعلم الجيد هو الذي يعطي إجابات صادقة.

سأعلمك التعرف على السمات المميزة للحيوانات والنباتات، وكيفية تصنيفها بحسب أجناسها، وسأعلمك كذلك كيفية استخدام عينيك، وأذنيك، ويديك، من أجل معرفة أعماق الطبيعة التي تحيط بك. ويعني ذلك أيضاً أنه يتعين عليك أن تتعرف - قدر الإمكان - على القوانين التي تحكم الطبيعة.

انظر إلى هذه البيضة، قام طباحك بسلقها، وهكذا قضى على مستقبلها، لكن قشرها كانت تحتوي على طائرٍ محتمل، والذي كان سيقدر على الطيران، وعلى تغذية نفسه، وعلى التناسل، والهجرة إلى مسافات تبلغ عشرة آلاف ستاديا [وحدة قديمة لقياس المسافات]. هذه الميزات غير متوفرة في البيضة بحدّ ذاتها، ومع ذلك فهي تحتوي في داخلها على كل ميزات جنسها، وعلى هيئتها إذا أمكننا قول ذلك.

تعمل الهيئة في المادة وهي تترافق مع نتائج أو عواقب متعددة. إن بيريتاس هو واحد من هذه العواقب، مثلما هي الحال معك، ومعى أنا".

تناول قسماً من البيضة، وقال متابعاً: "ومثلما هو حال هذه
البيضة لو تسنى لها أن تصبح طيراً".
تطلع الإسكندر نحو أرسطو، وأيقن أن الدروس قد بدأت للتو.

أعلن أرسطو فور دخوله المكتبة: "لقد أحضرت لك هدية".
 وحمل بيديه صندوقاً خشبياً بدا قديماً جداً.
 قال الإسكندر: "شكراً لك، لكن ما هذا؟".
 اقترح الفيلسوف وهو يناوله الصندوق: "افتحه".

تناول الإسكندر الصندوق ووضعه على الطاولة ثم فتحه، فظهرت
 لفافتان كبيرتان من ورق البردى، وكانت كل واحدة منهما تحمل
 بطاقة صغيرة بيضاء اللون، مربوطة بعصيّ اللفائف، كما تحمل أحرفاً
 مكتوبة بالحرير الأحمر.

صاح الإسكندر بحماسة شديدة: "الإلياذة والأوديسة، إنها هدية
 رائعة، شكراً جزيلاً لك، إنها الهدية التي طال انتظاري لها".

شرح أرسطو: "إنهما نسختان قديمتان بعض الشيء، أي أنّهما من
 بين أوائل النسخ الأثينية التي كتبها بيزيستراتوس". أشار الفيلسوف إلى
 عنوانيّ اللفافتين، ثم أكمل: "عندما كنت في الأكاديمية أمرتُ بكتابة ثلاث
 نسخٍ على نفقتي الخاصة، إنني مسرورٌ جداً لأنني أهديك واحدة منها".

راح الحارس، الذي كان على مقربة منهما، يفكر في أن أرسطو
 يستطيع، بما يمتلكه من مال قدّمه إليه فيليب، إهداء الإسكندر هذه
 الهدية القيّمة، لكنه أبقى أفكاره لنفسه، وعلى الأخص لأنه كان
 منهمكاً في تحضير المواد التي طلبها أرسطو لدروس ذلك اليوم.

"إن قراءة ما كُتب عن أبطال الأيام الماضية، وعن أفعالهم، جزء
 ضروري من عملية تعليم الشاب، وكذلك هي الحال بالنسبة إلى

المسرحيات التراجيدية. إن القارئ، أو المشاهد، لا يستطيع إلا أن يُعجب بالأعمال العظيمة والنبيلة، لأنها تشهد على المسلك الكريم الذي اتبعه الذين عانوا، وحتى الذين ضحّوا بحياتهم في سبيل مجتمعاتهم، وفي سبيل مبادئهم، أو أولئك الذين دفعوا غالباً ثمن أخطائهم التي اقترفوها، أو التي اقترفها أسلافهم، ألا توافقي على هذا؟".

قال الإسكندر موافقاً وهو يُقفل الصندوق بعناية: "بالطبع، لكنني أريد أن أعرف منك شيئاً، لماذا يتعين عليّ أن أتعلم على الطريقة اليونانية؟ لماذا لا أستطيع أن أكون مقدونيا بكل بساطة؟".

جلس أرسطو: "إنه سؤال مثير للاهتمام. ولكن، إذا أردت الإجابة عنه فسيتعين عليّ أن أشرح لك ماذا يعني أن تكون يونانياً، وهذه الطريقة فقط يمكنك أن تقرر ما إذا كنت تريد أن تكرر نفسك، وأن تتعلم من تعاليمي. أيها الإسكندر أن يكون المرء يونانياً هي الطريقة القيّمة الوحيدة كي يحيا كإنسان، أتعرف أسطورة بروميثيوس؟".

"أجل... كان ذلك القوي [تيتان] الذي سرق النار من الأسياذ يعطيها إلى البشر كي يحررهم من بؤسهم".

"أجل، هذه هي الأسطورة، أما الآن، وبعد أن تمكّن الإنسان من تحرير ذاته من الظلمة، فقد جرت محاولات لتنظيم الحياة في مجتمعات، ونتيجة لذلك فقد ظهرت ثلاث طرائق: عندما يستلم شخصٌ واحدٌ القيادة فإن النظام يحمل اسم النظام الملكي. أما عندما يكون هناك أكثر من شخص واحد في مركز القيادة، فإن النظام يُعرف باسم حكم الأقلية. فيما يُعرف النظام الذي يمارس فيه كل المواطنين السلطة باسم النظام الديمقراطي، وهذه هي ميزة ما يعنيه أن يكون المرء يونانياً.

أما هنا، في مقدونيا، كما في أثينا فإن كلمة والدك هي ذاتها القانون السائد، ومع ذلك فإن الرجل الذي انتخبته أكثرية المواطنين،

حتى ولو كان إسكافياً، أو حمالاً، يستطيع أن يقف في المجلس كي يطلب إلغاء إجراءات سبق لحكومة المدينة أن صدّقت عليها، وذلك لمجرد قدرته على حشد ما يكفي من الناس لدعم تحرّكه.

أما في مصر، أو في بلاد فارس، وهنا في مقدونيا أيضاً، فيوجد رجلٌ حرٌّ واحدٌ فقط، وهو الملك، أما الآخرون فهم عبيدٌ جميعاً.

"أما النبلاء..." راح الإسكندر يبحث عن الكلمة المناسبة.

"وحتى النبلاء أيضاً. إنهم يمتلكون امتيازات كثيرة، وهم يعيشون حياة مسرات. ولكن، يتعيّن عليهم أن يطيعوا ويخضعوا بدورهم". صمت أرسطو بعد ذلك لأنه لاحظ أن كلماته قد أصابت هدفها، لكنه أراد أن يتأكد من مرور ما يكفي من الوقت كي تنفذ إلى روح الفتى.

أخيراً، أجاب الإسكندر: "لقد أعطيتني أعمال هوميروس كهدية، لكنني كنت أعرف هذين العاملين جزئياً، كما أتذكّر جيداً أن يولييسيس قد ألقى خطاباً في مجلس المحاربين، وذلك قبل أن يحتل ثيرستيس المنبر ويهاجم الأسياد، لكنه ضمن لنفسه ملاذاً من بطل هوميروس، فقد قال يولييسيس:

أيمكننا أن نحوز سلطة الملوك؟ لا نستطيع،

كما أن أسياداً كثيرة سينة للغاية.

ليكن هناك قائد واحد - وسلطة واحدة - يحتفظ بموظفيه الملكيين،

وبألويته

بتفويض من زيوس، ابن كرونوس ذي التفكير المعوج:

واحد يقود البقية.

كانت تلك كلمات هوميروس".

"أجل... إنك مصيب. لكنّ هوميروس يروي حكايات الأزمنة الماضية. فعندما كان وجود الملوك لا غنى عنه، كان الأمر كذلك، لأن

الأمور كانت مختلفة في ذلك الوقت. إذ حدثت في تلك الأوقات هجمات مستمرة شنها البرابرة، والوحوش المفترسة في عالم طبيعي ما زال برياً وبدائياً. جلبت لك هدية من أشعار هوميروس، وهكذا تستطيع أن تكبر مع القراءة، وأن تطوّر مشاعرك النبيلة، مثل الصداقة، والقيم، واحترام الكلمة التي تُعطى. ولكنّ رجل هذه الأيام يا إسكندر حيوان سياسي. إنني لا أشك في هذا، إن البيئة الوحيدة التي يستطيع الإنسان أن ينمو فيها هي المدينة الدولة، وهي المدينة بمفهوم الإغريق. إن الحرية هي التي تسمح لكل شخصٍ، بالتعبير عن النفس، والإبداع، وبالوصول إلى العظمة. أترى معي أن الدولة المثالية هي تلك التي يُحسن كل شخصٍ فيها القيادة خلال تقدّمه في السنّ، بعد أن يكون قد أطاق بإخلاص عندما كان شاباً؟".

"وهذا ما أفعله الآن، وما سأفعله في المستقبل".

أجاب أرسطو: "إنك شخصٌ واحد فقط، لكنني أتحدث عن آلاف عدة من المواطنين الذين يعيشون تحت حماية القانون والعدالة اللذين يوفران الحماية التي تعطي الشرف لمن يستحقه، وينظمان الحرف والتجارة، واللذين يعاقبان من يرتكب الأخطاء ويُصلحانه. لا يرتبط هذا المجتمع مع بعضه بروابط الدم، ولكن بالقوانين التي تساوي بين جميع المواطنين، يُصلح القانون أخطاء الأفراد ويقوّم اعوجاجهم، ويحدّ من الصراع والمنافسة، ويكافئ من يمتلك إرادة العمل والإنجاز، ويشجّع القوي، ويدعم الضعيف، يقع العيب في مجتمع كهذا، ليس في كون المرء ذليلاً وفقيراً، ولكن، في عدم بذل الفرد أي مجهود من أجل تحسين حالته".

جلس الإسكندر صامتاً، واستغرق في التأمل.

عاود أرسطو الحديث مجدداً: "سأعطيك الآن دليلاً ملموساً على الأمور التي أخبرتك عنها، تعالَ معي".

خرج من بابٍ جانبي يطل على الجهة الخارجية للمبنى، وسار نحو نافذة صغيرة تطل على ورشة السبك.
قال وهو يشير إلى الداخل: "انظر، أيمكنك أن ترى ذلك الرجل؟".

أوما الإسكندر عندما رأى رجلاً يبلغ الأربعين من عمره تقريباً، ويرتدي رداء عمل قصيراً وممزراً جليداً، وكان إلى جانبه مساعدان أحدهما في العشرين من عمره، فيما الآخر يبلغ السادسة عشرة من عمره تقريباً. وقد أهتمك الثلاثة في ترتيب الأدوات، وفي تحضير السلسلة الكبيرة التي تمسك إناء الصهر، وتذكي نار الفرن.
سأل أرسطو: "أتعرف مَنْ هو؟".
"لم أره من قبل".

"إنه أعظم فنان يعيش في هذا العالم. إنه ليسسيوس من سيكيون".
"أتعني ليسسيوس العظيم... رأيت أحد تماثيله ذات مرة عندما كنت في معبد هيرا".

"وهل تعلم ماذا كان يعمل قبل أن يصبح على ما هو عليه اليوم؟ كان عاملاً، ظل عاملاً بسيطاً لمدة خمس عشرة سنة في مصنع سبكٍ مقابل قطعتي أوبول في اليوم. أيمكنك أن تخمّن كيف أصبح ليسسيوس العظيم؟ يعود الفضل في ذلك إلى نظام الحكم في المدينة، إنها المدينة التي تفسح المجال للمواهب، وهو النظام الذي يسمح لكل رجل من الرجال أن يكبر مثل نبتة سليمة".

تفحص الإسكندر الضيف الجديد الذي بدا قوياً بكل المقاييس. كان عريض المنكبين، وكانت ذراعه مفتولتي العضلات، فيما بدت يده عريضتين بعد أن عملتا بجِدٍ كبيرٍ لفترةٍ طويلة.
"لماذا يتواجد هنا؟".

"نعال، دعنا نقصده، وهو سيشرح لك بنفسه".

دخلا عبر الباب الرئيسي، وسارع الإسكندر إلى تحية النحات.

"أنا الإسكندر ابن فيليب ملك مقدونيا، أهلاً بك في ميّزا يا ليسيبوس، تشرفت بلقائك. وهذا هو معلمي أرسطو ابن نيقوماخوس من سكان ستاجيرا، إنه مقدوني أيضاً بمعنى من المعاني.

عرّف ليسيبوس بمساعديه آرخیلوس وخاريس، لكنّ الإسكندر شعر أن عينيّ ليسيبوس تحدّقان إلى ملاحه وكأنه يرسمها ويعيد رسمها في ذهنه.

"كلّفني والدك بأن أصنع تمثالاً برونزياً لك، أريد أن أعرف متى ستمكن من الجلوس أمامي".

تطلع الإسكندر نحو أرسطو الذي ابتسم، ثم قال: "إنني مستعد في أي وقت تشاء يا ليسيبوس، يمكنني أن أدرّسه بسهولة خلال قيامك بصنع شبيه له... هذا إذا كان وجودي لا يلهيك".

أجاب ليسيبوس: "لا، مطلقاً، إنني أتشرف بالاستماع إليك".

غادر الإسكندر مشغل السبك، وذلك كي يعرف آرخیلوس وخاريس على ما تبقى من المبنى، فسأل الفيلسوف بعد مغادرة الإسكندر: "ما رأيك بهذا الشاب؟".

"لديه ملامح سيد وسماته".

تميّزت الحياة في مبيزا بإيقاعات شديدة الانتظام، كان الإسكندر ورفاقه يستيقظون كل يوم قبل شروق الشمس، وكان طعام الفطور يتألف من بيض نيء، وعسل، وجبن مطحون، وشراب، وطحين، ومزيج من كوب نسطور الذي يحضّر من وصفة قديمة جاء ذكرها في الإلياذة. وكان الرفاق يخرجون بعد ذلك مع مدرب الفروسية لساعة أو اثنتين. وبعد إنهاء درس الفروسية كان الشبان يعملون مع مدرب الأسلحة الذي درّبهم على المصارعة، والركض، والمبارزة، والرماية، ورمي الرمح، أما الوقت المتبقي فكانوا يمحضونه مع أرسطو ومساعديه. كان مدرب الأسلحة في بعض الأحيان، وبدلاً من تدريبهم على الأمور المعتادة، يأخذهم في جولات الصيد مع الضيوف الموجودين في المنزل، وكانت الغابات المحيطة بالمكان مليئة بالحيوانات المقرزة البرية، والأبائل، والظباء، والذئبة، والوشوق، وحتى الأسود. وفي أحد الأيام، التقى أرسطو الجماعة لدى عودتهما من جولة الصيد عند المدخل. كان يرتدي ملابسه بطريقة غريبة. إذ كان يتنعل حذاءً جلدياً عالياً يصل إلى منتصف ساقه، بالإضافة إلى وضعه مئزراً، وارتدائه صدرية. راح يتفحص الحيوانات التي اصطادوها ثم اختار حيواناً مقرزاً بدا أنه أنثى حامل.

قال أرسطو لكبير الصيادين: "دعوا أحداً يحضرها إلى مختبري من فضلكم". وأومأ إلى الإسكندر كي يتبعه، وقصد أرسطو بذلك أن الدرس الذي كان يوشك على إعطائه مخصصٌ للأمير وحده.

نُفِذَت أوامر المعلم على الفور، وما لبثت أنثى الحيوان المقرز أن وُضِعَت على الطاولة التي وضع ثيوفراستوس على حافتها مجموعة من الأدوات الجراحية، وكلها حادة وملتمعة.

ثم طلب أرسطو إحضار مبضع، والتفت نحو الأمير الشاب، وقال له: "أريدك أن تشارك في هذه العملية إذا لم تكن منهكاً من التعب، ستتعلم أشياء كثيرة على درجة من الأهمية، توجد هناك الأدوات الضرورية للكتابة"، وأشار إلى قلم، ومحبرة، وبعض أوراق البردى، وكلها موضوعة فوق طاولة، ثم تابع قائلاً: "ستتمكن بهذه الطريقة من تدوين الملاحظات، ومن تذكر كل شيء تراه خلال التشريح".

فوضع الإسكندر قوسه وحافظة سهامه عند الزاوية، ثم تناول قلماً وورقة بردى، وتحرك نحو الطاولة.

أحدث الفيلسوف شقاً على طول بطن أنثى الحيوان المقرز، وما لبثت أن ظهرت داخل رحمها ستة جراء صغيرة، فقام بقياس كل واحد منها.

قال أرسطو: "كانت ستولد بعد أسبوعين. انظر إلى هنا. ها هو الرحم، أو القالب الذي تأخذ الأجنة فيه أشكالها، أما هذا الكيس الداخلي فيدعى المشيمة".

تمكّن الإسكندر من التحكّم باشتمزازه الذي شعر به في البداية نتيجة الرائحة، ومنظر الأجزاء الداخلية (الأمعاء) المليئة بالدماء، وبدأ بتدوين ملاحظات، وحتى بالرسم.

"أترى؟ إن أعضاء هذه الأنثى تشبه كثيراً أعضاء الإنسان، انظر إلى هنا: هاتان الرئتان، أي الجهاز الذي يسمح لنا بالتنفس، وهذا هو الغشاء الذي يفصل الأجزاء العليا من الأمعاء - وهي الجزء الأرفع - عن الأجزاء السفلى منها ويدعى الحجاب الحاجز. كان القدماء

يعتقدون أنه يحتوي على الروح. تحتوي لغتنا على كل الكلمات التي تدل على نشاط الفكر أو المنطق أو حتى الجنون الذي ينتج عن تدهور عملية التفكير، وهي كلها مشتقة من كلمة *phren*، أي غشاء".

كان الإسكندر يود أن يسأل عن العوامل التي تحرك الغشاء، وما الذي ينظم صعوده وهبوطه الإيقاعيين، لكنه كان يعرف الجواب الذي سيتلقاه مسبقاً، "لا توجد إجابات بسيطة عن مشاكل معقدة"، وهكذا فضّل ألا يقول شيئاً.

"والآن، هذا هو القلب، وهو المضخة التي تشبه تلك التي تُستخدم من أجل إفراغ الأقسام السفلى من السفن، لكنه أكثر تعقيداً بكثير، وأكثر فعالية. إنه موطن المشاعر والفكر، لأن حركاته تتسارع عندما يكون الإنسان تحت تأثير الغضب أو الحب، أو حتى الشهوة البسيطة، إن حركات قلبي تتسارع، في واقع الأمر، بمجرد صعودي الدرج، وهذا الأمر يبرهن أنه مركز كل الوظائف في حياة الإنسان".

قال الإسكندر موافقاً: "إنه كذلك بالفعل". وراح يحدّق بذهول إلى يدي معلمه المملّختين بالدماء بسبب بحثه في أمعاء أنثى الحيوان. "يُحتمل وجود فرضية معقولة، وهي أنه عندما تزداد حدة الحياة، يضطر الدم إلى الجريان بسرعة أكبر. يوجد نظامان لدوران الدماء؛ أحدهما ينطلق من القلب، والآخر يعود بالدم إلى القلب، وهما منفصلان بالكامل كما ترى". وضع أرسطو الموضع على الصينية قبل أن يتابع حديثه: "إننا نشبه الحيوانات كثيراً من هذه الناحية، لكننا نختلف عنها بأمر واحد يميّزنا".

طلب أرسطو من ثيوفراستوس على الفور أن يناوله المطرقة والإزميل، فأحضر الأخير هذه الأدوات على الفور. تمكن أرسطو بعد عدة ضربات محكمة وخبيرة من فتح جمجمة الحيوان. "هذا هو الدماغ،

لكنّ دماغنا أكبر بكثير، فكّرت كثيراً أن كل هذه اللقائف والتعرجات تهدف إلى المساعدة على تبديد حرارة الجسم، لكن يبدو لي أن الإنسان لا يُنتج حرارة أعلى من تلك التي تنتجها الحيوانات، إنها مشكلة سأخصّص لها فترة من التفكير....".

أنهى أرسطو عمله، ومرّر الأدوات إلى ثيوفراستوس كي ينظفها، ثمّ غسل يديه بعد ذلك، وطلب من الإسكندر أن يناوله الملاحظات التي دوّنها والرسوم التي رسمها.

قال له: "ممتاز! لم أكن لأفعل ذلك بطريقة أفضل، يمكنك الآن أن تعطي هذا الوحش للجزّار، إنني أحب الأحشاء، لكنني منذ مدة لم أعد أهضمها جيداً، دعهم يشوون لي بعضاً منها لطعام العشاء، هذا إذا لم يكن عندك مانع".

رأى الإسكندر أرسطو منكباً، في مناسبة أخرى، على العملية ذاقها، لكنه انشغل هذه المرة بشيء أصغر بكثير، أي بيضة دجاجة عمرها عشرة أيام.

"لم يعد نظري يساعدني كما كان في السابق، لذلك طلبت من ثيوفراستوس أن يساعدني، أريد أن تنتبه جيداً بدورك، لأنني سأطلب منك أن تساعدني في يوم من الأيام".

حمل ثيوفراستوس شفرة رفيعة شديدة الحدة ما بين إبهامه وسبابته، كان يستخدمها بدقة متناهية. وسرعان ما فرغ الرجل من إخراج الزلال، وعزل الجنين داخل المح.

"يمكنك تمييز قلب الصوص ورئتيه بعد مرور عشرة أيام، يمكنك أن تراها؟ ما زال نظرك سليماً، يمكنك أن تراها؟".

أشار ثيوفراستوس إلى كتل صغيرة من الدماء، هي التي كان يتحدث عنها معلّمه، فقال الإسكندر: "يمكنني أن أراها".

"إنها هناك، كما أن العملية ذاتها مسؤولة عن تطور النبتة من بذرتها".

حدّق الإسكندر إلى عيني أرسطو الرماديتين، ثم سأله: "هل فعلت ذلك مع إنسان؟".

"فعلت ذلك أكثر من مرة، وقمت بتشريح أجنة تبلغ من العمر عدّة أسابيع. كنت أدفع مالاّ إلى قابلة كانت تجري عمليات إجهاض لمومسات كن يعشن في دار بغاء في منطقة كيرامايكوس في أثينا".
شحب وجه الأمير الشاب.

قال أرسطو: "من المهم جداً ألاّ نخاف من الطبيعة، أتعلم أن كل الكائنات الحية تتشابه أكثر عند اقترابها من لحظة الولادة؟".

"هل يعني ذلك أن كل أنواع الحياة ترجع إلى المصدر ذاته؟".
"يُحتمل ذلك، لكن ليس بالضرورة. أما الحقيقة، يا بني، فهي أن المادة متوافرة بكثرة، بينما الحياة قصيرة، كما أن وسائل بحثنا محدودة جداً، هل عرفت الآن سبب صعوبة إعطاء الأجوبة؟ إن التواضع ضروري في هذا المجال. ويتعيّن على المرء أن يدرس، ويصف، ويصنّف، وأن يتدرج خطوة تلو الأخرى، وأن يصل إلى مستويات أعلى من المعرفة، أي مثلما يصعد المرء الدرج، خطوة واحدة في كل مرة".

قال الإسكندر مؤكداً: "بالتأكيد". لكنّ ملاحظته أوحى بوجود قلتي خلف كلماته، وكأنّ رغبته في معرفة العالم لا يمكن أن تتوافق مع النظام الهادئ والمتأنّي الذي يقدمه إليه معلّمه.

*

بقي ليسيبيوس غائباً فترة طويلة عن معظم الدروس، وعندما كان أرسطو يفسر، أو ينشغل بإحدى تجاربه، كان النحات يرسم صوراً لملامح وجه الإسكندر، سواء أكان ذلك على أوراق البردي أو على

الألواح الخشبية المطلية بالحصص، أو الرصاص الأبيض. وفي أحد الأيام، تقدّم من الإسكندر وقال له: "إنني مستعد".

تعيّن على الإسكندر منذ ذلك الوقت فصاعداً أن يمضي ساعة في اليوم على الأقل في مرسوم ليسيبوس، وذلك من أجل وضع اللمسات الأخيرة لجلسات الرسم. وضع الفنان كتلةً من الطين على دعامة، ووضع عليها نموذجاً للوحة، ثم مرّر أصابعه برشاقة على كتلة الطين الرطبة، وراح يتفحصها، ويشكّل الأشكال للحظة في وجهه نموذجاً، أو في تلك التي انبعثت فجأة بتأثير نظرتة.

ثمّ ما لبثت اليدان أن أقدمتا على تخريب النموذج الذي صنعته، وهكذا عادت المادة إلى حالتها قبل أن تأخذ شكلاً معيناً، وذلك تمهيداً لإعادة تشكيلها على الفور وبنشاط، وهكذا عادت العواطف، والتعابير، والحدس إلى الظهور.

تطلع أرسطو مدهولاً، وراح يتتبع حركات يدي النحات على الطين، اللتين بدتا وكأنهما تؤديان رقصة ما، ولاحظ الحساسية الغامضة التي تميّز يدي ذلك النحات، وذلك في أثناء التشكيل لحظة بلحظة، وهو تقليد يكاد يكون مطابقاً للحياة تماماً.

فكّر الفيلسوف للحظة أن الصورة لا تشبهه، أي أنها ليست الإسكندر... كان ليسيبوس يصنع نموذجاً لسيد شاب يتصوره يقف بالقرب منه. كان النموذج يمتلك عينيّ وشفتيّ وشعر الإسكندر، لكنه كان، بالرغم من كل شيء، شيئاً آخر، كان شيئاً أكبر وأقل في الوقت عينه.

راح العالم يراقب الفنان، ويدرس غايته، ونظرتة الثاقبة، ويلاحظ تلك المرأة الرائعة التي تستوعب الواقع وتعكسه بعد أن تحوّلته وتصنعه، في عقله أولاً، وبين يديه في مرحلة لاحقة.

كان نموذج الطين جاهزاً بعد ثلاث جلسات فقط، لكنّ ليسيوس صنع شبيه الفتي، وأعاد صنعه آلاف المرات، ثمّ بدأ بعد ذلك في تشكيل النموذج الشمعي، وهو النموذج الذي سيعطي شكله المؤقت إلى البرونز الذي يدوم أبداً الدهر.

بدأ ضوء الشمس ينحدر مقترباً من قمة جبل بيرميون، وراحت الأشعة الذهبية تنتشر في الغرفة، وذلك في اللحظة ذاتها التي أدار فيها الفنان القاعدة المتحركة للوحة الدعم كي يُري الإسكندر لوحته. صُنع الشاب عندما رأى شكله وقد أضفت عليه الأنوار المتسللة إلى الغرفة ظلالاً، كما شعر بموجةٍ من المشاعر تندفع إلى قلبه، وتحرك أرسطو بدوره نحو هذا العمل.

شاهد الرجلان شيئاً يتعدى رسماً في هذا التمثال الذي يعكس في الوقت ذاته الفخر والرشاقة اللذين انعكسا كذلك في تلك الفوضى المرتعشة والمرتسمة على شعر الرأس الذي أحاط - إلى حدّ الحصار - بوجهٍ يتمتع بجمالٍ يفوق جمال البشر، وبجبهةٍ رزينة ومهيبة، وبعينين طويلتين تعانيان من كآبة غامضة، وبفمٍ شهواني ومتجبرٍ ذي شفتين شهوانيتين ولطيفتين.

ساد في تلك اللحظة صمتٌ عميق، وهدوء مهيب، في تلك الغرفة التي انتشر فيها نور المساء المتدفق واللطيف، وترددت في ذهن الإسكندر كلمات معلمه المتعلقة بتأثير الشكل على المادة، والفكر الذي يسيطر على الفوضى، والروح التي تترك بصمتها الخاصة بها على الجسد الفاني والمؤقت.

التفت الأمير نحو أرسطو الذي كان يتأمله بعينه الصغيرتين الرماديتين اللتين تشبهان عيني صقر، واللتين بدتا بمثابة معجزة تحدّى ما أوتي به من حدس، ثم سأل: "ما رأيك؟".

بدأ الفيلسوف كلامه، والتفت لكي ينظر نحو الفنان الذي جلس
خائراً القوي على مقعده. بدأ الأمر وكأن الطاقة التي استخدمها بهذه
الطريقة المنهكة طوال الأيام القليلة الماضية، قد نفذت على حين غرة.
قال أرسطو: "ما من بارع موجود يمتلك يدي ليسيوس".

مكث ليسيبوس في مييزا طيلة ربيع ذلك العام، كما أن الإسكندر عقد صداقةً مع مساعديه اللذين أخبراه قصصاً رائعةً عن فن معلمهما وشخصيته.

وقف الأمير الشاب أمام النحات مرةً أخرى، لكنه فعل ذلك هذه المرة من أجل صنع عملٍ يُظهر الجسم بالكامل، وإن كان على صهوة جواد. ذات يوم، لاحظ الإسكندر عندما دخل المشغل وكان ليسيبوس غائباً، رسماً غريباً لأرسطو بين رسومٍ مكدسةٍ من دون ترتيب على الطاولة.

تناهى إلى سمع الإسكندر صوت النحات الذي ظهر فجأةً قرب كتفه في تلك اللحظة بالذات: "هل أعجبتك؟".
 ذهل الإسكندر قليلاً وقال: "أنا آسف، لم أقصد التطفل، لكنّ هذا الرسم رائعٌ جداً. هل جلس أمامك كي ترسمه؟".
 "كلا، كنت أخطّط لرسمه بين حين وآخر عندما كنت أشاهده وهو يتكلم أو يمشي، أتريد أن تأخذه؟".

"كلا، احتفظ أنت به، يُحتمل أن يُطلب منك ذات يوم أن تصنع تمثالاً له، ألا تعتقد أن الحكيم يستحق أكثر مما يستحقه ملك أو أمير؟".

أجاب ليسيبوس بعد أن ارتسمت ابتسامة على شفتيه: "أعتقد أن كلاهما يستحق ذلك، وخاصة إذا كان الملك، أو الأمير، حكيماً بدوره".

كان الإسكندر يستقبل زواراً بين الحين والآخر، وكان قادراً طوال فترة أشهر على تمضية أوقات أكثر مع أصدقائه بسبب زيادة أنشطتهم الرياضية والعسكرية، وعلى الأخص خلال تلك الفترات التي يغيب فيها أرسطو بسبب الأبحاث التي يقوم بها، أو بسبب المهمات التي كان فيليب يأمره بتنفيذها. وفي تلك الأوقات، كان الإسكندر يتوجه إلى بيلا كي يرى والديه وكليوباترا التي كانت تزداد جمالاً كل يوم. أما في ميذا فكان يعود إلى دراساته وتمرينه الروتينية التي أبقتها مشغولاً على الدوام، والتي استوعبت طاقاته الجسدية والذهنية. أما طريقة أرسطو المنهجية في أبحاثه فكانت تمثل إلهاماً يساعد تلميذه على تنظيم دراسته.

صمم أرسطو ساعة شمسية وضعت في الباحة، بالإضافة إلى ساعة مائية وضعت في المكتبة، وساعدته الساعتان على معرفة مدة الدروس التي كان يعطيها، أو على العمل في المختبر بشكلٍ يعطي كل تلميذ القدر الصحيح من الوقت.

استنبت أرسطو في أحد أجنحة المبنى مجموعة لا بأس بها من النباتات الطبية، كما احتفظ هناك بحيوانات محنطة، وحشرات وفراشات، ومواد عضوية. وامتلك كذلك كميةً من القار التي أرسلها إليه بعض أصدقائه من آتارنيوس في الشرق، كما أن الإسكندر دُهب عندما أقدم معلّمه على إشعالها وأصدرت لهيباً حاراً ذا رائحة نفاذة. علّق الإسكندر بالقول: "أعتقد أن زيت الزيتون أفضل بكثير". وسارع أرسطو إلى موافقته على رأيه.

جمع المعلّم مختلف أنواع الأشياء التي تثير فضوله، وقام بتصنيف كل شيء معروف في الطبيعة، حتى إنه خطط خريطة تحدد مواقع مصادر المياه الحارة المنتشرة في أنحاء عدة من البلاد، كما درس

خصائصها الشافية، ولاحظ فيليب ذاته أن هذه المياه تريحه عندما أخضع ساقه لحمامات الوحل الساخن الذي أحضر من نبع لينكستس. أما في مدرسة مبيزا، فقد خُصّص جدارٌ بأكمله من الرفوف لمجموعة من الحيوانات التي وُجدت محفوظةً داخل الأحجار، كانت بعض هذه الحيوانات المحفوظة من السمك، لكن تواجدت كذلك النباتات، والأوراق، والحشرات، وحتى أحد الطيور. أعرب الإسكندر عن ملاحظة بدا أنها قيّمة: "يبدو لي أن كل هذا يبرهن عن وجود فيضانٍ في الماضي، لأن هذه الأسماك عُثر عليها في الجبال المتواجدة حولنا".

كان أرسطو يود لو أن في إمكانه تقديم تفسير آخر، لكنه اضطر، في تلك اللحظة على الأقل، إلى الاعتراف بأن أسطورة الفيضان هي الرواية الوحيدة التي تفسّر تلك الظاهرة. بدت هذه النقطة ذات أهمية ثانوية على كل حال، لأنه يعتقد أنه من الضروري تجميع هذه الأشياء وقياسها، ووصفها، ورسمها، وذلك كي يتمكن شخصٌ ما في السنين القادمة من العثور على تفسيرٍ علمي يستند إلى معطيات قاطعة.

كانت علاقة الفيلسوف مع الإسكندر مصدر رضا عظيم لأرسطو، لأن ابن فيليب كان يطرح أسئلةً على الدوام، وهذا هو، تحديداً، ما يأمله كل معلمٍ من تلامذته.

أما في الحقل السياسي فقد جمع أرسطو في الماضي، وتابع ذلك في الوقت الحاضر بمساعدة مساعديه والإسكندر ذاته، دساتير الدول والمدن العديدة، سواء أكانت الشرقية منها أو الغربية، والإغريقية (اليونانية) منها أو البربرية.

سأله الإسكندر: "هل تهدف إلى جمع كل الدساتير الموجودة في العالم".

تأوه أرسطو قبل أن يقول: "فقط لو أمكنني القيام بذلك، لكنني أخشى من أنه عمل يصعب تحقيقه".
"إذاً، ما هو هدف أبحاثك؟ هل تريد العثور على أفضل دستور بينها؟".

أجاب الفيلسوف: "يستحيل عليّ ذلك، أولاً، لأنه لا وجود لمقياس ثابت يساعد على تحديد الدستور المثالي، وذلك بالرغم من رأي معلمي أفلاطون في هذا الموضوع. إنني لا أهدف إلى التوصل إلى تحديد الدستور المثالي بقدر ما أهدف إلى ملاحظة كيفية تنظيم كل مجتمع بحسب متطلباته، والبيئة التي نشأ فيها، والوسائل الموضوعية بتصرفه، والأصدقاء والأعداء الذين يُفترض به التعامل معهم.

"يتضح لنا إذاً أن ذلك يعني استحالة وجود دستور مثالي. لكنّ الواقع هو أن القوانين الديمقراطية للمدن اليونانية هي الوحيدة التي يمكنها أن تحكم حياة الناس الأحرار".

عبرت ليستين الباحة في تلك اللحظة بالذات، وكانت تحمل قارورة مليئة بالمياه عند ردفها، وتصور الإسكندر، للحظة، وعورة جبل بانجايوس وقسوته.

قال الإسكندر: "وماذا بشأن العبيد؟ هل في الإمكان وجود عالم من دون عبيد؟".

أجاب أرسطو: "كلا، طالما يستحيل وجود نول ينسج القماش من تلقاء نفسه، أما إذا أصبح ذلك ممكناً فيمكن عندها أن نتصور إمكانية وجود عالم من دون عبيد، لكنني لا أعتقد أبداً أن ذلك سيحدث في المستقبل".

سأل الأمير الشاب في أحد الأيام معلمه سؤالاً لم يسبق له أن تجرأ على طرحه حتى تلك اللحظة: "إذا كانت القوانين الديمقراطية للمدن

اليونانية هي وحدها ذات قيمة للرجال الأحرار، فلماذا إذاً قبلت وظيفة تعليم ابن ملك، ولماذا أنت صديق فيليب؟".

"ما من مؤسسة إنسانية يمكن اعتبارها كاملة، كما أن لنظام المدينة اليوناني مشكلة كبيرة: الحرب. إذ تسعى مدن كثيرة، وحتى لو كانت مدعومة بالقوانين الديمقراطية، إلى السيطرة على غيرها، وإلى كسب المزيد من الأراضي الخصبة، ومن التحالفات التي تزيد قوتها. ويؤدي هذا الوضع إلى نشوب حروب مستمرة، وهي التي تستنفد أفضل طاقاتها، بل وتفيد عدو اليونانيين القديم: الإمبراطورية الفارسية.

أما الملوك الذين يماثلون والدك فيأخذون على عاتقهم التصرف كوسطاء، ويسعون إلى وضع حد لهذه الصراعات المميتة. يُمكن لوالدك أن يضمن نوعاً من أنواع الوحدة فوق هذا الانقسام، ويمكنه أن يصبح حَكَماءً وموجهاً يعرف كيفية فرض السلام إذا لزم الأمر، حتى ولو اضطره الأمر إلى استخدام القوة. إنني أفضل ملكاً يونانياً يحمي الحضارة اليونانية من الدمار، على الحرب المستمرة التي يشنها الجميع على الجميع، وهو الأمر الذي يؤدي بنا في النهاية إلى الوقوع تحت سيطرة وعبودية البرابرة.

هذه هي أفكارى، ولهذا السبب قبلت وظيفة تعليم ملك، وفيما عدا ذلك لا يستطيع أي مبلغ من المال شراء أرسطو مهما كان كبيراً".

أحس الإسكندر براحة كبيرة لدى سماعه هذا الجواب، وشعر أنه منصفٌ وصادق. أدرك الإسكندر مع مرور الوقت وجود تناقضٍ مستعص يتنامى في أعماقه: التعليم الذي يتلقاه من جهة، والذي كان متحمساً له، والذي كان يدفعه نحو الاعتدال في سلوكه، وفي تفكيره، وفي رغباته، وفي مواقفه تجاه الفن والمعرفة، وطبيعته التي تتصف بالجرأة

من جهة ثانية، وهي التي تدفعه نحو أتباع المثل القديمة لقيَم المحاربين، وهي أمرٌ قريبٌ جداً من البطولة التي وجدها في أشعار هوميروس وفي كتاب التراجيديا من المسرحيين.

ترجع أصول الإسكندر من جهة أمه إلى آخيل، بطل الإلياذة، وهو العدو القوي لطروادة، وهذه الأمور كانت من المسلمات بالنسبة إليه. ولقد زوّدتة قراءة الإلياذة، التي كان يحتفظ بها تحت وسادته، والتي، كرّس لها آخر الأوقات من يومه، بدفع لروحه ومخيلته، وأيقظت فيه إثارة لا حدّ لها.

كانت ليبتين وحدها، قادرة على تهدئته في هذه المناسبات، وهو الذي سمح لها منذ مدة بالاقتراب منه أكثر فأكثر، وحتى إنه سعى في بعض الأوقات إلى الحصول على حميمية أكبر معها، وكان له ما أراد. يُحتمل أن سبب ذلك يعود إلى حرمانه من عطف والدته وشقيقته، لكنّ السبب الأهم يكمن في الحاجة إلى الملازمة بطريقة خبيرة، وفي كيفية توزيع الضوء، وهذا ما أعطاه سروراً لذيذاً بدأ يتنامى إلى درجة زيادة اتّقاد عينيه وأطرافه. كانت ليبتين تعدّ له في كل مرة حماماً ساخناً وتدع المياه تندفع من فوق كتفيه وجذعه، وكانت تمسّد له شعره وظهره حتى يصل إلى قمة الشعور.

ترافقت لحظات الاسترخاء هذه مع رغبة جامحة في التحرك، وتركّ هذوء هذا المنتجع من أجل السير على خطى الرجال العظام في التاريخ، بدأ هذا الغضب البدائي، وهذا التوق للصراع الجسدي يجد طريقه للتحقق حتى في تصرفاته اليومية. ففي إحدى المرات، خرج إلى الصيد مع رفاقه، وانتهى به الأمر بعراك مع فيلوتاس بسبب ظبي ادّعى كل واحد منهما أنه هو الذي اصطاده أولاً. عندها أمسك الإسكندر صديقه في وضعٍ خانقٍ، وكاد أن يقتله لولا تدخل الآخرين لإيقافه.

كاد الإسكندر في مناسبة أخرى أن يصفع كاليستين لأنه ألقى ظلالاً من الشك على صحة أعمال هوميروس.

راقبه أرسطو بانتباه شديد، وحتى مع بعض القلق، ولاحظ أن الإسكندر يمتلك طبيعتين: الشاب المهذب ذو الفضول الذي لا يشبع، والذي يطرح آلاف الأسئلة، والذي يعرف كيف يغني، ويرسم، ويتلو مسرحيات مآسي يوريبيديس، والمحارب البربري ذو الطبيعة الشرسة، والمقاتل المتشدد الذي يبرز دائماً في الصفوف الأمامية خلال رحلات الصيد، والسباقات، والمناورات الحربية، وفي جلسات التدريب، والتي تبرز فيها جرأته إلى حدّ وضع طرف سيفه فوق رقبة الرجل الذي يقف قبله.

اعتقد الفيلسوف في تلك اللحظات أنه يفهم غموض تلك النظرة التي كانت تتلبد فجأة وترسم ظلالاً مقلقة، وهي التي كانت تتكشف في أعماق عينه اليسرى، لكن لحظة إطلاق الأسد الأركادي لم تكن قد حانت بعد.

شعر أرسطو أنه ما زال أمامه الكثير لتعليمه إياه، وأنه يجب عليه توجيه طاقاته الاستثنائية، وذلك من أجل تزويده بغاية وهدف، كان عليه تجهيز ذلك الجسد، المعد منذ الولادة لعنف المعارك الشرسة، بعقل سياسي قادر على التفكير في خطة ومتابعة تنفيذها حتى النهاية. وهكذا، وبهذه الطريقة فقط، من إكمال تحفته، أي مثلما فعل ليسيبوس.

*

مرّ الخريف وجاء الشتاء، وما كان من السعاة إلا أن جاءوا بالأخبار إلى ميزا، والتي أفادت أن فيليب لن يعود إلى بيلا، أفادت هذه الأنباء كذلك أن ملوك تراقيا قد حصلوا على مساعدة جديدة، ولذلك فهم يحتاجون إلى تلقينهم درساً جديداً.

كان يتوجّب على الجيش مواجهة قساوة الشتاء في تلك البقاع
النائية التي تعصف فيها الرياح القارسة، وتهب فوق سهول سكاثيا
المكسوة بالثلوج، وفوق قمم هايمون المكسوة بالجليد.

كانت تلك حملة شاقّة بشكلٍ مخيف، إذ تعيّن على الجنود أن
يتعاملوا مع عدوٍ صعب يحارب فوق أرضه، أي أنه تعودّ على الصمود
في وجه أصعب الظروف قساوة. ولكن، عندما عاد فصل الربيع،
كانت الأراضي الشاسعة الممتدة من شواطئ بحر إيجه حتى نهر إستر
العظيم تنعم بسلام تام بعد ضمّها إلى المملكة المقدونية.

أسّس الملك مدينةً وسط تلك الأراضي البرية، وأعطاه اسمها،
فيليبوبوليس، وهكذا أعطى ديموستين فرصة للسخرية. فلقد أقدم
ديموستين على وصفها بقوله مدينة اللصوص، أو مدينة الخارجين على
القانون.

أمّا الربيع فلقد شهد عودة المراعي إلى تلك الأراضي البرية،
وكذلك عودة قطعان الأبقار التي انتقلت من السهل نحو مراعي الجبل.
وذات يوم، خرقت أصوات الجياد المتقدمة الهدوء المخيم على
مميزا. فلقد تقدمت بخطوات كبيرة، وسرعان ما تناهى وقع قوائمها
إلى الأسماع فتقدّم أحد فرسان الحرس الملكي، ودقّ على باب غرفة
أرسطو.

"الملك فيليب موجود هنا، وهو يريد أن يرى ابنه وأن يتحدث
إليك".

هبّ أرسطو واقفاً بسرعة، وتوجّه كي يرحّب بالضيف ذائع
الصيت. كاد الفيلسوف أن يركض عبر الممر، وأسرع بإعطاء الأوامر
إلى كل من التقاه، وأبلغهم بضرورة تحضير حمامٍ ساخن، ووليمة
للملك ومرافقيه.

وعندما وصل الفيلسوف إلى الباحة لاحظ أن الإسكندر قد سبقه
إلى الترحيب بفيليب.

صاح الإسكندر وهو يركض نحو الملك: "والدي!".
صاح فيليب وهو يعانق الإسكندر لفترةٍ طويلةٍ "بني!".

تراجع الإسكندر عن معانقة أبيه كي يتمكن من النظر إليه جيداً، فلاحظ أن الحملة على تراقيا قد تركت بصماتها القوية عليه. إذ بدا أن بشرته قد احترقت بفعل الصقيع، كما ارتسم جرحٌ كبير فوق حاجبه الأيمن، أما عينه اليمنى فكانت نصف مغلقة، كما غزا الشيب شعره.

"أبي، ماذا حدث لك؟".

"كانت تلك أصعب حملة في حياتي كلها يا بني، كما أن الشتاء كان عدواً أشد قساوة وشراسة من الجنود التراقيين، لكنّ إمبراطوريتنا تمتد الآن من الأدرياتيكى حتى البحر الأسود، ومن نهر إستر إلى ممر ثيرموبايلاي، ويتعين على اليونانيين الآن أن يعترفوا بي قائداً لهم".

أحبّ الإسكندر أن يطرح ألف سؤال آخر حول موضوعات شتى، لكنه رأى الخدم وفتيات القصر يسرعون إلى الاهتمام بفيليب، فقال له: "أنت بحاجة إلى حمام يا والدي، سنتابع حديثنا عندما نتناول طعام العشاء، أتريد أن نطبخ لك شيئاً خاصاً؟".

"أتمتلكون ظيباً؟".

"بقدر ما تستطيع أن تأكل، وكذلك شراباً من أتيكي".

"إذاً، يمكننا أن نشرب نخب صحة ديموستين".

صاح الإسكندر: "نخب ديموستين يا والدي!" وانطلق راكضاً نحو المطبخ كي يتأكد من تحضير كل شيء بطريقة مثالية.

انضمّ أرسطو إلى الملك في غرفة الحمام، وجلس قربه، وأصغى لما يقوله بينما تولت الفتيات تمسيد كتفيه وفرك ظهره.

"إنه حمامٌ منشط مع الميرمية، ستشعر بتحسّن كبير نتيجته، كيف حالك يا سيدي؟".

"متعبٌ يا أرسطو، وما زال أمامي عملٌ كثير".

"أيمكنك المكوث هنا لأسبوعٍ أو أسبوعين؟ إنني لا أزعم أنني أستطيع إعادة شبابك إليك، لكنني أستطيع إعادة اللياقة إليك، وذلك عبر نظامٍ غذائي من أجل تنظيف جهازك الهضمي، والتمسيدات، والحمامات الساخنة، وإجراء التمارين لساقك. أما عينك تلك... أرى أنها لم تُعالج بطريقة صحيحة، يتعيّن عليّ أن أفحصك ما إن يصبح لديك وقت".

"آه! لكن ليس لديّ وقت لكل هذه الكماليات، كما أن جراحِي الجيش قاموا بما في وسعهم، أريد أن أشكرك كثيراً على النظام الغذائي الحربي الشتوي الذي وصفته لجنودنا، نجح هذا النظام كثيراً، أما النتائج فكانت ممتازة، أعتقد أن هذا النظام قد نجح في إنقاذ حياة كثيرين".

أحنى الفيلسوف رأسه قليلاً. فعاد الملك للحديث من جديد: "إنني في ورطة يا أرسطو، إنني بحاجة إلى مساعدتك".
"تكلم إذا".

"أعرف بأنك لا توافقني الرأي، لكنني أتخضّر كي أحتل كل المدن الموجودة قرب المضائق، والتي لا تزال تحت سيطرة أثينا، أريد أن أمتحن بيرينثيا، وبيزنطة لأنني أريد معرفة إلى أي جهة تميلان".
"إذا أجبرتهما على تحديد خيارٍ واحد فستختاران أثينا، وسيتعيّن عليك أن تستخدم القوة".

"نجحت في توظيف خدمات أفضل المهندسين العسكريين المتوفّرين هذه الأيام، وقد بدأ في تصميم آلات ضخمة، بعضها يبلغ

تسعين قدماً في الارتفاع، ستكلفني هذه الآلات مبالغ طائلة، لكنها لن تضيع سدى".

"أعتقد، على كل حال، أن رأيي لن يجدي نفعاً في إقناعك".

"كلا، في واقع الأمر".

"إذاً لماذا طلبت نصيحتي؟".

"طلبتها بسبب الوضع السائد في أثينا، أبلغني المخبرون أن ديموستين يخطط لإقامة تحالف هليبي ضدي".

"إنه أمر منطقي ومفهوم، فهو يعتبرك أخطر عدوٍ لأثينا، وأكبر تهديد للاستقلال والديمقراطية في المدن اليونانية".

"لو أردت السيطرة على أثينا لكنت فعلت ذلك منذ زمن، لكنني فضّلت أن أفرض سيطرتي فقط على المنطقة التي تقع تحت النفوذ المقدوني مباشرة".

"لكنك سوّيت أولينثوس بالأرض...".

"أجل، لكن سكان أولينثوس أفقدوني صوابي!".

رفع أرسطو حاجبيه وتأوه، ثم قال: "أفهم ذلك".

"إذاً... ماذا يمكننا أن نفعل لمواجهة هذا التحالف؟ إذا نجح ديموستين فسأضطر إلى مواجهة التحالف بواسطة جيشي، وذلك في معركة مفتوحة".

"لا أعتقد في هذه اللحظة أنّ هناك أي خطر من ذلك التحالف، إن هذا النزاع، وهذه الخصومة، وهذا الحسد المتفشي في صفوف اليونانيين قد بلغت حداً من القوة بحيث فقد التحالف فعاليته، حسب ما أعتقد، لكنك إذا استمررت في سياستك العدائية فلن تنجح إلا في توحيدهم، أي مثلما حدث وقت الاجتياح الفارسي".

زبحر الملك صائحاً: "لكنني لست فارسياً!" وما لبث أن ضرب بقبضته على طرف الحمام، وهو الأمر الذي تسبّب بمحدث عاصفةٍ صغيرة في الحوض.

تكلّم أرسطو مجدداً ما إن هدأت المياه: "وما الفرق في ذلك، فمنذ أقدم الأزمنة، وكلما أحرزت إحدى القوى الكبرى السيطرة على كل القوى الأخرى، فإن هذه القوى تتكتل وتنشئ تحالفاً ضدها. إن اليونانيين مغرمون كثيراً باستقلالهم التام، وهم مستعدون لفعل أي شيء من أجل الحفاظ عليه. إنك تدرك، من دون شك، أن ديموستين قادر على عقد صفقة مع الفرس؟ إنهم يعطون قيمةً كبيرةً للحفاظ على استقلالهم أكبر من محافظتهم على روابط الدم والثقافة".

"بالتأكيد، إنني أعتزم الانتظار بهدوء كي أرى ماذا يحدث".
"كلا، يتعيّن عليك أن تدرك أنه في كل مرة تأخذ فيها مبادرةً عسكرية ضد الأراضي الأثينية أو حلفائها، فإنك تجلب المشاكل لأصدقائك في المدينة، لأنهم سيُعتبرون خونة، أو من المشتبه أن يكونوا فاسدين".
قال فيليب من دون اكتراث: "وبعضهم هكذا بالفعل. أعرف، على كل حال، أنني على حق، ولذلك سأستمر في سلوك هذا النهج، أريد أن أطلب خدمةً منك. أعرف أن والد زوجتك هو حاكم آسوس لذلك أعتقد أنه إذا بدأ ديموستين بالتفاوض مع الفرس فسيعرف بالأمر".

قال أرسطو واعداً إياه: "سأكتب إليه. ولكن، تذكر أنك إذا كنت مصمماً على متابعة نهجك هذا فستجد نفسك عاجلاً أم آجلاً مضطراً إلى مواجهة تحالف ديموستين، أو ربما إلى شيء من هذا القبيل".
استغرق الملك في هدوء عميق، لكنه ما لبث أن هبّ واقفاً، ولم يسع الفيلسوف إلا أن يلاحظ خدوشاً جديدة في جسده، بينما انشغلت النساء بتجفيف المياه عنه بالمناشف، ثم ألبسنه ملابس نظيفة.

سأل فيليب على حين غرة: "وما هو التقدم الذي يحرزُه ابني؟".
"إنه، بالفعل، أحد أفضل الرجال الاستثنائيين الذين قابلتهم في حياتي كلها. لكن، يصعب عليّ مع مرور كل يوم إبقاؤه تحت السيطرة، إنه يتتبع كل محاولاتك، وأعتقد أنه بدأ في محاولة تذوق طعم النصر، إنه يريد تأمين بعض المجد الآن، وذلك كي يُظهر قيمته، يخشى ابنك ألاّ يتبقى له أي شيء ليهزمه عندما يحين دوره".
هزّ فيليب رأسه قبل أن يتنسم، ثم قال: "لا أعتقد أن هذه مشكلة حقيقية... سأتكلم معه، أريده أن يبقى هنا في هذه الفترة، إذ يتعين عليه أن يُكمل تعليمه".
"هل رأيت اللوحة التي رسمها ليسيوس لابنك؟".
"ليس بعد، لكنني سمعت أنها رائعة".
"إنها كذلك بالفعل، قرّر الإسكندر أنه لن يسمح لأحد غير ليسيوس برسمه، أثرت اللوحة فيه كثيراً".
"سبق لي أن أمرت أن تُصنع نسخ منها وتوزع في كل المدن المتحالفة معنا، وذلك كي تُعرض أمام الجمهور، إنني أريد أن يرى اليونانيون أن ابني قد كُبر على سفوح جبل الأسياد".
رافقه أرسطو إلى غرفة الطعام التي من الأفضل أن نطلق عليها اسم المطعم، حيث أقدم الفيلسوف على إبعاد كل الأسرة التي كانت مخصصة لتناول الطعام، وكذلك كل الطاولات والكراسي منخفضة العلو، وأمر بإحضار كراسٍ وطاولات تشبه تلك الموجودة في منازل الفقراء، أو تلك التي توضع في الخيم العسكرية. فلقد بدا له هذا الترتيب أكثر ملاءمة لجو التربية والدرس الذي جهد للمحافظة عليه في ميّزا.
قال الملك عندما بدأ بالسير في أحد الممرات: "هل لاحظت أنه يقيم علاقات مع الفتيات؟ إنه الوقت المناسب كي يبدأ بها".

"إنه يمتلك طبيعة محافظةً جداً، تقترب من الخجل. ولكن، هناك فتاة واحدة، وأعتقد أنها تُدعى لبيتين".

ظهر العبوس على جبهة فيليب، وقال: "تابع".

"لا يوجد الكثير للتحدث عنه، إنها مخصصة له، وكأنها تبجله، وهي الأنثى الوحيدة التي تستطيع الوصول إليه في أي ساعة من ساعات الليل أو النهار، لكنني لا أعرف شيئاً أكثر من هذا".

"بدأ فيليب بحكّ ذقنه من خلال لحيته الكثّة، وقال: "لا أريده أن يُسحب ولداً غير شرعي من تلك الخادمة، يُحتمل أنه من الأفضل أن أرسل له خليلة تعرف هذه الصنعة، وهكذا لن تكون هناك تعقيدات، كما أنها ستكون قادرة على تعليمه بضعة أمورٍ مهمة".

وكانا في ذلك الوقت قد وصلا إلى مدخل غرفة المائدة، فتوقف أرسطو عن السير ليقول: "لو كنت مكانك ما كنت لأفعل ذلك".

"لكنها لن تؤثر في عملك مطلقاً، إنني أتحدث عن امرأة تمتلك ثقافة من الدرجة الأولى وتجربة ممتازة".

قال الفيلسوف: "إنني لا أتحدث عن هذا، سمح لك الإسكندر أن تختار معلمه والفنان الذي يرسمه، وذلك لأنه يحبك، ولأنه ناضجٌ جداً بالنسبة إلى عمره، لكنني لا أظن أنه سيسمح لك أن تتجاوز تلك الأمور، أي أنه لن يسمح لك بالتدخل في حياته الخاصة".

تمتم فيليب بشيء غير مفهوم، ثم قال: "إنني جائع، ألا يوجد شيء كي نأكله في هذا المكان؟".

*

أكل الجميع بسرور، أما بيريتاس فجلس تحت الطاولة، وبدأ بقضم عظام الطهي التي رموها إليه على الأرض.

أراد الإسكندر أن يسمع بنفسه كل تفاصيل حملة تراقيا، أراد أن يعرف عن الأسلحة التي يملكها الأعداء، والطريقة التي يستخدمونها في القتال، أراد كذلك أن يعرف ما إذا كانت قراهم ومدنهم محصنة، بالإضافة إلى الطريقة التي حارب فيها الملكان العدو، سيرسوبيليب وتيريس. خاطب فيليب كل الموجودين خلال انشغال الخدم في رفع مائدة الطعام والتنظيف، وقال لهم: "والآن، اسمحوا لي أن آذن لكم بالخلود إلى النوم متمنياً لكم ليلة سعيدة. أرغب في تمضية بعض الوقت مع ابني بمفردنا".

وقف الجميع، وتمنوا للملك ليلة سعيدة، وترك فيليب والإسكندر بمفردهما في قاعة كبيرة فارغة ينيرها ضوء المشعل، أما كل ما كان يُسمع فيها فكان صوت مضغ العظام وكسرها الذي يصدر من تحت الطاولة. وكان بيريتاس قد كُبر في هذه الفترة، وأصبحت لديه أسنان تماثل أسنان الأسد في قوتها.

سأله الإسكندر: "أصحيح أنك ستغادر على الفور، أي يوم غد".
"أجل".

"كنت آمل أن تمكث بضعة أيام".

"كنت آمل ذلك أنا أيضاً يا بني".

خيّمت على المكان فترة صمتٍ طويلة، ولم يكن من عادة فيليب أن يبرّر قراراته.

"وماذا تعزم أن تفعل؟".

"أعزم أن أحتلّ المستعمرات الأثينية في شبه جزيرة شيرسونيا، إنني أصنع أكبر الآلات الهجومية التي صُنعت على الإطلاق، أريد إيصال أسطولنا إلى المضائق".

"يمرّ قمح أثينا عبر المضائق".

"بالضبط".

"لكن هذا يعني نشوب حرب".

"ليس بالضرورة، أريد أن أفرض احترامي عليهم، وإذا كان لا بد من وجود تحالف هليني فلا بد أن يفهم الجميع أنه ما من أحد يمكن أن يترأسه غيري".

"خذني معك يا والدي".

حدّق فيليب إلى عيني ابنه وأجاب: "لم يحن الوقت بعد يا بني، يتعيّن عليك أن تُكمل دراستك، وتثقيفك، وتدرّياتك".
"لكنني...".

"اسمع، إن خبرتك محدودة جداً في الحملات العسكرية، أعرف أنك أظهرت الشجاعة والقدرة في الصيد، وأعرف أنك ماهر جداً في استخدام أسلحتك. ولكن، صدّقي عندما أقول لك إن الأمور التي ستضطر إلى مواجهتها في المستقبل ستكون أصعب آلاف المرات. رأيت رجالي يموتون من البرد والإجهاد، ورأيتهم يعانون من محنٍ قاسية تشمل تمزّق أجسادهم، رأيت غيرهم يهوون من ارتفاعات عالية خلال محاولاتهم تسلّق أسوار المدينة، لأسمعهم بعد ذلك يصرخون نتيجة الألم المبرّح... كنت أصغي إلى أن يحلّ الصمت.

انظر إليّ، وتطلع إلى ذراعيّ اللتين تبلوان مثل جذع شجرة أنشب فيها دبٌّ مخالبه، سبق لي أن جُرّحت إحدى عشرة مرة، وعانيت من الشلل، كما أنني نصف أعمى، الإسكندر، الإسكندر، إنك ترى المجد، لكن الحرب تعني الرعب قبل كل شيء، إنها دم، وعرق، وإفرازات، إنها غبار ووحل، وهي العطش والجوع، والصقيع الذي لا يُحتمل، والحرارة التي لا تُحتمل، دعني أواجه كل هذه الأمور بالنيابة عنك طالما أنّي أقدر على ذلك. ابقَ هنا في ميزرا يا بني سنة إضافية فقط".

لم يقل الشاب شيئاً، لأنه أدرك أن هذه الكلمات لا تترك مجالاً للرد، لكنّ والده الجريح، ونظراته المتعبة، كانا يتوسلانه أن يفهم، وألاً يكرهه على هذا القرار.

أما في الخارج فقد تناهت من البعيد أصوات الرعد وومضات البرق التي بدأت تنير على حين غرة أطراف الغيوم المحملة بالعواصف، والتي تجمعت فوق قمم جبل بيرميون.

سأل الإسكندر فجأة: "كيف حال أمي؟".

خفض فيليب نظره.

"سمعت أنك اتخذت زوجة جديدة، علمت كذلك أنها ابنة ملك من البرابرة".

"إنه زعيم سكاثيا، اضطررت أن أعقد هذا الزواج، وأنت ستفعل الأمر ذاته عندما يحين دورك".

"أعرف، لكن كيف هي حال أمي؟".

"إنها بخير، ضمن هذه الظروف".

"إذا سأستأذن، ليلة طيبة يا والدي". وقف الإسكندر، ثم مشى نحو الباب يتبعه كلبه، شعر فيليب أنه يحسد ذلك الحيوان لأنه يرافق ابنه، كما أنه يسمع صوت أنفاسه في أثناء الليل.

بدأت السماء تمطر، هطلت في البداية عدة نقاط ثقيلة، لكنها ما لبثت أن تكاثرت. هبّ الملك واقفاً بعد أن أصبح وحده في القاعة، ثم خرج بعد ذلك إلى الرواق ذي الأعمدة في الوقت الذي التمع فيه برق يُعمي الأبصار، والذي أضاء الفناء الفسيح، ولم يتأخر بعد ذلك الرعد المدوّي الذي يصمّ الآذان. فاستند فيليب على عمودٍ ووقف هناك بلا حراك وهو يراقب قطرات المطر التي تنهمر بغزارة.

سارت الأمور بحسب ما توقع أرسطو بالضبط. فلقد أعلنت بيرينثوس وبيزانتيوم دعمهما لأثينا، وذلك بعد حشرهما في الزاوية، وردّ فيليب بفرض الحصار على بيرينثوس، وهي مدينة تقع على الساحل الشمالي لهيليسبونت، والتي شُيّدت فوق رأسٍ صخري يتصل باليابسة عبر برزخ.

نصب فيليب معسكره فوق سهلٍ يسمح له بالسيطرة على الوضع بكامله، وكان يدعو قاداته في كل مساء إلى اجتماعٍ معه: أنثيباتر، وبارمينيون، وكليثوس الذي يُعرف باسم الأسود بسبب شعره الأسود، وعينييه السوداوين، وملاحه الداكنة، حتى إنه كان يظهر في حالة سوداوية (مكتئبة) على الدوام، لكنه كان قائداً ممتازاً.

سأل الملك فور دخوله، وحتى قبل أن يجلس: "هل قرروا التفاوض على الاستسلام، نعم أم لا؟".

قال بارمينيون: "كلا، أعتقد كذلك أنهم لا يفكرون في هذا الاحتمال، إن المدينة معزولة عن البر بفضل خنادقنا، لكنهم يستمرون في تلقي المؤن بحراً بفضل الأسطول البيزنطي".

أضاف الأسود: "ولا يمكننا فعل أي شيء بهذا الشأن، إننا لا نسيطر على البحر".

ضرب فيليب قبضته على الطاولة، وصاح قائلاً: "لا أكثر ث أبداً بالسيطرة على البحر! ستكون أبراجي الهجومية جاهزة في غضون أيام قليلة، وسأدمر أسوارهم، أريد أن أرى مدى شجاعتهم عند ذلك!".
هزّ الأسود رأسه.

"وما المشكلة في ذلك؟".

"لا مشكلة، إنني لا أعتقد، وبكل بساطة، أن الأمر سيكون بهذه السهولة".

"إذاً، أنت لا تعتقد هذا، أليس كذلك؟ حسناً يمكنك الإصغاء إلى ما سأقوله الآن: أريد أن تكون هذه الآلات اللينة جاهزة للتحرك خلال يومين على الأكثر، وإلا فسأجلد ظهوركم بدءاً من كبير المهندسين وصولاً إلى أصغر المهندسين، هل فهمتم جميعاً؟".
أجاب أنتيباتر بصيره المعهود: "لقد فهمنا تماماً يا سيدي".

تمكن غضب فيليب من إنجاز ما لا ينجز في ظروف محددة، فبدأت الآلات تقدّمها نحو الأسوار في غضون ثلاثة أيام، وأصدرت خلال هذا التقدم أصوات الصخب والصليل. كانت هذه الآلات أبراجاً قائمة بحدّ ذاتها، وأكبر من التحصينات التي أقامتها بيرينثوس، وكانت تعمل بواسطة نظام من الأثقال المتقابلة، يمكن لكل واحدة منها أن تحمل مئات الجنود المزوّدين بمنجنيقاتهم وأسلحتهم الهجومية الأخرى.

فهم السكان المحاصرون ماذا سيحدث لهم، وخاصة لأن ذكرى ما حدث في أولينثوس، وهي المدينة التي حوّل غضب الملك المقدوني أبنيته إلى رماد، قد ضاعفت من طاقاتهم، فأقدم هؤلاء على شنّ غارات ليلية، وحفروا الخنادق، وأحرقوا بعض الآلات، فأعاد فيليب صنعها، وحفر خنادق مضادة كي يُضعف أساسات الأسوار، بينما تابعت المدفعية عملها ليلاً ونهاراً من دون توقف، بينما ترددت أصدااء الهجمات في أنحاء المدينة بأكملها.

وفي النهاية، انهارت الأسوار. لكنّ مفاجأة مريّة كانت تنتظر القادة المقدونيين، ولقد كُلف أنتيباتر، وهو أكبر قائد وأكثر القادة احتراماً، بمهمة نقل الأنباء السيئة إلى الملك.

"سيدي، لقد انهارت الأسوار، لكنني أنصحك ألا ترسل جنوداً
مشاة إلى داخل المدينة".

"لا؟ ولماذا لا أفعل ذلك؟".

"تعال معي، وانظر بنفسك".

قصداً أحد الأبراج، وتسلياً أعلى قمته، لكن المنظر الذي شاهده
وراء الأسوار أعجزه عن النطق. عمد سكان بيرينثوس إلى وصل كل
المباني في صفوف من المنازل، وهكذا شكّلت سلسلة أولى للمدينة، أي
أهم أقدموا من الناحية العملية على إنشاء سور ثان. كانت بيرينثوس
مبنية على سفح تلة، أي أن هذه التقنية كانت مكررة إلى ما لا نهاية.
زجر الملك عندما بدأ بالنزول عبر البرج عائداً إلى الأرض:
"اللعنة".

توجّه الملك إلى خيمته وبقي هناك لعدة أيام كاتماً غضبه، وراح
يفكّر في طريقة تخرجه من هذا المأزق العصيب الذي وقع فيه، كانت
هناك أخبار سيئة أخرى تنتظره، ولهذا جاء كل رؤساء الأركان كي
ينقلوها إليه بشكلٍ جماعي.

أعلن بارمينيون: "سيدي، جئد الأثينيون عشرة آلاف من المرتزقة
مستخدمين الأموال التي قدمها إليهم الحكام الفرس في آسيا الصغرى،
وقد وصل هؤلاء بالفعل إلى شاطئ بيرينثوس".

خفض فيليب رأسه، وأدرك، لأسفه الشديد، أن الحتمية التي
خشى منها أرسطو قد تحققت، وها هي فارس تحالف مباشرة ضد
مقدونيا.

زاد الأسود الطين بلة، وكأن الجو ليس متجهماً بما يكفي عندما
قال: "إن ذلك مشكلة كبرى".

أضاف أنتيباتر: "لكن ذلك ليس كل شيء".

صاح فيليب: "وماذا هناك بعد، هل تتوقعون مني أن أسحب الكلمات من أفواهكم بكماشة".

تابع بارمينيون كلامه بالقول: "الأمر بسيط جداً، إن أسطولنا عالقٌ في البحر الأسود".

صاح الملك بصوتٍ أعلى: "ماذا؟ وماذا كان أسطولنا يفعل في البحر الأسود؟".

"كان يحاول قطع طريق قافلة من القمح متجهة إلى-بيرينثوس، لكنّ الأثينيين أدركوا ما يجري، وهكذا أقدموا في خطوة مفاجئة على سدّ البوسفور بأسطولهم".

ثمّالك فيليب على مقعده من هول الصدمة، وأحاط رأسه بيديه، ثمّ تمتم قائلاً: "مئة وثلاثون سفينة، وثلاثة آلاف رجل". ثم بدأ يصيح بعد ذلك: "لا أستطيع الاستغناء عنهم بأي شكل من الأشكال!" وهبّ واقفاً، وراح يذرع الخيمة ذهاباً وإياباً بخطوات واسعة.

في هذه الأثناء، انطلق البحارة الأثينيون بإنشاد أغاني النصر على متن سفنهم الراسية في البوسفور. وعمد هؤلاء في كل مساء إلى إشعال النار في الأواني النحاسية بحيث تنعكس النار على دروعهم المصقولة فتحجم السفن المقدونية عن محاولة استغلال الظلام من أجل فك الحصار. لم يدرك البحارة أنه عندما يتعرض فيليب للحصار، ويصبح عاجزاً عن استخدام قوته الرهيبة، فإنه سيتحول إلى الخداع، وهو الأمر الذي يضاعف من خطورته.

وحدث ذات ليلة، أن قبطان إحدى السفن الأثينية التي كانت تجوب الساحل الغربي من المضائق، رأى قارباً مقدونياً صغيراً وهو يحمر مع التيار، ويحاول البقاء قرب الشاطئ قدر الإمكان وذلك كي يتجنب كشفه. فأمر القبطان أن توجه أنوار النار المشتعلة في الأواني

النحاسية نحو الشاطئ، وهكذا أصبح القارب مرئياً على الفور بفعل الأنوار الساطعة المنعكسة.

صاح القبطان أمراً: "قف حيث أنت، وإلا فإنني سأغرق قاربك!" وطلب من قائد الدفة أن يلتف نحو الميمنة، وأن يصوب المدفع البرونزي الكبير الذي تحمله السفينة باتجاه القارب الصغير.

خاف البحارة الموجودون في القارب وتوقفوا عن التجذيف، وعندما طلب منهم القبطان الأثيني الاقتراب أكثر نفذوا ما أمروا به، ثم صعدوا إلى متن السفينة.

ترافق أمرٌ غريب مع تصرفاتهم، ومع مظاهرتهم، لكنهم عندما فتحوا أفواههم ليتكلموا تأكد القبطان الأثيني من أمرٍ واحد، وهو أنهم كانوا مقدونيين بالتأكيد، أي أنهم لم يكونوا صيادين تراقيين كما ادّعوا في البداية.

أمر القبطان بتفتيشهم، فتبيّن نتيجة التفتيش أن أحدهم قد علّق على رقبته أسطوانة جلدية تتضمن رسالة في داخلها، كانت تلك، بالتأكيد ليلة حظّه! فطلب من أحد رجاله إحضار مشعل كي يقرأ الرسالة:

*

فيليب، ملك المقدونيين إلى أنتيباتر.

تحية أيها القائد!

أمامنا الآن فرصة لإزالة الهزيمة الساحقة بالأسطول الأثيني في البوسفور، أرسل منة سفينة ودعها تتجاوز تاسوس، ثم دعها تشكل سداً للمخرج الجنوبي من هيليسبونت، أما أنا فسأرسل أسطولاً يتوجه إلى الجنوب وهكذا يصبحون بين فكي كماشة بحيث لا يجدون أي مهرب لهم، يتعيّن عليك أن تكون في المضيق في الليلة الأولى من القمر الجديد.
انتبه جيداً.

"يا للهول!" صاح القبطان ما إن فرغ من قراءة الرسالة. "ليس لدينا أي وقت نضيّعه".

أصدر القبطان أمره على الفور إلى قائد الدفة، وإلى رجال التجديف، كي يلتفوا ويجذفوا بكل قواهم باتجاه المضائق حيث ترسو سفينة القيادة، صعد القبطان إلى متن سفينة القيادة، وطلب التحدث مع النافارو وهو قائد كبير في السنّ ولديه خبرة عظيمة، ويدعى فوكيون، ثم أعطاه الرسالة التي تمكّن من اعتراضها، قرأها الضابط الكبير بسرعة، ثم مرّرها إلى الكاتب، وهو رجل كفوء سبق له أن عمل لسنوات عدة بصفته أميناً للمجلس الأثيني.

تفحص الرجل محتويات الرسالة بتمعن، ثم قال: "سبق لي أن رأيت رسائل أخرى من فيليب في أرشيفنا، لذلك أستطيع أنؤكد لك أن هذه الرسالة كُتبت بخط يده، كما أن الختم ختمه".

أرسل النافارو بعد قليل، ومن مقدمة سفينة القيادة، إشارة من أحد الدروع تفيد أنه يتعيّن على جميع سفن الأسطول أن تنسحب.

وصلت السفن إلى تاسوس بعد ثلاثة أيام، لتكتشف أنه لا وجود لأسطول أنتيباتر، وهو أمر لم يشكل مفاجأة بالفعل، لأن أنتيباتر لا يمتلك أسطولاً على الإطلاق. في هذا الوقت، تمكنت السفن الملكية المقدونية من الإبحار بسلام عبر البوسفور وهيليسبونت، وتمكنت من إيجاد مرفأً آمناً لها.

سبق لديموستين أن وصف فيليب في أحد خطاباتاته المعادية له بالثعلب، لكنه أيقن عندما سمع بما حدث أن هذا الوصف يستحقه فعلاً، أكثر من أي وصف آخر.

تخلّى الملك المقدوني عن حصار بيرينثوس مع بداية فصل الخريف، لكنه توجه بجيشه شمالاً من أجل معاينة قبائل سكاثيا التي

رفضت إرسال تعزيزات إلى جيشه. وهزم فيليب آتاس ملك هذه القبائل وقتله، وقد كان ملكاً يحارب بنفسه مع أنه تعدى التسعين من العمر.

وفي أثناء رحلة العودة التي حدثت منتصف فصل الشتاء، تعرّض جيش فيليب إلى الهجوم من قبل أشرس قبائل تراقيا، أي التراباليين. عانى المقدونيون من خسائر فادحة، واضطروا إلى التخلي عن غنائمهم. حتى إن الملك فيليب جرح هو الآخر، وبالكاد تمكّن من قيادة جنوده إلى بلادهم، واضطر إلى القتال كي يفتح الطريق أمامهم.

عاد فيليب إلى قصره في بيلا وقد أثخنه جراحه، وأتعبته المعارك التي خاضها، بالإضافة إلى الآلام الحادة بسبب ساقه المجرّحة. كان متعباً، ولم يكن بإمكان المرء التعرّف عليه تقريباً. طلب فيليب في ذلك اليوم عقد اجتماع استشاري، حيث يُبلّغ بكل الأمور التي حدثت في اليونان وفي مقدونيا في أثناء غيابه.

لم يسمع الملك أي أخبار سارة، لذلك كان سيثور مثل الثور الهائج لو بقي لديه قدرٌ قليل من الطاقة.

قرّر فيليب أن كل ما يستطيع فعله هو الاستسلام للنوم، وفي اليوم التالي قام باستدعاء فيليب الطبيب وقال له: "أريدك أن تفحصني بدقة، ما رأيك؟".

تفحصه الطبيب ملياً صعوداً ونزولاً، فلاحظ ملامحه الشاحبة، ونظرته التي تفتقد إلى الحياة، وشفثيه المتشققين والجافتين، وصوته المرتعش: "إنك في حالة سيئة يا سيدي".

قال الملك ملاحظاً: "إنك لا تلطّف كلماتك".

"إنك تحتاج إلى طبيب ماهر، أما عندما تحتاج إلى أشخاص يجعلونك ويتملقونك فإنك تعرف أين تبحث عنهم".

"أنت على حق، أما الآن فعليك أن تصغي إليّ، إنني على استعداد لشرب أي مزيج تصفه لي، وأنا مستعد كذلك إلى تعريض ظهري ورقبتي للكسر من قبل المدّلكين الذين يعملون تحت إشرافك، وأن أخضع للحقن، وأن أكل الأسماك الفاسدة بدلاً من اللحم الأحمر، ولأي فترة تأمرني بها، وأن أشرب مياه الينابيع الصافية حتى تتجمع مستعمرة من الضفادع في بطني، لكن بحق الأسياد دعني أستعيد مقدرتي على الوقوف على قدمي، لأنني أريد مع قدوم الصيف أن تدوي صرختي حتى تصل إلى أذننا وما بعدها".

سأل الطبيب بخجل: "هل ستنفذ تعليماتي بكل دقة".

"أجل، سأنفذها".

"أتعني أنك لن ترمي أدويتي ونقيعي عرض الحائط؟".

"كلا، لن أفعل ذلك".

"إذاً، تعال إلى عيادتي، أريد أن أفحصك".

*

مرّ بعض الوقت قبل أن يظهر فيليب، ومن دون إعلان مسبق، في جناح الملكة في إحدى الأمسيات الهادئة. ألقت الملكة نظرة على نفسها في المراة بعد أن تلقت تنبيهاً من وصيفاتها، وذلك قبل أن تقابله عند الباب. "إنني مسرورة لأنني رأيتك قد تعافيت يا سيدي. تعال، واجلس، إنني أتشرف عندما أستقبل ملك مقدونيا هنا في هذه الغرفة". جلس فيليب، لكنه بقي صامتاً لمدة من الزمن، وأبقى بصره منخفضاً. "هل كل هذه الرسميات ضرورية؟ ألا نستطيع أن نتحدث كزوج وزوجة أمضيا معاً سنين عديدة؟".

أجابت أوليمبيا: "إن كلمة معاً لم تعد الكلمة المناسبة".

"إن لسانك أشد حدة من سيف قاطع. أتيت كي أتحدث معك".

"سأصغي".

"أريد أن أطلب منك معروفاً، لم تكن حملاقي العسكرية الأخيرة موفقة، خسرت رجالاً كثيرين، وبددت موارد ثمينة. يعتقدون في أثينا أنني انتهيت، وهم يصغون لما يقوله ديموستين وكأنه ضالع".
"هكذا سمعت أنا أيضاً".

"أوليمبيا، لا أريد مواجهة مباشرة في هذا الوقت، ولا أريد أن أفعل أي شيء قد يؤدي إلى مواجهة، ينبغي أن تسود النيات الصافية في هذا الوقت، أريد أن تمتلك الإرادة كي نصلح ذات البين، ونصلح الضرر الذي..."

"كيف يمكنني أن أساعدك؟".

"لا أستطيع إرسال بعثة إلى أثينا في هذا الوقت، لكنني أعتقد أنك إذا قمت أنت، الملكة، بهذا فإن ذلك قد يغيّر أشياء كثيرة، إذ لم يسبق لك أن قمت بأي مبادرة ضدهم. يعتقد الأثينيون أنك ضحية من ضحايا فيليب".

لم تعلق أوليمبيا.

"سأختصر وأقول إنها ستكون نوعاً من بعثة من قوة محايدة، ألا تعتقدين ذلك؟ أوليمبيا، إنني أحتاج إلى الوقت، ساعديني أرجوك! وإذا لم ترغبيني في مساعدتي، فكّري بابنك، إنني أؤسس مملكته، وأساعد على فرض سيطرته على العالم اليوناني بأكمله، هذا هو ما أحضّر له".

صمت قليلاً، وتمكّن من الحفاظ على هدوئه بعد توسلاته العاطفية. التفتت أوليمبيا نحو النافذة، وكأنها تسعى إلى تفادي نظرتها، لكنها بقيت صامته للحظة بدورها، ثم قالت بعد ذلك: "سأقوم بهذه المهمة، سأرسل أوريوس، مساعدي الخاص، إنه رجل حكيم ومتعقل".

ردّ فيليب موافقاً: "إنه خيار ممتاز". لم يتوقع الملك مثل هذا الاستقبال الذي لقيه من الملكة.

سألت الملكة مجدداً، وإن كان ذلك بنبرة باردة توحى بانتهاء المقابلة: "أيمكنني مساعدتك بشيء آخر".

"أردت أن أخبرك أنني سأذهب إلى مييزا في غضون أيام قليلة".
تغيّرت ملامح الملكة فجأة لدى سماعها هذه الأخبار، وتوهجت وجنتاها الشاحبتان باللون الوردي، فأضاف الملك: "سأتوجه إلى هناك كي أعود بالإسكندر إلى المنزل".

غطت الملكة وجهها بشالها، لكنها لم تنجح في إخفاء عاطفتها التي سيطرت عليها في تلك اللحظة.

سألها فيليب: "لم تسأليني ما إذا كنت قد تناولت الطعام أم لا".
رفعت أوليمبيا عينيها المغروقتين بالدموع، وكرّرت بصورة آلية: "هل أكلت؟".

"كلا، كنت... كنت آمل أن تطلبني مني أن أبقى معك هذا المساء".

خفضت الملكة رأسها: "لست على ما يرام هذا اليوم، أنا آسفة".
عضّ فيليب شفته قبل أن يغادر ويصفق الباب وراءه.
استندت أوليمبيا إلى جدار وكأفها على وشك أن تصاب بالإغماء، وأصغت إلى وقع خطوات زوجها الثقيلة وهي تتردد في أرجاء الممر، وذلك قبل أن تتلاشى عندما وصل إلى أسفل الدرج.

كان المرج مغموراً بأنوار الربيع ومزيناً بالزهور عندما ركض الإسكندر فوقه، كان حافياً ونصف عار، لكنه تحرك بسرعة عكس الرياح التي هبّت وتخللت شعره حاملةً معها رائحة رذاذ أمواج البحر.

كان بيريتاس يركض إلى جانبه ويضبط خطواته بحيث لا يسبق سيده أو يضيق أثره. وكان ينبح بين الفينة والأخرى كي يجذب انتباه الإسكندر، وكان الأمير يلتفت نحو الجرو ويتسم. ولكن، من دون أن يتوقف.

كان الإسكندر يطلق العنان لروحه التي كانت تحلق مثل طائر، وتقفز مثل جواد. تجلّت في تلك اللحظات طبيعته الغامضة والمشوشة التي تشبه القنطورس، والعنيفة والحساسة، الداكنة والمضيئة وكل ذلك في حركة متناسقة تشبه رقصة بدائية تحت أنوار الشمس الساطعة، أو تحت ظلال غيمة.

كان جسده المفتول العضلات يتقلص في البداية قبل أن يتمدد، وكل ذلك في حركة طويلة، وكان شعره الذهبي الناعم يتواثب فوق ظهره مثل عرف الأسد، أما ذراعه الرشيقتان فكانتا ترافقان حركة صدره في صعودها وهبوطها، نتيجة التعب الناتج عن الركض.

راقبه فيليب بصمت، وجلس من دون حراك على صهوة جواده في طرف الغابة، وأدرك بعد ذلك أن ابنه قريب جداً منه، وسمع نباح

الجرى يتزايد فجأة عندما انتبه لوجوده. نحس جواده، واقترب من ابنه، فلوّح له بيده، وحتى إنه ابتسم له، ولكن من دون أن يوقفه لأنه فتن بالشباب الراكض، ودُهِش بأطرافه التي لا تتعب.

توقف الإسكندر فوق ضفة نهر صغير، ثم قفز إلى مياهه، ترجل فيليب، وراح ينتظره، خرج الفتى من النهر مع جروه، وراح كلاهما ينفضان المياه عن جسديهما، عانق فيليب ابنه بشدة، كما شعر أن ابنه يفعل الشيء ذاته، وهي العلامة التي تدل على أن الصبي قد أصبح رجلاً.

قال له: "أتيت لآخذك، إننا عائدان إلى المنزل".

تطلع فيليب نحوه، وكأنه غير مصدق: "وهل هذه كلمة الملك؟".

أجاب فيليب مؤكداً: "إنها كلمة الملك، لكن سيأتي اليوم الذي تتذكر فيه، بأسف، أن هذه الفترة من حياتك قد انتهت، إنني لم أحظ بفرصة كهذه، ولم أتعلم الأغاني أو الشعر، ولم أستمع إلى محاضرات حكيمة، إنني منهك لهذا السبب يا بني، من ثقل السنين".

لم يقل الإسكندر شيئاً، لكنهما سارا معاً عبر المرج قاصدين المنزل. سار الشاب يتبعه جروه، بينما أمسك الوالد بـلجام جواده.

سُمع فجأة صوت صهيل جواد يتناهى إلى سمعتهما صادراً من وراء تلة تحجب منظر منتجع مميّز. كان صهيلاً حاداً، ونفاذاً، ونداءً قوياً مثل ذلك الذي يصدره حيوان بري، أو مخلوق خرافي، سمعا بعد ذلك أصوات رجال يصرخون ويصيحون، أما أصوات الحوافر القوية المحمية بالبرونز فقد جعلت الأرض تهتز.

تعالّت أصوات الصهيل مجدداً، لكنها هذه المرة كانت أكثر حدة وأشد غضباً، فالتفت فيليب نحو ابنه، وقال: "أحضرت لك هدية".

وصلا إلى قمة التلة، فتوقف الإسكندر مدهوشاً ممّا رآه؛ في أسفل التلة جواد أدهم يقف على قائمتيه الخلفيتين، بينما التمعّ جسده نتيجة العرق المتصبّب منه، فبدأ مثل تمثال برونزي تحت زخّات المطر. أمسك بالجواد خمسة رجال يشدّون حبلاً ولجّاماتٍ في أيديهم، وجهدوا من أجل إبقاء هذه القوة العاتية تحت السيطرة.

كان الجواد أشدّ اسوداداً من جناحي غراب، كما كانت لديه في جبهته نجمة بيضاء على شكل جمجمة ثور. تمكن الجواد مع كل حركة تصدر عن رقبته، أو النصف الخلفي من جذعه، من بعثرة الرجال وإلقائهم أرضاً، قبل أن يجرّهم فوق العشب كأفهم دمي لا حياة فيها. بعد ذلك أخفض الجواد رأسه قبل أن يقف على قائمتيه الأماميتين ثم يبدأ بالرفس بوحشية مستخدماً قائمتيه الخلفيتين، ويضرب الهواء بذيله، فيما يتهدّى عرفه^(*) ملتصقاً في الهواء من إحدى جهتي رقبته إلى الأخرى.

ظهرت حول فم ذلك الحيوان المدهش رغوة دامية، وكان يتوقف بين الفينة والأخرى عن الحراك، ويحني رقبته، وكأنه يريد أن يتنشق من الهواء بقدر ما يستطيع، مالتاً صدره بالهواء كي يُخرجه زفيراً أشبه بأنفاس النار، أي مثلما ينفث التنين. صهل الجواد مجدداً، وهزّ رقبته الرائعة، ثم مدّد عضلاته المنتفخة، وقلّصها وهو الأمر الذي زاد من حجم صهيله.

شعر الإسكندر وكأنه أصيب بضربة سوط، فتقدم فجأة وراح يصيح: "اتركوه! أطلقوا سراح الجواد!". فوضع فيليب يده على كتف ابنه قائلاً: "انتظر قليلاً يا بني، انتظر حتى نروضه، اصبر قليلاً، وسيكون لك".

(*) العرف: الشعر النابت في محدّب رقبة الجواد.

صاح الإسكندر: "لا! لا! لا يستطيع ترويضه أحدٌ غيري،
اتركوه! طلبت منكم أن تتركوه".
قال فيليب: "لكنه سيهرب يا بني، لقد دفعت ثروةً مقابل هذا
الجواد!".

سأله الإسكندر: "كم دفعت؟ كم كلفك يا أبي؟".
"ثلاث عشرة تالنتاً".

"سأراهن بالمبلغ ذاته على أنني أستطيع ترويضه! لكن اطلب من
هؤلاء الحمقى أن يتركوه! أتوسل إليك!".
نظر فيليب إلى ابنه فلاحظ أنه يكاد يجنّ من فرط العاطفة، بينما
برز ودجاء اللذان انتفخا مثل ذلك الحيوان الغاضب. فالتفت إلى
الرجال، وأعطاهم أمره القاطع: "اتركوه!".
أطاع الرجال على الفور، وراحوا يفكّون الحبال واللجام من
أيديهم. وعلى الفور، ركض الحيوان إلى السهل، فيما ركض
الإسكندر وراءه، وتمكّن من الإمساك به بطريقةٍ ما وسط دهشة الملك
والرجال.

هزّ فيليب رأسه وتمتم: "سينفطر قلب الفتى، سينفطر قلبه". كثر
بيريتاس الذي كان بين ذراعي أحد الرجال عن أنيابه، وراح يزجر
وينبح، لكنّ الرجل هدّأه، وأشار إلى الآخرين كي يصغوا. سمع الجميع
الإسكندر وهو يتكلم مع الجواد بعد كل الركض الذي أنهكه، وصرخ
بشيء ما لكنّ الرياح أخفت كلماته، بينما تصاعد الصهيل الذي بدا،
وبطريقة ما، وكأنه يجيبه.

هدأ الجواد فجأة عندما بدا أن الشاب قد ينهار نتيجة المجهود
الذي بذله، وراح يركض لفترةٍ قصيرة، ثم بدأ بالسير وهو يهزّ رأسه
ويتنفس بعمق.

اقترب منه الإسكندر مجدداً، ولكن ببطء، وقد أصبحت الشمس وراءه، وتمكّن من رؤيته في هذه اللحظة وقد غمره نور الشمس، واستطاع أن يرى جبهته السوداء العريضة بعلامتها البيضاء على شكل جمجمة ثور.

همس له: "بوسيفالاس. بوسيفالاس... اهدأ، هذا هو اسمك. اهدأ، ما رأيك... هل أعجبك؟ لقد أحببت الاسم، أليس كذلك؟". اقترب منه أكثر فأكثر إلى حدّ أنه كاد يلمسه، فهزّ الحيوان رأسه، ولكنه لم يتحرك. مدّ الفتى يده، ولمس رقبة بلطف، ثم خذّيه بعد ذلك، ومقدمة وجهه، لكنه فعل ذلك بأرقّ ما يستطيع.

قال الإسكندر: "أتريد أن تجري معي؟ أتريد أن تركض؟".

صهل الحيوان، ورفع رأسه المتفاخر، ففهم الإسكندر أنه يقول نعم، حدّق إلى عينيه المتوهجتين للحظة، ثم قفز برشاقة إلى صهوته وصاح به: "هيا يا بوسيفالاس!" ثم نخس الإسكندر بطن الجواد بكعبي قدميه برفق فانطلق الجواد في قفزته، وراح يحطّ ظهره الملتمع، ويمدّ رأسه وقائمتيه الخلفيتين وذيله الطويل. ركض بسرعة الريح عبر السهل حتى وصل إلى الغابة والنهر، بينما ترددت أصوات وقع حوافره مثل قصف الرعد.

توقفا أمام فيليب الذي ألقى نفسه يتساءل ما إذا كان ينبغي عليه أن يصدّق عينيه أم لا.

ترجّل الإسكندر عن صهوة الجواد: "يشبه الأمر ركوب بيغاسوس يا أبي، وكأنّ لديه أجنحة، ولا بد أن جوادي أخيل، باليوس، وزانثوس، وهما ولدا الريح، كانا مثله، شكراً على هديتك". راح يربّت على رقبة الجواد، وصدره المتعرق وهو يتفوه بهذه الكلمات. بدأ بيريتاس بالنباح، ولا بد أنه شعر بالغيرة بسبب هذا

الصديق الجديد لصاحبه، لكن الإسكندر راح يربت على ظهره هو الآخر كي يهدّئه.

تطلع فيليب نحوه بدهشة، محاولاً أن يفهم ما حدث، ثم قبل رأس الإسكندر، وقال له: "بيّ، يتعيّن عليك أن تحصل على مملكة أخرى لنفسك، أعتقد أن مقدونيا وحدها لا تكفيك".

سأل الإسكندر بينما كان يمتطي صهوة جواده إلى جانب والده:
 "هل دفعتَ بالفعل ثلاث عشرة تالنتاً كي تحصل عليه؟".
 أوماً فيليب: "أعتقد أن ذلك هو أغلى سعر دُفع مقابل الحصول
 على جواد، إنه أجمل جواد أنتجته إسطبلات فيلونيكو في تساليا منذ
 سنوات عديدة".

راح الإسكندر يربّت على ظهر بوسيفالاس ويقول: "إنه يساوي
 أكثر من ذلك، أعتقد أنه ما من حصان غيره في العالم يستحقني".
 تناولوا الطعام مع أرسطو وكاليسين. أما ثيوفراستوس فقد رجع إلى
 آسيا كي يُكمل بحوثه، وكثيراً ما كان يبعث إلى سيّده أخبار اكتشافاته.
 جلس إلى جانب الرجال الأربعة على المائدة رسامان معروفان
 برسمهما على السيراميك كان أرسطو قد استدعاهما من كورينث،
 ولكن ليس بهدف أن يرصما على الأواني، بل ليعملا في مهمة أخرى
 أكثر دقة، وهي المهمة التي أمر بها فيليب شخصياً؛ ألا وهي رسم
 خريطة للعالم المعروف.

سأل الملك بعد أن فرغ الجميع من تناول الطعام: "هل أستطيع أن
 أراها؟".

أجاب أرسطو: "بالتأكيد، تمكّننا من ضمّ كل هذه البلاد المختلفة.
 بفضل فتوحاتك في حقيقة الأمر".

انتقل الجميع إلى غرفة رحبة مضاءة بشكلٍ جيد، ومزينة بخريطة
 كبيرة مرسومة على جلد ثورٍ مدبوغ، ومثبتة على لوحة خشبية بالحجم

ذاته بواسطة ملاقط. أما الألوان التي استخدمها الرسامان كي تمثل البحار، والجبال، والأنهار، والبحيرات، والخلجان، والجزر، فقد كانت كلها مشرقة ومميزة.

تطلع فيليب مذهولاً، وجال ببصره فوق خطوط الخريطة من طرفها الشرقي وحتى الغربي، أي من أعمدة هرقل إلى سهل سكاثيا الفسيح، ومن البوسفور إلى القوقاز، ومن مصر إلى سوريا. وبدأ بعلامسة الخريطة بأصابعه برفق، وكأنه كان خائفاً من لمسها في أثناء بحثه عن البلدان، سواءً أكانت صديقة أو عدوة، وشغّت عيناه عندما تعرّف على المدينة التي أسّسها حديثاً في تراقيا، والتي أعطاه اسمها، فيليببوليس، وأدرك عندها أنه رأى أخيراً تجسيدا مادياً لسيطرته.

أما من جهة الشرق والشمال فإن الخريطة انتهت إلى لا شيء، وينطبق الأمر ذاته على جهة الجنوب، حيث بدت الرمال اللامتناهية للصحرَاء الليبية.

رأى على طرف إحدى الطاولات أوراقاً عدة من البردى والتي يستخدمها الفنانون من أجل رسومهم التحضيرية، تطلع فيليب إلى بعض هذه الأوراق، وتأمّل أحد الرسوم التي تمثل الأرض. سأل فيليب أرسطو: "أعتقد أنها كروية؟".

ردّ الفيلسوف: "لا أعتقد ذلك، بل أنا على يقين منه. لأن الظل الذي تتركه الأرض على القمر خلال الخسوف مستدير. وإذا ما راقبت سفينة تُبحر مبتعدة عن الميناء، فإنك ستري هيكلها يغيب عن نظرك أولاً، ثم ما تلبث السارية أن تغيب عن الأنظار بعد ذلك، أما إذا راقبت سفينة في أثناء اقترابها من الميناء فإن العكس هو الذي يحدث".

سأل الملك وهو يشير إلى منطقة مكتوب عليها القطب: "وما تلك المنطقة في الأسفل؟".

"لا أحد يعرف، لكنني أعتقد أن مساحة تلك البلاد تعادل مساحة بلادنا، إنها مسألة توازن، لكن المشكلة تكمن، في واقع الأمر، في أننا لا نعرف مدى اتساع المناطق الشمالية".

التفت الإسكندر نحو أرسطو، ثم ما لبث أن أخفض بصره، وبدا أنه مذهول بمدى اتساع تلك الإمبراطورية الكبيرة التي يُقال إنها تمتد من بحر إيجه إلى الهند. وتذكر الأمير الكلمات التي قالها ضيفه الفارسي في وصف بلاده قبل ثلاث سنوات من الزمن. ثم تخيل نفسه ممتطياً صهوة بوسيفالاس فوق هذه المرتفعات المترامية الأطراف، وتخيل أنه يطير فوق الجبال والصحاري إلى أقاصي الأرض، وحتى إنه يتخبط أمواج الأوقيانوس الذي قال عنه هوميروس إنه يحيط بالعالم كله.

قطع صوت والده ولمسة يده، تأملاته. "رتب كل أغراضك يا بني، وقل لخدمك أن يجهزوا أمتعتك، وكل شيء تريد أن تأخذه معك إلى منزلك في بيلا، أريدك أن تودّع معلمك، لأنك لن تراه في الفترة القادمة".

تحرك الملك بعد أن قال ذلك، وتركهما كي يودّعا بعضهما بعضاً.

قال أرسطو: "لقد مضى الوقت بسرعة، أشعر وكأنني وصلت إلى ميذا الباردة".

سأل الإسكندر: "وإلى أين ستذهب؟".

"سأبقى هنا لبعض الوقت، أعتقد أنني جمعت مواد وملاحظات كثيرة، وهي كلها تحتاج إلى الترتيب بعناية، سيتطلب الأمر بعض الوقت، يُضاف إلى ذلك أنني أقوم ببعض الأبحاث حول انتقال الأمراض من شخصٍ إلى آخر".

"إنني سعيد لأنك ستبقى، يعني ذلك أنني سأتمكن من زيارتك بين الحين والآخر، لديّ العديد من الأسئلة أريد أن أطرحها عليك".

تطلع أرسطو نحوه، وتمكّن في لحظة واحدة من قراءة كل الأسئلة من خلال الضوء المتغيّر والقلق الذي ارتسم في عيني الأمير.

"إن الأسئلة التي لا تزال تحول في خاطرك أيها الإسكندر هي تلك التي لا تمتلك أي إجابة عنها... أو إذا ما كنت تمتلك أجوبة، فيمكنك أن تأمل في إيجادها في أعماق روحك أنت".

أضاء نور ذلك المساء الربيعي كل الأوراق المبعثرة التي كتبت فوقها الملاحظات والرسوم، وأضاء كذلك كل الأوعية التي يستخدمها الرسامون، وألوان طلائهم، وفراشهم، وخريطة العالم المعروف الكبيرة، بالإضافة إلى العينين الرماديتين الرزيتين للفيلسوف.

سأل الإسكندر مجدداً: "وبعد ذلك، إلى أين ستذهب؟".

"سأقصد ستاجيرا، ومنزلي".

"أعتقد أنك نجحت في تحويلي إلى رجل يوناني؟".

"أعتقد أنني ساعدتك على أن تصبح رجلاً، لكنني، وقبل كل شيء، فهمت شيئاً واحداً: إنك لن تصبح، أبداً، يونانياً أو مقدونيا، أنت الإسكندر. علّمتك كل ما أقدر عليه، والآن عليك أن تنطلق بمفردك، ولا يستطيع أحد أن يعرف إلى أين ستصل، أما الأمر الوحيد الأكيد فهو أن أي شخص يختار أن يذهب معك سيتعيّن عليه أن يتخلّى عن كل شيء: المنزل، والحب، والوطن، وذلك لأنه سينطلق في مغامرة إلى المجهول. وداعاً أيها الإسكندر".

"وداعاً أرسطو".

هكذا ودّع الرجلان بعضهما بعضاً، أي بنظرة طويلة، ولم يقدر للرجلين أن يريا بعضهما مرة أخرى.

ظل الإسكندر صاحياً حتى وقت متأخر من تلك الليلة، وظل عرضةً لقلق عميق منعه من الاستسلام للنوم، تطلع من خلال نافذته إلى الخارج نحو الريف الساكن، ونحو القمر الذي أضاء قمم جبلي بيرميون وأولبوس البيضاء والساكنة، لكن أذنيه بدأت بسماع صليل الأسلحة المعدنية، وصهيل الجياد وهي ترعد في أثناء قفزاتها الطويلة.

راح يفكر في المجد الذي أحرزه آخيل، فلقد كان من العظمة بحيث استحق أغنية من هوميروس. كان ذهنه مليئاً بغضب المعركة، وتصادم الأسلحة، وصدام الأذرع، لكنه لم يستطع فهم كيف أن كل هذه العوامل تسكن روحه جانباً إلى جانب مع تعاليم أرسطو، وأعمال ليسيوس، وأغاني الكايوس وسافو.

فكر في أنه يُحتمل أن يكمن السبب في أصوله، أي في طبيعة والدته أوليمبيا، وهي الطبيعة الشرسة والحزينة في آن واحد، وفي طبيعة والده الودية والقاسية، المندفعة والعقلانية. يُحتمل أن السبب يكمن في شعبه، الذي يتحدّر من أشرس القبائل البربرية، ويجد من خلفه المدن اليونانية الزاهرة التي بناها اليونانيون بما فيها من معابد ومكتبات.

كان سينضم في اليوم التالي إلى والدته وشقيقته، كم تغيّرتا؟ وكم تغيّر؟ وكيف سيكون وضعه في قصر بيلا في الوقت الحاضر؟

أراد الإسكندر أن يهدئ القلق الذي سيطر على روحه بالموسيقى، فتناول القيثارة، وجلس عند إطار النافذة، وعزف أغنية كان قد سمعها مرات عديدة من جنود والده خلال الليالي التي كانوا يتحلّقون فيها حول نيران الحراسة، كانت أغنية فظة مثل لهجتهم الجبلية، لكنها كانت مليئة بالعاطفة والحنين.

أدرك بعد قليل أن لبيتين قد دخلت إلى غرفته عندما سمعت اللحن الذي بدا وكأنه يناديها، وها هي الآن تجلس على طرف السرير، وتصغي.

داعب ضوء القمر وجهها، وكتفيها وذراعيها البيضاء، وضع
الإسكندر قيثارته جانباً بينما مدّت لبيتين ذراعيها نحوه، وأرقت ذلك
بألطف الإيماءات والإشارات، استلقى إلى جانبها فحذبتة نحوها،
وأمسكت رأسه عند صدرها، بينما راحت تمسّد شعره.

قُدِّمَ الإسكندر إلى الجيش المتجمّع في بيلا بعد مرور ثلاثة أيام على عودته إليها. وضع الإسكندر دروعه، وامتطى بوسيفالاس، وراح يستعرض الجنود. مرّ أولاً، ومن جهة اليمين، بالفرسان الذين يحملون أسلحة ثقيلة، والذين يُطلق عليهم اسم *رفاق الملك*، وهم من خيرة النبلاء الذين جرى انتقاؤهم من القبائل المقدونية التي تسكن الجبال، جاء بعد ذلك دور المشاة الذين يُطلق عليهم اسم *الرفاق المشاة*، ويتألف هؤلاء من المزارعين الآتين من السهول ويؤلفون معاً ما يدعى *الكتيبة*، وقف الجنود في خمسة صفوف حاملين معهم رايات ذات تزايد في الطول، بحيث تظهر كل النقاط في الصف الأمامي عند خفضها.

صرخ أحد القادة بأمر تقديم السلاح، وما لبثت أن ظهرت غابة من الرماح المكسوة بالحديد، وبرزت بفخر لتقدم الولاء إلى الملك وولي عهده.

قال فيليب: "تذكّر يا بني أن الكتيبة هي السندان، وأن الفرسان هم المطرقة، عندما يُدفع جيش العدو نحو ذلك السد من السهام فلن يجد ذلك الجيش أي مهرب له".

أما في الجناح الأيمن فظهرت *الطليعة*، وهي مجموعة الفرسان الملكيين الذين كان كل منهم على صهوة جواده. كانت هذه الفرقة من الرجال والجياد هي التي تُرسل في الأوقات الحاسمة من المعركة من أجل إنزال ضربة المطرقة الكفيلة بتشتيت خطوط الخصم.

صرخ فرسان الخيالة: "يحييا الإسكندرا!" وراحوا يدقون رماحهم على دروعهم، وهي علامة الولاء المخصصة لتحية قادهم.

شرح فيليب: "إنك قائدهم، وأنت ستقود الكتيبة في المعارك من الآن فصاعداً". اخترقت الصفوف في تلك اللحظة بالذات مجموعة من الفرسان الذين يضعون دروعاً رائعة، بينما يحمون رؤوسهم ويزينونها بخوذات لامعة تحمل ريشاً طويلاً، أما لجام جيادهم فمصنوعة من الفضة، كما أن أغشية الجياد المزركشة كانت محبوكة من أصواف أرجوانية اللون. تميّزت هذه الجياد عن غيرها بأحجامها ونبالة أصولها. بدأت الجياد بالوثوب على الفور، وكأنها وسط هجوم شرس، وبعد ذلك، أي عند إطلاق إشارة معينة نفذت هذه الفرقة دوراناً عريضاً، ومدحشاً، ونموذجياً، أما الفارس الذي وقف في مركز الدائرة فقد ثبت جواده، بينما استمر الآخرون في ركوب جيادهم بسرعة أكبر بحيث إن آخر الفرسان لم يضطر إلى إبطاء سرعته أبداً.

وما إن انتهت هذه المناورة المدهشة حتى أطلقت الفرقة العنان لجيادها، فراحت تثب بحيث بدت الكتف على الكتف، والرأس على الرأس تاركة خلفها غلالة سميكة من الغبار قبل توقفها بغتة بشكل مثير أمام الأمير.

صرخ أحد القادة بصوت جهوري: "يحييا الإسكندرا!" خرقت الفرقة الأصول المتبعة في النهاية، فأحاطت بالأمير، وكاد الرجال ينزلونه عن صهوة جواده، ثم أمسكوا به في ما بدا وكأنه عناق لا نهاية له، وكل ذلك أمام أنظار الملك وجنوده الذين تسمروا في صفوفهم.

احتشد الأصدقاء حول أميرهم، وراحوا يصيحون ابتهاجاً، ويرمون أسلحتهم في الهواء، ويتقافزون ويرقصون مثل المجانين.

انضم إيومينيس إلى المجموعة عند نهاية الاستعراض، وذلك لأنه كان يونانياً ولم يكن جزءاً من الجيش، لكنه أصبح في هذا الوقت مساعد فيليب الخاص، وهكذا تمكّن من أن يلعب دوراً حيوياً في البلاط.

في ذلك المساء بالذات، حضر الإسكندر مأدبة حضرها له أصدقاؤه في منزل بطليموس، زيّنت الغرفة بشكل مذهش وبعناية. فلقد صُفّت الطاولات والمقاعد الخشبية المزخرفة بمعدن البرونز، أما حاملات المشاعل فكانت عبارة عن تماثيل كورينية جميلة من البرونز على أشكال فتيات صغيرات، وتدلّت مشاعل أخرى من سقف الغرفة على هيئة أوانٍ تحمل أشكالاً متشابكة، وهي التي تسلط أشكالاً متماوجة من الضوء على جدران الغرفة. كانت جميع الأطباق على الطاولة مصنوعة من الفضة الخالصة التي تحمل زخرفة بدیعة على جوانبها، أما الطعام فقد حضره طبّاحون جاءوا من سмирنا وساموس، وهما جزيرتان يونانيتان معروفتان من حيث الأذواق، لأن أهلها يشتهرون بتذوق المأكولات الآسيوية.

جاءت أصناف الشراب من قبرص، ورودس، وكورينث، وحتى من صقلية البعيدة، حيث كان المزارعون المستعمرون (اليونانيون) يتفوقون على نظرائهم في بلدهم الأم من حيث النوعية وفخامة منتجاتهم. كان الشراب يُسكب من نحاية أتيكية كبيرة يكاد عمرها يصل إلى مئة عام، وهي مزينة برسوم أسياذ إغريقية ترقص وتطارد نساءً شبه عاريات. كانت كل طاولة مجهزة بإناء زخرفه الفنان ذاته بمشاهد إيحائية: عازفات ناي (مزمار) بين أذرع رجال يشربون الشراب ويضعون تيجاناً من اللبلاب فوق رؤوسهم، بدت هذه الرسوم، وكأنها مقدمة لما تخبئه الأمسية بين طياتها.

قبول الإسكندر عند دخوله بالهتافات المرحبة، وتوجهت نحوه مجموعة من الرجال، وكل واحد منهم يحمل كوباً ذا مسكتين طافحاً بالشراب القيرصي. "حسناً، أيها الإسكندر! بعد أن شربت ماءً صافياً لمدة ثلاث سنوات في مييزا ينبغي لك أن تضع بعض الضفادع كي تتجول في بطنك، أما نحن فقد سبقناك إلى الخروج من ذلك المكان! اشرب بعضاً من هذا فتفرح".

سأل إيومينيس: "إذاً، ماذا بالضبط علّمك أرسطو من دروسه السرية التي لقّنتك إياها؟".

تدخل هيفاستيون فقال: "ومن أين حصلت على ذلك الجواد الذي لم أشاهد مثيلاً له في حياتي؟".

لم ينتظر إيومينيس ردّ الإسكندر، فعلق بالقول: "أراهن أنك لم تفعل، كلّف الجواد ثلاث عشرة تالنتاً، وأنا بنفسى وقّعت على أمر الدفع".

قال الإسكندر مؤكّداً: "أجل، كان هديةً من والدي، لكنني كسبت ما يساوي ثمنه، لأنني راهنت على أنني سأتمكن من السيطرة عليه، ليتكم رأيتم المشهد". ازدادت حماسه خلال حديثه الذي أكمله قائلاً: "كان خمسة رجال يمسكون به، بينما كان الحيوان مرتعباً لأنهم كانوا يجذبونه من لجامه، وهكذا تسببوا بإيذائه".

سأل بيرديكاس: "وماذا فعلت؟".

"أنا؟ لم أفعل شيئاً، أمرت هؤلاء الحمقى بالابتعاد عنه، ثم ركضت خلفه...".

حاول بطلليموس فرض نوع من النظام، للحدّ من الضجيج الصادر عن الأصدقاء خلال تحلقهم حول الإسكندر، فصاح قائلاً: "كفاكم كلاماً عن الجياد، دعونا نتحدث عن النساء! أريدكم أن تأخذوا أماكنكم لأن العشاء جاهز".

صرخ سلوقس بصوت أعلى: "على ذكر النساء، أتعلم أن بيرديكاس قد وقع في غرام شقيقتك؟".

توردت وجنتا بيرديكاس قليلاً، وما لبث أن دفع سلوقس، وأرسله متدحرجاً على الأرض.

بقي سلوقس على الأرض، لكنه قال مصراً: "ما أقوله حقيقي! رأيتَه ينظر نحوها خلال حفلٍ رسمي. يا له من حارسٍ شخصي لديه نظرة حب في عينيه! ها ها". تابع تدحرجه، وهو يضحك هذه المرة. أضاف بطليموس: "أعتقد أنك لم تسمع بعد ما سأقوله لك، سترأس غداً المرافقين الذين سيصطحبون الأميرة لتقدم الأضياع الأولى لآرتميس. لكن، لو كنت مكانك ما كنت لأثق به أبداً".

لاحظ الإسكندر أن وجه بيرديكاس قد تحوّل إلى اللون القرمزي لذلك سعى إلى تخليصه من الموقف المخرج الذي وقع فيه، وهكذا غير موضوع الحديث وقال: "حسناً، أيها الشبان! أريد أن أقول شيئاً... أريدكم أن تعلموا جميعاً أنني مسرور لرؤيتكم مجدداً، كما أشعر بالفخر لأنكم، يا أصدقائي ورفاقي، تشكلون جزءاً من فرقة جنود الإسكندر!" ثم رفع كوبه، وشرب محتوياته بجرعة واحدة.

قال بطليموس آمراً: "الشراب! اسكبوا الشراب للجميع". صفق بيديه بعد ذلك، وما لبث الخدم أن باشروا بسكب الشراب من الخاية في أكواب الضيوف الذين استرخوا في مقاعدهم التي كانت عبارة عن أسرة مخصصة لتناول الطعام. بدأ خدم آخرون بتقديم الطعام: لحم الحجل على أسياخ، والدجاج الجبلي، والبط، وأخيراً الطبق المميز؛ الدراج.

طلب الإسكندر أن يجلس هيفاستيون، وهو أعزّ أصدقائه، إلى يمينه، بينما جلس مضيفه بطليموس إلى يساره.

جاء دور لحم العجل بعد أن فرغ الجميع من تناول لحم الطرائد، كان مشوياً ومقطعاً، وتكفل أحد النحاتين بتقديمه، فيما انشغل الخدم الآخرون بإحضار سلال من الخبز الطازج تفوح منه رائحة شهية، بالإضافة إلى الجوز غير المقشر، وبيض البط المسلوق.

وبعد قليل، دخلت عازفات الناي مع آلاتهن وبدأن بالعزف، كن جميعهن من الفتيات الجميلات والرائعات، كما أنهن أتبن من مناطق مختلفة: ميجيا، وكاري، وترافيا، وبثيا، وقد رفعن شعرهن إلى الأعلى بواسطة أشربة أو قبعات ملونة مزينة بالفضة والذهب. كانت ملابسهن تشبه ريش الببغاء في ألوانها، وكانت تنانيرهن قصيرة، كما حملن أقواساً وحاملات سهام. عمدت الفتيات بعد ذلك إلى التعري، فالتمعت أجسادهن الفتية تحت أضواء المشاعل، وفاحت رائحة الزيوت المعطرة. بدأن بالرقص على أنغام النايات وقرع الطبول، ورحن يرقصن أمام الطاولات، ويسرن بين تلك المخصصة لتناول الطعام.

توقف الأصدقاء عن تناول الطعام، لكنهم تابعوا الشرب وأصبحوا في حالة من الإثارة الكلية. وقف بعضهم كي ينضم إلى الرقص مع إيقاعات الطبول والدفوف المتسارعة. أمسك بطليموس فتاةً بيده على حين غرة، فأوقف حركة دورائها، وقربها بحيث يتمكن الإسكندر من تفحصها عن قرب. قال: "إنها الأجمل بين المجموعة، وها أنا قد أمسكتها من أجلك".

سأل هيفاستيون: "وماذا بشأني؟".

سأله الإسكندر عندما أوقف فتاةً جميلةً أخرى ذات شعرٍ أحمر: "أحب هذه الفتاة".

أعطى بطليموس أوامره إلى الخدم كي يعمدوا إلى ملء المشاعل بحيث ينطفئ بعضها قبل الآخر، وبحيث ينفد الزيت من بعضها قبل الآخر مما يتسبب بظلمة جزئية في الغرفة.

بدأ الشبان والشابات بمداعبة بعضهم بعضاً. وفي هذه الأثناء، تصاعدت الأنغام الموسيقية من النايات وترددت بين أرجاء جدران الغرفة المزخرفة، وهو الأمر الذي أعطى إيقاعات ترددت مع أصداء أنفاس الراقصين، واندفاعات أجسادهم الملتمة على أنوار المشاعل القليلة التي بقيت مضاءة في زوايا تلك الغرفة الكبيرة.

غادر الإسكندر عند منتصف الليل، وذلك بعد أن شعر بإثارة وإفكاك شديدين لا يستطيع السيطرة عليهما. بدا الأمر وكأن قوة مكبوتة منذ زمنٍ طويل قد انطلقت فجأة وسيطرت عليه تماماً.

توقف فوق إحدى شرفات القصر التي كانت عرضة للرياح الشمالية، وذلك كي يستعيد القليل من صفاء ذهنه، ووقف هناك ممسكاً بالجدار الفاصل، وبقي هكذا حتى رأى القمر يغيب وراء جبال إيورديا.

فكّر في منتجع مييزا الذي يقع هناك وسط الظلمة، وبأرسطو الذي يُحتمل أنه منشغل الآن في إشعال زيت منتصف الليل في أثناء اتباعه خيط أفكاره الدقيق، أحسّ أن سنوات عديدة قد مرّت منذ أن ترك معلمه.

*

أيقظه أحد الحراس قبل طلوع الفجر بقليل. جرّ نفسه إلى وضعية الجلوس، وأسند رأسه المرتجف بيديه.

"أمل أن يكون لديك سبب وجيه لإيقاظي. لكن، إذا كان الأمر غير ذلك...".

"السبب هو أن الملك قد أرسل في طلبك أيها الأمير، يريدك أن تذهب لمقابلته على الفور".

جهد الشاب كي يقف على قدميه، وتمكّن بطريقة ما أن يصل إلى حوض الغسل، فغطس رأسه فيه مرات عديدة. وضع عباءةً فوق كتفيه العاريتين، وشد أربطة حذائه، ثم سار خلف دليله.

التقاه فيليب في غرفة تابعة لمستودعات الأسلحة الملكية، لكنه لاحظ أنه في حالة متوترة.

قال له: "حدث شيء خطير جداً، طلبت من والدتك، قبل عودتك من مبيزا، أن تساعدني في مهمة دقيقة، وهي إرسال مبعوث إلى أثينا بهدف إحباط خطة أعدّها ديموستين بهدف إفشال سياساتنا. فكّرت في أن موفداً من الملكة لديه فرصة أكبر لسماعه، وللحصول على شيء ما. كنتُ مخطئاً لسوء الحظ، لأن الموفد أثهم بأنه جاسوس، وعُذّب حتى الموت، هل تدرك ماذا يعني ذلك؟".

استعاد الإسكندر وعيه بعد أن رأى حالة والده فأجاب: "يعني ذلك أنه يجب علينا إعلان الحرب على أثينا".

"الأمر ليس بهذه السهولة، لأن ديموستين يحاول تشكيل تحالف هلييني يقود الحرب ضدنا".

"سنهزمهم".

"حان الوقت أيها الإسكندر، كي تعلم أن السلاح لا يشكّل حلاً لكل المشاكل، وها أنا قد فعلت كل ما في وسعي كي يعترفوا بي قائداً للتحالف الهلييني، وليس عدواً لهذا التحالف. إن لديّ مشروعاً طموحاً: أريد إشعال حربٍ ضد الفُرس في آسيا، وأن أهزمهم، ثم الانطلاق إلى ما وراء شواطئ بحر إيجه حيث يتواجد الأعداء التاريخيون لليونانيين. وأريد أن أفرض سيطرتي على جميع الطرق التجارية التي

تصل إلى شواطئنا من الشرق، أما إذا أردت تحقيق هذا الهدف، فستتعيّن عليّ أن أفرض نفسي قائداً غير متنازعٍ عليه لذلك التحالف العظيم الذي يوحد كل قوى الدول اليونانية، يتعيّن عليّ أن أفعل ذلك بحيث يفرض الداعمون لي المتواجدون في كل المدن المهمة وجودهم، وليس أولئك الذين يتمنون موتي".

أوما الإسكندر: "وماذا ستفعل؟".

"سأنتظر في الوقت الحاضر، لأنني تكبدت خسائر كبيرة في حملي السابقة. ولذلك سأعيد بناء أقسام الجيش التي تضررت في الحرب على هيليسبونت وتراقيا. إنني لا أخاف من القتال، لكنني أفضّل أن أفعل ذلك عندما تكون فرص الفوز هي الأكبر.

أريد أن يحافظ كل المخبرين الذين يعملون لصالحنا على جهوزيتهم في أثينا، وطيبة، وفي المدن اليونانية الأخرى، وذلك كي نحصل على أخبار متواصلة عن التطورات السياسية والعسكرية. يحتاج ديموستين إلى دعم طيبة إذا أراد الحصول على أمل، ولو ضئيل، في أي معركة ضدنا، وذلك لأن طيبة تمتلك أقوى القوات البرية بعدنا نحن. ولهذا السبب، يتعيّن علينا أن ننتظر اللحظة المناسبة كي نحول دون حصول تحالف معاد لنا، إن ذلك ليس بالأمر الصعب علينا، لأن أثينا وطيبة كانتا على عدااء منذ أقدم الأزمنة. ولكن، إذا قدر لهذا التحالف أن يتحقق فسنضطرّ إلى الضرب بيد من حديد بسرعة البرق.

انتهت مرحلة تعليمك أيها الإسكندر، ومن الآن فصاعداً ستكون على علم بكل الأمور التي تؤثر فينا، ليلاً ونهاراً، وسواء أكان الطقس جميلاً أم لا. والآن، أطلب منك أن تتوجه إلى والدتك كي تبلغها بخبر موت مبعوثها، كانت تحبه كثيراً، لذلك أريدك ألا تخفي عنها أي تفاصيل، لأنني أريدها أن تعرف كل شيء. أما أنت فأريدك أن تكون

جاهزاً منذ الآن فصاعداً، لأنك عندما تقود جنودك في المرة القادمة فلن يكون ذلك لمطاردة أسد أو دب... بل في إطار الحرب".

غادر الإسكندر متوجهاً إلى جناح والدته، فالتقى كليوباترا في الرواق، ولاحظ أنها ترتدي فستاناً جميلاً، يحيط به حزام مطرز، من صنع أيونيا، وأن وصيفتين ترافقها وتحملان صندوقاً ضخماً، وتنزلان الدرج معها.

قال لها: "أصحيح أنك ذاهبة في نزهة".

أجابته شقيقته، وهي تشير إلى الصندوق: "أجل، إنني ذاهبة إلى معبد آرتميس كي أقدم كل الألعاب والدمى التي كانت بحوزتي في أثناء طفولتي إلى الأسياء".

"هكذا تماماً، لقد أصبحت امرأة الآن. إن الوقت يمر بسرعة الآن، أتريدون إهداء كل هذه الألعاب إليها".

ابتسمت كليوباترا: "لا، ليس كلها تماماً... أتذكر تلك الدمية المصرية بذراعيها وساقها المربوطة، وعلبة أدوات التزيين الصغيرة، التي أهداني إياها والذي بمناسبة ذكرى ميلادي؟".

أجاب الإسكندر وهو يحدّ ذاكرته على تذكر الدمية: "أجل، أعتقد ذلك".

"حسناً، أريد أن أحفظ بها، أعتقد أن الأسياء ستسامحن؟".

"أوه، لا أشك في ذلك، أتمنى أن ترافقك السلامة في جولتك هذه يا شقيقي الصغيرة".

طبعَت كليوباترا قبلة على خد شقيقها، ثم نزلت الدرج تتبعها وصيفتاها، وسارعت إلى منزل الحرس حيث كانت العربات تنتظرهن مع المرافق بيرديكاس.

قالت متشكّية: "لكنني لا أريد أن أَسْتَقِلَّ عربية. ألا أستطيع أن أمتطي جواداً؟".

هزّ بيرديكاس رأسه: "لديّ أوامر... وخاصة مع ارتدائك هذه الملابس يا أميري".

رفعت كليوباترا طرف حزامها حتى وصل إلى مستوى ذقنها، وأظهرت لمرافقها أنها ترتدي تنورة قصيرة تحت فستانها الرائع. "أترى؟ ألا تعتقد أنني أبدو كالبيغاء؟".

تحول لون بيرديكاس إلى القرمزي، وقال وهو ييلع ريقه: "أعتقد ذلك أيتها الأميرة".

"إذاً". قالت الأميرة ذلك وهي تسمح لحزامها أن يصل إلى كاحليها.

تنهد بيرديكاس، وقال: "تعلمين جيداً أنني لا أستطيع أن أرفض لك طلباً. لكن، دعينا نعالج الأمر بهذه الطريقة. اصعدي الآن إلى العربية، لكن بعد أن نقطع مسافة معينة، ونبتعد عن القصر بحيث لا يرانا أحد ستمكن من التبديل، يمكنك عندها أن تأخذي جواد أحد الحراس بينما يركب هو العربية، وأنا متأكد من أنه لن يمانع في الركوب مع وصيفتيك".

صاحت الفتاة: "رائع!".

انطلقا ما إن بدأت الشمس بالظهور من وراء جبل رودوب، وسارا فوق طريق يؤدي إلى الشمال نحو يوروبوس. يقع معبد آرتميس عند منتصف الطريق الممتد بمحاذاة برزخ يقسم المياه إلى بحيرتين متماثلتين، كان ذلك مكاناً يتميز بجمال طبيعي مذهش.

ما إن غاب موقع القصر عن أنظارهم حتى صاحت كليوباترا بسائق العربية كي يوقفها، وما لبثت أن نزعت حزامها وسط دهشة

وصيفتيها، ثم امتطت صهوة جواد تابع لحارس بعد أن حملته على أخذ مكانها في العربة. ثم انطلق الموكب مجدداً وسط قهقهات الوصيفتين.

قالت كليوباترا: "أترى؟ إن هذا الوضع مسلٍ للجميع".

أوماً بيرديكاس، وحاول إبقاء نظره على الطريق أمامه، لكنه لم يستطع إلا أن يلتفت كي يتطلع على ساقى الأميرة العاريتين، مما سبب له تشويشاً كبيراً في تفكيره.

قالت الفتاة معذرة: "أنا آسفة لأنني سببت كل هذه الفوضى".

ردّ بيرديكاس: "لا تهتمي... لأنني، في واقع الأمر، تطوعت لهذه المهمة".

سألته كليوباترا وهي تخفض رأسها كي تنظر إليه مباشرة: "حقاً؟".

أوماً بيرديكاس مجدداً، وشعر بخجلٍ أكثر من ذي قبل.

"إنني ممتنة لك كثيراً، ومسرورة بشكلٍ خاص لأنك اخترت مرافقي بنفسك، سمعت أنك شجاعٌ جداً".

شعر الشاب وكأن قلبه يقفز بين ضلوعه، لكنه جاهد كثيراً كي يضبط نفسه، ليس فقط بسبب تربيته الحسنة، بل لأنه أدرك أن الرجال يراقبونه.

توقف الموكب عندما ارتفعت الشمس في السماء، فنزل الجميع، وتجمعوا في ظل شجرة. طلب بيرديكاس من كليوباترا أن تغيّر ملابسها وتعود إلى مكانها في العربة، وذلك لأنهم لم يعودوا بعيدين عن المعبد.

قالت الفتاة موافقة: "إنك على حق". ثم طلبت من الحارس الخروج من العربة، وما لبثت أن ارتدت ثوبها الاحتفالي مجدداً.

وصل الموكب إلى المعبد عند المساء، فدخلت كليوباترا، وتبعها وصيفتاها وهما تحملان الصندوق. تقدم الجميع حتى أصبحوا تحت تمثال

آرتميس، كان تمثالاً جميلاً لكنه موغلٌ في القدم، وهو تمثال محفور من الخشب ومطلبي بالألوان. وضعوا مجموعة الألعاب والدمى والإناء المصغر، والطاسات، عند قدمي التمثال، وتضرعت كليوباترا لآرتميس قائلة: "أيتها العذراء، سأترك هنا عند قدميك تذكارات طفولتي، وأتوسّل إليك أن تفهمي موقفني إذا عجزت عن امتلاك القوة، أو الإرادة كي أبقى عذراء مثلك، أتوسل إليك أن تكوني مسرورة بهذه الهدايا، وأرجوك ألاّ تنظري إليّ بعين الحسد إذا اخترت أن أتمتع بمباهج الحب". وقبل مغادرتها، تركت كليوباترا تقديماً سخية لرجال الدين في المعبد.

كان المكان شديد الروعة، فالمعبد الصغير محاط بأحجاط الورود، ويقع وسط مرج أخضر وينعكس منظره على سطح البحيرتين التوأم من جهة اليمين وجهة اليسار، وبدا لونه أزرق مائلاً لزرقة السماء. اقترب بيرديكاس وقال: "أمرت بتجهيز الغرف لك ولوصيفتيك كي تبتي الليلة هنا في جناح الضيوف التابع للمعبد".

"وماذا عنك أنت؟".

"سأحرسك خلال نومك يا سيديتي".

خففت الفتاة رأسها، وقالت: "طوال الليل؟".

"بالطبع، طوال الليل. إنني مسؤول عن...".

رفعت كليوباترا عينيها، وابتسمت: "أعرف أنك طيب جداً يا بيرديكاس، لكنني آسفة لأنك ستبقى مستيقظاً طوال الليل. ظننت بأنك قد...".

سأل الشاب بينما تسارعت نبضات قلبه: "بماذا تفكرين سيديتي؟".

"كنت أفكر في أنك تستطيع أن تأتي لتحدث معي قليلاً، إذا ما شعرت بالضجر".

"أوه، سيكون ذلك مدعاة سرورٍ وشرفٍ كبيرين لي و...".
"سأترك الباب مفتوحاً في هذه الحالة".

ابتسمت له ابتسامة فاتنة، ثم سارعت بالانضمام إلى وصيفتيها اللتين كانتا تلعبان بالكرة بين الورود المفتحة الموجودة في المرج.

اجتمع مجلس المعبد في دلفي بعد وقتٍ قصيرٍ من عودة الإسكندر إلى بيليا، وطلب المجلس من فيليب أن يتدخل بالنيابة عن معبد أبولو ضد مدينة أمفيسا التي بدأ سكانها بزراعة أراضٍ تعود ملكيتها إلى معبد أبولو بطريقة غير مشروعة. وكان الملك قد عرف أخباراً في غاية الأهمية من آسيا في الوقت الذي بدأ فيه التفكير في الهدف الحقيقي الذي يكمن وراء شنّ هذه الحرب المبعجلة الجديدة.

جاءت هذه الأخبار مباشرةً من أحد جواسيسه، وهو رجلٌ يوناني من صقلية يدعى يومولبس، ولديه مصالح تجارية في سولوي، وكان قد وصل إلى بيليا بحراً عن طريق مرفأ ثيرماي، فاستقبله الملك وحده في مكتبه الخاص.

"أحضرت إليك هدية يا سيدي". أعلن الجاسوس ذلك وهو يضع على طاولة فيليب تمثالاً ثميناً لعشتار مصنوعاً من اللازورد. "هذا التمثال تحفةٌ نادرةٌ جداً، ويمثّل ما يعادل أفروديت بالنسبة إلى الكنعانيين، سيحمي هذا التمثال رجولتك لوقتٍ طويلٍ جداً".

"شكراً لك، إن رجولتي غاليةٌ عليّ جداً، لكنني أعتقد أنك لم تقطع كل هذه المسافة من أجل هذا السبب فقط".

أجاب يومولبس: "بالطبع لا، جئتُك بأخبار مهمة من عاصمة الفرس. سُمّم الإمبراطور أرتخششتا الثالث من قبل طبيبه بناءً على أوامر محدّدة، ويبدو أنها صدرت من أحد خصيان البلاط".

هزّ فيليب رأسه: "هؤلاء الخصيان كلهم من الخونة، أرادوا ذات مرة أن يعطوني شراباً، لكنني رفضت عرضهم، إنهم يحسدون الجميع،

وكل شخص يمتلك ما حرموا منه، إن ذلك أمر مفهوم تماماً. وإن الأخبار التي نقلتها إليّ تؤكد أنني فعلت الشيء الصائب".

"يُدعى ذلك المخصي باغاوس. يبدو لي أنها جريمة غير".

قال فيليب: "ينبغي القضاء على ذلك المخصي الشاذ، أعتقد أن هذا أمر طبيعي، وماذا سيحدث الآن؟".

"لقد حدث، وانتهى الأمر يا سيدي. أقنع ذلك المدعو باغاوس بالاشتراك مع إحدى زوجات أرتحششتا نبلاء البلاط بأن يقدموا التاج إلى أرسيس، وهو ابن الراحل أرتحششتا، ها هو". مدّ يده إلى جيبه وتناول منها عملة معدنية، وأعطائها إلى فيليب من فوق الطاولة. "لقد سكّت حديثاً".

تفحّص الملك ملامح الوجه النصفية للإمبراطور الجديد، والذي يتميز بأنف كبير يشبه منقار طائر. "لا يبدو مطمئناً جداً، يبدو لي كأنه أسوأ من والده، وذو شخصية متشددة، أعتقد أنه سيستمر؟".

تنهّد يوموليس وهو يهزّ كتفيه: "من يدري؟ يصعب عليّ القول. إن مخبرينا يتفقون على أن باغاوس يريد أن يحكم من خلال أرسيس، وهكذا فإن الإمبراطور سيستمر طالما أن باغاوس يريد أن يبقى".

"إن الوضع واضح جداً بالنسبة إليّ، أعترم إرسال تحياتي إلى الإمبراطور الجديد، وإلى ذلك المخصي باغاوس، وسوف نرى رد فعلهما، أريدك أن تبقيني على اطلاع دائم بكل شيء يحدث في بلاط سوسا، وستكون راضياً. أريدك أن تمر على مساعدي الآن، وهو سيدفع لك الأجر الذي اتفقنا عليه، قل له بعد ذلك أن يوافيني".

غادر يوموليس بطريقة رسمية، ثم اختفى بعد ذلك عن الأنظار، وترك فيليب يفكر في ما يجدر به فعله. ولكن عندما حضر إيومينيس كان الملك قد اتخذ قراره.

"هل ناديتني يا سيدي؟".

"اجلس واكتب".

جلس إيومينيس على مقعد، وتناول لوح كتابة وريشة، بينما بدأ الملك في إملاء ما يريده:

من فيليب ملك مقدونيا إلى أرسيس إمبراطور الفرس، وملك الملوك،
ونور أنوار الآريين...

تحياتي!

أهاتنا الإمبراطور أرتخششتا الثالث - والدك وسلفك - كثيراً من دون أي
سبب من جانبنا. فقد أقدم على تجنيد أفراد من المرتزقة للعمل لصالح
أعدائنا، بينما كنا مشغولين بحصار بيرينثوس، وبالحرب ضد بيزنطة.
تكدنا خسائر فادحة جراء هذه الأعمال الفظيعة، ولهذا السبب فإتانا نطلب
الآن تعويضات بقيمة...

رفع إيومينيس رأسه في أثناء انتظاره معرفة الرقم.

... خمسمئة تالنت.

لم يستطع إيومينيس منع نفسه عن الصفير.

وإذا تخلفتم عن تلبية طلبنا هذا فسنضطر إلى اعتباركم أعداء لنا، بما في
ذلك كل الأمور التي ستتجم عن هذا الوضع.
خذوا حذرکم، وغير ذلك، وغير ذلك...

"اكتب هذا النص على ورق البردي، وسلّمني الرسالة كي
أختمها، أريد إرسالها مع مبعوث سريع".

صاح إيومينيس: "بحق زيوس يا سيدي! إنها أكثر الرسائل
التي قرأتها في حياتي صرامةً، لم يبقَ أمام أرسيس سوى الرد باللهجة
ذاقها".

قال الملك مؤكداً: "هذا ما أريده بالضبط، دعنا نفترض أن
الرسالة ستستغرق شهراً أو شهرين قبل أن تصل إلى مقصدها، بالإضافة
إلى شهرٍ أو اثنين كي يأتي الرد، سيعطيني هذا وقتاً كافياً لترتيب

الأوضاع في اليونان، سأهتم بعد ذلك بالمحصى الصغير. أريد أن يقرأ الإسكندر هذه الرسالة، كما أريد معرفة رأيه فيها".

*

قرأ الإسكندر الرسالة، فأدرك أن والده قد صمم على غزو آسيا، لكنه كان يبحث عن ذريعة كي يُشعل الحرب.

عاد إلى مييزا فور فراغه من المسائل التي انشغل بها منذ عودته إلى بيلا: المشاركة في الاجتماعات الحكومية، واستقبال الضيوف الأجانب، والبعثات والوفود، وتجمعات الجيش، وهي كلها أمور ضرورية للعلاقات ما بين التاج، والنبلاء الذين يدعمونه.

كان أرسطو قد غادر المكان، لكنّ قريبه كاليستين كان لا يزال هناك، يعمل على تجميع مجموعة التاريخ الطبيعي، بالإضافة إلى تحضير البحثين اللذين خصصهما الفيلسوف لتلميذه الملكي: أحدهما حول الحكم الملكي، أما الآخر فكان عن الاستعمار، وهو البحث الذي توقع فيه انتشار نموذج المدينة - الدولة يوناني في كل أنحاء العالم، وهذا النموذج هو الوسيلة الوحيدة للحرية، وتجربة في الحضارة المادية.

مكث الإسكندر في مييزا أيام عدة على كل حال، وخصّص هذه الفترة للراحة والتأمل. تناول وجبات طعامه مع كاليستين، وهو شاب مثقف لديه معرفة محترمة بالوضع السياسي في الدول اليونانية.

وقاده شغفه بالتاريخ إلى تجميع ليس فقط الأعمال الكلاسيكية العظيمة لهيكاتايوس الميليّي، وهيرودوتس، وثوسيديد، بل أعمال المؤرخين الغربيين من أمثال فيليستوس السيراكوزي الذي روى تاريخ المدن اليونانية في صقلية وإيطاليا، وهما البلدان اللذان بدأت تبرز فيهما قوى جديدة، مثل مدينة روما التي أسسها البطل الطروادي آينياس، والتي زارها هرقل في رحلة عودته من إيبيريا البعيدة.

كانا يجلسان تحت الرواق المعمد بعد العشاء، ويتحدثان حتى وقت متأخر. "عندما كان والدك يحارب السكاثيين أعلن مجلس دلفي حرباً مبهجة جديدة ضد سكان أمفيسا".

أجاب الأمير: "أعرف ذلك، أعتقد أن الطرفين يفتقدان إلى القوة الكافية لحسم النزاع، إن سكان طيبة يدعمون أمفيسا، لكنهم يرفضون إظهار دعمهم لأنهم يخشون إثارة غضب المجلس. أعتقد أن الوضع قد أصبح حرجاً مجدداً، وعلى الأخص في ما يتعلق بالتحرك الذي ستقرره أثينا، وسبق للمجلس أن أرسل طلباً رسمياً للتدخل، ولا أعتقد أنه سيضطر إلى تكرار طلبه مجدداً".

سكب كاليستين مزيداً من الشراب لكليهما، وقال: "يتزعم التساليون، أصداقاً، ذلك المجلس... وبحسب معرفتي بوالدك، فإني لن أدهش لدى معرفتي أنه رتب هذه المناورة برمتها".

تطلع الإسكندر في عينيه مباشرة بينما كان يرتشف الشراب من دون اكتراث من كوبه. "أيعني ذلك أنك كنت تتنصت يا كاليستين؟". وضع الشاب كوبه على الطاولة، وقال: "إنني مؤرخ أيها الإسكندر، وأعتقد أنني كنت تلميذاً مجتهداً عند خالي، مثلك تماماً. يتعين عليك ألا تتفاجأ إذا استخدمت الوسائل المنطقية بدلاً من الإصغاء إلى الشائعات التي يتناقلها الناس.

دعني أضمن الآن، يعرف والدك جيداً أن الرأي العام في أثينا لا يميل إلى سكان طيبة، لكنه يعرف كذلك أن ديموستين سيحرب أي شيء في متناول يده كي يضمن أن يغير الأثينيون موقفهم ويدعموا موقف سكان طيبة الداعم لأمفيسا ضد مجلس المعبد، أي ضد فيليب.

أما ديموستين، فهو يعرف من جهته أنه عبر توحيد قوى أثينا وطيبة قد تتوفر له الفرصة لتجنب سيطرة المقدونيين التامة على اليونان،

وهكذا فإنه سيفعل أي شيء من أجل إقامة حلف مع سكان طيبة، حتى ولو كان ذلك يعني تحدي أعلى مجلسٍ ديني في اليونان، بالإضافة إلى ضالع أبولو".

سأل الإسكندر بعد أن صمّم على معرفة رأي رفيقه بعمق: "وكيف سيتصرف سكان طيبة برأيك؟".

"يتعلق الأمر بعاملين: مناورات الأثينيين، وأداء الجيش المقدوني في وسط اليونان. سيحاول والدك وضع أكبر قدر من الضغوط على سكان طيبة من أجل منعهم من إقامة تحالف مع أثينا. إنه يعرف جيداً أنه إذا نجح الطرفان في إقامة تحالف، فإنه سيواجه أقوى القوات البرية بالإضافة إلى أقوى قوة بحرية في اليونان كلها، حتى بالنسبة إلى ملك مقدونيا".

بقي الإسكندر هادئاً تماماً لفترة، وكأنه كان يصغي إلى الأصوات الليلية التي كانت تتناهى إلى سمعتهما من الغابة المجاورة، بينما سكب كاليستين مزيداً من الشراب.

سأل الإسكندر بعد أن تناول رشفة من المشروب: "ماذا ستفعل بعد أن تنتهي من عملك هنا في مبيزا؟".

"أعتقد أنني سأنضم إلى خالي في ستاجيرا، لكنني أحب أن أتابع الحرب عن قرب".

"يمكنك أن تتبعني إذا أردت. وكذلك إذا طلب مني والدي أن أنضم إليه".

أجاب كاليستين: "سأكون مسروراً جداً بالانضمام إليك". كان من الواضح أنه كان يأمل بسماع طلب كهذا، وكان ذلك ترتيباً يلبي طموحات الطرفين.

"إذاً، تعالَ إلى بيلا عندما تُنتهي عملك هنا في مبيزا".

قبل كاليستين بحماسة، تركا بعضهما بعضاً في وقت متأخر من الليل بعد أن تحدثا مطولاً حول قضايا فلسفية. وفي اليوم التالي، أعطى الشاب الباحثين اللذين حضّرهما أرسطو إلى ضيفه، بحسب ما وعده، وكان كل بحث مرفقاً برسالة خطية من الفيلسوف.

*

عاد الإسكندر إلى القصر بعد مرور ثلاثة أيام، وكان الوقت مساءً، وذلك كي يشارك في مجلس الحرب الذي دعا إليه والده. حضر القادة أنتيباتر، وبارمينيون، وكليتوس، والأسود، بالإضافة إلى قادة كل الوحدات الرئيسية في الكتيبة وفرق الخيالة، كما حضر الإسكندر بصفته قائد قوات الطليعة.

برزت على الجدار الخلفي لقاعة المجلس خريطة لبلاد اليونان، وهي الخريطة التي أمر فيليب بصنعها قبل سنوات قليلة على يد أحد الجغرافيين من سميرنا، أخذ الملك يشرح بمساعدة هذه الأداة البصرية الخطوات العملية التي ينوي اتخاذها.

قال فيليب: "لا أنوي مهاجمة أمفيسا على الفور، إن منطقة وسط اليونان منطقة خطيرة ومنيعّة، بحيث يسهل على المرء أن ينتهي سجيناً في الأوديسة الضيقة، بينما تختفي كل منافذ النجاة أمامه ليجد نفسه محاطاً بالعدو. إن أول شيء ينبغي لنا فعله هو أن نسيطر على المدن المهمة في المنطقة، أي كيثينيون وإيلاتيا، وسنقرر بعدها ما يمكننا فعله. بدأت قواتنا بالتحرك فعلاً، ونحن الآن نعبر تساليا. وسأُنضم أنا وبارمينيون إلى هذه القوات في وقت قريب، أي أننا سنغادر في الغد. أما أنتيباتر فسوف يحتفظ بقيادة القوات التي ستبقى هنا لحماية مقدونيا".

انتظر الإسكندر بقلق أن يوزّع والده المهام التي خصّصها له في العمليات الحربية، لكنه أصيب بخيبة أمل.

"سأترك ختم أركاديا مع ابني بحيث يمكنه أن يمثلني خلال فترة غيابي، إن كل مرسوم يصدر عنه سيتمتع بمنزلة مرسوم ملكي".
تقياً الأمير الشاب للوقوف، لكن نظرة واحدة من أبيه أبقتة جالساً. في تلك اللحظة، دخل إيومينيس وسلّم الختم إلى الإسكندر الذي سارع إلى وضعه في إصبعه، وقال من دون أن يُظهر أي حماسة كبيرة: "إنني ممتن للشرف الذي منحتني إياه، وسأسعى إلى أن أكون جديراً به".

التفت فيليب إلى مساعده، وقال له: "اقرأ على مسامع القادة الرسالة التي أرسلتها إلى إمبراطور الفرس الجديد، أريدكم أن تعلموا أن بعضهم سيضطر إلى المغادرة سريعاً إلى آسيا كي يفتحوا الطريق أمامنا".
قرأ إيومينيس الرسالة بصوته الصافي، لكنه فعل ذلك بنبرة رزينة، تابع الملك حديثه عند الانتهاء من قراءة الرسالة: "إذا جاء الرد كما أتوقع فسيتمكن بارمينيون من عبور المضائق، ويسير بمحاذاة الشاطئ الشرقي تحضيراً لبداية غزونا لآسيا. وفي هذا الوقت، سنركّز على تعليم اليونانيين درساً لن ينسوه طوال حياتهم، وهو عدم إمكانية تواجد غير تحالف هلييني واحد بقيادتي، هذا كل ما أردت قوله لكم. يمكنكم الآن العودة إلى نشاطاتكم المعتادة".

انتظر الإسكندر مغادرة الجميع في نهاية الاجتماع، وذلك كي يتمكن من الحديث مع والده وجهاً لوجه.

"لماذا أنت مصرّ على تركي في بيلا؟ أريد أن أقود فرقة الطليعة في ميدان المعركة، وليس خلال الاستعراضات فقط، يستطيع أنتيباتر إدارة شؤون الدولة خلال غيابك".

"فكرت ملياً ومطولاً قبل أن آخذ هذا القرار، ولا أرغب بتغييره الآن. إن إدارة الدولة أمرٌ أشد صعوبة من الحرب، ولعلها أكثر أهمية.

إن أعدائي كثرُ أيها الإسكندر، ليس فقط في أثينا وطيبة، ولكن في بيلا ومقدونيا كذلك، هذا من دون ذكر بلاد فارس، أريد أن أتأكد من أنني أترك ورائي وضعاً مستقراً بأيدي أمينة خلال حوضي المعارك خارج البلاد، إنني أثق بك".

أخفض الشاب رأسه، ووجد أنه من المستحيل الاعتراض على كلمات أبيه، قدّر فيليب مشاعر ابنه فتابع حديثه: "إن الختم الذي تسلمته هو إحدى أعلى علامات الشرف في العالم كله، واعلم أن حمل ذلك الختم يتطلب قدراتٍ أعظم بكثير من تلك المطلوبة لقيادة فرقةٍ من الخيالة.

ستتعلم هنا في هذا القصر كيف تصبح ملكاً، وليس في ميدان المعركة، إن السياسة هي مهنة الملوك، وليس استخدام الرمح والسيف، أقول لك، بالرغم من ذلك كله، إنه إذا حانت لحظة النزال النهائي بشكلٍ لا يمكنني تجنبه، وإذا وجدت نفسي في حاجةٍ إلى كل القوى التي أستطيع تجنيدها، فإنني سأبعث في طلبك، وأنت الذي سيقود فرقة الطليعة في ميدان المعركة، وليس أي شخصٍ آخر. تعال الآن، تخل عن هذا القلق، لأنني حضّرتُ لك مفاجأة كي أرفع من معنوياتك".

هزّ الإسكندر رأسه وقال: "ماذا لديك من خطط بعد، يا والدي؟".

قال فيليب وقد ارتسمت ابتسامة على وجهه: "سترى". وقف بعد ذلك وترك قاعة الاجتماع. وبعد قليل، سمعه الإسكندر وهو ينادي على تابعه بصوت عالٍ، وأمره أن يُحضر جواده ملجوماً، وطلب منه تنبيه الحارس. خرج الأمير كي يتطلع من فوق الرواق الذي يُشرف على الباحة في الوقت المناسب كي يرى فيليب وهو يثب بجواده وسط ظلمة الليل.

بقي الإسكندر في غرفته حتى وقت متأخر من الليل، وانشغل بتحضير مهمات اليوم التالي، أطفأ المشعل عند حلول منتصف الليل وقصد جناحه، ونادى لبيتين فور دخوله الغرفة، لكن الفتاة لم ترد.

كرّر نداءه بعد أن عيل صبره: "لبيتين!" إما أنها مريضة، أو غاضبة منه لسبب ما. وتناهى إلى سمعه صوت آخر من غرفة نومه: "اضطرت لبيتين إلى المغادرة، لكنها ستعود في الغد".

صاح الإسكندر عند سماعه ذلك الصوت الغريب وسط غرفته: "بحق زيوس!" تناول سيفه ودخل الغرفة.

قال الصوت: "أعتقد أنك لا تريد أن تغرز ذلك السيف في، بل...". رأى أمامه فتاة رائعة الجمال تجلس على سريريه لم يسبق له أن رآها من قبل.

سألها: "من أنت، ومن أعطاك الإذن بدخول غرفتي؟".
"إنني المفاجأة التي وعدك بها والدك الملك فيليب، ورثتها من أجدك، اسمي بانكاسب".

أجاب الإسكندر: "أنا آسف يا بانكاسب، لكنني إذا كنت أسعى إلى الحصول على هذا النوع من المفاجآت، فإنني قادر على ترتيبها بنفسى، وداعاً".

هبت الفتاة واقفةً على قدميها. ولكن، بدلاً من الاتجاه نحو الباب، أقدمت بحركة من رسغها على حلّ مشابك فستانها، فوقفت أمام الإسكندر بملابسها المصنوعة من أشرطة فضية.

أما ذراع الإسكندر التي سبق له أن رفعها كي يؤشر بها إلى الباب فقد انخفضت على جانبه، وراح يمتّع نظره فيها بصمت، كانت أجمل امرأة رآها في حياته، وكانت من الروعة بحيث خطفت أنفاسه،

وجعلت الدماء تجري بسرعة في شرايينه. كان عنقها ناعماً وطرياً...
فشعر أن لسانه قد جفّ في حلقة.

اقتربت منه الشابة، وأمسكته بيدها، ثم قادته نحو غرفة
الاستحمام، قالت له: "أيمكنني أن أنزع عنك ثيابك؟" ثم ما لبثت أن
بدأت بفك أزرار ردائه وسترته العسكرية الصغيرة وعباءته.

بدأ الإسكندر يتمتم: "إنني قلق من أن تغضب لبيتين، وأن...".
"ربما ستغضب، لكنك ستكون سعيداً وراضياً، أوكد لك ذلك".
ثم أضافت: "سيكون الأمر أفضل هنا، سترى".

رضخ الإسكندر، وبدأت الفتاة في تمسيده بكل خبرة ومهارة، ثم
تراجعت بكل خفة كي تبدأ تمسيداتها مجدداً في مناطق أخرى من
جسده.

عندما شعرت الفتاة أنه يكاد يتفجر خرجت من غرفة
الاستحمام، وذهبت كي تستلقي على السرير، وكان جسدها يقطر
بنقاط الماء المعطر تحت أنوار المشاعل الذهبية.

... فهم الأمير الشاب في تلك الليلة أنها أخذته إلى مستويات
أعلى بآلاف المرات من تجربته مع لبيتين التي قدمت إليه حباً خشناً
وبدائياً.

ظل الإسكندر يستقبل يومياً، وبشكل مستمر، مبعوثين منذ لحظة مغادرة فيليب، وهكذا ظل على علم بتطورات المعارك الحربية. علم الإسكندر بهذه الطريقة أن فيليب قد حقق هدفه منذ خطوته الأولى، وذلك عندما احتل كيثيون وإيلاتيا في نهاية فصل الصيف.

فيليب، ملك مقدونيا، يحيي الإسكندر.

في هذا اليوم، الثالث من شهر ميتاغيتيون، تمكنت من احتلال إيلاتيا.

سببت إنجازاتي الرعب في أثينا لأن الجميع هناك شعروا بأنني أخطط لقيادة جيشي ضدهم، وأنني سأجبر سكان طيبة على الزحف معي. لكن ديموستين أقنع المواطنين أن نواباي تقتصر على الضغط على سكان طيبة كي يمتنعوا عن عقد حلف مع أثينا، أقنعهم كذلك بضرورة إرساله إلى طيبة مع وفد من أجل هذه الغاية بالذات، أي من أجل عقد الحلف. وقررت بدوري أن أرسل بعثة إلى تلك المدينة من أجل إقناع سكانها بعدم إتمام ذلك الحلف، سابقك على علم بما يجري. انتبه لنفسك، ولوالدتك الملكة.

*

أرسل الإسكندر في طلب كاليستين، الذي انضم إليه في القصر قبل أيام قليلة، وقال له: "تتطور الأمور بحسب توقعك تقريباً، استقبلت لتوي مبعوثاً من والدي ليخبرني عن تطور حملته. ستقوم بعثتان - واحدة أثينية وأخرى مقدونية - بمحاولة إقناع أهل طيبة بعقد تحالف مع جهة أو أخرى، من سيفوز برأيك؟".

وضع كاليستين عباءته فوق ذراعه اليسرى بطريقة متعالية نوعاً

ما، ثم قال: "توقع الأحداث أمر في غاية الخطورة، وهو عمل يليق بضالع أكثر مما يليق بمؤرخ، لكن من يترأس البعثة الأثينية؟".
"أهو ديموستين؟".

"يعني ذلك أنه هو الذي سيفوز، لا يوجد خطيب مفوّه يفوقه مقدرة في اليونان كلها، يمكنك أن تتحضّر لمغادرة بيلا".
"ماذا تعني؟".

"أعني أن يوم المواجهة الأخيرة بات قريباً، وسيرغب والدك بأن تكون إلى جانبه في ميدان المعركة".
تطلع الإسكندر في عينيه: "إذا ما حدث ذلك فستقوم أنت بكتابة تاريخ أعمالى عندما تحين اللحظة".

*

أدرك الأمير جيداً مدى صواب رأي والده القائل إن استخدام السلطة السياسية هو أشد إهْماً من القتال في ميدان المعركة، وشعر كل الموجودين في البلاط أنه من واجبهم إسداء النصح إليه، وذلك لأنه كان في مقتبل العمر. كما اعتقد الجميع، وعلى الأخص والدته، بأنهم يستطيعون التأثير في قراراته.

دعته والدته ذات مساء كي يتناول العشاء معها في جناحها، وذلك بحجة إعطائه العباءة التي طرّزتها من أجله.

قال الإسكندر ما إن رأى العباءة: "إنها رائعة". وتنبّه على الفور على أنها عباءة مصنوعة باليد مثل تلك التي تشتهر إفيسوس بصنعها، وأضاف قائلاً: "لا بد من أنك أمضيت شهوراً في خياطتها".

رأى الإسكندر مقعدين فقط بالإضافة إلى طاولتين قليلتي الارتفاع موضوعتين إلى جانب بعضهما.

"ظننت أن كليوباترا قد تكون معنا هنا هذه الليلة".

"أصيبت بنزلة برد خفيفة، وبارتفاع خفيف في حرارتها، أرجو أن تعذرهما. ولكن، تصرف على هواك من فضلك، كما أن العشاء جاهز".

استلقى الإسكندر على أريكته ثم تناول بعض حبوب اللوز من أحد الأطباق الكبيرة، بينما بدأت فتاة بسكب حساء لحم الإوز، ونوع من أنواع الخبز المحضّر فوق الجمار. كانت الوجبات التي تتناولها والدته بسيطة على الدوام، وقليلة من حيث الكمية.

استرخت أولمبيا في جلستها على أريكته، وأمرت الفتاة أن تسكب الحساء في طبقها.

تناولت بضعة ملاعق من الحساء ثم سألته: "حسناً، أخبرني ما شعورك عند جلوسك على عرش أبيك؟".

لم يحاول ابنها إخفاء بعض الانزعاج الذي شعر به عندما أجابها: "لا أحسّ بأي شعور يختلف عن ذلك الذي أشعر به عندما أجلس على أيّ كرسي آخر".

حدجته أولمبيا بنظرة تأنيب: "لا تناور حول السؤال، أنت تعرف تماماً ما أقصده".

"أعرف يا أمي، لكن ماذا عساي أقول؟ أحاول أن أعطي أفضل ما عندي، وأن أتجنب ارتكاب الأخطاء، وأن أرعى شؤون الدولة بكل جدية".

ردّت الملكة: "رائع".

وضعت إحدى الخادومات وعاءً يحتوي على بذور نباتية، وبعض السلّطة على الطاولة أمامهما، ثم مضت كي تضيف إليها الزيت، والخلّ، والملح".

عادت أولمبيا إلى الحديث مجدداً: "أيها الاسكندر، هل فكرت في أن والدك قد يموت على نحو مفاجئ؟".
"يقاتل والدي في الصفوف الأمامية مع جنوده، لذلك إن حدوث هذا الأمر محتمل".

"وماذا سيحصل إذا حدث ذلك فعلاً؟".
صبت الخادمة مزيداً من الشراب، ثم ما لبثت أن أخذت الوعاء، وعادت بسبيخ من لحم الكركي المشوي، وبكوب من البازيلاء المهروسة، لكن الأمير رفضها بإشارة صغيرة من يده.
"أنا آسفة، نسيت أنك تكره البازيلاء. حسناً... هل فكرت في هذا الاحتمال؟".

"سأشعر بأسف شديد، لأنني أحب والدي؟".
"لم يكن ذلك ما قصدهت أيها الإسكندر، إنني أتحدث عن خلافة العرش".

"لا يحق لأحد أن يشكك في أحقيتي بالعرش".
"طالما أن والدك حي، وطالما أنا على قيد الحياة...".
"إنك تبلغين السابعة والثلاثين من عمرك يا والدي".
"لا يعني ذلك شيئاً، يُمكن للقدر أن يضرب أي شخص، إن ما أقصده هو أن ابن عمك إمينتاس يكبرك بخمس سنوات، وكان ولياً للعهد قبل أن تولد، يُحتمل أن يُقدم أحدهم على ترشيحه بدلاً منك، يُضاف إلى ذلك أن والدك لديه ابن آخر من إحدى... عرائسه".
هز الإسكندر كتفيه: "آرهيداوس شاب مسكين يفتقد إلى الذكاء".

"إنه يفتقد إلى الذكاء، لكن الدماء الملكية تجري في شرايينه. ولهذا إن بإمكانه أن يتسبب لك بالمتاعب".

"إذا، برأيك ماذا يجدر بي أن أفعل؟".
"إنك تمسك بالسلطة في غياب أبيك، كما أن يديك تطال الخزنة الملكية، أي أنك قادر على فعل ما تريد، إن كل ما تحتاج إليه هو أن تدفع لأحدهم".

تزاید قلق الإسكندر فقال: "سمح والدي لإمينتاس أن يعيش، وحتى بعد ولادتي، كما أنني لا أنوي أن أفعل ما تقترحه عليّ، أبداً".

هزّت أوليمبيا رأسها: "لا بد أن أرسطو ملأ دماغك بمفاهيمه حول الديمقراطية، لكنّ الأمور تختلف بالنسبة إلى الملوك، يتعيّن على الملك أن يضمن مسألة وراثته، ألا تفهم ذلك؟".
"يكفي هذا يا أمي، إن والدي لا يزال حياً، وأنت تتمتعين بصحة جيدة، وهذا هو كل ما في الأمر. أما إذا وجدت نفسي بحاجة إلى مساعدة ذات يوم فسأطلب مساعدة شقيقك، ملك إيبيروس. إنه يحبني وسيساندني".

أصرّت أوليمبيا على موقفها وقالت: "اسمعي...".
لكنّ صبر الإسكندر كان قد أوشك على النفاد، فهبّ واقفاً بحركة سريعة، وقبّل والدته على عجل على خدّها، وقال: "أشكرك على هذه الوجبة يا أمي، يتعيّن عليّ الذهاب الآن، طابت ليلتك".
ثم قصد الباحة الداخلية للقصر، وتفقدّ الحرس قبل أن يصعد من أجل رؤية إيومينيس الذي كان مشغولاً في غرفته بترتيب بريد الملك.
سأله: "هل من أخبار عن والدي؟".

"أجل، لكن كل شيء في غاية الهدوء، لم يقرّر سكان طيبة مع أي جهة سيقفون".

"وماذا يخطط إمينتاس هذه الأيام؟".

نظر إيومينيس نحوه بدهشة ارتسمت على جميع ملامح وجهه:
"ماذا تعني؟".

"ما قلته بالضبط".

"حسناً... لا أعرف، أعتقد أنه يتصيد في لينكستس".

"حسناً، أعطه مهمة دبلوماسية لدى عودته".

"دبلوماسية؟ لكن أي نوع من المهام الدبلوماسية تقصد؟".

"اخترها أنت، لا بد أن تناسبه إحدى المهام، أليس كذلك؟ سواء
أكان ذلك في آسيا، أم في تراقيا، أم في الجزر، أم في أي مكان تختاره
أنت".

بدأ إيومينيس بالاعتراض: "حقاً... لا أعرف ماذا...".

لكن الإسكندر كان قد غادر الغرفة.

*

وصل مبعوثو فيليب إلى طيبة في وقت متأخر من الخريف، وسُمح
لهم بالكلام أمام مجلس المواطنين الذين تجمعوا في المسرح.
أراد مجلس المستشارين من المواطنين أن يكون قادراً على تقييم
الاقتراحين من خلال مقارنتهما، ومن دون السماح بمرور وقت طويل
على تقديمهما. وهكذا سُمح للبعثة الأثينية بدخول المدينة، وهي البعثة
التي كانت برئاسة ديموستين ذاته...

كان فيليب قد ناقش مع قادة وحدات جيشه الاقتراحات التي يتعين
تقديمها لسكان طيبة. ولقد فعل ذلك مع بعض التفصيل، كما اعتقد
بصلابة أن هذه التفاصيل مفيدة لهم بحيث لن يترددوا أبداً في قبولها. ولم
تتضمن خططه أن يطلب منهم إنشاء تحالف معه، لأنه يعرف تماماً أن طيبة
تقف وراء أمفيسا، وهي المدينة التي أعلنتّ ضدها الحرب المبحلة. أي أن
ضمان حياد المدينة كان يكفيه، وقدم إليهم مقابل الحياد مكاسب مالية

كثيرة، بالإضافة إلى الأراضي، وهدّد فيليب بأنهم إذا رفضوا، فسيدمر المدينة وينهبها. لذا فمن هو الرجل المخبون كي يرفض؟

ختم إيوديموس، وهو رئيس الوفد المقدوني، خطابه بعبارات رزينة من المديح، والتهديد، والابتزاز، ثم غادر المسرح بعد ذلك.

بعد وقت قصير، قابل أحد أصدقائه من سكان طيبة، وهو مخبرٌ في الوقت نفسه، فقاده إلى نقطة مشرفة يمكنه من خلالها أن يسمع ما يجري في المجلس. أدرك الرجل أن فيليب سيطلب منه تقريراً عن كل الأمور التي سمعها بنفسه بدلاً من نقلها عن طرف ثالث.

أخذ المجلس استراحة قصيرة جداً كي يتأكد من عدم التقاء الوفدين المقدوني والأثيني، ولتجنّب أي شجار محتمل. وبعد ذلك، دخل الوفد الذي يترأسه ديموستين المسرح.

كان ذلك الخطيب المفوّه صارماً في مظهره، ومتفلسفاً، وذا بنية نحيلة ورشيقة، وعينين معبرتين تحت جبهة ترسم عليها تكشيرة دائمة. قيل عنه إنه عانى في صغره من مشاكل في الكلام، ومن صوت ضعيف، وأن طموحه في أن يصبح خطيباً قد دفعه إلى إلقاء أشعار ليوريبيديس من فوق شاطئ صخري في أثناء العواصف. وقيل كذلك إنه لم يكن يتحدث من دون أوراق لأنه لم يتقن الحفظ، لذلك لم يفاجأ أحد عندما تناول من تحت عباءته رزمة من الأوراق.

بدأ بالقراءة بصوت مدروس، وتحدث عن المراحل المختلفة لتقدّم فيليب الذي يصعب وقفه، وعن خروقاته المستمرة للمعاهدات والاتفاقيات، وبلغت به حماسه في إحدى المراحل حد تقديم هذا الالتماس المؤثر:

"لكن، ألا تدركون معي، يا سكان طيبة، أن الحرب المبحلة ما هي إلا ذريعة، أي كما كانت سابقاً، وتلك التي سبقتها؟ يريد فيليب

الحصول على حيادكم لأنه يريد تقسيم قوى اليونان الحرة، والقضاء على معاقل الحرية واحداً بعد الآخر. إذا تركتم الأثينيين يقفون ضده وحدهم فسيأتي دوركم، وستخضعون له.

وهكذا، إذا وقفتم ضد فيليب وحدكم وخسرتم، فإن أثينا لن تقدر وحدها على الدفاع عن نفسها. إنه يريد تقسيمنا لأنه يعلم جيداً أن قواتنا المتحدة وحدها تستطيع الوقوف ضد عدوانه.

إنني أعرف بوجود أسباب عديدة تدعو إلى الصراع، وحتى الحرب في ما بيننا. ولكنها كلها صراعات بين مدن حرة. ولكن، لدينا اليوم طاغية من جهة، ورجال أحرار من جهة أخرى. ولا يمكننا التشكيك في خياركم يا مواطني طيبة!

إننا نعتزم تسليمكم قيادة قواتنا البرية كعربون عن ثقتنا بكم، بينما سنحتفظ بقيادة أسطولنا، ونتعهد بتمويل ثلثي إجمالي التكاليف".
تصاعدت تمتمات من صفوف المجتمعين، فأدرك الخطيب أن كلماته قد تركت أثرها بين المستمعين. وتحصّر بعد ذلك لتقدم ضربته الأخيرة مع إدراكه المخاطرة التي سيُقدم عليها، أي احتمال أن تُقدم حكومته على نبذه.

استأنف الخطيب حديثه بالقول: "بقيت مدينتا بواتيا وثيسبياي لمدة نصف قرن من الزمن حليفتين لأثينا بالرغم من كونهما جزءاً من بواتيا. كما أن أثينا من جهتها ضمنت استقلال هاتين المدينتين. إننا على استعداد الآن لوضع هاتين المدينتين تحت سيطرة مدينتكم، ولإقناعهما بقبول هذه السيطرة، هذا إذا ما قبلتم اقتراحنا، وتوحدتم معنا في المعركة المقبلة ضد الطاغية".

تضافرت حماسة ديموستين، ونبرته الموحية، والطابع الذي اتخذته صوته، وقوة حججه، لمساعدته على الوصول إلى هدفه المرجو. وما إن

فرغ من إلقاء خطابه، وقد تقطعت أنفاسه، وتصبّب العرق من جبهته، حتى وقف عدد كبير من الحاضرين مصفقين له، وانضم إليهم آخرون، ثم انضم عدد آخر إلى فريق المصفقين حتى لم يبق أحد في المسرح لم يشارك في التهتافات التي استمرت طويلاً.

إن ما ساعد على إقناعهم، بالإضافة إلى طاقة الخطيب الأثيني، كان غرور موفد الملك فيليب، إضافة إلى التهديد والابتزاز الذي عبر عنه الوفد المقدوني. وسرعان ما صدّق رئيس المجلس على القرارات المتخذة، ودعا مساعده لكي يُعلم أفراد بعثة ملك مقدونيا أن مدينة طيبة قد رفضت، وبالإجماع، طلباته وعروضاته، وأنه يُطلب منهم مغادرة أراضي بواتيا عند غروب شمس اليوم التالي، وذلك تحت طائلة اعتقال أفراد البعثة ومحاكمتهم بتهمة التجسس.

وعند سماع فيليب هذه الأخبار تحوّل إلى ثور هائج لأنه لم يتصوّر أبداً أن سكان طيبة يُمكن أن يصل بهم الجنون إلى حدّ تحدّيه، في حين أنه قد وصل إلى حدود أراضيهم من الناحية العملية. ولكن، كان عليه القبول بنتائج مناقشتهم.

جلس فيليب بعد أن هدأ قليلاً، وسحب العباءة كي تغطي ركبتيه، ثم ما لبث أن تتم بكلمات الشكر إلى إيوديموس من أوريوس، والذي لم يفعل سوى تنفيذ أوامر الملك. أما المبعوث الذي بقي واقفاً حتى تلك اللحظة، والذي شهد غضب الملك فقد أدرك أنه شهد أسوأ ما في الأمر، وطلب الإذن قبل أن يتحرك نحو الباب.

ناداه فيليب: "انتظر! كيف هو ديموستين؟".

توقف إيوديموس عند عتبة الباب، والتفت نحو الملك.

أجاب قبل أن يغادر: "كتلة من الأعصاب التي تنادي الحرية!".

*

لم يكذب فيليب يخرج من صدمته حتى تحرك الحلفاء الجدد وباشروا بالعمل. تمكنت قوات المشاة الخفيفة التابعة لطبية وأثينا من احتلال كل المعابر الجبلية بهدف قطع كل المبادرات العسكرية المعادية تجاه بواتيا وأتيكي، أما الملك الذي وجد نفسه في ورطة نتيجة الطقس السيئ، والأوضاع العامة التي أصبحت صعبة وخطرة بشكل خاص، فقد صمم على العودة إلى بيلا تاركاً وراءه فرقة عسكرية تحت إمرة بارمينيون وكليتوس الأسود.

تولى الإسكندر قيادة فرقة الحرس الملكي، وتوجه لملافاة والده عند الحدود مع تساليا، ورافقه من هناك في طريق عودته إلى المنزل.

قال فيليب لابنه بعد أن تبادلوا التحية: "هل فهمت الآن ما قصدته سابقاً؟ لم يكن هناك من داعٍ للعجلة. فنحن لم نبدأ بعد التحرك الفعلي، وما زالت اللعبة مفتوحة على مصراعها".
"لكن يبدو أن كل الأمور تعاكسنا، تحالفت طبية وأثينا، وتمكنتا من إحراز نجاحات مهمة".

لوّح الملك بيده، وكأنه يطارد مصدراً من مصادر الإزعاج، وما لبث أن صاح قائلاً: "آه! دع الجميع يلحون ويستمتعون بحلاوة نجاحاتهم، لكنهم سيستيقظون على مرارة أشد من انتصارهم، لم أقصد أبداً مواجهة الأثينيين، ولم أطلب من طبية إلا الوقوف على الحياد في هذا الصراع. لكن طبية فضّلت أن تجرّنا جرّاً نحو هذه الحرب. والآن، يتعيّن عليّ أن ألقنهم درساً ليعرفوا بعده من هو الأقوى، سيسقط المزيد من القتلى، وسيحدث دمار كثير، إنني أمقت كل هذه الأمور، لكنهم لم يتركوا لي خياراً آخر".

سأل الإسكندر: "وماذا تنوي أن تفعل؟".

"سأنتظر الآن حتى بداية الربيع، إن القتال في الطقس الدافئ أسهل بكثير. لكنّ الأهم من ذلك كله هو أنني أحتاج إلى وقتٍ للتفكير في هذا الوضع. تذكّر يا بنيّ أنني لا أحارب لأنني أحب أصوات قرقة الأسلحة، إن الحرب بالنسبة إليّ هي ممارسة السياسة بطرائق أخرى".

ثمّ ما لبثا أن مكثا لبعض الوقت وسط صمت تام، وبدأ أن الملك يراقب الريف والأشخاص الذين يعملون في الحقول. وبعد ذلك كسر الملك الصمت المخيم بشكلٍ مفاجئ، وسأل: "بالمناسبة، كيف كانت المفاجأة التي أعددتها لك؟".

صاح الإسكندر: "أنا لا أفهم والذي بالفعل! كان عندنا فرصة للفوز في هذه المعركة عبر السلاح، لكنه اختار الإذلال من خلال إرساله ذلك الخطيب الأثيني، لذلك خرج خاسراً. كان في إمكانه أن يهاجم أولاً ويفاوض لاحقاً".

أجاب هيفاستيون: "إنني أوافقك هذا الرأي، أعتقد أنها غلطة كبيرة. اضرب أولاً، وتحدث لاحقاً".

كان إيومينيس وكالستين خلفهما على جواديهما ويسيران على الوتيرة ذاتها، وكانوا جميعاً يتجهون نحو فارسالوس كي يسلموا رسالة من فيليب إلى حلفائه في التحالف التسالونيكي.

انضمَّ إيومينيس إلى الحديث: "لكنني أفهم منطقهم تماماً، وأوافقهم عليه. أنت تعرف جيداً أن والدك عاش أيام شبابه في طيبة لمدة تزيد عن السنة كرهينة، وذلك في منزل بيلويداس، الذي كان أعظم المخططين الاستراتيجيين اليونانيين في القرن المنصرم. كان والدك متأثراً جداً بالنظام السياسي لمجلس طيبة المدينة - الدولة، وبتنظيمها العسكري الرهيب، وثقافتها الغنية. لذا خطرت لوالدك فكرة نشر الحضارة الهلينية في أنحاء مقدونيا، وتوحيد اليونانيين في اتحاد كبير موحد من تجربته المؤثرة هذه في طيبة".

قال كالستين ملاحظاً: "أي كما كانت الأمور في زمن حرب طروادة، هذه هي الفكرة الراسخة في ذهن والدك، وهو يريد أولاً توحيد الدول اليونانية، ثم قيادتها ضد آسيا، أي مثلما فعل آغاممنون

مع الملك بريام منذ ما يقارب ألف سنة مضت".
صاح الإسكندر: "ألف سنة مضت! هل مضت ألف سنة على
حرب طروادة؟".
أجاب كاليستين: "بقيت خمس سنوات فقط قبل الذكرى
الألفية".

تمتم الإسكندر: "لا بد أنها علامة، لا بد أنها علامة".
سأل إيومينيس: "ماذا تعني؟".
"لا أعني شيئاً، لكن ألا يبدو غريباً لك أنه بعد مضي خمس
سنوات سأبلغ العمر ذاته الذي بلغه آخيل عندما بدأ الزحف على
طروادة، وأن ذلك سوف يتزامن مع الذكرى الألفية للحرب التي تغني
بها هوميروس؟".

أجاب كاليستين: "كلا، لا يبدو ذلك غريباً بالنسبة إليّ، لأن
التاريخ يُظهر لنا، كل عدد معين من السنين، تركيبات الظروف ذاتها
التي تؤدي إلى الإنجازات العظيمة. لكن شيئاً لا يكرّر نفسه بالطريقة
ذاتها بالتحديد".

سأل الإسكندر: "هل أنت متأكد من صحة ما تقوله؟" قطّب
الإسكندر جبينه وكأنه غارق في متابعة صور بعيدة تمر بسرعة في
ذهنه.

وضع هيفاستيون يده على كتف الإسكندر، وقال: "أعرف ما
تفكر فيه، إنني سأبتعدك مهما كانت قراراتك، وفي كل ما تقرّر فعله".
التفت الإسكندر، وتطلع في عينيه مباشرة، وقال: "أعرف ذلك".
وصلوا إلى مقصدهم عند مغيب الشمس، وتلقى الإسكندر
التكريم الذي يليق بولي عهد مقدونيا. ثم توجه بعد ذلك مع أصحابه
لتناول طعام العشاء الذي أعدّه لهم ممثلو الاتحاد التسالونيكي. حمل

فيليب في ذلك الوقت لقب تاجوس، رئيس الاتحاد، ولقد كان بالفعل يعمل لقبين لمركزين: الأول بوصفه ملكاً، والآخر بوصفه رئيساً. كان أهالي تسالونيكي يحبّون الإكثار من الشرب مثل المقدونيين، لكنّ إيومينيس لم يشرب نقطة في أثناء العشاء، بل فضّل أن يستفيد إلى الحد الأقصى من عقد صفقة شراء جياد مع أحد النبلاء الذين يشعرون بالسرور، كانت شروط الصفقة وبندوها مفيدة بالنسبة إليه وكذلك بالنسبة إلى مقدونيا.

أتم الإسكندر مهمته في اليوم التالي، فغادر مع أصدقائه. ولكنه ما لبث أن بدّل ملابسه بعد أن قطع مسافة قصيرة من الطريق، ثم أمر الحارس بالانصراف، وما لبث أن أخذ الطريق المتجه جنوباً. سأله إيومينيس بعد أن فوجئ بتغيّر الخطة: "إلى أين تذهب؟". قال هيفاستيون: "إنني ذاهبٌ معه".

"أجل، ولكن إلى أين؟".

قال الإسكندر: "إلى أوليس".

علّق كاليستين ببساطة: "إلى الميناء الذي انطلق منه الآخيون لشنّ الحرب ضد طروادة".

صاح إيومينيس: "أوليس؟ لكن لا بد أنك أصبت بالجنون! تقع أوليس في بواتيا، أي في مركز المنطقة المعادية لنا".

قال الأمير مؤكداً: "لكنني أريد رؤية ذلك المكان، وسأراه، ولن يلاحظنا أحد".

مضى إيومينيس متابعاً حديثه: "سأكرّر، إنك مجنون، لأنهم سيلاحظون وجودكما بالتأكيد، وما إن تفتحا فاهيكما حتى سيلاحظوا لهجتكما، أما إذا لم تفتحا فاهيكما فإنهم سيتساءلون عن السبب. ولا تنسَ أيها الإسكندر أن رسمك قد وزّع في مدن كثيرة، ألا تدرك

العواقب الناتجة عن إلقاء القبض عليك؟ سيضطر والدك إلى عقد صفقة، وإلى التخلي عن خططه، هذا إذا سارت الأمور على ما يرام، وذلك كي يدفع الفدية التي ستكون باهظة جداً، وكأنه خسر الحرب. كلا، أنا لن أشارك في هذا الجنون، دعنا نفترض أنني لم أسمعكما وأنتما تتحدثان عن هذا الموضوع، أو دعنا نفترض أنني لم أركما على الإطلاق، وأنكما غادرتما المكان بصمت قبل بزوغ الفجر".

أوماً الإسكندر: "حسناً، لكن لا تقلق، لا تبعد أوليس سوى بضع مئات من الستاديات داخل حدود أراضي بواتيا، سنصل إلى هناك ونعود خلال يومين. أما إذا أقدم أحدٌ ما على توقيفنا فسنقول إننا زوار في طريقنا للحصول على استشارة من ضالع دلفي".

"في بواتيا؟ لكن دلفي تقع في فوكيس".

نخس هيفاستيون جواده دافعاً إياه كي ينطلق، وقال صارخاً: "سنقول لهم إننا قمنا في الطريق!".

نظر كاليستين إلى رفيق سفره الوحيد، وكأنه غير متأكد مما يجدر به القيام به.

سأله إيومينيس: "ماذا تنوي أن تفعل؟".

"أنا؟ حسناً، إذا كان جبي العميق للإسكندر يدفعني من جهة إلى الرغبة في اللحاق به، إلا أن تعقلي من جهة أخرى يدفعني إلى تفضيل...".

قاطعته إيومينيس صارخاً: "فهت، توقفا! ليضربكما زيوس بصاعقته إذا لم تتوقفا". نفذ الإسكندر وهيفاستيون ما طلبه منهما، لكن إيومينيس راح يقول وراءهما: "أنا على الأقل لا أتكلم بلهجة مقدونية. ولكن إذا اضطررت فأنا أستطيع أن أعبر بوصفي أحق من بواتيا".

قال هيفاستيون: "ها! ما من شك في ذلك!".

راح إيومينيس يتمم وهو يحث جواده على الإسراع: "اضحك ما طاب لك، لكن لو كان الملك فيليب هنا لكان جعلك تضحك من جرّاء جلادات عدة على ظهرك، هيا بنا، دعونا نتحرك وننتهي من مهمتنا".

سأل الإسكندر: "وماذا بشأن كاليستين؟".

أجاب إيومينيس: "سيلحق بنا، سيلحق بنا، فإلى أين يمكنه الذهاب وحده".

وفي اليوم التالي، عبروا بوابات ثيرموبايلاي. وهناك، توقف الإسكندر ليزور مقابر الجنود الإسبارطيين الذين سقطوا قبل مئة وأربعين سنة في أثناء المعارك مع الغزاة الفرس، وقرأ الإسكندر النقش البسيط المكتوب باللهجة اللاكونية الذي يخلّد تضحياتهم الجسيمة، ثم وقف بصمت كي يصغي إلى الريح التي أخذت تهبّ من جهة البحر.

صاح قائلاً: "كم هو قاسٍ قدر الإنسان! إن كل ما تبقى بعد ضجيج ذلك الصدام الرهيب الذي هزّ العالم بأكمله، والبطولات الجديرة بتخليدها في أشعار هوميروس هو هذه الأسطر القليلة، أما الآن فكل شيء هادئ".

تنقلوا عبر لوكريس وفوكيس من دون مشقة تُذكر وفي غضون بضعة أيام، ثم دخلوا بواتيا عبر الطريق البحري، فامتدّ أمامهم ساحل جزيرة إيوبويا التي نحتها أشعة الشمس مساءً، والمياه الرائعة لمضيق يوروبوس. كان أسطول صغير مؤلف من دزينة سفن يُبحر بمحاذاة الشاطئ، بينما ارتسمت على أشرعته التي نفختها الرياح علامة البومة، وهي رمز أثينا.

راح إيومينيس يتمتم: "لو أن ذلك القبطان يعرف هوية من يقف هنا على هذا الشاطئ ويراقب سفنه التي تمخر عباب البحر..."

قال كاليستين: "هيا بنا، دعونا ننهي هذه الجولة بأسرع ما يمكننا، لقد اقتربنا الآن". كان خائفاً في قرارة نفسه من أن يقرر الإسكندر الطلب منهم مرافقته في مهمة أكثر تهوراً.

وما إن وصلوا إلى قمة المرتفع، حتى تراءى أمامهم فجأة خليج أوليس الصغير. رأوا قبالتهم مدينة خالقيس تبدو من بعيد بأنوارها البيضاء فوق ساحل أيونيا. كانت المياه باللون الأزرق الغامق، بينما الغابات دائمة الخضرة وغابات أشجار السنديان التي تغطي سفوح المرتفع تكاد تصل إلى البحر، وذلك قبل أن تتحول إلى بساتين من أجاص الآس وأشجار الفريز، لتتحول بعد ذلك إلى شريط من الحصى والرمل الأحمر.

أبحر قارب صيد وحيد قبالة المرفأ المهجور، وهو المرفأ الذي أبحرت منه ألف سفينة للأحيين.

ترجل الرجال الأربعة، ونظروا بصمت إلى المكان الذي كان يشبه كثيراً ألف نقطة أخرى تتواجد على الساحل الهليني، لكنه يختلف عنها بطريقة ما، وتذكر الإسكندر في تلك اللحظات كلمات والده عندما حمله - وكان لا يزال صغيراً - على شرفة قصر بيلا وأخبره عن آسيا البعيدة، والتي لا حدود لها.

كسر هيفاستيون جدار الصمت المخيم، وقال ملاحظاً: "لا يستطيع هذا المكان، إطلاقاً، أن يتسع لألف سفينة".

علق كاليستين قائلاً: "كلا، لكن الشاعر يستطيع تخيل عدد أكبر من هذا. إن الشاعر، يا هيفاستيون، لا ينظم الشعر الغنائي بهدف رواية أحداث البشر كما تحدث، بل من أجل منحنا فرصة عيش عواطف وأحاسيس الأبطال، حتى ولو فصلتنا عنهم قرون عديدة".

التفت الإسكندر نحوه وعيناه تطفحان بالمشاعر، وقال: "أعتقد أنه في الإمكان وجود رجل في مكان ما في زماننا قادر على إنجاز البطولات التي تُلهم شاعراً بمثل عظمة هوميروس؟".

قال كاليستين: "يستطيع الشعراء أن يتدعوا الأبطال أيها الإسكندر. لكنّ العكس ليس صحيحاً، لأن الشعراء يولدون عندما يكون البحر، والسماء، والأرض في تناغم تام".

وفي طريق عودتهم، صادفوا عند دخولهم تساليا وحدةً من الحرس الملكي أرسلت بهدف البحث عنهم. فاضطر إيومينيس إلى تليفق رواية عن تعرّضه للمرض، وعن قرار الآخرين بعدم تركه، لكنّ أحداً لم يصدّقه. إلّا أنّ هذه الرحلة إلى أوليس أعطت الإسكندر برهاناً على أن أصدقاءه لن يتخلّوا عنه، حتى ولو كانوا خائفين، أي مثلما كان إيومينيس وكاليستين بالفعل. وأدرك الإسكندر، فيما عدا ذلك، أن الابتعاد عن بانكاسب قد ولّد لديه نوعاً من التوتر، وأنّه ينتظر بالفعل أن يراها فوق سريره وسط أنوار المشاعل الذهبية.

لكنّ أحداثاً عدة تخلّلت عودة الإسكندر إلى بيلا. فلقد ساء الوضع كثيراً، وعلى نحو مفاجئ، ولذلك اضطر الملك، وبعد أن حشد جيشه، إلى السير نحو فوكيس من أجل السيطرة على المضائق. ولم يُفلح مرور الوقت في عقلنة المتخاصمين، فطغت صيحات الحرب على ما عداها.

وفي الليلة ذاتها، استدعى الملك الإسكندر إلى خيمته لكنه لم يسأل ابنه ووريثه شيئاً عن سبب تأخره في العودة من مهمته في تساليا، بل اكتفى بأن عرض عليه الخريطة التي نشرها فوق طاولته، ثم قال له: "شاهد تشارز، القائد الأثيني الذي يعمل عشرة آلاف من المرتزقة تحت إمّرتة، على الطريق ما بين كيثينيون وأمفيسا، لكنه لا يعلم

بوجودنا هناك. وأنا أعتزم أن أسير بالجيش طيلة الليل وصباح غد، لأوقظه بنفسه من نومه. يتعين عليك أن تحافظ على هذا الموقع، وألا تتركه أبداً لأي سبب كان، سأعود من هذا الطريق فور أن أنتهي من أمر تشارز، أي من خلال وادي كريسوس، كما أعتزم عزل الأثنيين وجنود طيبة في معابرهم الجبلية، أعتقد أنهم سيضطرون إلى ترك مواقعهم والتراجع إلى معقلهم القوية الأولى في بواتيا". ثم وضع الملك سبافته على الخريطة عند النقطة التي اعتقد أن أعداءه سينسحبون إليها. "وهناك، عند تشايرونيا، ستنضم إلي أنت وفرسانك".

عند الفجر، فوجئ جيش تشارز المؤلف من المرتزقة بوصول قوات فيليب المهاجمة والتي تمكنت من سحقه، بينما تمكن فرسان الخيالة من تشتيت العدد القليل الذي نجح من المعارك. ولكن، بدلاً من أن يتابع الملك الزحف نحو أمفيسا، عاد - كما سبق وأعلن - وقطع المعابر التي يحتلها الأثينيون وسكان طيبة، ولم يترك للفريقين سوى خيار التراجع. علم الإسكندر بعد مرور ثلاثة أيام أن فيليب قد اتخذ موقعاً له في سهل تشايرونيا، وأن خمسة وعشرين ألفاً من جنود المشاة، بالإضافة إلى خمسة آلاف من فرسان الخيالة، يحاربون بإمرته، أما أوامره فكانت الانضمام إلى والده بأسرع وقت ممكن. لذا، طلب الإسكندر من خدمه أن يقيموا معسكراً، ويعتنوا بقافلة المؤن، من أجل إطلاق إشارة المغادرة قبل طلوع الفجر. كانت الفكرة هي البدء بالزحف قبل أن ترتفع درجة الحرارة كثيراً، وكذلك الحفاظ على وتيرة تقدم لا تتعب الجياد كثيراً.

تفحص الإسكندر فرقة الطليعة بمساعدة ضوء مشعل، ومن فوق ظهر بوسيفالاس، أما كل واحد من رفاقه، فقد كان يقود فرقة مستقلة، وقد رفعوا رماحهم تحيةً له، كانوا مدحجين بالسلاح وجاهزين للمواجهة. ولكن، كان من الواضح أن بعضهم لم ينم أبداً، وهم الذين لم يَمْروا بعد بمثل هذا اليوم الشاق.

حث الإسكندر رجاله على متابعة المسير بالقول: "تذكروا يا رجال! إن فرقة الكتيبة هي السندان، وأن فرسان الخيالة هم المطرقة، أما

فرقة الطليعة فهي... رأس المطرقة!" ثم نحس بوسيفالاس قُدماً نحو بطليموس الذي كان على رأس الفرقة الأولى إلى اليمين، وأخبره أن راية معركتهم هي فوبوس كاي ديموس.

كرّر بطليموس وراءه "فوبوس كاي ديموس! لا توجد راية أخرى تتفوق عليها من حيث تناسبها مع المعركة". وأعطى الراية بعد ذلك إلى أول فارس على يمينه، وطلب منه تمريرها بين صفوف الجنود.

أوماً الإسكندر إلى نافخ البوق الذي عزف لحن المغادرة، وما لبثت الجماعة أن تحركت بكل تناغم؛ تحرك الإسكندر أولاً، ثم هيفاستيون، وتبعه الباقيون بعد ذلك، وتحركت فرقة بطليموس بوصفها الحامية.

عبر الجيش كريسوس قبل طلوع الفجر، وما إن طلعت الشمس فوق السهل حتى تمكنوا من رؤية جنود الجيش المقدوني وقد التمتعت دروعهم بفعل ضوء الشمس، فبدوا وكأنهم الرؤوس اللامعة لسنايل حقل قمح جاهز للحصاد.

ما إن لمح فيليب القادم نحوه حتى امتطى جواده وأسرع كي ينضم إلى ابنه، وأمسكه من ظهره قبل أن يقول له: "مرحباً يا بني! يسير كل شيء بحسب ما توقعته. إنهم ينتظروننا، لكنني أريدك أن تنظم الرجال في الجناح الأيسر قبل أن تنضم إليّ، إنني أناقش في هذا الوقت خطة المعركة مع بارمينيون والأسود، لكن كنا بانتظارك قبل التوصل إلى قرار، أي أنك وصلت في الوقت المناسب، كيف حالك؟".

"مرحباً أبني، أنا في أحسن حال، وسأكون معك في الحال".

توجه الإسكندر إلى فرقته، ودار بها نحو جهة اليسار كي ينتظم الجنود في صفوف، فيما مدّ هيفاستيون يده وذراعه نحو التلة، ثم صاح: "آه، أيتها الأسياد في العلى، تطلعي! شاء والدك أن نواجه أفراد فرقة

طيبة المجلة: أتستطيعين تمييزهم هناك في الأسفل؟ إنهم أولئك الذين يلبسون أرديةً وعباءات حمراء بلون الدماء، إنهم أقوىاء أيها الإسكندر، لأنه ما من أحد تمكّن من إلحاق الهزيمة بهم من قبل".

"إنني أراهم يا هيفاستيون، سنهزمهم. نظّم الرجال في ثلاثة صفوف، سنهاجم على شكل موجات متلاحقة".

صاح سلوقس: "يا زيوس العظيم! أتعلمون لماذا يُطلق عليهم اسم الفرقة المبحلة؟ لأن كل واحد منهم قد أقسم يميناً معظمةً أمام رفيقه بالأب لا يترك بعضهم بعضاً حتى يفرقهم الموت".

قال بيرديكاس: "هذا صحيح، قالوا كذلك إنهم يحبون بعضهم، وهو الأمر الذي يشكّل رابطة أقوى في ما بينهم".

قال الإسكندر: "لكن الحب الذي يجمعهم لن يحميهم من قوتنا. حافظوا على مواقعكم حتى أعود".

ظل الإسكندر ينحس جواده حتى وصل إلى فيليب، وبارمينيون، والأسود الذين تراجعوا قليلاً إلى هضبة صغيرة تتيح لهم رؤية مساحة لا بأس بها من ميدان المعركة. أما في الجهة المقابلة، أي على مسافة قليلة إلى يمينهم فقد كان بإمكانهم رؤية قلعة أكروبوليس تشايرونيا بما فيها من معابد.

أما إلى الوسط وإلى اليسار، وفوق سلسلة من التلال التي تحيط بالسهل، فقد اصطفت القوات الأثينية، ووقف وراءها جنود طيبة، وقد لمعت دروعهم نتيجة انعكاس نور الشمس المشرقة عليها، بينما امتلأت السماء جزئياً بالسحب البيضاء الكبيرة، أما من جهة أقصى اليمين حيث يقف جنود طيبة فقد انتشر اللون القرمزي الذي يميّز الفرقة المبحلة.

وضع فيليب إلى يمينه فرقتين من رجال الدروع، وهم جنود فرقة الهجوم الذين تمكنوا قبل ثلاثة أيام من سحق جيش تشارز، وذلك تحت

قيادة الملك المباشرة. ولقد حصلت هذه الفرقة على اسمها من دروعها المزينة برسوم النجوم الأركادية بألوانها النحاسية والفضية.

أما في الوسط فقد تجمعت اثنتا عشرة كتيبة من فرقة الفالانج، واصطف جنود هذه الفرق في خمسة صفوف ليألفوا سداً من الرماح، وغاية يصعب اختراقها من رؤوس الرماح الحديدية، والتي ظهرت مصفوفة على شكل خط مائل، أما في الجناح الأيسر فقد وقف فرسان رفاق الملك جميعاً، ووقفت وراءهم فرقة الطليعة، الفرقة التي يقودها الإسكندر.

قال فيليب: "سأهاجم أولاً، وسأقوم بمشاغلة الأثينيين، وسأقوم بالتحرك رجوعاً إذا تبعوني. ثم يقوم بارمينيون بقيادة إحدى فرق الفالانج إلى هذه الثغرة، وهكذا تنقسم قوى الأعداء إلى قسمين، ثم تُطلق بعدها الكتائب الست الباقية، وسيتبعك الأسود مع بقية الجيش.

ستحين لحظتك بعد ذلك أيها الإسكندر: ستقتحم مع فرسانك ميمنة جنود طيبة، وستهاجم مع أفراد فرقة الطليعة التي تقودها الفرقة المبجلة، وإذا تمكنت من تحقيق اختراق فستعرف ما يجدر بك فعله".

"أعرف تماماً يا والدي: ستكون الفالانج هي السندان، وفرسان الخيالة سيكونون المطرقة".

ضمّه فيليب بشدة إلى صدره لوهلة، فتذكر نفسه فجأة وهو يقف وسط غرفة الملكة شبه المعتمة في بيلا وهو يحمل طفلاً ولد حديثاً، ثم قال له: "انتبه يا بني، لأن الطعنات في المعركة تأتي من كل الجهات".

أجاب الإسكندر: "سأنتبه يا والدي". وقفز بعد ذلك إلى صهوة جواده بوسيفالاس الذي راح يثب أمام الكتائب المتجمعة إلى أن وصل إلى فرقته، فيما تبعه فيليب بعينه لفترة، وما لبث أن التفت إلى مساعده الميداني وقال له: "أعطني درعي".

"لكن، سيدي...".

كرّر بلهجة حازمة: "أعطني درعي".

ساعده المساعد الميداني على إدخال ذراعيه من خلال أربطة الدرع، وهي الطريقة الوحيدة لحمل درع أركادي من الذهب الخالص. تناهت من قمم التلال أصوات الأبواق الحادة، ثم تبعها على الفور أصوات الصفارات المتواصلة التي أخذت إيقاعها من قرع الطبول، وهي الأصوات التي تصاحب الجنود في أثناء تقدمهم. وعكست حركة الخط الأمامي في أثناء هبوط الجنود أنوار الشمس، وفي خطوات المشاة الذين يرتدون دروعهم الحديدية، وترددت كل هذه القرقعة المخيفة في كل أرجاء الوادي.

كان أفراد فرقة الطليعة مصطفين على شكل وتد، فيما أخذ الإسكندر موقعه بصفته الفارس الأول في المقدمة، وركّز انتباهه على الجناح الأيمن من خطوط العدو، أي الفرقة المبجلة التي لا تُقهر. شعر بوسيفالاس بالتوتر، وراح يضرب الأرض بخوافه الأمامية، ويصهل بأصوات عالية من خلال منخريه، ويصفق بذيله على جانبيه.

اقترّب أحد الفرسان من فيليب بينما كان يستعد لإطلاق إشارة الهجوم، وصاح به الرجل بعد أن ترجّل عن جواده: "سيدي، أخذ ديموستين موقعاً مع جنود المشاة الأثينيين".

قال الملك: "لا أريده أن يُقتل، مرّر هذا الأمر إلى جنودي".

ثمّ التفّت كي ينظر إلى رجاله الذين حملوا الدروع. كانت وجوههم تقطر عرقاً تحت الجزء الشفاف من خوذهم، وكانت عيونهم تحدّق بشبات في الأنوار المنعكسة على أسلحة أعدائهم، كما أن التوتر بدا في عضلات أطرافهم التي تتحفز للمواجهة. كانت تلك هي اللحظة التي تأمل فيها كل واحد منهم بالموت، وهي اللحظة التي كان فيها شوق كل واحدٍ منهم إلى

الموت أقوى من أي شيء آخر، وكانت تلك هي اللحظة التي تفرض عليهم أن يتحرّروا من قبضة القلق، وأن يبدأوا بالهجوم.

رفع فيليب سيفه، وأطلق صيحة الحرب وما لبث رجاله أن تبعوه وهم يصرخون مثل قطيع من الحيوانات المفترسة، وتمكنوا بذلك من طرد كل المخاوف من صدورهم، وتعجلوا في إلقاء أنفسهم في أتون المعركة وطاحونتها متناسين كل شيء، حتى أنفسهم.

بدأوا يتقدمون بوتيرة سريعة، فصاح بهم قادتهم كي يتقدموا بصورة منتظمة، ويحافظوا على النظام في صفوفهم، وذلك كي يبدأوا بالصدام وهم كتلة متراسة وثابتة.

في هذا الوقت، اقتربوا كثيراً من الأثينيين الذين تابعوا التقدم كثفاً على كتف، ودرعاً قرب درع، بينما كانت رماحهم ممدودة إلى الأمام. تقدموا بثبات وسط الأصوات الحادة لصفاراتهم، ووسط القرع الأخاذ للطبول والصراخ الذي رافق كل خطوة من خطواتهم:

آلاي!

دوّت في أرجاء الوادي أصوات الصليل الحاد للأسلحة التي بدت مثل قصف الرعد، أو صوت تصادم الآلات البرونزية؛ ترددت الأصوات فوق سفوح التلال واخترقت السماء، كانت أصوات عشرين ألف جندي عالقين في أتون المعركة.

حارب فيليب - الذي كان مميّزاً بفضل نجمته الذهبية - في الصف الأمامي مدفوعاً بحماسة لا تفتّر، وكان يضرب بسيفه ودرعه، فيما أحاط به عملاقان من التراقيين مدججان بالفؤوس المزروجة الحد، وكان شكلهما يوّلّد الخوف في النفوس بسبب شعرهما الأحمر الشائك الذي يغطي رأسيهما، وكذلك الشعر الذي يغطي جسديهما، والأوشام التي تغطي وجهيهما، وأذرعهما، وصدريهما.

تداعت الجبهة الأثينية تحت وطأة الهجوم الساحق. لكنّ صوتاً حاداً اخترق الأجواء مثل صرخة صقر دفعهم إلى الأمام، وأعطاهم الشجاعة التي كانوا يحتاجون إليها. كان ذلك الصوت هو صوت ديموستين الذي كان يحثهم على القتال، والذي طغى على أصوات الصفارات والطبول، إذ انطلق الصوت صارخاً: "أيها الأثينيون! كونوا شجعاناً! حاربوا أيها الرجال! حاربوا من أجل نساءكم، وأولادكم! أرسلوا ذلك الطاغية متراجعاً إلى الوراء؛ إلى مكانه الصحيح!".

اشتدّ القتال وازداد عنفاً، وسقط عدد من الجنود قتلى من الجانبين. لكنّ فيليب أعطى أوامر مشدّدة بالألا يتوقف أحد من الجنود كي ينهب الجثث إلا بعد انتهاء المعركة. كان الجنود يبحثون عن ثغرة يستطيعون من خلالها إنفاذ سيوفهم من أجل إحداث شقّ في صفوف العدو.

غطت الدماء دروع جنود المشاة في الصفوف الأمامية، وراحت قطرات الدماء تتسلّل من حواف هذه الدروع إلى التربة التي أصبحت زلقة نتيجة الجثث. فبعد سقوط أيّ جندي كان جندي من الصف خلفه يتقدّم كي يأخذ مكانه، ولكي تظل المعركة مستمرة.

أشار فيليب إلى أحد حملة الأبواق كي ينفخ أمراً، فبدأ أفراد كتيبتين من حاملي الدروع بالتراجع تاركين قتلاهم وجرحاهم وراءهم في ميدان المعركة. تراجع أفراد الكتيبتين ببطء، وأبقوا دروعهم مرفوعة، وكانوا يردون الضربة بضربة مماثلة برماحهم وسيوفهم.

رأى الأثينيون أعداءهم يتراجعون، فاستغلوا الأفضلية التي يعطيها إياهم موقعهم، وضاعفوا جهودهم، وراحوا يبحثون بعضهم بعضاً على التقدم بالصراخ. أما جنود المشاة المتجمّعون في الصفين الثاني والثالث فكانوا يدفعون رفاقهم قدماً بواسطة دروعهم.

كان فيليب قد أصدر أوامره قبل الهجوم، لذلك عندما وصلت صفوف حَمَلَة الدروع خلال تراجعها إلى أرضٍ صخرية تقع على مسافة مئة خطوة إلى جهة اليسار، غيّر الجنود اتجاههم وبدأوا بالركض. كان الأثينيون في هذه الأثناء عالقين في حماسة القتال، ومستغرقين بالصراخ، ومذهولين من منظر الدماء وقرقعة الأسلحة، كما سكرُوا بنشوة النصر الوشيك الذي ظنوه في متناول أيديهم، لذلك مضوا في تعقب أعدائهم، وعزموا على القضاء عليهم، أما قائدهم ستراتوكليس، فبدلاً من محاولة حثهم على البقاء صفّاً واحداً، راح يصرخ بهم بأعلى صوته ليحثهم على ملاحقة أعدائهم حتى مقدونيا.

صدحت أصوات المزيد من الأبواق في جهة اليسار، وما لبث أن قرع طبل ضخّم معلق بين عربتين، ونشر صوته الراعد متردداً في أرجاء السهل الفسيح. فأعطى بارمينيون الإشارة، وما لبثت اثنتا عشرة كتيبة من كتائب الفالانج أن بدأت تقدمها ببطء وثبات وسارت متبعة خطأً مائلاً.

اندفع سكان طيبة في الهجوم عند رؤيتهم ذلك المشهد، وقاتلوا في صفوف متراصة بعد أن رفعوا رماحهم الثقيلة المصنوعة من أخشاب الأشجار النفضية، لكنّ أفراد الكتيبة المقدونية سرعان ما حشروا أنفسهم بين حشود الخط الأثيني المتقدم الذي فقد انتظامه في ذلك الوقت بسبب اندفاعه المجنون للإمساك بحاملي الدروع، وبين أقصى ميسرة خطوط قتال سكان طيبة.

تخلّى فيليب عن درعه الذي لوّثته الدماء، وأصابته ضربات أدت إلى التواءه، فأعطاه إلى مساعده قبل أن يقفز عن صهوة جواده مسرعاً به نحو بارمينيون، كان القائد يحدّق بثبات وقلق نحو الفرقة المبعجلة التي كان أفرادها يتقدمون ببطء، بدوا غير مكترئين أبداً بكل شيء يجري

حولهم. فلقد تقدموا بعناد، وكانت رماحهم ذات الرؤوس الحديدية أمامهم.

أما في الوسط فقد كان أفراد الكتيبة المقدونية الأولى، الذين كانوا يتقدمون في أعلى التلة، يجهدون أنفسهم في عملية التسلق، وعندما اندفع أفراد فرقة من جنود طيبة كي يسدوا تلك الثغرة، عمد أفراد الفرقة المهاجمة إلى خفض حراهم، وحصدوا نظراءهم في مواجهة مباشرة، لكن من دون تماس جسدي. وسرعان ما اندفع أفراد الفرقة بشكل أعمق، وتسارعت خطوات المقاتلين بالتناغم مع صوت ذلك الطبل الضخم الذي رافق سيرهم بدءاً من السهل.

أسرع آخرون من الخلف، واصطفوا بخط مائل حتى الخط الثالث، وحملوا راياتهم المخفوضة، بينما كان أفراد الحرس الخلفي من المشاة يحملون رايات مرفوعة كانت ترتفع وتنخفض خلال تقدمهم الإيقاعي، فبدت مثل سنابل القمح التي تتمايل مع هبوب الرياح، أما قرعة الأسلحة المعدنية التي رافقت التقدم الجهد والبطيء فقد وصلت أصداؤها إلى آذان الأعداء عندما وصل المقاتلون إلى الجهة المقابلة. بدا ذلك بمثابة نذير شؤم، أي مثل الصوت الذي يبشر بالموت.

"الآن". أعطى الملك الأمر للقائد الذي أسرع إلى استخدام درع مصقول كي يرسل إشارة إلى الإسكندر. وكانت الإشارة عبارة عن انعكاس الضوء على الدرع ثلاث مرات، وهي إشارة البدء للفرسان، والتي تعطي فرقة الطليعة حرية التصرف بشكل مطلق.

رفع الأمير رمح الذي أمسكه بإحكام وصرخ: "ثلاث موجات أيها الرجال!" ثم صرخ مجدداً بصوت أعلى "Phobos Kdi Deimos"، ونخس جانبي جواده بوسيفالاس بقدميه، فانطلق الجواد واثباً عبر الحقل الذي اكتظ بالقتلى والجنود الذين كانوا يصيحون نتيجة الألم. كان

الجوادر أسود مثل غضب الجحيم، وقد حمل راكبه المغطى بدروعه الملتزمة، وكان جذعه المرتفع يخترق الهواء.

تبع أفراد فرقة الطليعة قائدهم، وبقوا على مسافة قريبة منه، وكانت الجياد تثب بحماسة بسبب سرعة بوسيفالاس الرهيبة، وزاد من حماسها حثّ الفرسان الراكبين على صهواتها، وكذلك أصوات الأبواق.

رصدت الفرقة المبجلة صفوفها، وزرع رجالها رماحهم في الأرض، لكنهم وجّهوا رؤوس الرماح الحديدية باتجاه المهاجمين المقترين منهم. وما إن اقترب المهاجمون حتى أطلقت فرقة الإسكندر وابلاً من السهام، سرعان ما تبعته الدفعة الثانية ثم الثالثة، وذلك قبل أن تعود سهام الدفعة الأولى إلى الأرض. اضطر عدد كبير من جنود طيبة إلى التخلي عن دروعهم التي امتلأت في هذا الوقت بسهام الأعداء، وهكذا حاربوا من دون حماية. وبعد ذلك، جعل الإسكندر فرقته تأخذ شكل الوتد مجدداً، وأخذ موقعه على رأس هذا الوتد قبل أن يقود الجنود مباشرة إلى خطوط الأعداء. أخذ ينخس بوسيفالاس وسط جنود الفرقة المبجلة، وراح يضرب برمحه ذات اليمين وذات الشمال، وذلك بعد أن تخلّى عن درعه وسيفه كذلك.

وفّر هيفاستيون التغطية حول الإسكندر، وكان يرفع درعه من أجل حمايته بينما تجمّع رجاله خلفه.

بدا لهم أن كل مقاتل يسقط من الفرقة المبجلة كان يُستبدل بمقاتل آخر يأخذ مكانه، لذلك بدت الفرقة وكأنها جسم يُنبت أطرافاً جديدة على نحوٍ مفاجئ، وكان جنودها يسدّون الثغرات التي تحدث في كتلة دروعهم، ويردّون على الضربة بضربة ماثلة، ويفعلون كل ذلك مستعينين بطاقة لا تنضب، وبإقدام، وبجرأة قلّ نظيرها.

تراجع الإسكندر ونادى هيفاستيون: "أريدك أن تقود رجالك إلى تلك الجهة لكي تفتح ثغرة وتهاجم وسط قوات جنود طيبة من الخلف، دع الفرقة المبجلة لي!".

نفذ هيفاستيون الأمر، وتقدم مع بيرديكاس، وسلوقس، وفيلوتاس، ولايسيماخوس، وكراتيروس وليوناتوس، فأوجدوا ثغرة بين الفرقة المبجلة وبين بقية جنود طيبة، ونفذوا بعد ذلك انعطافاً واسعاً، وذلك في خطوة تشبه تلك التي نفذوها في الميدان حول الإسكندر، وهكذا تمكنوا من الإمساك بالعدو من الخلف ودفعوه نحو غابة من سهام فرقة الفالانج (الكتيبة) والتي كانت لا تزال تتقدم بثبات.

ربح المقدونيون المعركة قبل أن تصل الشمس إلى كبد السماء، وجاء الإسكندر إلى بارمينيون ممسكاً سيفه بيده، وكان درعه لا يزال مغطى بالدماء، وحتى أن صدر بوسيفالاس وجانيبه كانت مضرجة بالدماء.

"لم يعد هناك من وجود للفرقة المبجلة".

صاح بارمينيون: "أحرزنا النصر على جميع الجبهات!".

سأل الإسكندر: "أين الملك؟".

التفت بارمينيون نحو السهل الذي غطته طبقة سميكة من الغبار الذي تكوّن نتيجة المعركة، ثم أشار إلى رجل طويل كان يرقص بين جثث القتلى مثل رجل مجنون بالرغم من عرجه.
قال بارمينيون: "إنه هناك".

سقط ألفان من الجنود الأثينيين في معركة تشايرونيا، كما تم أسر عدد كبير منهم. وكان من بين الأسرى الخطيب ديماديس الذي أحضر أمام الملك، وكان لا يزال حاملاً درعه وينزف من جرح أصابه في ذراعه، في حين تمكّن ديموستين من الهرب عبر المعابر التي تؤدي جنوباً نحو لاباديا وبلاتيا.

تكبد جنود طيبة وحلفاؤهم الآخيون النسيب الأكبر من الخسائر، وهم الذين كانوا وسط ميدان المعركة. أما الفرسان التابعون للإسكندر فقد أمسكوا - بعد أن نجحوا بالقضاء على الفرقة المبحلة - بالقوات المتمركزة في الوسط، وأجبروهم على الاندفاع نحو السد الذي شكّله جنود الفالانج، وهو الأمر الذي أسفر عن حصول مجزرة بينهم.

انصبّ غضب فيليب على جنود طيبة إذ اعتبر أنهم خانوه، فباع الأسرى كعبيد، كما رفض تسليم جثث القتلى كي تُدفن الأمر الذي أثار استياء الإسكندر.

قال الإسكندر بعد أن هدأ ضجيج نشوة النصر قليلاً: "أبي، لقد طلبت منّي ذات مرة أن أظهر الرأفة عندما يكون ذلك ممكناً. أعاد أخيل جثة هيكتور إلى الملك العجوز بريام، وذلك بعد توسلاته التي امتزجت بالدموع. لقد حارب هؤلاء الرجال مثل السباع، ووهبوا حياتهم دفاعاً عن مدينتهم. إنهم يستحقون الاحترام، أخبرني الآن ما فائدة معاملة الموتى بهذه الطريقة؟".

امتنع فيليب عن الرد. ولكن، كان من الواضح أن كلمات ابنه قد أثّرت فيه قليلاً.

"هناك أسير في الخارج، وهو ضابط أثيني، يريد التحدث معك".
صاح فيليب: "ليس الآن".

"قال إنك إذا رفضت مقابلته فإنه سينزف حتى الموت".
"حسناً! سينقص الذين يثيرون قلقنا واحداً".
"كما تريد، سأهتم بذلك".

خرج ونادى على اثنين من حاملي الدروع: "خذوا هذا الرجل إلى خيمتي، واستدعيا جراحاً".

نفذ الجنديان الأمر، وهكذا وضعوا الرجل على نقالة مؤقتة قبل أن يقوموا بنزع ثيابه عنه وتنظيفه.

عاد أحد حاملي الدروع إلى الخيمة حاملاً أخباراً سيئة: "سيدي، إن جميع الجراحين مشغولون بمعالجة جنودنا، وهم يحاولون إنقاذ المصابين بجروح بليغة وخطرة، لكنك إذا أصدرت أوامر حازمة فسيأتون".

أجاب الأمير: "لا عليكم، سأهتم بالأمر بنفسي. أعطوني سكيناً، وإبرة، وخيطاً، كما أريدكم أن تسخنوا بعض المياه، وأريد بعض الأربطة النظيفة". تطلع الرجال إليه بذهول، لكن الجريح شعر بذهول أكبر.

قال له الإسكندر: "أخشى أنه يتعين علينا أن نفعل ذلك، لا أستطيع السماح بأن يموت جندي مقدوني من أجل إنقاذ أحد جنود الأعداء".

دخل كاليستين في هذه اللحظة بالذات، ورأى وريث عرش مقدونيا مرتدياً مئزراً مربوطاً عند الخصر، ومنشغلاً بغسل يديه.

"لكن ماذا...".

"دع هذا الأمر بيننا فقط، هل اتفقنا؟ لكن بما أنك حضرت صفوف التشريح عند أرسطو، يمكنك أن تساعدني. اغسل الجرح بالشراب والخل، ثم جهّز الإبرة والخيط... لا أستطيع الرؤية جيداً بسبب العرق الذي يغطي عينيّ."

سارع كاليسطين إلى التحرك برشاقة، فبدأ الأمير بتفحص الجرح: "أعطني المقص، إنه جرح عميق."
"ها هو المقص."

سأل الإسكندر الأسير: "ما اسمك؟".
"ديماديس".

توسعت حدقتا عيني كاليسطين، وهمس في أذن صديقه: "إنّه ذلك الخطيب الذائع الصيت". لم يُظهر الإسكندر أي دهشة لدى سماعه هذه المعلومة.

كشّر ديماديس عندما بدأ ذلك الجراح البديل بقطع لحمه، وما لبث الطبيب أن طلب الإبرة والخيط. وضع الإسكندر الإبرة فوق لهب المشعل قبل أن يبدأ بالخياطة، بينما أمسك كاليسطين جانبي الجرح معاً.

سأل الأمير في هذه الأثناء: "أخبرني عن ديموستين".
أجاب ديماديس من بين أسنانه المطبقة: "إنه... إنه وطني، لكننا ننظر إلى الأمور بطريقة مختلفة".

"إنه وطني، لكن بأي معنى بالضبط؟ ضع إصبعك هنا". أشار إلى الموضع بالتحديد، فسارع كاليسطين، الذي يعمل الآن كمساعد للجراح، إلى تنفيذ الأمر، ووضع إصبعه على الخيط الذي أصبح جاهزاً كي يُربط.

بدأ الجريح بالشرح قبل أن يجبس أنفاسه: "بمعنى... بمعنى أنني كنت ضد فكرة القتال إلى جانب طيبة، وقلت ذلك علناً". تنهد بعمق بينما كان الإسكندر يعقد الخيط.

همس كاليستين: "هذا صحيح، ولديّ نسخ عن أحاديثه".
قال الأمير: "أهيت، ويمكننا أن نبدأ الآن بوضع الضمادات". ثمّ التفت إلى كاليستين وقال: "دع طبيباً حقيقياً يكشف عليه في الغد، إذا تورّم الجرح والتهب فيجب أن يتمّ علاجه، وأفضّل أن يقوم جراحٌ حقيقي بهذا العمل".

قال ديماديس، وهو يحاول الجلوس على السرير الميداني: "كيف لي أن أشكرك؟".

"يمكنك أن تشكر معلمي أرسطو، لأنه علّمني هذه الأمور، لا أستطيع أن أفهم كيف لم تتمسكوا به، أنتم الأثينيون بكل قواكم كي يبقى معكم".

"غادر أرسطو بسبب مشكلة حدثت في الأكاديمية... لكن لا علاقة لهذه المشكلة بالمدينة ذاتها".

"اسمعي جيداً، هل يستطيع الجيش المتجمع أن يقوم بتزكية منحك منصباً سياسياً؟".

"أجل... من الناحية النظرية، يُحتمل أن يكون هناك في الوقت الحاضر من هو أجدر مني هنا، أو هناك في أثينا".

"تحدّث معهم، وتأكد من كونك الممثل المسؤول عن التفاوض على شروط السلام مع الملك".

سأل ديماديس بدهشة بينما كان يرتدي ملابسه: "هل أنت جاد؟".
"يمكنك أن تأخذ ثياباً نظيفة من صندوقي، سأحدث مع أبي لترتيب بقية الأمور، سيرتّب لك كاليستين مكاناً كي تبيت فيه".

"شكراً لك... أنا..." لم يمتلك ديماديس الوقت إلا كي يتلفظ بهذه الكلمات، لأن الإسكندر غادر الغرفة بالفعل وتوجّه إلى خيمة أبيه فيليب فوجده جالساً مع بارمينيون، وكليتوس، وبعض قادة الفرق، وهو يتناول طعام عشاءه.

سأله الملك: "هل أنت جائع؟ يمكنك أن تتناول لحم الحجل". أوضح بارمينيون: "هناك الآلاف من طيور الحجل التي تطير فوق بحيرة كوبياس في الصباح، ثم تمضي النهار باحثة عن الطعام على ضفاف الأنهر".

جلس الإسكندر على أحد المقاعد. كان الملك قد هدأ في هذا الوقت، وبدأ أنه في مزاج أفضل. قال الملك وهو يربت بيده على كتف ابنه: "حسناً إذاً، ما رأيك بابني يا بارمينيون؟".

"إنه رائع يا فيليب، وقد قاد الهجوم بشكل أفضل من أي جندي من جنود فرقة الرفاق". قال الإسكندر: "لكنّ ابنك فيلوتاس، أيها القائد، حارب بشجاعة كبيرة".

سأل الملك: "ماذا فعلتَ بذلك الأسير الأثيني؟". "هل عرفتَ من هو؟ إنه ديماديس". هبّ فيليب واقفاً على قدميه: "هل أنت متأكد؟". "أسأل كاليستين".

"بحقّ الأسياد! أريدك أن تستدعي أحد الجراحين للاهتمام به على الفور، كان الرجل يساند سياساتنا على الدوام".

"فرغت للتو من تقطيب جرحه، ولولا ذلك لنزف حتى الموت، كما أعطيته قدراً من حرية الحركة داخل المعسكر، أعتقد أنه سيحضّر

خطة سلام، وستكون جاهزة في الغد، أعتقد أنك تفضل تجنب الحرب مع أثينا".

"أجل، إن إلحاق الهزيمة بمدينة بحرية يعني السيطرة على البحار، وهو أمر لم نتجهز له بعد بالتأكد، وهذا ما توضح لي جيداً في بيرينثوس وبيزنطة، سأصغي إليك بكل سرور إذا كانت لديك اقتراحات محددة، كما سأوضح لك أفكارى، سأنتظر كى تنتهى من تناول هذه اللحوم مع أنى أشعر بالبرد".

*

أما في مدينة أثينا فإن الناجين من معركة تشايرونيا لم ينشروا في البداية سوى اليأس بين المواطنين. فيما امتلأت المدينة بأصوات العويل والذعر عندما بدأ هؤلاء في رواية أخبار الهزيمة، ووصف القتلى والأسرى، وذلك لأن كثيرين كانوا لا يعرفون شيئاً عن أحبائهم، وعما إذا كانوا في عداد الأحياء أو الأموات.

تغير الجو في وقت لاحق عندما أدرك الجميع ما يمكن أن يحدث لاحقاً، فلقد دُعي الجميع إلى القتال دفاعاً عن أثينا، حتى من هم في العقد السادس من عمرهم، وكذلك العبيد الذين وُعدوا بالحرية إذا ما وافقوا بدورهم على القتال.

كان ديموستين لا يزال متعباً وجريحاً، لكنه تابع حثّ الأثينيين على القتال حتى النهاية، واقترح أن يتم جلب سكان أتيكي إلى داخل المدينة. ولكن شيئاً من ذلك لم يتحقق لأن وفداً مصحوباً بمرافقة وصل من قبل الملك فيليب بعد أيام عديدة، وطلب أن يُسمح له بتقديم اقتراح لمعاهدة سلام إلى المجلس التمثيلي في المدينة. دُهب ممثلو الشعب عندما علموا أن المواطنين المسجونين في تشايرونيا قد صدّقوا على الاقتراح، وأن توقيع ديماديس موجود عليه.

دخل الوفد حلقة كبيرة بشكل نصف دائرة حيث كان الأثينيون جالسين في العراء تحت أشعة شمس الربيع، وحصل الوفد على الإذن بالكلام، فقال: "إن رفيقكم المواطن ديماديس، والذي لا يزال ضعيفاً على الملك فيليب، قد تفاوض بالنيابة عنكم على معاهدة تشمل على شروط أعتقد أنكم ستعبرونها مفيدة لكم.

إن الملك ليس عدواً لكم، لأنه معجبٌ فعلاً بمدنيتكم وبعجائبها إلى حدٍّ كبير، ولقد أسف كثيراً لأنه اضطر إلى قتالكم، وذلك لأنه وبساطة، كان يستحيب لطلب قدمه إليه دلفي".

لم يتجاوب المجلس كما توقع الخطيب، لأن الممثلين التزموا الصمت، وراحوا يتابعون باهتمام الاستماع إلى الشروط الحقيقية للمعاهدة، لكنّ الوفد تابع حديثه.

"سيتحلى فيليب الآن عن أي فكرة لاستغلال نصره في هذا الوضع، كما سيعترف بامتلاككم كلّ الجزر الموجودة في بحر إيجه، وسيعيد إليكم أوروبوس، وثيرسبياي، وبلاتيا، وهي المدن التي تنازل عنها قادتكم لصالح طيبة وهو الأمر الذي يعدّ خيانة لصداقتنا القديمة معكم". كان ديموستين جالساً على أحد مقاعد الصفوف الأمامية، أي قرب ممثلي الحكومة، فهمس في أذن أقرب الأشخاص إليه: "لكن، ألا ترى أنه يحتفظ بسيطرته على جميع مدننا الواقعة في المضائق؟ إنه لم يذكر هذه المدن بالاسم".

أتاه الرد على الشكل التالي: "كان للأمر أن يكون أسوأ بكثير، دعنا نسمع ما تبقى لديه ليقوله".

تابع الوفد كلامه: "لا يطلب الملك أي تعويضات، ولا يطلب فدية، لأنه سيعيد أسراكم، كما سيعيد إليكم أشياء قتلاكم كي تُدفن بشكلٍ لائق، أما ابنه الإسكندر فسيتولى شخصياً هذه المهمة المؤسفة".

أقنعت الاستجابة الإيجابية لممثلي المجلس ديموستين أنه لم يتبقَ لديه أي أمل، فلقد لمس فيليب مشاعرهم العميقة، كما أنه مصمّم على إرسال ابنه كي ينفذ هذا الدور من أدوار الرأفة. وكان قد صُعِبَ كثيراً على العائلات أن تعلم أن جثة أحد أولادها تقبع من دون دفن في ميدان المعركة، وهي عرضة للطيور والكلاب، ومحرومة من المراسم المتبعة للدفن. راح ديموستين يهمس مجدداً: "ستسمع الآن ماذا يريد مقابل كل هذا الكرم".

"وفي المقابل لا يطلب فيليب من الأثينيين إلا أن يصبحوا أصدقاء وحلفاء. يعتزم الملك مقابلة ممثلي اليونانيين في كورينث في فصل الخريف، وذلك كي يضع حداً للقتال الداخلي، ومن أجل إرساء سلام دائم، ومن أجل إعلان خطة كبرى لم يسبق له أن جرّبها قبل الآن، وهي الخطة التي تضع في حسابها مشاركة كل الشعوب اليونانية. ويعني ذلك أنه يتوجب على أثينا أن تقوم بحلّ حلفها البحري، وأن تدخل ضمن الحلف الهليني الكبير، وهو الحلف الحقيقي الوحيد الذي يؤسّسه الملك فيليب الآن. ويعتزم الملك أن يضع حداً للصراعات الداخلية التي استمرت منذ قرون في شبه الجزيرة هذه، كما يعتزم تحرير المدن اليونانية في آسيا من نير الاحتلال الفارسي.

سأترككم الآن كي تتمكنوا من التقرير بحكمة أيها الأثينيون، دعوني أعرف قراركم عندما تنتهون من مشاوراتكم، وذلك تمهيداً لإحالته إلى الرجل الذي أرسلني".

*

صُدّق ذلك الاقتراح بأغلبية كبيرة، وذلك بالرغم من خطاب ديموستين الحماسي الذي دعا فيه المدينة إلى القتال حتى النهاية. وأراد المجلس كذلك أن يُعرب عن تقديره للملك لأنه أخذ على عاتقه تأمين

دفن لائق للقتلى الذين ماتوا في المعركة. لذا، حملت الوثيقة، بالإضافة إلى توقيع ديماديس، تواريخ جميع ممثلي الحكومة، ثم أعيدت إلى فيليب. ما إن سمع الملك هذه الأخبار حتى أرسل ابنه الإسكندر إلى أثينا برفقة وفد من العربات المحملة برماد وعظام القتلى الذين أحرقت جثثهم في ميدان المعركة. تمكن الأسرى من التعرف على جثث كثيرة، وبناء على هذه المعلومات أمر إيومينيس بنقش اسم القتيل، واسم عائلته على قوارير صغيرة.

أما الجنود المجهولون فقد تم تجميعهم في العربات الأخيرة، مع أن الأطباء قد دونوا سمات الجثث، أي العلامات الفارقة في حال وجودها، مثل لون الشعر، والعينين، وغير ذلك من العلامات.

أراد فيليب التعبير عن حسن نيته فسمح للأثينيين باستعادة بعض أسلحتهم من أجل تسهيل التعرف على المقاتلين مجهولي الهوية. وقال للإسكندر في أثناء تحضره للانطلاق: "إنني أحسدك يا بني، لأنك على وشك أن ترى أجمل مدينة في العالم".

وحضر رفاقه كذلك من أجل توديعه.

قال الأمير لهيفاستيون: "انتبه إلى بوسيفالاس بالنيابة عني، لا أريد أن أتعبه، أو أن أجعله يخوض مخاطر لا لزوم لها في رحلة طويلة كهذه". أجاب صديقه: "سأعامله وكأنه امرأة جميلة، لا تقلق، لكنني آسف لأنك...".

"لأنني ماذا؟".

"لأنك لم تطلب مني أن أعطني بيانكاسب كذلك".

قال الإسكندر بعد أن بدأ بالضحك: "كفّ عن ذلك أيها الأحق!" ثم ركب بعد ذلك عربة متينة أحضرها إليه أحد المرافقين للتو، ثم أعطى إشارة الانطلاق.

بدأت القافلة الطويلة مسيرتها تصاحبها أصوات دواليب العربات، سار الأسرى الأثينيون خلف العربات على الأقدام، وحمل كل واحد منهم حزمة تحتوي على عدد قليل من الأغراض الشخصية، وما تمكن من جمعه من طعام. أُعطي ديماديس جواداً اعترافاً بدوره المميز الذي لعبه في تأمين توقيع معاهدة السلام.

بقي القتلى من أهل طيبة في الأمكنة التي سقطوا فيها، فكانت الجثث عرضة للغربان والطيور الجارحة، بينما تولت الكلاب البرية، والطيور الليلية، عملها خلال الليل. شاهدت أمهات كثيرات قدمن من المدينة كل هذه المشاهد، حيث تجتمعن على أطراف ميدان المعركة، وتصاعدت أصوات عويلهن المرعب في أرجاء السماء. فيما أجرت أمهات أخريات داخل خليج تشايرونيا شعائر غريبة، هدفن من ورائها إلى توسل أبشع ميتة لفيليب.

لكن لعنائهن وتوسلاتهن لم تجد نفعاً على الإطلاق، لأن الملك رفض على الدوام السماح بدفن قتلاهن، وذلك لسبب بسيط، وهو أنه اعتبر أهل طيبة جميعاً من الخونة.

إلا أن الملك ما لبث أن أذعن في نهاية الأمر، بعد أن أقنعه إصرار أصدقائه الذين كانوا يخشون العواقب الحتمية لمثل هذه السياسة القاسية.

ترك سكان طيبة مدينتهم في حالة حداد، وذلك بعد أن تصاعدت أصوات النائحين المستأجرين، ثم حفروا حفرة كبيرة وضعوا فيها أشلاء جثث شبانهم الذين سقطوا في ميدان المعركة. ثم كدس السكان التراب من أجل تكوين تلة، وهناك بنوا تمثالاً حجرياً ضخماً يمثل أسداً، وذلك من أجل تخليد ذكرى شجاعة جنودهم.

وفي النهاية، تم التوقيع على معاهدة سلام مع سكان طيبة. لكن، تعيّن عليهم قبول تواجد حامية مقدونية ترابط في قلعته، بالإضافة

إلى حلّ تحالف بلاتيا، والدخول في التحالف الهليني الذي أقامه فيليب.

لقي الإسكندر ترحيباً في أثينا بوصفه ضيفاً مهماً، كما تلقى التكريم الذي يستحقه، وقرر مجلس أثينا إقامة تمثال له في مكان عام، وذلك اعترافاً بفضلته في المهمة الإنسانية التي قام بها، وتقديراً لحسن معاملته المقدونيين لأسرى المدينة. وهكذا، اضطر الإسكندر إلى أن يجلس أمام النحات الأثيني العظيم بروتوجينيس، وذلك بالرغم من إعلانه ذات مرة أن ليسيبوس وحده هو المخول بصنع تماثيله.

حافظ سكان أثينا على محبتهم لديموستين بالرغم من الهزيمة، وأرسل إلى كالوريا، وهي جزيرة قريبة من مدينة طروزين، وذلك من أجل تجنبه أي احتكاكٍ مخرجٍ مع المقدونيين.

فهم الإسكندر هذا الوضع، لذلك تجنب، وعن حق، الاستفهام عن أخبار خصم مقدونيا وحين انتهت مهمات الإسكندر الرسمية، أراد زيارة الأكروبول حيث توجد التماثيل التي أثنى عليها أرسطو كثيراً، ومكّنه من رؤية رسومها.

وذا صبح، تسلق التلة، وكان ذلك بعد هبوب عاصفة في الليلة السابقة، فذهل من روعة الألوان ومن جمال التماثيل واللوحات. ارتفع البارثينون وسط هذه المساحة الواسعة، وقد زيّنته مجموعة من التماثيل التي نحتها فيدياس، وهي التماثيل التي ترمز إلى ولادة أثينا من جبهة زيوس. كانت التماثيل ضخمة وكانت وضعيتها تتبع ميلان منحدرات السقوف: كانت التماثيل التي هي في وضعية الوقوف في الوسط حيث تتحرك الشخصيات الرئيسة تدريجياً نحو الخارج، وتظهر تماثيل أخرى في وضعية الركوع، أو الاستلقاء.

كانت كل التماثيل مطلية بالألوان الزاهية، ومزينة بمواد معدنية من البرونز والذهب.

أما بمحاذاة ذلك المعبد، أي إلى جانب درج المدخل فقد انتصب تمثال من البرونز سبق أن نحته فيدياس، وهو أول شيء يراه البحارة الأثينيون عندما يعودون إلى مينائهم بعد انتهاء رحلتهم.

لكن، أكثر ما رغب الإسكندر في رؤيته فقد كان ذلك التمثال الضخم لأثينا، والموجود داخل المعبد، وهو التمثال الذي نحته فيدياس كذلك.

دخل الإسكندر بهدوء واحترام يليقان بذلك المكان، وسرعان ما ألقى نفسه هناك في مواجهة تمثال عملاق من الذهب والعاج، وهو من العجائب التي استمع إلى أوصافها منذ أن كان صبياً.

كان الهواء داخل المعبد مشبعاً برائحة البخور، وكانت الغرفة الداخلية شبه مظلمة، وهو الأمر الذي أبرز ذهب التمثال وعاجه أكثر فأكثر، وتلألأت الأنوار المنعكسة عليه من نهاية الصف المزدوج للأعمدة التي تدعم السقف.

*

وقف الإسكندر هناك وقد اعترته نشوة عارمة عندما راح يتأمل في عظمة المعبد، ويفكر في مجد أثينا وسلطانها وفي عظمة الرجال الذين شيّدوا المسارح والهياكل، والذين صهروا البرونز ونحتوا الرخام، ولوّنوا تماثيل الجصّ ذات الجمال الأخاذ، فكّر كذلك في شجاعة البحارة الذين تمتعوا لسنوات طويلة بسيطرة على البحار من دون أن ينازعهم عليها أحد، وفكّر في الفلاسفة الذين قدّموا معتقداتهم على جوانب هذه التماثيل الملتزمة، وفي الشعراء، وكتاب المسرحيات الذين عرضوا مسرحيات المآسي أمام آلاف المشاهدين المعجبين.

شعر أنه يمتلئ إعجاباً، ثم ما لبث أن شعر بشيء من الخجل عندما
تذكر والده الذي يعاني من العرج، وتذكر رقصته المخزية بين القتلى
الذي سقطوا في تشايرونيا.

زار الإسكندر مسرح ديونيسيوس الذي يقبع عند أقدام الأكروبول، والذي يشتمل على مبانٍ وتماثيل موضوعة وسط الساحة التي يتمثل فيها تاريخ المدينة، وأعجب كثيراً بصفوف الأعمدة المزينة، والتي كانت عبارة عن سلسلة من التماثيل التي نُحتت من وحي الحرب مع بلاد فارس، والتي لوّثها بوليغنوتوس، ونحلت لبّه.

كانت معركة الماراثون مرسومةً بكل مآثرها البطولية، بما فيها المنظر الذي يُظهر فيديبيديس، وهو الرياضي الذي ركض نحو مدينة أثينا كي ينقل أخبار النصر، وذلك قبل أن يسقط ميتاً نتيجة الإجهاد.

كما ارتسمت على مسافة قريبة من ذلك المكان معارك الحرب الفارسية الثانية، أي عندما ترك الأثينيون مدينتهم وهربوا إلى جزيرة سلاميس، وراقبوا بأعينٍ دامية الأكروبول وهو يحترق، والهياكل في أثناء تداعيتها. وبرزت بعد ذلك معركة سلاميس البحرية الكبرى، والتي تمكّن الأسطول الأثيني فيها من تلقين سفن البحرية الفارسية درساً لا يُنسى، كانت نتيجته هروب الملك العظيم وسط حالةٍ من الرعب، وقد تبع ذلك تجمّع الغيوم السوداء وهبوب الرياح القوية.

أحبّ الإسكندر أن يبقى في ذلك المكان الرائع الذي يضمّ كنزاً من الإبداعات الإنسانية التي تركت بصماتها على شكل موجودات حضارية ثمينة، لكنّ نداء الواجب والرسائل التي وردت إليه من أبيه دفعته للعودة إلى بيلا.

وكذلك، كتبت والدته أوليمبيا رسائل عدة إليه، هنأته فيها على معركة تشايرونيا، وأخبرته أنها اشتاقت إليه. لم توضح والدته سبب إصرارها على كتابة هذه الرسائل، لكنه فهم بفطرته أنه لا بد وأن يكون هناك سبب يدفعها إلى إرسال هذه الرسائل. إذ ربّما يكون قد طرأ شيء جديد هناك، أو أن هناك مشكلة مؤلمة، إنه يعرف والدته جيداً، وهو يجيد قراءة ما بين السطور التي تكتبها.

لذا، سرعان ما غادر في أحد صباحات فصل الصيف مع مرافقيه، وتوجهوا شمالاً. دخل الموكب منطقة بواتيا في تاناغرا، ومرّوا قرب مدينة طيبة في إحدى الأمسيات الحارة، وعبروا السهل تحت أشعة الشمس الحارقة، ثم تابعوا المسير بمحاذاة بحيرة كوبياس التي كان يغلفها ضبابٌ كثيف.

كانت طيور مالك الحزين التي تبدو مثل الأشباح، تصفق بأجنحتها بين الحين والآخر من خلال الضباب الذي خيم على الشواطئ الضحلة، واخترقت أصوات تلك الطيور غير المرئية الأجواء الرطبة والحارة وكأنها تطلق صرخات مكتومة، وشاهد الموكب الستائر السوداء التي علّقت على مداخل القرية، وعلى أبواب المنازل نتيجة الحرب والموت اللذين أصابا عائلات كثيرة وأخذوا أحباءها.

وصل الإسكندر إلى تشايرونيا وعند مغيب شمس اليوم التالي. وبدت له المدينة مسكونة بالأشباح لأنها مهجورة تحت السماء الداكنة فيما بدأ القمر الجديد بتسلّقها. صُعّب على الإسكندر أن يضع تصوراً مرضياً لهذا النصر الجديد الذي أحرزته مقدونيا. وتصاعدت أصوات أبناء آوى، ونعيق البوم، وأضافت جواً من الكرب إلى هذه الليلة الطويلة المليئة بالكوابيس، والتي أمضاها في الخيمة المنصوبة في ظلال شجرة سنديان ضخمة ووحيدة.

لم يستقبله والده في بيلا بسبب وجوده في لينكستس من أجل الاجتماع مع قبائل إيليريا. لذلك، دخل الأمير الشاب إلى القصر بعد مغيب الشمس من دون أن يلاحظه أحد تقريباً، لم يرحب به أحد غير جروه بيريتاس، جروه، وأظهر سروراً لا حد له، وراح يركض حوله، ويهزّ ذنبه، ويقفز على سيّده ويلعق وجهه ويديه.

لم يكن يحتاج إلّا إلى تربيتة أو اثنتين كي يصبح سعيداً، أما الإسكندر فقد توجه على الفور إلى جناحه الخاص حيث كانت بانكاسب بانتظاره.

ركضت الفتاة نحو الإسكندر وضمتّه بقوة، ثم نزعته عنه ثيابه المغطاة بطبقة من الغبار، واصطحبته إلى الحمام، وراحت يداها الناعمتان تدلّكان أطرافه المتعبة. غادر الإسكندر الحمام، لكنّ لبيتين دخلت في تلك اللحظة بالذات، فاحمرّ وجهها خجلاً، وأخفضت بصرها.

قالت: "تريد أوليميا أن تقابلها بأسرع ما يمكن، إنها تأمل أن تتمكن من تناول طعام العشاء معها".

أجاب الإسكندر: "سأفعل". غادرت لبيتين الغرفة، فهمس بأذن بانكاسب: "انتظريني".

ضمتّه الملكة إلى صدرها بقوة لا توصف حالما رآته.

فسأل الشاب وهو يبتعد كي يتمكن من النظر إليها: "ما خطبك أمي؟".

لم ترمش عينا أوليميا الدّاكتان مثل البحيرات التي تتواجد في جبال موطنها. كانت نظرتها في تلك اللحظة تعكس وبكل وضوح المشاعر المتلاطمة التي كانت تعتمل في أعماقها. خفضت رأسها، ثم عضّت شفتها.

كرّر الإسكندر سؤاله: "ما خطبك أُمي؟".
التفتت أوليمبيا نحو النافذة كي تحبّي حزنها وشعورها بالإهانة.
"إنّ لدى والدك عشيقة".
"لدى والدي سبع زوجات، إنه رجل نشيط، ولا تكفيه امرأة واحدة، يُضاف إلى ذلك أنه ملكنا".
"لكنّ الأمر يختلف هذه المرة، لأنه وقع بحب فتاة من عمر شقيقتك".
"ليست تلك المرة الأولى، سيتخطى الأمر".
"قلت لك إن الأمر مختلف هذه المرة، إنه واقع في الحب إلى حد أنّه فقد رشده، يشبه الأمر..." تنهدت بعمق قبل أن تكمل: "... يشبه الأمر ما حدث عندما التقينا للمرة الأولى".
"لكن ما الفرق في ذلك؟".
أجابت أوليمبيا: "إنه فرق كبير، إن الفتاة حامل منه، وهو يريد أن يتزوجها".
سأل الإسكندر وقد توترت ملامحه: "ومن هي هذه الفتاة؟".
"إنها يوريديس، ابنة القائد آتالوس، هل أدركت الآن لماذا أشعر بالقلق؟ إن يوريديس هي فتاة مقدونية، وتتحدّر من أسرة نبيلة... إنها ليست أجنبية مثلي".
"لا يعني هذا الأمر شيئاً، إنك تتحدّرين من أسرة من الملوك، وأنت سليلة بيروس ابن آخيل وأندروماك عروسة هيكتور".
"إنها مجرد تمنيات يا بني، دعنا نفترض أن الفتاة أنجبت صبياً...".
صمت الإسكندر تماماً، وكان شعوراً من الخوف قد سيطر عليه على نحو مفاجئ.
"أشرح لي ما تعنيه بالضبط. أخبريني بماذا تفكرين، أعتقد أنه ما من أحد يسمعننا".

"دعنا نفترض أن فيليب طلقني، ثم أعلن يوريديس ملكة، وهو أمرٌ يستطيع الإقدام عليه. عندها، سيتحوّل ابن يوريديس في هذه الحالة إلى الورث الشرعي للعرش، بينما تتحول أنت إلى ابن غير شرعي، وابن لأجنبية مطلّقة".

"لكن، لماذا يفعل ذلك؟ لقد أحبّني أبي على الدوام، وهو يتمنى الأفضل لي، وقد هيّأني كي أستلم الحكم".

"لا أعتقد أنك تفهم ما أعنيه، تستطيع فتاة جميلة وقديرة تغيير رأي رجلٍ ناضج، كما أن مولوداً جديداً سيحذب كل انتباهه، لأنه سيجعله يشعر بالشباب مجدداً، إن ابناً جديداً سيعكس مرور الوقت الحتمي".
عجز الإسكندر عن الكلام للحظة، وكان من الواضح أن كلمات والدته جعلته يشعر بالتوتر كثيراً.

جلس على مقعد، وأسند جبهته على يده اليسرى، وكأنه يحاول أن يستجمع أفكاره: "ماذا يجدر بي أن أفعل برأيك؟".
اعترفت الملكة: "إنني لا أعرف بالضبط، إنني ساحطة، وأشعر بالإهانة، وبالغضب إزاء هذه الإهانة التي ألحقها بي. آه، لو كنت رجلاً...".
قال الإسكندر: "إنني رجل".
"لكنك ابنه".

"ماذا تقصدين بذلك؟".

"لا أقصد شيئاً، إن الإذلال الذي يتعيّن عليّ أن أتحمّله قد أفقدني صوابي".

"حسناً... ماذا يجدر بي أن أفعل برأيك؟".

"لا يجدر بك شيئاً، لا يمكننا فعل أي شيء الآن، لكنني أردت أن أخبرك كي تأخذ حذرك، لأن أي شيء قد يحدث منذ الآن فصاعداً".
"هل هي جميلة جداً بالفعل؟".

أخفضت أوليميا رأسها، وكان من الواضح أن الإجابة عن هذا السؤال مؤلمة بالنسبة إليها: "إن جمالها يفوق قدرتك على التصور، أعتقد أن والدها آتالوس هو الذي رتب تواجدها في سرير، أتضح لي أنه وضع خطة محكمة، وأن عدداً من النبلاء المقدونيين يقفون إلى جانبه، أعرف أنهم يكرهوني".

وقف الإسكندر استعداداً للمغادرة.

"ألا تريد تناول العشاء معي؟ أمرت بطهو بعض الطعام من أجلك، وبتحضير كل الأطعمة التي تحبها".

"لست جائعاً أُمي، إنني متعبٌ فقط، أستاذك الآن، وسرى بعضنا قريباً، لا أعتقد أنه يمكننا فعل أي شيء في الوقت الحاضر".

تركته هذه الحادثة مع والدته محطماً، إذ لم يسبق أن خطرت في ذهنه فكرة إقدام والده على التخلي عنه، واستبعاده عن مخططاته بشكل مفاجئ، ولم يكن يتوقع أبداً أن يتزامن كل ذلك مع لحظة تلقيه الشاء على دوره الحاسم في إحراز النصر في معركة تشايرونيا، وكذلك في ترؤسه المهمة الدبلوماسية الدقيقة في أثينا.

أراد أن يطرد هذه الأفكار المقلقة من رأسه، فنزل إلى الإسطبلات كي يرى بوسيفالاس، تعرّف الجواد فوراً على صوته، وراح يضرب الأرض بخوافره ويصهل، كان مربوط الجواد مرتباً، وفاحت منه رائحة الحشيش الذي قُطع حديثاً، وكان غطاء الجواد لامعاً، كما أن عرفه وذيله كانا ممشطين بعناية تماثل عناية الفتاة بشعرها. اقترب الإسكندر من الجواد وعانقه، ثم راح يحسّد رقبتة ولجامه.

تناهى إليه من خلفه صوت يقول: "إذاً، لقد عدت أخيراً! عرفت أنك ستكون هنا، حسناً؟ كيف حال بوسيفالاس؟ أترى كيف اعتنيتُ به كما ولو أنه امرأة جميلة، وعدتك بأنني سأفعل ذلك".

"هيفاستيون، هذا أنت؟".

تقدّم الشاب نحو الأمير وضربه ضربة خفيفة على ظهره، وقال:
"اشتقت إليك أيها الخبيث".
فعل الإسكندر الأمر ذاته وأجاب: "اشتقت إليك أنا أيضاً يا
سارق الجياد!".

تعانق الاثنان بحرارة لفترة طويلة، وبشكل يفوق عناق الصداقة،
وبشكل أقوى من الزمن، وحتى من الموت.
انتظرتة بانكاسب تلك الليلة، ولكن من دون طائل.

*

عاد فيليب بعد أيام قليلة، فأسرع إلى دعوة الإسكندر للقدوم إلى
جناحه، حيث عانقه بحرارة فور دخوله الغرفة.
"تبدو وسيماً! كيف سارت الأمور معك في أثينا؟" أحس الملك
على الفور بتردد ابنه في مبادلتة الشوق.

"ما خطبك يا بني؟ ألم يحسن الأثينيون استقبالك؟ ألم يعرفوك على
حضارتهم المهمة؟ أم هل وقعت في الحب؟ أوه، بحق هرقل، لا تقل لي
إنك وقعت في الحب؟ ها! ألم أرّبت لك الحصول على أكثر الرفيقات
خبرة، وها أنت تقع في الحب مع... مع من؟ مع فتاة أثينية جميلة؟
لا تقل أي شيء... أعرف ذلك، وهل من شيء يضاهي فتنة فتاة
أثينية، آه، أجل، لا بد أنها فتاة مناسبة لك، يجب أن أبلغ بارمينيون
بذلك".

"لم أقع في الحب يا أبي، لكنني سمعت أنك أنت من وقع في
الحب".

جمّد فيليب للحظة، ثم ما لبث أن بدأ يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً
بخطوات واسعة. صاح قائلاً: "إنها والدتك! إنها والدتك! إنها مستاءة"

كثيراً، كما أن الغيرة والشك قد سيطرا عليها، ها هي الآن تحاول أن تقلبك ضدي، هذا هو الواقع، أليس كذلك؟".

قال الإسكندر ببرود: "ألديك امرأة أخرى؟".

"وماذا في ذلك؟ إنها ليست الأولى، ولن تكون الأخيرة... إنها وردة... جميلة مثل الشمس... إنها مثل أفروديت، وحتى أجمل منها! وجدتها بين ذراعي، كان جسمها ناعماً، ومعطراً، كما سهلت لي طريق دخول قلبها، ماذا يُفترض بي أن أفعل؟ إن والدتك تكرهني، وهي تمقتني، حتى إنها تود أن تبصق في وجهي لو كانت تستطيع أن تنجو بفعلتها! ثم أن هذه الفتاة تفوق العسل حلاوةً".

ثمّالك على أحد المقاعد، كما أنزل عباءته إلى ركبتيه بحركة صغيرة من معصمه، وهي علامة أكيدة تدل على غضبه الشديد.

"لا أستطيع أن أحدّد لك من تحمل إلى سريرك، مولاي".

"توقف عن منادائي مولاي... إننا وحدنا هنا".

"لكن أُمي تشعر هذه المرة بالإهانة، وبأنها غير مرغوب فيها، كما أنها قلقة جداً".

صاح فيليب: "فهمت! فهمت! إنها تحاول أن تقلبك ضدي بالفعل، ومن دون سبب وجيه. تعال، تعال معي، تعال وشاهد المفاجأة التي أعددتها من أجلك قبل أن تُفسد يومي بهذه الترهات، تعال!".

جرّ فيليب الإسكندر نحو درج، ثم إلى نهاية ممر كان قريباً من مشاغل القصر، فتح أحد الأبواب وكاد يدفع ابنه إلى الداخل.
"انظر!".

كان الإسكندر وسط غرفة يدخلها النور عبر نافذة كبيرة في أحد جوانبها، رأى تمثالاً طينياً مستدير الشكل فوق إحدى الطاولات، وهو

تمثال يُظهره بشكلٍ نصفِي، وقد وضع إكليلاً من الغار حول رأسه، أي أنه ظهر مثل أبولو.

سأله صوت انطلق من زاويةٍ مظلمة: "هل أعجبك؟".
التفت الإسكندر على الفور ليعانق الفنان: "ليسيبوس!".
كرّر فيليب من خلفه "هل أعجبك؟".
"لكن، ما هذا؟".

أجاب الملك: "إنه نموذج عملة ذهبية في مملكة مقدونيا، والتي سُسكَّ بدءاً من يوم غد فصاعداً لتكون تذكّاراً لانتصارك في تشايرونيا، ولدورك بوصفك وريثاً للعرش. أنوي سكّ عشرة آلاف من هذه القطع، وستوزّع في أنحاء العالم".
فخفف الإسكندر بصره من فرط الحيرة.

ساعدت البادرة التي قام بها فيليب، وحضور ليسيبوس إلى بلاط القصر على تبديد السحب التي خيمت بظلالها على العلاقة بين الوالد وابنه. لكن الإسكندر ما لبث أن أدرك مدى عمق العلاقة التي تجمع بين والده ويوريديس.

ولكن، بالرغم من كل شيء تمكنت مشاغل البلاط السياسية من صرف انتباه الملك والأمير عن أمور البلاط الخاصة.

أما الرد الذي بعته أرسيس، ملك بلاد فارس فكان مليئاً بازدراء فاق ذاك الذي حملته رسالة فيليب. ولقد قرأ إيومينيس الرسالة على مسامع الملك ما إن استلمها من مبعوث الملك الفارسي.

من أرسيس، ملك الفرس، وملك الملوك، ونور الآريين، وسيد جهات الأرض الأربع، إلى فيليب ملك مقدونيا.

إن الإجراءات التي قام بها والذي أرتحششتا، ثالث من حمل هذا الاسم، كانت مناسبة وصادقة، ولهذا أنت من يتوجب عليه دفع الجزية، كما كان يفعل أسلافك، وذلك لأنك من أتباعنا.

نادى الملك الإسكندر على الفور، ودعاه إلى قراءة الرسالة، ثم قال له: "حدث ما تصورته بالضبط، إن خطتي بدأت تتحقق بكل تفاصيلها، رفض ذلك الفارسي دفع الجزية عن الأضرار التي تسبب بها والده، إن ذلك سبب أكثر من كاف لإعلان الحرب عليه، وها هو حلمي يتحول إلى حقيقة، سأوحد كل اليونانيين والمستعمرات الشرقية، وسأحمي الحضارة الهلينية وأنشرها في أنحاء العالم كافة، لم يفهم ديموستين خطتي فحاربي وكأني طاغية. ولكن، انظر من حولك! إن

جميع اليونانيين أحرار. لكنني أبقيت على حامية مقدونية في قلعة أهل طيبة الخونة، وقمت كذلك بحماية الأركاديين، وسكان ميسينيا، وكنت أكثر من مرة بطل معبد دلفي".

دُهِش الإسكندر من هذا الإقرار وسط كل الفخر الذي يتحدث عنه والده، فسأله: "هل تريد حقاً أن تتحرك نحو آسيا؟". حدّق فيليب إلى عيني ابنه.

"أجل، أعترزم أن أعلن عن هذه المهمة أمام حلفائنا في كورينث، وسأطلب منهم جميعاً تقديم الرجال والسفن الحربية من أجل هذه المهمة التي لم يسبق لأي يوناني أن أكملها".

*

"أعتقد أنهم سيطيعونك في هذه المهمة؟".
أجاب فيليب: "لا أشك في ذلك، سأشرح لهم أن غاية هذه المهمة هي تحرير المدن اليونانية في آسيا من السيطرة البربرية، أعتقد أنه لن يسعهم الرفض".
"لكن هل هذه هي الغاية حقاً؟".

قال الملك: "إن لدينا أقوى جيش في العالم، وآسيا واسعة جداً، ولا حدود للمجد الذي يمكن للمرء أن يصل إليه يا بني".
وصل ضيف آخر إلى بيلا بعد مرور أيام قليلة، وكان الرسام أبيل الذي يعتبره كثيرون الأفضل في العالم. استدعاه فيليب كي يرسمه إلى جانب الملكة، وطلب منه أن يجري بعض التعديلات والتصحيحات. كان الملك يريد تعليق تلك اللوحة الرسمية في معبد دلفي، لكن أولمبيا رفضت الجلوس إلى جانب زوجها، لذلك اضطر أبيل إلى اختلاس بعض النظرات نحو الملكة من أجل الرسوم التحضيرية.

سرّ فيليب كثيراً عندما رأى الرسم النهائي، وطلب من الرسّام أن يرسم الإسكندر أيضاً، لكنّ الأمير رفض ذلك.

قال له: "أفضّل أن ترسم صديقي".

سأل آييل: "عارية؟".

"أجل، إنني أشتاق إليها كثيراً عندما أبتعد عنها، أريدك أن ترسم لها صورة. ولكن، لا أريدها كبيرة، وذلك كي أتمكن من حملها معي، إلّا أنّي أريدها أن تكون صورة مطابقة تماماً".

وهكذا استلقت بانكاسب، التي يُقال إنّها أجمل امرأة في العالم اليوناني، عارضةً جمالها أمام أعظم الرسّامين.

كان الإسكندر متحمساً لرؤية نتيجة هذا الالتقاء الاستثنائي للمواهب، فكان كل يوم يمرّ كي يرى تقدم العمل، لكنه سرعان ما أدرك أنّه ما من تقدم على الإطلاق، أو على الأقل كان التقدم بطيئاً. كان آييل يرسم مخططاته، ويعيد ما رسمه.

علّق الأمير الشاب: "يبدو لي أن هذه اللوحة تشبه كفن بنيلوبي، أي بلا نهاية، ما المشكلة؟".

"الحقيقة يا مولاي... هي أنني لا أطيق فكرة الابتعاد عن هذا الجمال الفاتن".

تطلّع الإسكندر بتركيز إلى بانكاسب والفنان الذي يرسمها، وسرعان ما أدرك أنّه خلال تلك الجلسات الطويلة كانا يُشغلان نفسيهما بأشياء تتعدى مجرد الرسم الفني، قال الإسكندر: "فهمت". وفكّر في تلك اللحظة في ليبتين التي كانت عيناها محمّرتين من فرط البكاء، وقرّر أنّه لن يعاني من نقصٍ في الفتيات الجميلات في المستقبل كلما أراد الحصول عليهن، كما تذكر بأنّه أن بانكاسب تزدد وقاحةً وتطلباً يوماً بعد يوم. لذا، اقترب من الرسّام ثم همس في أذنه: "أريد أن

أعرض عليك اقتراحاً، أنت تعطيني الرسم، وبالمقابل تحصل على الفتاة، هذا إذا ما وافقت، بالطبع".

قال الفنان العظيم وهو يطفح بالمشاعر: "أوه، يا مولاي... كيف يمكنني أن أشكرك؟ أنا... أنا...".

رَبَّت الأمير الشاب على ظهر آيل، وقال له: "المهم أن تكونا سعيدين، وأن يكون الرسم جميلاً". ثم فتح الإسكندر الباب، وغادر الغرفة.

*

توجه فيليب والإسكندر إلى كورينث عند نهاية فصل الصيف، وأقاما في ضيافة المدينة. لم يختارا المكان صدفةً، لأنه في كورينث أقسم اليونانيون قبل مئة وخمسين عاماً على مقاومة الغزاة الفرس، ومن هناك انطلق التزامٌ جديدٌ يتضمن توحيد كل اليونانيين في القارة وفي الجزر في مهمة كبيرة واحدة وهي اجتياح آسيا. وكانت هذه المهمة كفيلاً بأن تجعل أبحاد حرب طروادة التي تغني بها هوميروس، تذوي أمام ضخامتها.

عدّد فيليب في خطابٍ حماسي له أمام ممثلي المناطق الأدوار التاريخية المتعددة للصراع القائم بين أوروبا وآسيا. حتى إنه روى تلك الأحداث التي تُعتبر من الأساطير، تحدّث عن قتلى الماراثون وثيرموبيلاي، وعن حريق الأكروبول، ومعابد أثينا الأخرى. وكانت كل تلك الأحداث قد حدثت منذ أجيال عدة، لكنها لا تزال حية في الموروث الشعبي، ولعل ذلك يعود جزئياً إلى أن فارس لن تتوقف أبداً عن التدخل في الشؤون الداخلية للدول اليونانية.

لكن الأهم من كل هذه الذكريات الغابرة عن الغزوات الفارسية كان تصميم فيليب على إقناعهم بضرورة تنفيذ خطته، وجعلهم

يدركون أنه لا بديل عما اعتزم عليه، وأن طريقته السياسية تتضمن استخدام أداة الحرب. وكان مصير طيبة وحلفائها ما زال ماثلاً أمام أعين الجميع.

حصل ملك مقدونيا في نهاية الاجتماع على اعتراف رسمي بأنه قائد التحالف الهليني، وأنه قائد تلك المهمة العظيمة، أي غزو بلاد فارس، لكنّ عدداً من الممثلين اعتبروا أن كل ذلك ما هو إلا نوع من الدعاية المثيرة، وكانوا مخطئين في اعتقادهم هذا.

تمكّن الإسكندر خلال الأيام التي أمضاها في كورينث من رؤية شيء ما فيها، وهي المدينة التي لم يسبق له أن زارها. إذ توجه مع كاليستين إلى الأكروبول الذي كان قلعةً حصينة جداً، وأعجب كذلك بمعابد أبولو وبوسيدون القديمة؛ وبوسيدون هو سيد البحر وحامي المدينة.

أما أكثر ما أثار إعجابه فكان الجرار البحري الذي كان عبارة عن مزلفة لجر السفن بحيث تتمكن من العبور من خليج سارونيكى إلى خليج كورينث عبر البرزخ الذي يفصل بينهما، وهكذا تتفادى السفن الدوران حول جزر البيلوبونيز التي تتميز برؤوسها الصخرية المتعددة ومياهها الضحلة.

كان الجرّار عبارة عن مزلفة خشبية يُدهن سطحها بشحم الثيران باستمرار في أثناء تسلقها أعلى نقطة في البرزخ، وذلك قبل هبوطها على الجهة المقابلة من خليج كورينث. وكانت السفينة تُجرّ بقوة الثيران إلى القمة وتنتظر هناك حتى تصل سفينة أخرى ثم تُربط بها. وكانت السفينة التي في الأعلى تُدفع نزولاً على الجهة المقابلة بحيث تساعد في أثناء هبوطها على سحب السفينة الأخرى، والتي تعمل بدورها عمل المكابح التي تخفف من حدة هبوط السفينة الأولى، وبعد

أن تصل السفينة الثانية إلى القمة تنتظر أن تُربط بها سفينة ثالثة بينما تتمكن السفينة الأولى من الإبحار، وهكذا دواليك.
سأل الإسكندر مضيفيه الكورينثيين: "ألم يفكر أحد في حفر قناة تصل ما بين الخليجين؟".

أجاب الدليل: "لو أرادت الأسياد أن يكون البحر مكان اليابسة لكان في مقدورهم أن يجعلوا من البيلوبونيز جزيرة، ألا تعتقد ذلك؟ يتذكر المرء ما حدث لملك الفرس العظيم عندما غزا اليونان، بنى ذلك الملك جسراً فوق البحر بحيث يتمكن الجنود من عبور المضائق، ثم قطع شبه جزيرة جبل أثوس بقناة بحيث يتمكن أسطوله البحري من المرور، لكنه تعرّض لهزائم كبيرة، وعوقب على استكباره".

ردّ الإسكندر معترفاً: "هذا صحيح، أخذني والذي ذات مرة لرؤية تلك القناة العظيمة، وأخبرني عن جميع إنجازات الملك العظيم، وهذا هو السبب بالذات الذي دفعني إلى التفكير في حفر القناة".
أخبره مضيفوه كذلك عن ديوجينيس الذي يعيش في مكانٍ مجاورٍ لهم، وهو الفيلسوف الساخر الذي كان مصدر إلهام لعدد كبير من القصص المثيرة.

أجاب الإسكندر: "أوه، أجل أعرف، شرح لي أرسطو نظريات الفلاسفة الساخرين. يعتقد ديوجينيس أن الطريقة الوحيدة لحصول الإنسان على أملٍ بتحرير نفسه من كل الرغبات، وطرد كل التعاسة، هي حرمان النفس من كل شيء كمالٍ، أو زائد عن حاجات الإنسان".
قال كاليستين: "إنها نظرية غريبة، لأن حرمان النفس من كل شيء، ليس بهدف الوصول إلى السعادة، بل بهدف الوصول إلى مجرد الهدوء أعتبره عملاً ملاً، هذا إذا لم يُعتبر هدرًا لا معنى له. يشبه الأمر إحراق الخشب بهدف بيع الرماد، ألا توافقي الرأي؟".

قال الإسكندر: "ربّما كان ذلك صحيحاً. ولكن، أريد مع ذلك أن ألتقيه، هل صحيح أنه يعيش داخل جرة زيت كبيرة؟".

"أجل بالفعل، فخلال الحرب الأخيرة، وفي ذروة الحصار الذي فرضه والدك سارع كل المواطنين إلى تدعيم كل الجدران وانشغلوا بكل أنواع التحضيرات، فيما بدأ ديوجينيس، وبشكل مفاجئ، بدفع جرفته الكبيرة إلى أعلى التلة، ثم تركها تتدحرج، وذلك قبل أن يبدأ بدفعها مجدداً، سأله المجتمعون: "لماذا تفعل ذلك؟" أجابهم بالقول: ليس لسبب معيّن، لكن يبدو أن الجميع منشغلون جداً، ولا أرغب في أن يعتبرني الآخرون، وكأنني أقهر من العمل. يعطي هذا الموقف فكرة عن الرجل، تصوّر أن كل ما يمتلكه من أدوات منزلية لا يزيد عن وعاء صغير يستخدمه كي يشرب من النبع، لكنه شاهد ذات يوم صبياً يشرب بيديه المضمومتين معاً، لذلك أقدم على رمي وعائه، هل أنت متأكد من أنك ترغب في لقائه؟".

أجاب الإسكندر: "أجل من فضلكم".

تأوه كاليستين بنفاد صبر وقال: "لا بأس إذا كنت تريد ذلك حقاً، لكنني أؤكد لك أنه لن يكون لقاءً مثمراً، أتعرف لماذا يُطلق على ديوجينيس وأتباعه لقب الساخرين؟ لأنه بحسب نظرياتهم لا يجوز أن يُحكّم على أي شيء طبيعي على أنه بذيء، لذلك فهم يفعلون كل شيء علناً، أي مثل الكلاب تماماً".

قال الدليل موافقاً: "هذا صحيح. تعال، إنه لا يعيش، هذا إذا صحّ أن نعتبره يعيش، بعيداً عن هنا. إنه يسكن إلى جانب الطريق حيث يسهل عليه تلقي الصدقات من المارة".

ساروا مسافة قصيرة على الطريق الذي يؤدي من المزلقة البحرية إلى معبد بوسيدون، وكان الإسكندر أول من لمح ديوجينيس من البعيد.

كان رجلاً مسناً يبلغ ما يقارب السبعين من عمره. وكان عارياً تماماً، ويجلس ويستند بظهره إلى جرة طينية كبيرة، لاحظ الإسكندر داخلها سريراً من القش، وغطاءً رثاً. ففكر في أن بيت الكلب بيريتاس مريح أكثر من جرتة. فيما جلس كلب صغير بالقرب من الرجل، وكان كلباً هجيناً صغيراً، وربما كان يتناول أصناف الطعام ذاتها التي يتناولها الفيلسوف، كما يقاسمه النوم على السرير ذاته.

أسند ديوجينيس في جلسته هذه ذراعيه إلى ركبتيه، وأسند رأسه إلى جرتة المتواضعة بينما كانت أشعة شمس الصيف تدفئ أطرافه النحيلة. كان أصلع بالكامل، لكن الشعر النابت خلف رقبته نما حتى وصل إلى وسط ظهره تقريباً. أما وجهه فكان نحيلاً، وظهرت عليه التجاعيد العميقة، بينما كانت لحية رفيعة ومتشابكة تحيط بهذا الوجه الذي برزت فيه عظام الخد، أما عيناه فكانتا غائرتين تحت جبهته العريضة التي بدت ملتعبة بطريقة ما.

كانت عيناه مغمضتين، كما جلس من دون حراك.

توقف الإسكندر على الفور، وراح يتأمل الرجل بصمت، لم يُظهر الفيلسوف أي علامة تدل على ملاحظته وصول زائريه، ولم يفتح عينيه أبداً. تساءل الإسكندر عن طبيعة الأفكار التي يمكن أن تجول في ذلك الرأس المتعب الذي يقبع فوق تلك الرقبة النحيلة، وفوق ذلك الجسم النحيل والهش، وحول السبب الذي دفعه بعد أن عاش حياة مكرسة للبحث في أعماق النفس الإنسانية للاستلقاء وهو عارٍ ومعدم على قارعة الطريق، معرضاً نفسه لسخرية المارة وشفقتهم؟

تأثر الإسكندر بهذا الاعتزاز بالفقر، وبالبساطة الكلية، وبالجسم الذي يسعى في حضرة الموت إلى التخلص من كل شيء، وإلى أن يكون نقياً مثل الطفل ساعة الولادة.

تمنى الإسكندر لو أن أرسطو كان برفقته، وتمنى لو أنه يستطيع مشاهدة هذين العقلين قابعين تحت الشمس مثل بطلين يحمل كل واحد منهما رمحاً وسيفاً، وتمنى كذلك لو يقول كم هو معجب به. ولكنه، بدلاً من ذلك، قدّم إليه عرضاً لا نصيب له من القبول.

"مرحباً يا ديوجينيس! إن الرجل الذي يقف أمامك هو الإسكندر المقدوني، تستطيع طلب ما تريد، وسأكون مسروراً لإعطائه إليك".

فتح الرجل العجوز فمه الخالي من الأسنان، وقال بصوتٍ حادٍ، ولكن من دون أن يفتح عينيه: "أتقول أي شيء؟".

كرّر الإسكندر: "أي شيء على الإطلاق".

"حسناً، ابتعد عني قليلاً لأنك تمنع أشعة الشمس من الوصول إليّ".

تحرك الإسكندر على الفور، وجلس إلى جانب الرجل، عند قدميه بالتحديد، وكأنه أحد التابعين الذين يطلبون الموافقة على ترفيعهم إلى مرتبة أعلى، ثم التفت نحو كاليستين، وقال له: "اتركنا وحدنا من فضلك، لا أعرف ما إذا كان سيقول لي شيئاً، لكنه إذا فعل فلن تكون كلماته صالحةً للكتابة يا صديقي".

لاحظ كاليستين أن عيني الإسكندر كانتا رطبتين.

"يُحتمل أن تكون على حق، ويُحتمل أن يذهب كل شيء هباءً، مثل إحراق الخطب لبيع الرماد، لكنني مستعد لفعل أي شيء لكي أعرف ماذا يدور وراء هذين الجفنين المغلقين، صدّقني لو لم أكن ما أنا عليه، ولو لم أكن الإسكندر، لوددت أن أكون ديوجينيس".

لم يعرف أحد ماذا دار في أثناء المحادثة التي جرت بين الرجلين. ولكن، من المؤكد أن الإسكندر لم ينسَ ذلك اللقاء، ولعل ديوجينيس لم ينسَ الأمر كذلك.

بعد يومين، انطلق فيليب والوفد المرافق له مع الأمير، في الطريق الشمالي الذي يؤدي إلى مقدونيا.

ركّز الملك فور وصول الموكب إلى بيلا على التحضير للمهمة العظيمة لاستكشاف الشرق. وكان مجلس الحرب ينعقد بشكل يومي تقريباً، وبمشاركة من القادة آتالوس، وكليتوس، وأنتياتر وبارمينيون. عمل المجتمعون على تجهيد الجنود، وتحضير عتادهم، ومؤنهم. وساعدتهم العلاقات الطيبة مع أثينا على ضمان السلامة في البحر، بالإضافة إلى تأمين وسيلة نقل عملية من أجل نقل الجيش المتجمع إلى آسيا، وذلك بالتعاون ما بين الأسطول المقدوني وسفن الحلفاء.

شغل الإسكندر معظم أوقاته بهذا النشاط المحموم، ولم يُظهر أي اهتمام بمسألة حمل يوريديس، ولا حتى بعذاباته والدته، مع أن أوليمبيا دأبت على إرسال الرسائل إليه عندما كان بعيداً عن بيلا، وكانت في بعض الأحيان ترسل إليه طلبات ملحة للتحدث بشكل سري عندما يكون في بيلا.

*

انشغلت أوليمبيا كذلك بمراسلات نشطة مع شقيقها، إسكندر إيبيروس، وذلك بهدف تأمينه دعم لها. إذ شعرت أنها وحيدة أكثر من

أي وقت مضى، وأنها في طور الانحدار، وأنها شيء مهمل في جناحها.

لم تفكر في أي شيء آخر، وكانت محتتها هي موضوع حديثها الوحيد مع الأشخاص الذين حافظوا على ولائهم لها. فلقد نظرت إلى مستقبلها على أنه مستقبل كئيب من العزلة والوحدة التامة، كانت أوليمبيا تعرف جيداً أنه منذ اللحظة التي تُعطى فيها الملكة الجديدة امتيازاتها الملكية بشكل رسمي، فإنها ستفقد حقها في الظهور في المناسبات الرسمية، وستفقد هكذا حقها في المتعة الوحيدة التي بقيت لها، أي الالتقاء بالضيوف والوفود من الأجانب في اللقاءات الرسمية، وهي المناسبات التي تستقبل خلالها في جناحها زوجات وصديقات الزوار. لكنها قلقت كثيراً من أنها ستفقد ما تبقى لها من السلطة الشخصية كوالدة ولي العهد.

كان قلق الإسكندر أقل بكثير من قلق والدته، وعلى الأخص لأنه محاط بأصدقائه الذين داوموا على إظهار وفائهم وإخلاصهم له. تمتع الإسكندر كذلك بالاحترام العميق والحقيقي الذي أظهره القائدان بارمينيون وأنتياتر، وهما اليدان اليمنى واليسرى لوالده الملك، رأى القائدان الإسكندر وهو يتصرف كرجل دولة، وكذلك في ميدان المعركة، فعرفا أن الملكة ستكون بأيد أمينة إذا ما تُركت يوماً ما بين يديه. لكن وضع السلالة الملكية، في واقع الأمر، لم يكن مؤكداً بأي شكل من الأشكال، لأن ابني عم الإسكندر، إمينتاس وشقيقه أرخيلائوس، كانا يتمتعان بقدر معين من المساندة في أوساط النبلاء، بينما شقيقه الآخر من أبيه، آرهيداوس لم يكن كامل الذكاء، لذلك بدا أنه لا يشكل تهديداً في الوقت الحاضر.

*

أُعلن عن موعد الزفاف الرسمي للملك فيليب في بداية الشتاء. وبالرغم من أن هذه الأخبار كانت متوقعة منذ مدة من الزمن، إلا أنها نزلت على الجميع كالصاعقة. فلقد صُدم الجميع بمدى الجدية والفخامة التي أراد الملك أن يضيفها على الاحتفال.

بدأ إيومينيس في هذه الأثناء بإدارة المكتب الملكي وحده، لكنه أبقى الإسكندر على اطلاع بكل التفاصيل: ترتيب الضيوف المدعوين، ونفقات الملابس، ومظاهر الزينة، والطعام، وأنواع الشراب، والجواهر المقدمة إلى العروس ووصيفاتها.

حاول الإسكندر إخفاء معظم هذه التفاصيل عن والدته، وذلك كي يتجنب إيذاء مشاعرها بقدر الإمكان، لكن أوليميا كانت تبتّ عيوناً ترى وآذاناً تسمع في كل مكان، وكانت تعرف بالضبط ماذا سيحدث قبل علم الإسكندر به.

تسلّم الإسكندر ووالدته دعوة رسمية للمشاركة في ذلك الاحتفال، وذلك قبل وقت قليل من حلوله. وعرف كلاهما أن دعوة فيليب هذه كانت بمثابة أمرٍ من الناحية العملية، لذلك بدأت الوالدة وابنها، وإن على مضض، بتحضير نفسيهما لهذه المناسبة، ولحضور احتفال الزفاف الفخم الذي سيليه.

أبلى إيومينيس بلاءً حسناً في ما يتعلق بالمهارة الدبلوماسية التي أبدّاها في ترتيب أسرة طعام الضيوف، والطاولات، وذلك بهدف تجنب الاحتكاكات التي قد تؤدي إلى جدالات، أو حتى إلى مشاكل. وُضعت الصفوف المخصصة لزعماء القبائل والأمراء المقدونيين بشكل صفين متقابلين تقريباً، وذلك تحسباً لجرّيان الدم بعد تقديم الشراب، وذلك بعد تبادل عبارات، أو إشارات، يُساء فهمها.

كانت العروس جميلةً بشكلٍ يفوق الوصف، وكانت ملابسهـا تليق بمملكة حقيقية، لكنّ دلائل حملها كانت واضحة للعيان. كانت قد وضعت تاجاً ذهبياً، فيما كان شعرها مرفوعاً فوق رقبتها وملفوفاً ومثبتاً بدبابيس ذهبية ذات رؤوس من المرجان، أما رداؤها فكان محبوكاً بخيوط الفضة ومزيناً بتطريزات رائعة الجمال تقلد أعمال الفنانين الذين يرسمون على السيراميك، كما ظهر رسم يمثل وصيفات يرقصن أمام تماثيل أفروديت، أما وجهها فكان مغطى بنقاب ثوب الزفاف الذي غطى جبهتها جزئياً.

طُلب من الإسكندر، بوصفه وريثاً للعرش، الجلوس إلى جانب الملك وعروسه الجديدة، وكذلك كان من المتوقع أن يجلس قرب أبيه عندما تبدأ الوليمة في وقت لاحق. فيما جلست أوليمبيا مع وصيفاتها في الجهة المقابلة لجهة فيليب. ولكن، في طرف قاعة الطعام الكبيرة. كما جلست معها الأميرة كليوباترا التي اختارت أن تظل إلى جانبها، لأنها لم تتوافق مع يورديدس، بالرغم من كونهما متقاربتين بالسن. صُفّت أسرة الطعام على شكل مستطيل، ولم تترك فسحة بين الطاولات إلا في طرف الجهة اليمنى، وهي فسحة تسمح بدخول الطباخين، وبمرور الأطباق والنُدل الذين يداومون على تقديم الشراب، وعلى تنظيف الأرض من كل ما يرمى عليها.

بدأت مجموعة من عازفات الناي بالعزف إلى جانب بعض الراقصات اللواتي كن يتمايلن بين الطاولات، وفي الفسحة الوسطى التي تتوسط المستطيل الكبير الذي تمثله قاعة الطعام، سيطر على الإسكندر الذي لم يشرب حتى نقطة شراب واحدة شعور بالضيق، فقد ظل يتطلع نحو والدته بشكلٍ خفي، كانت والدته تجسد الجمال والكبرياء. كان وجهها شاحباً، أما نظرتها فباردة، وبدا أنها تتخطى ما يدور حولها

من صخب الرجال الثملين، وحتى أصوات النايات الحادة، كانت أقرب إلى تمثال سيدة الانتقام الجامدة. لم تأكل، وحتى إنها لم تشرب شيئاً طيلة الاحتفال، بينما تصرف فيليب على سجيته طيلة الوقت، وجرب كل أنواع المجون ليس فقط مع عروسه الشابة التي أظهرت مقاومتها من خلال القهقهات الخجولة، ولكن مع الراقصات عندما كن يتحركن بالقرب منه. أما الضيوف الآخرون، المقدونيون منهم تحديداً، فقد فعلوا الشيء ذاته.

حانت بعد ذلك اللحظة التي توجب فيها على كل الحاضرين أن يشربوا نخب الزوجين اللذين تزوجا حديثاً. وبحسب تقاليد هذه الاحتفالات، كان يتوجب على والد العروس أن يرفع كأسه ويشرب نخب صحة العروسين. كان آتالوس تحت تأثير الشراب مثل الآخرين، فوقف وترنح قليلاً ثم رفع كأسه الطافحة بالشراب الذي طال ليس فقط على سريره هو، بل الأسرة المجاورة كذلك. ثم قال بعد ذلك بصوت مرتجف: "أشرب نخب الزوجين الملكيين! أشرب لفحولة العريس ولجمال العروس، كما أطلب من الأسياد أن تمنحهما وريثاً شرعياً لعرش مقدونيا!"

كان ذلك أسوأ ما يمكن أن يتفوه به في تلك اللحظة. وساعدت كلماته هذه في تعزيز الشائعات التي سرت بين النبلاء المقدونيين، والتي تحدثت عن عدم إخلاص الملكة وكان ذلك بالطبع إهانة كبيرة للإسكندر؛ الوريث المعين للعرش.

شحب لون أوليمبيا على الفور، وصمت كل الأشخاص الذين سمعوا كلام آتالوس خلال شربه نخب العروسين، والتفتوا جميعهم نحو الإسكندر الذي هبّ واقفاً، وقد اكتسى وجهه اللون القرمزي بعد أن انتابته فورة غضب رهيبه.

صاح الإسكندر قائلاً: "أيها الأحمق، أيها الحقيّر! ما دوري أنا إذا؟ هل أنا ابن غير شرعي؟ اسحب كلماتك، وإلا سأقطع رقبتك من الأذن حتى الأذن!" وتناول سيفه من غمده كي يعطي معنى لتهديده هذا.

غضب فيليب عند هذه النقطة من كلام الإسكندر الذي أهان والد زوجته، ولأنه أفسد حفل زواجه. كان فيليب تحت تأثير الشراب وفاقداً رشده، فسحب سيفه هو الآخر، وتقدّم كي يواجه ابنه. امتلأت القاعة بالصراخ على نحوٍ مفاجئ، وهربت الراقصات، بينما بحث الطبّاخون عن أمكنةٍ يجتنبون فيها في ظل هذه العاصفة التي كانت على وشك الهبوب.

ولكن، بينما كان فيليب يتنقل من سريرٍ إلى آخر في طريقه إلى الإسكندر تعثّر، ووقع بصخب على الأرض، بينما ثبت ابنه في مكانه منتظراً بدء الهجوم، أسقط فيليب الستائر في أثناء سقوطه، وكذلك الأواني الفخارية، وكل ما تبقى من طعام، وانتهى في بركة من الشراب الأحمر. حاول أن يقف على قدميه لكنه تعثّر مجدداً، وسقط على وجهه.

اقترب الإسكندر منه من دون أن يُخفض سيفه الذي أمسكه بثبات، فخيم على القاعة صمت يماثل صمت القبور، وتجمعت الراقصات مرتعشات في إحدى الزوايا، أما آتالوس فقد شُحّب لونه، وانساب خيط من اللعاب من إحدى زاويتي فمه نصف المفتوح، واندفعت العروس الشابة بالبكاء، وقالت: "أوقفوها بحق الأسياد، وليفعل أحدكم شيئاً!".

صاح الإسكندر ضاحكاً: "ها هو! انظروا إلى الرجل الذي يريد أن يتحرك من أوروبا إلى آسيا، ومع ذلك فهو عاجز حتى عن الانتقال من سريرٍ إلى آخر من دون أن يتعثّر".

زحف فيليب في بركة الشراب، وبقايا الطعام وهو يهدر بصوته:
"سأقتلك! سأقتلك!"

لكن الإسكندر لم يرمش له جفن، بل قال: "سيكون ذلك إنجازاً عظيماً لك، إذا تمكنت من الوقوف على قدميك". ثم التفت بعد ذلك إلى الخدم، وقال: "ساعدوه على النهوض، واغسلوه جيداً".
وتوجه بعد ذلك إلى أولمبيا، وقال لها: "يجب أن تغادر في هذه اللحظة يا أمي. كنت على حق، إن هذا المكان لا يليق بنا".

غادر الإسكندر القصر بسرعة متأبطاً ذراع والدته، وتبعهما فيليب بنظراته الغاضبة وصراخه. سأل الإسكندر أوليمبيا ما إن وصلا إلى الباحة: "أترغبين في القيام بجولة على صهوة جواد، أم أطلب من الخدم تحضير إحدى العربات؟".

"كلا. أفضّل أن أمتطي صهوة جواد".

"غيري ثيابك، وكوني جاهزة عند مدخل جناحك، سألاقيك في أسرع وقت، لا تنسي عباءتك وملابسك السمكية، سنتجه نحو الجبال".

صاحت الملكة: "أخيراً!".

ركض الإسكندر نحو الإسطبلات كي يجهّز بوسيفالاس والجواد البني المحمر، بالإضافة إلى لوازم الرحلة، ثم أخذ الجوادين إلى الزاوية الشمالية للقصر.

صاح به صوت من خلفه: "إسكندر! انتظر!".

"هيفاستيون! عد أدراجك، سيتحول والذي ضدك إذا لم تفعل".

"لا يهم... فلتحل عليّ اللعنة إن تركتك وحيداً، إلى أين أنت ذاهب؟".

"إنني ذاهبٌ إلى إيبيروس، لزيارة خالي".

"وأي الطرق ستسلك؟".

"بيرويا".

"انطلق الآن، وسألحق بك".
"حسناً، ودّع الجميع بالنيابة عني، وقل لإيومينيس أن يهتم بالجرو بيريتاس".

قال هيفاستيون وهو يتعد: "بالطبع... لا تقلق، سأهتم به".
صاح الإسكندر وراءه: "أعطه عظمة على الأقل كل يوم، من أجل أسنانه!".
أوماً صديقه علامةً على أنه فهم، واختفى مجدداً داخل الإسطبلات.

كانت أوليمبيا جاهزةً بعد أن جمعت شعرها على شكل كعكة، وارتدت سترة جلدية، وسروالاً من صنع إيليريا، ووضعت حقيبتين فوق كتفيها، وبعض المواد الغذائية، ومحفظتها. تبعتها إحدى خادماها وهي تبكي: "لكن يا مليكتي... مليكتي...".
قالت أوليمبيا امرأةً: "عودي إلى الداخل، إلى غرفتك".
ناولها الإسكندر لجام جوادها، وسألها: "أين كليوباترا يا أمي؟ لا أستطيع أن أغادر من دون توديعها".

"أرسلت إحدى خادماها لتقول لك إنها تنتظرك في الباحة المركزية لجناح النساء. لكن، ألا تدرك أن كل لحظة نضيّعها قد تكون قاتلة؟".

"لن أتأخر يا أمي".
غطى رأسه بقبعة عباءته، وأسرع راكضاً تجاه شقيقته، رآها شاحبةً ومرتجفة، وكانت لا تزال ترتدي الثياب الفاخرة التي ارتدّها في حفلة الزفاف.
ما إن رآته كليوباترا حتى أحاطت رقبتة بذراعيها وبدأت بالبكاء:

"لا تذهب! أرجوك لا تذهب، سأطلب منه أن يسامحك، سأركع أمامه... لن يستطيع أن يرفض ما أطلبه منه".

"أين هو الآن؟".

"نقلوه إلى جناحه".

"هل كان ثملاً جداً؟".

أومأت كليوباترا.

"إننا مضطران إلى المغادرة الآن، قبل أن يستعيد وعيه. لم يعد من مكان لي هنا الآن، كما أن والدتنا لا تستطيع البقاء في هذا القصر، سأكتب إليك إذا استطعت، أحبك يا شقيقي الصغيرة".

انفجرت كليوباترا بالبكاء، وسالت الدموع غزيرةً على خديها، واضطر الإسكندر إلى أن ينسحب من عناقها.

صاحت الفتاة وراءه: "متى سأراك مجدداً؟".

أجاب الإسكندر: "عندما تشاء الأسياد، لكنك ستبقين في قلبي على الدوام!".

عاد مسرعاً إلى والدته التي كانت جاهزة ومنتظرة.

صاح بها: "هيا بنا!", ثم تطلع نحوها بسرعة وصاح: "أمي، إنك جميلة، تبدين بمثل جمال الأمازون". هزت أوليمبيا رأسها وقالت: "تبدو الأم جميلة دائماً في عيني ولدها، لكن، شكراً لك على كل حال يا بني". ثم نغست جوادها، فيما تمكن الإسكندر بقفزة رشيقة من الوصول إلى صهوة بوسيفالاس، ودفعه كي يلحق بها.

لم يسلكا الطرقات المكتظة بالمارة، بل سلكا في إحدى المراحل طريقاً جبلياً سبق للإسكندر أن سلكه مرات عدة عندما كان في مييزا. سارا مسافةً طويلة من دون أن تعترضهما أي مشاكل، وقبل حلول الظلام.

توقفا مرات عدة كي يريحا الحيوانين، ولكي يسقيهما، وذلك قبل وصولهما إلى غابة كبيرة تغطي إيورديا ووادي هاليكامون. دخلا كهفًا عند مدخله نبع ماء فوار، وسمح الإسكندر للحوادين بالرعي بكل حرية في الخارج. وأسرع بعد ذلك إلى الانشغال بإشعال النار مستخدمًا عصوين وقوس.

شرح لها: "علّمني أرسطو أن الاحتكاك يولّد الحرارة".

"هل استفدت من تجربة مبيزا؟".

"كانت سنوات رائعة. لكنّ تلك الحياة لا تناسب فتى مثلي". جمع بعض الأوراق اليابسة حول العصوين وبدأ بالنفخ عندما رأى الدخان يتصاعد.

بدأ لهبٌ خفيف بالظهور، وما لبث أن قويَ عندما أضاف الإسكندر إلى النار أوراقًا وبعض العصي.

عندما كثرت ألسنة اللهب وضع الإسكندر أعواداً أكبر من الخشب على النار، ثم نشر عباءته على الأرض قربها.

"خذي راحتك أُمي، سأعد لك العشاء هذه الليلة".

جلست أوليمبيا، وراحت تحدّق مذهولة بتراقص ألسنة اللهب، وبهذا السكون الذي يخيّم على الغابة، بينما انشغل ابنها بفتح الحقائب، وتناول منها بعض قطع الخبز وراح يحمّصها فوق النار، ثم قطع بعد ذلك قطعة من الجبن بسكينه، وناولها إياها.

بدأا يأكلان بصمت.

قالت أوليمبيا: "هذا أشهى عشاء تناولته منذ سنوات عديدة، وفي هذا الموقع الذي هو أجمل من أي قصر. أشعر وكأنني عدت من جديد فتاة صغيرة تجلس في جبالها التي نشأت فيها".

غرف الإسكندر كوباً من مياه النبع وقدمه إليها: "لكنّ هذا لن يرضيك، لأنك سرعان ما ستشتاقين إلى السياسة، وإلى علاقاتك، وإلى دسائسك، ألا تعتقدين ذلك؟".

"يُحتمل ذلك. لكن، دعني أحلم الآن، إن آخر مرة نمنا فيها في الغرفة ذاتها كانت عند بداية تعلمك المشي. وعندها، كان والدك يحبني".

جلسا هناك يتحدثان بهدوء ويستمعان إلى نسيمات المساء خلال مرورها بين أغصان السنديان مصدرة صوت خفيف، وإلى فرقة النيران التي أوقداها في مكانهما المنعزل. وفي نهاية الأمر، استسلما إلى النوم بعد أن أنهكتهما أحداث يومهما الطويل.

كانت مشاعر الكآبة قد خيمت عليهما، لأنهما أصبحا منفيين وهاربين، ومشردّين ومن دون أصدقاء. وامتنع كلاهما بمرارة نتيجة انفصالهما عن الرجل الذي كان قاسياً، وعنيفاً، ومستبدّاً، لكنه يعرف كيف يكسب محبة الناس أكثر من أي رجل آخر.

فتح الإسكندر عينيه ليلاً بعد أن أيقظّه ضجيج مبهم، وسرعان ما أدرك أن والدته لم تعد إلى جانبه، تطلع حوله فرأى تحت ضوء القمر خيالاً وسط الطريق المتعرج بين أشجار السنديان المعمرة. كانت أوليمبيا واقفةً أمام شجرة ضخمة، وبدا أنها تتحدث مع شخص ما، تحرك بهدوء زاحفاً فوق أجماع الآشنة حتى أصبح قريباً منها إلى حدّ أنه سمع تمتماتها وهي تتحدث بلغة لا يعرفها، صمتت بعد ذلك وكأنها تلقت رداً، ثم ما لبثت أن تابعت الحديث مجدداً وراحت تمس بأشياء غير مفهومة.

بقي الإسكندر كامناً في مكانه بعيداً عن الأنظار، وراح يراقبها من وراء شجرة سنديان ضخمة، رآها بعد ذلك تنطلق فوق طريق

تترأى فيه ظلال الأغصان المتطاولة التي تمتد تحت ضوء القمر الشفاف، تبعها، لكنه بقي بعيداً عنها وحريصاً على ألا يحدث أي ضجيج. توقفت أوليمبيا أمام خرائب مزارٍ قديم حيث كانت بقايا التمثال الخشبي لسيد مبجل بالكاد تُرى بسبب تقادم الزمن عليه، وتوالي العوامل الطبيعية. كان ذلك تمثالاً قديماً لديونيسوس، سيد طقوس الغضب والنشوة، وكان مضاً بعدد قليل من المشاعل، الأمر الذي يظهر أن الزائرين ما زالوا يقصدون هذا المكان.

مشت أوليمبيا بتؤدة نحو التمثال، وكأنها كانت على وشك أن تبدأ برقصة ما. وضعت يدها على قاعدة التمثال، فظهر فجأة ناي من قصب، وكأن ذلك حدث بقدرة قادر، ثم بدأت بالعزف مطلقاً أنغاماً عميقة وفاتنة، لكنّ اللحن احتوى على قدر كبير من الغموض، طغى اللحن الفاتن على أصوات الغابة الليلية، وتسَلَّلَ بعيداً عبر الأغصان التي كانت تتحرك قليلاً بفعل هبوب نسيمات لطيفة.

مرّ بعض الوقت، وسرعان ما تناهت من الغابة أصوات موسيقى وكأنها ترد على ناي الملكة. كان صوتاً صعباً تميزه في البداية من أصوات حفيف أوراق الشجر، ثم بعد ذلك من أصوات العنديل، وذلك قبل أن يتحوّل في النهاية إلى صوت أشدّ صفاءً ودقّة: كان سلسلة من النغمات، المكتومة والعميقة في البداية مثل خرير مياه النبع الموجود عند مدخل الكهف، ثم ما لبث أن أصبح أعلى وأشدّ صفاءً.

صدرت الموسيقى من ناي آخر، أو ربما من نايات قصبية بدائية عدة، أما اللحن الذي عُزِف فكان طويلاً ومشدوداً بحيث بدا، وكأن مصدره الرياح ذاتها.

وضعت أوليمبيا آلتها على قاعدة التمثال، ثم نزعَت رداءها وبدأت بالرقص على إيقاع اللحن إلى أن ظهر رجال ونساء من أنحاء

الغابة. كانت وجوههم مغطاة بأقنعة تمثل رؤوس حيوانات، وهو الأمر الذي جعلهم يبدون مثل الساطير (أشباه الأسياد). بدأوا بنزع ثيابهم تدريجياً، وتمسكوا ببعضهم بعضاً، وراحوا يرقصون في البداية، ثم افترشوا الأرض حول التمثال مطلقين صرخات النشوة وأصوات تنم عن ممارسة وحشية للحميمية.

وقفت أوليمبيا فجأة من دون حراك وسط هذه الفوضى من الأصوات والأشكال، وبدأت مثل ذلك التمثال الخشبي الذي يمثل ديونيسوس، أو مثل سيدة ليلية مبجلة. تابع الرجال المقنعون الزحف على أيديهم وأقدامهم، مثل الحيوانات، تحت ضوء القمر، ثم بدأوا بالاقتراب منها.

شعر الإسكندر بالإثارة، لكنه كان منزعجاً في الوقت ذاته من المنظر الذي يشاهده، حتى إنه وضع يده على مقبض سيفه، لكنه جمد في مكانه من فرط دهشته عندما رأى شيئاً على جذع الشجرة التي تفصله عن الأشخاص المتحلقين حول التمثال، خرجت أفعى كبيرة من مكانها تحت الأرض وراحت تنزلق نحو تمثال السيد المبجل، ثم ما لبثت أن لفت نفسها حول ساقبي والدته.

لم تتحرك أوليمبيا، وشعرت بتصلب في أطرافها بينما راحت عينها تحديقان بثبات إلى الفراغ. بدا وكأنها لم تسمع ولم تر شيئاً مما يجري، ظهرت أفعى أخرى من تحت الأرض، وما لبثت أن ظهرت أفعى ثالثة ورابعة. التفت الأفاعي الأربع حول ساقبي الملكة.

رفعت كبرى الأفاعي، وهي التي ظهرت أولاً، نفسها فوق الأفاعي الأخرى وراحت تلتف حول جسم أوليمبيا إلى أن ارتفع رأسها فوق جسم الملكة.

توقفت الموسيقى المسعورة على نحو مفاجئ، وسرعان ما تراجع الأشخاص الأربعة إلى أطراف الباحة. بدأ الأمر وكأنهم دُفعوا دفْعاً إلى الوراء وارتعبوا من هذا الحدث الخارق. فتحت الأفعى بعد ذلك فكَّيها إلى أقصى حدٍّ، وحركت لسانها الرفيع ذا الشُعَب ثم مضت كي تصدر الصوت ذاته الذي صدرَ عن ناي أوليمبيا. سمعت نغمة شجية، عميقة وحزينة ومرتعشة مثل صوت الريح التي تعصف وسط أشجار السنديان.

بدأت أنوار المشاعل بالانطفاء واحداً تلو الآخر، لكن الإسكندر رأى، تحت ضوء القمر، حراشف ذلك الحيوان الزاحف وهي تلتمع وسط شبه الظلمة لتتلاشى وتختفي. تنهَّد بعمق، ومسح حبيبات العرق البارد التي تساقطت من جبهته، لكنه عندما نظر مجدداً نحو ذلك المزار المتداعي كانت الباحة خالية وهادئة تماماً، وكأن شيئاً لم يكن.

شعر فجأة بأحدهم يلمس كتفه، فالتفت بسرعة مستلاً سيفه بيده.

قالت أوليمبيا: "هذا أنا يا بني". تطلعت نحوه والدهشة بادية على قسماط وجهها. "استيقظت لأكتشف أنك قد ذهبت، ماذا تفعل هنا؟".

مدَّ الإسكندر يده نحوها، وكأنه غير مصدِّق ما يراه. سألته الملكة مجدداً: "ما الذي تفعله هنا؟".

هزَّ الإسكندر رأسه، وكأنه يحاول أن يوقظ نفسه من حلمٍ أو من كابوس، ونظر إلى عيني أمه، ولاحظ أنهما أشد عمقاً وغموضاً مما كانتا عليه خلال الليل.

أجاب: "لا أفعل شيئاً، دعينا نعود".

وفي اليوم التالي، نهضاً مع بداية تراقص أشعة الشمس فوق مياه النبع، وانطلقاً مجدداً وبصمت، ناحية الغرب. بدا وكأنّ أياً منهما لا يجسر على الكلام.

التفت الإسكندر نحوها فجأة وقال: "أمي... يروي الناس قصصاً غريبةً عنك".

سألت أولمبيا من دون أن تلتفت نحوه: "أيّ قصص؟".
"إنهم يقولون... إنك تشاركين في طقوس سرّية لعبادة السيد المبحل ديونيسوس، وفي احتفالاتٍ ليلية، وأنك تمتلكين قوى خارقة".

"وهل تصدّق كل هذه الأشياء؟".
"لا أعرف".

لم تردّ أولمبيا، فتابعها المسير، وكان حصاناهما يسيران في خطواتٍ متناسقة، ولكن بصمت.

عاد الإسكندر للحديث مجدداً: "رأيتك الليلة الماضية".
"وماذا رأيت؟".

"رأيتك تدعين إلى حفلة عربدة بصوت الناي، ورأيتك تفتنين الأفاعي وتخرجينها من تحت سطح الأرض".

التفتت أولمبيا، ونظرت نحوه فالتمعت عيناها مثل الضوء الذي التمع في عيون الأفاعي التي ظهرت في فسحة الأرض.

"إنك تجسّد أحلامي هناك في الغابة، وأنت تبعثَ روحي التي هي عبارة عن هبولى فارغة، أي مثل خيالات الموتى، حدث ذلك لأنك جزء مني، ولأنك تلقيت نعمةً من قوة مبحلة".

قال الإسكندر محتجاً: "لم يكن ذلك حلماً، إنني متأكد من الأشياء التي رأيتها".

"توجد أماكن وأوقات محددة يختلط فيها الحلم بالواقع. وهناك أشخاص يستطيعون تجاوز قيود الواقع كي يتحركوا إلى تلك المجالات المسكونة بالألغاز. ستتخلى عني ذات يوم، وسأضطر إلى مغادرة جسدي كي أطير خلال الليل وأصل إليك، وأسمع صوتك، وصوت أنفاسك، ولكي أكون قريبك عندما تحتاج إليّ، وفي أي وقت تحين فيه تلك اللحظة".

لم يقل أي منهما أي كلمة أخرى إلى أن ارتفعت الشمس في كبد السماء، وكانا قد وصلا إلى الطريق المؤدي إلى بيرويا، فالتقيا هيفاستيون هناك، فترجل الإسكندر وركض نحو صديقه. سأل الإسكندر: "كيف تمكنت من إيجادنا؟". "يترك بوسيفالاس آثاراً واضحة تشبه آثار ثور بري، لم يكن الأمر صعباً".

"وهل هناك أخبار؟".

"لا، ليست لدي أمور كثيرة أخبرك عنها، تركت المدينة بعد وقت قصير من مغادرتك لها، أعتقد أن الملك كان ثملاً إلى درجة أنه لم يتمكن من الوقوف على قدميه، أعتقد أنهم غسلوه قبل نقله إلى سريره". "أعتقد أنه سيرسل جنوداً للبحث عنا؟".

"ولماذا يفعل ذلك؟".

"لأنه أراد أن يقتلني".

"كان ثملاً. أراهن أنه سيقول ما إن يستيقظ أين الإسكندر؟".

"لست متأكداً إلى هذا الحد، لأننا تبادلنا بعض العبارات السيئة، وسيصعب علينا نسيانها، وحتى إذا افترضنا أن والدي على استعداد لأن ينسى كل شيء، فإن أحدهم سيتبرع بتذكيره بها".

"إنه أمرٌ ممكن على وجه التأكيد".

"هل أمرتَ إيومينيس بالاهتمام بالجرو؟".

"هذا أول شيء فعلته".

"مسكين بيريتاس، سيفتقدني، وسيعتقد أنني تخليت عنه".

"لن يكون الوحيد الذي سيفتقدك أيها الإسكندر، فأنا مثلاً، لا

أطبق فكرة الابتعاد عنك، وهذا هو السبب الذي دفعني إلى اتّخاذ قرار

المجيء معك".

دفع الاثنان جواديهما كي يلحقا بأوليمبيا التي كانت تسير

بجوادها وحيدة.

قال هيفاستيون: "مرحباً يا مليكتي".

أجابت أوليمبيا: "مرحباً أيها الشاب". وبعد ذلك، تابع الثلاثة

رحلتهم معاً.

*

"أين الإسكندر؟".

كان فيليب قد خرج لتوّه من غرفة الحَمّام بينما انشغلت النسوة

بتدليك كتفيه وظهره بمنشفة من الكتّان.

فتقدّم منه مساعده وقال: "إنه ليس هنا يا مولاي".

"أعرف أنه ليس موجوداً هنا، اذهب وقل له أن يأتي حالاً".

"إن ما أعنيه، يا مولاي، هو أنه غادر القصر".

"غادر؟ غادر، إلى أين؟".

صرخ فيليب: "آه!" رمى بالمنشفة إلى الأرض، وراح يتحوّل

عائياً في أنحاء الغرفة. "أريده هنا على الفور! أريده أن يعتذر عن الأمور

التي قالها! جعلني أبدو كالأحمق أمام ضيوفي وأمام زوجتي، جده

وأحضره على الفور! سألكُم وجهه حتى يسيل منه الدم! سأفقدته كل

شعور بالحياة! أريد أن... "وقف مساعده من دون حراك، وبصمت، فقال له: "بحق زيوس، هل تصغي إلي؟".

"إنني أصغي يا مولاي، لكن الإسكندر غادر فور خروجه من قاعة الطعام، وكنت أنت... تعاني من صعوبة شديدة بحيث لم تتمكن من القيام بأي شيء في هذا الشأن...".

راح فيليب يصرخ في وجهه بينما التفت كي يواجهه: "أتحاول أن تقول لي إنني كنت ثملاً جداً بحيث لم أتمكن من إصدار الأوامر، هل هذا صحيح؟".

"في الحقيقة يا مولاي لم تُصدر أيّ أوامر و...".

"دع الملكة تأتي إلي! وعلى الفور!".

سأل المساعد بعد أن تحير في ما يمكنه قوله وفعله: "أيهما يا مولاي؟".

"أيهما؟ أيها الغبي... ماذا يُفترض بي أن أفعل مع تلك الفتاة الصغيرة؟ أريد أن تحضر إليّ الملكة، وعلى الفور!".

"يا مولاي، غادرت أوليميا مع الإسكندر".

وصل صراخ الملك بعيداً حتى منزل الحرس الموجود في الجهة المقابلة من الباحة، وشوهد مساعد الملك بعد وقت قصير وهو ينزل الدرج بسرعة، ويوزع الأوامر ذات اليسار وذات اليمين، وفي الوسط. تراكض كل الأشخاص الموجودين وسعى كل واحد منهم للقفز فوق صهوة جواده، وتسابقوا في كل الاتجاهات.

غادر الضيوف الأجانب في ذلك اليوم برفقة مرافقيهم الرسميين، واضطر فيليب إلى استقبالهم واحداً تلو الآخر وشكرهم على الهدايا الجميلة التي أحضروها معهم. استغرقت هذه المهمة الصباح بأكمله، وامتدت حتى فترة ما بعد الظهر.

وحين حلّ المساء، شعر الملك أنه مريض، ومنهك ومجهّد، ليس فقط بسبب أسبوع الاحتفالات والمآدب المتواصلة، بل لأنه شعر، وللمرة الأولى في حياته أنه وحيد مثل كلب تخلص عنه صاحبه.

طلب الملك من يورديس أن تنام، أما هو فصعد إلى سطح القصر، وبقي لفترة طويلة يذرع الشرفة الكبيرة جيئةً وذهاباً تحت ضوء القمر، وسمع في هذه الأثناء صوت نباح متواصل يتناهى إلى سمعه من الجناح الغربي للقصر، وسرعان ما تحوّل هذا النباح إلى عويل يلوي القلوب، بدا أنّ هذا النباح سيستمر إلى الأبد، لكنه سرعان ما تحوّل إلى أنين حزين.

وكان بيريتاس قد أدرك أيضاً أن الإسكندر قد ذهب، لذلك توجه بنباحه اليائس إلى القمر.

استغرقت عملية وصول الفارين الثلاثة إلى حدود إبيروس أسبوعاً كاملاً، وأسرعوا في إرسال خبر وصولهم إلى الملك الإسكندر. كان قد سبق للملك أن علم بالأحداث التي وقعت في مقدونيا من مخبريه الذين استخدموا أكثر من نظام سريع للاتصالات، ولم يقلقوا من إمكانية رؤيتهم في الطريق ما بين بيللا وإبيروس.

توجه الملك إليهم كي يستقبلهم شخصياً، فعانق شقيقته الكبرى وابن أخته بكل شوق، وذلك قبل معانقة هيفاستيون الذي تعرّف عليه خلال الفترة التي أمضاها في بلاط قصر بيللا.

في تلك الليلة، نام الجميع في مسكن يُستخدم للصيد، ثم انطلقوا مجدداً في اليوم التالي مع مرافقيهم نحو المقر الملكي في بوثروتوم، والتي تبعد مسيرة بضعة أيام وكانت تلك المدينة تقع على شاطئ البحر، وتشكّل نقطة محورية لكل الأساطير المتعلقة بملكة إبيروس الصغيرة. تروي الأسطورة أن بيروس، ابن آخيل، قد نزل هناك، وأحضر معه أرملة هيكتور، وهيلينوس ضالع طروادة، وذلك بصفتهم عبيدين من عبيد أندروماك. اتخذ بيروس من أندروماك محظية له، لكنه أعطاها في وقت لاحق إلى هيلينوس. ونتج عن هذين الزوجين أولاد أسسوا في النهاية السلالة الملكية التي لا تزال تحكم هذه البلاد.

يُعتبر الإسكندر المقدوني، من جهة أمه، سليل أحد أعظم أبطال الإغريق الذي تحدّر من أولاد بريام حاكم آسيا. وتغنى الشعراء بهذه الأساطير التي كانت تسلي الملك وضيوفه الجدد في أمسيات متتالية،

وتمتّع الإسكندر وأمه طوال أيام عدة، بتسليّة خفّفت عنهما محنتهما، لكنّ ملك إبيروس أدرك أنّ هدوءاً كهذا لن يستمر طويلاً، وأدرك أنّ الأمر لن يتأخّر حتّى يأتي من يسأل عنهما.

قدم أول الزائرين في فجر أحد الأيام بينما كان الجميع نياماً، كان فارساً تابعاً لفرقة الحرس الشخصي لفيليب. حين وصل كان الوحل قد غطّاه من رأسه وحتّى أخمص قدميه لأن المطر كان يهطل فوق الجبال.

رفض الرجل عرض الاستحمام بمياه دافئة، لكنه قال: "الملك غاضب جداً. توقّع الملك أنّ يمثل الإسكندر أمامه بعد يوم الزفاف مباشرة كي يعتذر عن سلوكه، وعن الكلمات القاسية التي استخدمها للسخرية منه أمام ضيوفه وعروسه".

"أخبرني ابن أخي أنّ الملك هدّده بسيفه الذي شهره، وأنّ آتالوس نعتّه بالابن غير الشرعي، يتعيّن على فيليب أن يفهم أنّ دمائه تجري في عروق ابنه، ولذلك فإنّه يتميّز بالاعتزاز ذاته، ويمتلك قدراً من الكرامة يساوي ما يمتلكه هو، كما أنّ شخصيتيهما متشابهتان جداً".

"لا يقبل الملك أيّ أعذار، وهو يريد أنّ يمثل الإسكندر أمامه في بيلا كي يطلب السماح منه".

"تدلّني معرفتي بالإسكندر على أنّه لن يفعل ذلك".

"في هذه الحالة، سيتعيّن عليه أن يتحمل العواقب".

كان نوم الإسكندر خفيفاً فسمع وقع عدو حوافر الجواد على الطريق المرصوف بالحجارة. لذا، نهض من سريره، ووضع عباءته على كتفيه، وراح يصغي إلى ما يقوله مبعوث أبيه، ولكن من دون أن يراه أحد.

سأل الملك الشاب: "وما هي هذه العواقب بالضبط؟".

"سيتيم إبعاد جميع أصدقائه إلى المنفى بصفتهم خونة أو متآمرين باستثناء إيومينيس، مساعد فيليب، وفيلوتاس ابن القائد بارمينيون".
"سأعلم ابن شقيقتي وأنقل إليك جوابه".
"سأنتظر عودتك ثم أنطلق مجدداً على الفور".
"لكن، ألا تريد أن تأكل وتغتسل؟ إننا نفتخر كثيراً بالترحيب بضيوفنا".

قال المبعوث المقدوني شارحاً وضعه: "ليس لديّ متسع من الوقت، أعاقني الطقس السيئ بما يكفي".
غادر الملك قاعة الاستقبال، فالتقى في الممر ابن شقيقته وسميّه وجهاً لوجه.
"أسمعتَ كل الكلام؟".

أوما الإسكندر.
"لن أذهب إليه زاحفاً، لأن آتالوس أهانني علناً، وكان يجدر بالودي أن يتدخل كي يحفظ كرامتي، لكنه تقدّم نحوي شاهراً سيفه".

*

"لكنّ الثمن الذي سيدفعه أصدقاؤك سيكون غالياً جداً".
"أعرف ذلك ويؤلمني جداً. لكن، لا خيار لدي".
"هل هذه هي كلمتك الأخيرة؟".
"أجل".

عانقه الملك، وقال له: "كنت سأفعل ذلك بالضبط لو كنت مكانك، سأبلغ المبعوث بذلك".
"كلا... انتظر سأخبره بنفسي".

ثمّ وضع عباءته عليه بشكل محكم، ودخل قاعة الاستقبال حافي القدمين. صُدم المبعوث قليلاً للوهلة الأولى، ثم ما لبث أن انحنى احتراماً.

"لتحرسك الأسياد أيها الإسكندر".

"وأنت أيضاً يا صديقي الطيب، سأعطيك ردي على الملك والدي، أخبره أن الإسكندر لا يستطيع استجداء السماح منه قبل أن يتلقى اعتذاراً من آتالوس، وتأكيداً قوياً منه أن الملكة أولمبيا لن تتعرض لمثل هذا الإذلال، وأنها ستكون موضع احترام كبير يتناسب مع مقامها بوصفها ملكة مقدونيا".

"هل هذا كل شيء؟".

"هذا كل شيء".

انحنى المبعوث، وما لبث أن توجه نحو الباب.

"أخبره... أخبره أن...".

"أخبره ماذا يا مولاي؟".

"أخبره أن الإسكندر يطلب منه أن يعتني بنفسه جيداً".

"سأفعل ذلك".

تناهى إلى أسماع الحاضرين بعد وقت قصير صوت سهيل جواد، وأصوات عدو ما لبثت أن تلاشت في البعيد.

سمع الإسكندر صوت الملك من خلفه، وهو يقول: "لم يأخذ قسطاً من الراحة، كما لم يتناول شيئاً من الطعام، لا بد وأن فيليب مستعجل جداً للحصول على ردك. تعال، سأمر الخدم بإحضار طعام الفطور لنا".

وتوجهها إلى غرفة في الجناح الملكي، حيث حُضرت طاولتان مع مقعدين مزودين بأذرع. رأى الإسكندر خبزاً طازجاً، وقطعاً من سمك الأسقمري وسمك أبو سيف مشوية على أسياخ.

قال الإسكندر: "عرّضتك لموقف صعب، لأن أبي هو الذي ثبّتك على العرش".

"هذا صحيح، لكنني كبرت منذ ذلك الوقت، ولم أعد ولدًا، لأنني أصبحت الرجل الذي يسعى إلى تثبيت مصالحه في هذه المنطقة. وإنني أؤكد لك أن هذه ليس بالمسألة السهلة، ولم يعد من السهل السيطرة على سكان إيليريا، أما الشواطئ فهي تعجّ بالقراصنة، كما استلمت تقارير عن قدوم جماعات من جهة الشمال على طول نهر إستر، إن والدك يحتاج إليّ أيضاً. لكن، يتحتم عليّ أن أحافظ على كرامة شقيقي أوليمبيا".

تناول الإسكندر بعض السمك، وشرب القليل من الشراب الذي كان خفيفاً ومن صنع الجزر الأيونية. اقترب من النافذة، وتطلع نحو البحر بينما تابع مضغ قطعة خبز.

سأل الإسكندر: "أين تقع إيثاكا؟".

أشار الملك نحو الجنوب وقال: "تقع جزيرة يوليسيس هناك، وهي على مسافة يوم واحد من الإبحار في الاتجاه الجنوبي. أما الجزيرة الموجودة قبالتنا فتدعى كورسيرا، وهي جزيرة الفاشيين، حيث نزل يوليسيس ضيفاً على قصر ألكينوس".

"وهل رأيتهما؟"

"أتعني إيثاكا؟ كلا. لكن، لا شيء فيها يستحق الرؤية سوى الماعز والحيوانات المقززة".

ربّما كان ذلك صحيحاً، لكنني مع ذلك أودّ رؤيتها، سأرسو فيها عند المساء، أي عندما يغيّر البحر لونه وتصبح طرقات البر والبحر داكنة، أريد أن أحسّ بالمشاعر ذاتها التي أحسّ بها يوليسيس عندما رآها للمرة الثانية بعد ابتعاده عنها لفترة طويلة. أستطيع... إنني متأكد من قدرتي على أن أعيش المشاعر ذاتها".

"يمكنني إذا أردت أن آمر أشخاصاً كي ينقلوك إلى هناك، فالمكان ليس بعيداً كما قلت لك".

لم يُظهر الإسكندر أنه سمع هذا الكلام فحوّل نظره ناحية الغرب، حيث بدأت قمم كورسيرا بالتحول إلى اللون الزهري بفعل أشعة الشمس الصاعدة فوق جبال إيبيروس الواقعة شرق الجزيرة.

"تقع إيطاليا وراء تلك الجبال وخلف ذلك البحر، أليس كذلك؟".

بدا أن وجه الملك قد تهلّل فجأة. "أجل أيها الإسكندر. تلك هي إيطاليا وهناك هيلاس العظيمة. إن المدن التي أسّسها الإغريق مدن غنية وقوية جداً، ومنها تارانت، لوكري، كروتون، ثوري، ريجيوم، ومدن كثيرة أخرى، وتوجد كذلك غابات شاسعة وقطعان ماشية فيها الآلاف والآلاف من الرؤوس، كما توجد هناك حقول قمح على مدّ النظر، بالإضافة إلى الجبال المغطاة بالثلج على مدار السنة، والتي تنفجر فجأةً بألسنة اللهب والنيران وتجعل الأرض تهتز من شدتها.

وتقع صقلية خلف إيطاليا، وهي أخصب الأراضي المعروفة وأكثرها جمالاً، وهناك تقع سيراكيوزا وأغريجنوم، وجيلا، وسيلينوس، وتقع خلفها سردينيا ثم إسبانيا التي تُعد أغنى بلد في العالم بموجوداتها التي لا تنضب من مناجم الفضة، والحديد، والقصدير".

قال الإسكندر: "راودني حلم الليلة الماضية".

سأله الملك: "وبماذا حلمت؟".

"حلمت أننا معاً، أنا وأنت في قمة جبل إيماروس، وهو أعلى جبل في مملكتك، على صهوتي حصانينا، كنت أنا على صهوة بوسيفالاس، وأنت على صهوة كيراونوس، حصانك الذي تستخدمه في أوقات القتال، كنا وسط حقلٍ تغمره الأضواء الساطعة. لأنه في ذلك الوقت، كانت إحدى الشمسيتين تغيب فوق البحر من جهة الغرب، بينما شمسٌ أخرى ترتفع من جهة الشرق. رأيت شمسيتين... يمكنك أن تتخيّل ذلك؟ كان ذلك مشهداً مؤثراً للغاية.

بعد ذلك، ودّعنا بعضنا لأنك قرّرتَ أن تذهب إلى مكان الشمس
الغاربة، بينما اخترتُ الذهاب إلى موقع الشمس الساطعة، أليس ذلك
شيئاً مدهشاً؟ هناك إسكندر للشمس الساطعة، وإسكندر آخر للشمس
الغاربة! نخس كل منا حصانه قبل أن يفترق متجهاً نحو كرتة النارية التي
اختارها. وكنا قد قطعنا قبل ذلك عهداً جدياً بالألّا نلتقي مجدداً قبل
إكمال رحلتينا، أما المكان الذي اخترناه للقائنا فكان...".
قال الملك متلهفاً: "أين كان ذلك المكان؟ أين هو المكان الذي
اخترناه للقائنا؟".
"آه! لا أتذكر المكان".

لم يتأخر الإسكندر في إدراك أن مكوثه في بوثروتوم من شأنه أن يتسبب بعواقب لا تُحتمل، سواءً أكان ذلك بالنسبة إليه أم بالنسبة إلى خاله، إسكندر إيبيروس. فلقد استمرّ فيليب في إرسال طلبات يلحّ فيها على عودة الإسكندر إلى بيلا كي يُصلح أخطاءه، ويطلب السماح أمام أهل البلاط جميعاً.

قرّر الأمير الشاب أن يغادر المكان.

سأل الملك: "لكن، إلى أين ستذهب؟".

"شمالاً، إلى حيث لا يستطيع أن يجديني".

"لا يمكنك أن تذهب إلى هناك، تكتظ المنطقة بقبائل متوحشة وشبه بدوية، وهي تشغل بحروب دائمة مع بعضها، يُضاف إلى ذلك أن الطقس السيئ على وشك أن يبدأ. يتساقط الثلج فوق تلك الجبال بصورة دائمة كما تعلم، هل سبق أن عشت وسط الأجواء الثلجية؟ إنها عدو مخيف".

"لست خائفاً".

"إننا نعرف ذلك جميعاً".

"إذاً، سأذهب، لا تقلق بشأنني".

"لن أدعك تذهب إلا إذا أعطيتني تفاصيل الطرقات التي ستسلكها، أريد أن أعرف أين أجذك في حال احتجت إليك".

"درستُ خرائطك جيداً، سأوجه أولاً إلى لايكينيدوس التي تقع إلى شرق البحيرة، ومن هناك سأوجه إلى داخل البلاد، وسأسير بمحاذاة وادي دريلون".

"متى تنوي الانطلاق؟".

"غداً، كما أن هيفاستيون سيرافقني".

"كلا، يتعين عليك أن تبقى هنا ليومين إضافيين على الأقل، ويجب أن أحضر كل الأشياء التي تحتاج إليها لرحلتك، سأعطيك حصاناً كي يحمل أغراضك، يمكنك أن تبيعه عندما ينفد طعامك، ثم تتابع جولتك".

قال الإسكندر: "شكراً لك".

"سأعطيك رسالتين إلى زعماء قبائل إيليريا في خليدونيا وداردانيا، يُحتمل أن يفيدوك في شيء ما، لدي الكثير من الأصدقاء في تلك المناطق".

"آمل أن أكافئك ذات يوم على ما تفعله لأجلي".

"لا حاجة بك إلى أن تقول ذلك، أريدك أن تبقى معنوياتك عالية".

أسرع الملك في ذلك اليوم إلى كتابة رسالة، وأعطاهها إلى أسرع مبعوثيه، وضمّنّها تعليمات، وأمر بتسليمها إلى كاليستين في بيللا.

*

توجّه الإسكندر كي يودّع والدته في صباح اليوم الذي غادر فيه، ضمّته إليها بشدة، وراحت تبكي وتذرف دموعاً سخية، كما صبّت اللعنات على فيليب من أعماق قلبها.

توسّل الإسكندر إليها بصوت مكتومٍ يملأه الحزن: "لا تقولي هذه الأشياء يا أمي".

صاحت أوليمبيا بصوتٍ طافحٍ بالألم والحزن: "لماذا؟ لقد أهانني، وجرحني، كما أجبرني على الانتقال إلى المنفى، إنه يضطرك الآن إلى الفرار، وإلى القفز إلى المجهول في أوج فصل الشتاء، أتمنى أن يموت أبشع ميتة، وأتمنى لو يتعذب، كما أتعذب أنا الآن!".

نظر الإسكندر نحوها، فشعر بقشعريرة باردة تسري في شرايينه. فإذا كان يخاف من شيء فهو يخاف من حقد كهذا، وهو حقد قوي يذكّره ببطلته إحدى مسرحيات المأساة التي رآها مرات عديدة في المسرح وهي كليتيمنيسترا، التي لوّحت بالفأس التي استخدمتها في قتل زوجها آغامنون، أو ميديا التي قتلت أولادها نكايّة بزوجها جاسون، وذلك من أجل إيذائه من خلال قتل الأشخاص الذين يحبهم.

في تلك اللحظة، خطرت في ذهنه قصة أخرى من تلك القصص التي شاعت حول الملكة في بيلا. فقد قيل وقتها إنها تناولت لحماً بشرياً خلال أحد الاحتفالات الأولية التي أقامتها طائفة أورفيوس. تطلع في عينيها الواسعتين اللتين ملأتهما الظلمة، والرغبة القاتلة في الانتقام، إلى درجة أنه تأكد من قدرتهما على كل شيء.

كرّر الإسكندر قوله: "لا تلغنيه يا أمي، يُحتمل أنه من المفيد لي أن أعاني قليلاً من الوحدة والعيش في المنفى، والبرد والجوع، إنه الدرس الذي لم أتعلمه من قبل، والدرس الذي لم يسبق له أن علّمني إياه، يُحتمل أنه يريدني أن أتعلم ذلك أيضاً، ولعلّه الدرس الأخير الذي لا يستطيع أحد غيره أن يعطيني إياه".

تخلّص من عناقها بصعوبة، ثم قفز على صهوة بوسيفالاس، ونحس قدميه بقوة على جانبيه.

وقف بوسيفالاس على قائمته الخلفيتين وصهل، ثم دفع حافريه الأماميين في الهواء، وقفز نافثاً البخار الحار من منخريه، ورفع هيفاستيون ذراعه تحيةً له، وما لبث أن نحس جواده بدوره بعد أن امتطى صهوته، وأمسك بلجام جواد ثالث خلال لحاقه بجواد الإسكندر.

وقفت أولمبيا هناك تراقبهما وهما يغيبان عن نظرها، بينما اغرورقت عيناها بالدموع، ولم يطل بها الأمر حتى غاب كل شيء عن نظرها فيما عدا الطريق الشمالي الخالي.

*

وصلت رسالة ملك إيبيروس إلى كاليستين في بيلا بعد مرور أيامٍ قليلة. فتح ابن أخت أرسطو الرسالة بتلهفٍ وبدأ بقراءتها.

من الإسكندر، ملك المولوشيين، تحية إلى كاليستين!
أمل أن تصلك رسالتي هذه وأنت بصحةٍ وعافية، إن ابن أختي الإسكندر يعيش هنا في إيبيروس بهدوءٍ بعيداً عن متاعب الحياة العسكرية، والضغطات اليومية لإدارة الحكومة، إنه يمضي أيامه في القراءة، وهو يقرأ أعمال يوربيديس على وجه الخصوص، وهو مبروس بالطبع، وذلك من النسخة الموضوعة في صندوق، والتي تسلمها من أرسطو خالك ومعلمه، إنه يسلي نفسه في بعض الأحيان بعزف القيثارة. شارك الإسكندر في بعض الأحيان في رحلات الصيد...

فوجئ كاليستين فور فراغه من قراءة الرسالة، وأكثر ما فاجأه هو أنها عادية وغير ذات قيمة. إذ لم تتضمن الرسالة أي شيء ذي قيمة، أو أي أمرٍ يحمل أهمية، بالإضافة إلى خلوها من أي شيء شخصي، بدت الرسالة وكأنها تمرين لا طائل منه. لكن، لماذا؟

شعر كاليستين بخيبة أملٍ شديدة، فوضع ورقة البردى على طاولته، وبدأ يذرع الغرفة جيئةً وذهاباً وهو يحاول فهم ماذا يجول في خلد ملك إيبيروس. وقع نظره فجأةً على طرف الورقة، فلاحظ أن الورقة مقطعة على طول أطرافها، تطلع بتركيز أكثر فرأى أن مقصاً قد استخدم لتقطيع أطراف الورقة عمداً.

ضرب جبهته بباطن كفه الأيسر وقال: "لماذا لم أفكر بالأمر من قبل! إنها شيفرة المضلع المتقاطع".

كانت هذه هي الشيفرة التي علّمها أرسطو إلى الإسكندر
إيبيروس، ظناً منه ألّا قد تفيدّه يوماً ما إذا قاد هذا الملك الشاب حملة
عسكرية بنفسه في يوم من الأيام.

أحضر مسطرةً ومثلثاً وبدأ بتوصيل أماكن القطع بالتوالي، وبعد
ذلك عمل على توصيل نقاط التقاطع، تتّبع بعد ذلك الخطوط المتعامدة
على كلّ جهةٍ من جهات المضلع الداخلي، فحصل بعد ذلك على
تقاطعات إضافية.

ركّزت كلّ نقطة تقاطع على كلمة واحدة في النص، قام
كاليستين بإعادة كتابة هذه الكلمات متتبعاً تتالي أرقام سبق لأرسطو
أن علّمه إياها، كانت هذه طريقة مبتكرة لإرسال رسائل سرية.

وأحرق الرسالة بعد أن انتهى من كتابة الكلمات ثم أسرع إلى
إيومينيس. وجد المساعد غارقاً حتى أذنيه في الأعمال المكتبية، واحتساب
الضرائب وتوقع النفقات العائدة لتجهيز أربع كتائب من الفالانج.

همس في أذن إيومينيس شيئاً قبل أن يضيف: "أريد أن أسألك شيئاً".

رفع إيومينيس رأسه عن الأوراق: "غادرا منذ عشرة أيام".

"أجل، لكن إلى أين ذهباً؟".

"لا أعرف".

"أنت تعرف جيداً أين هما".

"ومن يسأل؟".

"أنا".

"في هذه الحال أنا لا أعرف".

اقترب كاليستين أكثر، وهمس مجدداً بشيء ما في أذن إيومينيس،

ثم أضاف: "أستطيع أن توصل رسالة إليهما؟".

"كم تعطيني من الوقت؟".

"أمنحك يومين كأقصى حدّ".

"مستحيل".

"إذاً، سأفعل ذلك بنفسى".

هزّ إيومينيس رأسه، وقال: "هيا إذاً، أعطني إياها، أعتقد أنه
يُمكن للمرء أن يقوم بمهمة كهذه؟".

*

شقّ الإسكندر وهيفاستيون طريقهما إلى أعالي جبال أرغرينيان،
وكانت طبقة رقيقة من الثلج تغطي قممها، ثم ما لبثا أن هبطا نحو
وادي نهر أووس الذي كان ملتصعاً مثل شريط مذهب نحو أعماق
السفوح الخضراء. بدأت هذه السفوح التي تغطيها الغابات بتغيير ألوانها
مع اقتراب فصل الخريف، بينما طارت أسراب طيور الكركي عبر
السماء صارخة بأصواتها بعد أن تركت أعشاشها، واستعدت للانطلاق
في رحلتها الطويلة نحو بلاد الأقزام.

سارا في وادي أووس لمدة يومين، وتبعها النهر في مجراه شمالاً حتى
التقائه نهر أبسوس. تبعاً أعلى النهر، وهكذا تركا وراءهما مملكة
الإسكندر إيبيروس ودخلا منطقة إيليريا.

كان سكان تلك البلاد يعيشون موزعين على قرى صغيرة محصنة
بجدران حجرية صلبة، ويعتاشون من تربية الماشية، ويعتمدون أحياناً على
السلب. وصل الإسكندر وهيفاستيون متحضرين جيداً، لأنهما ارتديا
سرورالين بربرين، وعباءتين صوفيتين خشتين، لم تشكّل ملاسهما
إغراءً كبيراً للأعين المترتبة، لكنها كانت مناسبة للطقس البارد، كما
أنها مألوفة للناس الذين يعيشون هناك، أي أنها لم تثر انتباههم.

بدأ الثلج بالتساقط، كما انخفضت درجة الحرارة كثيراً عندما بدأ
في المسير صعوداً نحو سلاسل الجبال الداخلية، فأطلقت الجياد سحباً من

البخار من مناخيرها، كما جهدت كي لا تتعثر في أثناء صعودها الطريق الوعر والمنحدر. واضطر الإسكندر وهيفاستيون إلى الترجل والمتابعة سيراً على الأقدام، وراحا يحثان الجياد صعوداً.

كانا يصلان أحياناً إلى نقاط عالية في الطرقات الجبلية، وكانا يلتفتان خلفهما فيشاهدان المساحات الشاسعة المغطاة بالثلج الأبيض الذي لا يحمل أي علامات غير آثار أقدامهما، فيشعران بقشعريرة في جسدتهما، وهي القشعريرة التي لم يسببها البرد وحده.

لم يجدا في أثناء الليل ملاذاً لهما يسمح بإشعال النيران كي يجففا ثيابهما الرطبة، فنشرا عباءتيهما وارتاحا لفترة، كانا يجلسان في بعض الأحيان أمام الأنوار المنعكسة على رقائق الثلج البيضاء المترقصة قبل وصولها إلى الأرض كي يتأملا قبل استسلامهما للنوم. وكانا يصغيان بشرود إلى أصوات الذئاب التي تتردد عبر الأودية الخالية.

كانا مجرد شابين خارجين لتوهما من فترة المراهقة، ولذا، فإن لحظات كهذه كانت تشعرهما بحزن عميق ومخيف، عمداً في بعض الأحيان إلى تغطية أكتافهما بعباءة واحدة، وإلى التعانق في الظلام، تذكرًا طفولتهما وسط هذه السهول الشاسعة المغطاة بالثلوج، والليالي التي كان يقصد فيها أحدهما سرير صديقه بعد أن يكون قد ارتعب نتيجة كابوس، أو نتيجة سماعه نواحاً صادراً عن أحد السجناء لدى تعذيبه.

خيم عليهما الظلام الذي ترافق مع البرد القارس، بالإضافة إلى تفكيرهما في المستقبل اليائس الذي ينتظرهما.

أعادهما ضوء الفجر الأزرق والبارد إلى واقعهما، كما أن أنياب الجوع دفعتهما إلى الانطلاق للبحث عن طعام.

عثرا على آثار بعض الحيوانات فوق الثلج فمضيا كي يتفقدوا المصائد التي سبق لهما أن نصباهما، ولاحظا أنهما تمكنا من الإمساك

بطريقتين: أرنب، وقنبرة جبلية، فالتهمهما وهما ساختان بعد أن شربا دماءهما أولاً. واضطرا في أحيان أخرى للرضوخ إلى واقع عدم صيدهما أي شيء، والقبول بالجوع الذي ينهشهما، بالإضافة إلى البرد القارس الذي يخيم على هذه البلاد غير المضيافة. وعانت الجياد كذلك من هذه المحنة، واكتفت بتناول العشب القلم الذي تمكنت من إيجاده نتيجة قشطها الثلج بحوافرها.

وبعد أيام وأيام من التقدم الصعب، ومن التعب نتيجة البرد والجوع، شاهداً أخيراً السطح المتجمد لبحيرة لايكيدوس وقد التمع أمامهما مثل المرآة نتيجة الضوء الشاحب المنبعث من الشمس الشتائية. فتقدما سيراً على الأقدام بمحاذاة الشاطئ الشمالي للبحيرة، وأملا أن يصلا إلى القرية التي تحمل الاسم ذاته قبل حلول الظلام، فلعلهما سيتمكنان من تمضية الليل داخل أحد المنازل بحيث يستمتعا بالجلوس قبالة نار ملتهبة.

سأل الإسكندر صديقه: "أترى ذلك الدخان الذي يلوح في الأفق؟ كنت محقاً... لا بد من جود قرية هناك، سنجد هناك حشيشاً للجياد، وطعاماً وفراشاً من القش لنا".

أجاب هيفاستيون: "يصعب عليّ تصديق ذلك، لا بد أنني في حلم، أتصدّق فعلاً أننا سنحصل على هذه الأشياء؟".

"آه نعم، حتى إننا قد نجد نساء كذلك. سمعت والذي يقول ذات مرة إن برابرة الداخل يقدمون نساءً إلى الغرباء علامةً على حسن الضيافة".

بدأ الثلج يتساقط من جديد، وما لبث أن تراكم بحيث إن الجياد بدأت تشق طريقها بصعوبة من خلاله، فاخرق الهواء البارد ثيابهما ووصل إلى عظمهما. وبشكل مفاجئ سحب هيفاستيون لجام جواده، وقال: "أوه، بحق الأسياد... انظروا!".

رفع الإسكندر قبعته، وتطلع وسط العاصفة القوية، فشاهد مجموعة من الرجال يقطعون الطريق أمامهما، وقد قبعوا على صهوات جيادهم من دون حراك، وكانت أكتافهم وأغطية رؤوسهم مغطاة بالثلج، وكانوا مسلحين بالرماح.

سأل الأمير وهو يضع يده على مقبض سيفه: "أعتقد أنهم ينتظروننا؟".

أجاب هيفاستيون بعد أن شهر سيفه، ونخس جواده كي يتقدم من جديد: "أعتقد ذلك، وعلى كل حال سنعرف عما قريب".

قال الإسكندر: "أخشى أننا سنضطر إلى شقّ طريقنا بأنفسنا".

أجاب هيفاستيون بكل هدوء: "هذا ما أحشاه أنا أيضاً".

"كنت أنتظر طبقاً من الحساء الساخن، وسريراً ونيراناً، وربما فتاة

حسنة، وأنت؟".

"وأنا أيضاً".

"أنتتظر إشارتي؟".

"حسناً".

كانا على وشك البدء بهجومهما عندما اخترقت صرخة عظيمة

السكون المخيم على الوادي.

"فرقة جنود الإسكندر تحيي قائدها!".

"بطليموس!".

"مولاي!".

"بيرديكاس!".

"مولاي!".

"ليوناتوس!".

"مولاي!".

"كراتيروس!".

"مولاي!".

"لايسيماخوس!".

"مولاي!".

"سلوقس!".

"مولاي!".

تلاشى آخر صدى فوق البحيرة المتجمدة، ونظر الإسكندر إلى الرجال الستة على صهوات جيادهم، ووقف من دون حراك وسط الثلج، وامتلأت عيناه بالدموع، ثم التفت بعد ذلك نحو هيفاستيون وهزّ رأسه من الدهشة وقال: "بحق زيوس! إنهم رجال!".

بعد ثلاثة أشهر من حفل الزفاف، أنجبت يوريديس بنتاً أعطيت اسم أوروبا. وشعرت يوريديس بعد فترة قصيرة بعوارض الحمل مجدداً. إلا أن فيليب لم يتمكن من التمتع طويلاً بشعور الأبوة المتجددة بسبب الأحوال السياسية والأمور المستجدة، وشكّلت صحته مشكلةً بالنسبة إليه، لأن عينه اليسرى التي سبق له أن جرحها خلال إحدى المعارك، والتي لم تُعالج بطريقة صحيحة، أصبحت عديمة الفائدة في ذلك الوقت.

وفي ذلك الشتاء، تلقى فيليب زيارةً من مخبره إيومولبس. إذ أبحر الرجل وسط طقس سيئ لأن الأخبار التي يحملها كانت مهمة بحيث لا تحتل التأجيل، لكنه تعوّد على الطقس المستقر والمعتدل الذي يسود في المدينة، ولهذا السبب شعر أنه كاد يتجمّد من البرد. أمره الملك بالجلوس قرب المدفأة، وأمر بإحضار كوب من الشراب الحلو والقوي له، وذلك من أجل إعادة الحيوية إليه، ولكي يُطلق لسانه بالحديث.

"حسناً إذا... يا صديقي المخلص، ما هي الأخبار التي أتيت بها إليّ؟".

"إن الحظ إلى جانبك يا مولاي. لكن، دعني أخبرك ما حدث في البلاط الفارسي، إن آرسيس، الملك الجديد، وكما كان متوقعاً، تمكّن من معرفة حاكم القصر الحقيقي وبسرعة. ولكن، صُعب عليه تقبّل هذه الحقيقة لذلك ربّث عملية تسميم باغوس".

"أتعني ذلك المخصي؟".

"بالضبط، لكنّ باغاوس كان يتوقع خطوة كهذه، فأحبط الخطة عندما أخذ احتياطات مضادة، وأفلح في تسميم الملك، وتمكّن بعد ذلك من قتل جميع أولاد آرسيس".
"إن ذلك المخصي أشدّ خطراً من العقرب عندما يصمّم على تنفيذ أموره".

"هذا صحيح، لكنّ ذلك يعني أن تلك السلالة قد انتهت، لم يبقَ أحد من الذين قتلهم أرتخششتا الثالث، والذين قتلهم باغاوس".
قال فيليب: "إذا؟".

"عمد باغاوس إلى انتقاء أحد أبناء سلالةٍ قديمة، واسمه داريوس الثالث، ونصّبه على العرش".
"ومن يكون داريوس الثالث هذا؟".

"يدعى جدّه أوستانيس، شقيق أرتخششتا الثاني، يبلغ الرجل خمسة وأربعين عاماً، كما أنه يحب النساء وما إلى ذلك".
علّق فيليب بالقول: "لست متأكداً من أهمية هذه الأخبار، أليست لديك أخبار أكثر أهمية كي تخبرني إياها".
"كان الرجل عند تسميته ملكاً مرزباناً على أرمينيا".

"إنها منطقة صعبة، لذلك لا بد من كونه من النوع العنيد".
"دعنا نقول إنه رجل قوي، يبدو أنه قتل أحد المتمردين من قبيلة القادوشيين، وذلك خلال مواجهة مباشرة بينهما".

مرّر فيليب يده فوق رأسه: "أعتقد أن ذلك المخصي قد بدأ يتساءل ما إذا كان قد أخذ على عاتقه هذه المرة أموراً لا يستطيع السيطرة عليها".

أوماً إيومولبس الذي بدأ في هذا الوقت يشعر بالدفع، وقال:
"بالضبط، يبدو أن داريوس ينوي فرض سيطرته الكاملة على المضائق،

وإعادة تأكيد حقه بالسيطرة على المدن الإغريقية في آسيا، وسرت شائعة أنه يريد الحصول على إعلان إذعان من التاج المقدوني، إنني لا أميل إلى القلق كثيراً بشأن داريوس، لأنه بالتأكيد لا يشكل خطراً مساوياً لك، أعتقد أنه ما إن يسمع صراخك حتى يفرّ مرتعاً".
قال فيليب: "سنرى".

"أحتاج إلى شيء آخر يا مولاي؟".
"لقد أبليت بلاءً حسناً. لكنّ دورك الصعب سيبدأ الآن، أريدك أن تقصد إيومينيس كي تقبض ما تستحقه، وأريدك أن تأخذ مبالغ إضافية إذا كان ذلك ضرورياً من أجل الدفع لبعض المحيرين. أريد أن أعرف كل ما يجري في بلاط داريوس".
شكر إيومولبس الملك، وغادر المكان مستعجلاً الوصول إلى دفء مدينته الجميلة الواقعة على شاطئ البحر.

استدعى الملك بعد مرور أيام قليلة أعضاء مجلسه الحربي الذي عُقد في قاعة مستودع الأسلحة الملكي. حضر المجلس القادة بارمينيون، وأنتيباتر، وكليتوس الأسود، بالإضافة إلى آتالوس والد زوجة الملك.
قال فيليب خلال افتتاح المجلس: "لا أريد أن تخرج كلمة واحدة مما سأقوله خارج جدران هذه القاعة. إن آرسيس، ملك بلاد فارس، قد اغتيل. استدعي أحد الأمراء من سلالة فرعية، ونُصّب على العرش، يُدعى الملك الجديد داريوس الثالث، وعلى حدّ علمنا فإنه لا يفتقد إلى الكرامة، لكنه سينشغل لفترة لا بأس بها في تعزيز سلطته.

إن هذه هي اللحظة المناسبة - لكل تلك الأسباب - كي نتحرك. سيغادر آتالوس وبارمينيون في أسرع وقت ممكن، وسيرافقهما جيش مؤلف من خمسة عشر ألف رجل، سيتحرك الجيش نحو آسيا كي يحتل الساحل الشرقي لبحرنا، وسيعلن حرية المدن الإغريقية التي تخضع

للكم الفارسي. أما أنا فسأقوم في هذا الوقت بإتمام عملية تعبئة الجيش قبل الانضمام إليكما، وقبل بداية الغزو".

خُصَّص الجزء الباقي من الاجتماع لمناقشة تفاصيل المشاكل اللوجستية، والسياسية، والعسكرية المتعلقة بالهجوم الأول، لكن الأمر الذي صدم الموجودين أكثر من أي شيء آخر كان لهجة الملك الخفيفة، وغياب الحماسة والاندفاع اللذين كانا من الأمور المعتادة بالنسبة إليه. لم تكن لهجة الملك مرضية، إلى حدّ أن بارمينيون اقترب منه قبل أن يغادر، وقال له: "هل من خطبٍ ما يا مولاي؟ هل يقلقك وضعك الصحي؟".

وضع فيليب يده على كتف القائد عندما رافقه نحو الباب، وأجابه: "كلا، يا صديقي المخلص. كلا، كل شيء على ما يرام".

*

كان فيليب يكذب بهذا الخصوص، لأن غياب الإسكندر كان شيئاً لم يفكر فيه في البداية، لكنه تحوّل إلى عذاب متزايد مع مرور كل يوم. كان تفكير فيليب، مع استمرار بقاء ولده وزوجته في إبيروس، منصباً على كيفية إرجاعه، وجعله يُدعّن علناً لإرادته. لكنّ رفض الإسكندر الإقدام على هذه الخطوة، بالإضافة إلى مسألة فراره شمالاً، أشعراه بالغضب، والتوجّس، والقلق.

كان فيليب يغضب من أي شخص يحاول التوسط للإسكندر، وذلك لأنّه يفكر في كل الغضب الذي عانى منه. ولكن، عندما لا يتحدث أحد عن هذه المسألة كان يشعر بالقلق نظراً لغياب الأخبار عن ابنه، أرسل الملك جواسيسه في كل مكان، كما أرسل مبعوثين من قبله إلى ملوك وزعماء قبائل الشمال، الذين كانوا وكلاءه، وطلب منهم تزويده، وبشكل دائم، بالأخبار عن تحركات الإسكندر

وهيفاستيون. اكتشف الملك بهذه الطريقة أن عدد الهاربين قد ازداد مع انضمام ستة محاربين شبان إضافيين إلى تلك المجموعة، وذلك بعد وصولهم من تساليا، ومن أكارنانيا، ومن أثامانيا، ولم يصعب عليه تحديد هوياتهم.

عادت فرقة الإسكندر لتكتمل تقريباً، لكن الملك استمر بتحذير بارمينيون من انضمام ابنه فيلوتاس إلى تلك المجموعة التعيسة التي هم من دون غاية فوق ثلوج إيليريا. وشكّ الملك كذلك في إيومينيس، فلقد توقع منه أن يترك منصبه وأوراقه بين لحظة وأخرى كي ينضم إلى مغامرة ما.

كان الملك يسافر وحده إلى القصر القديم في إيجية، وكان يجلس ساعات وهو يراقب رقائق الثلج البيضاء عند تساقطها فوق أرض الريف الصامتة، وفوق غابات أشجار التنوب الزرقاء، وفوق الوادي الصغير الذي تحدرت منه أسرته. وراح يفكر في الإسكندر وأصدقائه، وهم يتحولون في الغابات المتجمدة في المناطق الشمالية.

بدا الأمر وكأنه يستطيع فعلاً مشاهدتهم خلال صراعهم مع العواصف الثلجية، بينما تغوص الجياد حتى بطونها في الثلج، وبينما تتسلل الرياح إلى ملابسهم الرثة المغطاة بطبقة من الجليد. حوّل نظره إلى المدفأة الحجرية الضخمة، وإلى قطع حطب السنديان التي تتبرع بدفئها عندما تحترق، وإلى جدران غرفة العرش القديمة، وتخيل كذلك المجموعة وهي تجمع قطع الحطب الرطبة من أجل صنع ملاجئ مؤقتة لها، وتخيل صراعهم لفترات طويلة، وهم متعبون، من أجل إشعال نار مهما كانت بسيطة، تخيلهم في أثناء الليل وقد عجزوا عن النوم، وهم يحرسون حاملين رماحهم بأيديهم عندما يسمعون عواء الذئاب المقتربة كي تنال نصيبها من الراحة والدفء.

اقترب فصل الربيع، وبدأت الأخبار تصبح مقلقة أكثر، ولكن ليس بالطريقة التي قد يتوقعها الجميع. فلم يقتصر الأمر على تمكّن الإسكندر وفرقته من الصمود أمام الصعوبات التي تترافق مع فصل الشتاء، ولكنهم قدّموا أنفسهم على أنهم حلفاء زعماء القبائل التي تعيش بمحاذاة الحدود المقدونية، أي أنهم أعلنوا انخيازهم في الصراعات الميسته التي يخوضها هؤلاء الناس، وساعدوهم على تأمين أحلاف، أو حتى على الاستسلام في ميدان المعركة، وكان يمكن لهذه التطورات أن تهدد سيطرة فيليب عاجلاً أم آجلاً.

تمتع الفتى بتأثير لا يقاوم في كل الذين التقاهم: الرجال والنساء، وحتى الحيوانات. وكان بوسيفالاس أكبر مثال في هذا المجال. إذ كيف يُمكن للمرء أن يفسّر قدرته على امتطاء ذلك الحيوان الأسود من أول محاولة وكأنه حملٌ وديع؟ وكيف يُمكن للمرء أن يفسّر واقع أن بيريتاس، وهو الحيوان القادر على تكسير عظمة حيوان مقرز بقضمة واحدة من فكّيه، يقبع في مكانه وقد انزوى، لا يأكل إلا القليل من الطعام، ويحرس الطريق حيث اختفى سيده؟

وهل ننسى لبيتين، الفتاة التي أنقذها من جحيم جبل بانجايوس؟ إنها تواظب كل يوم على ترتيب سرير الإسكندر وحمّامه وكأنه سيعود في أي لحظة، ولكنها لا تكلم أحداً عن الموضوع.

بدأ فيليب يشعر بالقلق بشأن استقرار علاقته مع مملكة إبيروس، وهي العلاقة التي باتت مهددة بسبب وجود أوليميا إلى جانب شقيقها الملك الشاب. إن الحقد الأعمى الذي تحمله له في أعماقها قد يدفعها إلى الإقدام على أي حماقة من أجل إيذائه، ومن أجل إحباط خططه السياسية والعائلية. كان الملك الإسكندر صديقاً بالتأكيد، لكنه يشعر، ومن دون أي شك بقربه الشديد من ابن شقيقته المنفي عن وطنه،

والذي يتنقل بين مناطق يسكنها برابرة. ففي هذه الحالة سيشرع إسكندر إيبيروس بروابط قوية مع بيلا، بينما ينبغي عزل الملكة أوليمبيا بسبب تأثيرها المليء بالحقد. وأيقن فيليب من وجود حلٍ واحدٍ، لكن من دون توفر ما يكفي من الوقت.

استدعى فيليب في أحد الأيام ابنته كليوباترا، وهي آخر فردٍ من أفراد أسرته الأولى بقي في بلاط بيلا.

كانت الأميرة في عزّ نضوجها بعد أن بلغت الثامنة عشرة من عمرها، كانت عيناها واسعتين وخضراوين، أما شعرها فكان طويلاً مع بعض الخصل النحاسية اللون، وكان لديها جسد جدير بأن يكون لسيدة أسياد أوليمبيا، ولهذا لم يتبقَ أحد من أفراد طبقة النبلاء إلا وحلم بأن يتخذها زوجة له.

قال لها فيليب: "حان الوقت كي تتزوجي يا ابنتي".

خفضت كليوباترا رأسها وأجابت: "أتصوّر أنك قد اخترت زوجاً لي".

قال فيليب مؤكداً كلامها: "فعلت ذلك بالفعل، إنه الملك الإسكندر حاكم إيبيروس، وشقيق والدتك".

وقفت الفتاة جامدةً وصامتة. لكن، كان من الواضح أنها لم تشعر بإحباط كامل نتيجة قرار والدها، كان خالها وسيماً وشاباً جريئاً، كما أن أتباعه يقدّرونه، أما شخصيته فتشبه شخصية الإسكندر شقيقها. سألتها الملكة: "أليس لديك ما تقولينه؟ أم ربما كنت تتوقعين شخصاً غيره؟".

"كلا يا والدي، أعرف أن هذا الخيار حقّ لك. لذلك لم أفكر أبداً في أي شخصٍ بالتحديد، لأنني لا أرغب في مخالفة إرادتك. ولكن، أريد أن أطلب منك شيئاً".

"أخبريني يا ابنتي".

"هل سُدعى أخي الإسكندر إلى الزفاف؟".

أدار فيليب ظهره على الفور، وكأنه تلقى صدمة مفاجئة: "إن شقيقك لم يعد موجوداً بالنسبة إلي".

انفجرت كليوباترا باكية: "لكن، لماذا يا والدي؟ لماذا؟".

"أنت تعرفين السبب لأنك كنت هناك. رأيت كيف أهانني أمام جميع ممثلي المدن الإغريقية، وأمام قادة جيشي، وكل الأشخاص البارزين في مقدونيا".

"لكنه يا أبي...".

صرخ الملك: "إياك أن تجرؤي على الدفاع عنه، استدعيت أرسطو إلى هذا المكان كي يعلمه، كما وظّفت ليسيوبوس كي ينحت صورته، وسككت النقود التي تحمل رسمه، أتفهمين ماذا يعني ذلك كله؟ كلا يا ابنتي، كانت إهاتته والجرح الذي أحدثه، كبيرين جيداً، وفوق الاحتمال...".

تابعت الفتاة إصرارها: "أبي...".

"قلت لك لا تدافعي عنه".

"لكنني أرغب رغبة مؤكدة في فعل ذلك. أجل... كنت هناك في ذلك اليوم ورأيت أُمي شاحبةً وكأنها جثة، بينما كانت تشاهدك وأنت تمل، وتضع يديك على عروسك الصغيرة، وكيف مسدت بطنها بفخر. ورأى الإسكندر والدته أيضاً. إنه يحبها بالفعل، وهل هناك من سبب كي لا يفعل ذلك؟ هل يتعين عليه أن يمحوها من حياته كما فعلت أنت؟".

أحسّ فيليب أنه يغلي غضباً، فراح يصرخ وقد احمرّ وجهه من الغضب: "إنها هي، أولمبيا التي حولتك ضدي! أليس هذا صحيحاً؟ أصبحت ضدي الآن!".

جثت كليوباترا عند قدميه، واحتضنت ركبتيه: "غير صحيح، ليس ذلك صحيحاً أبداً يا أبي. إن كل ما نريده هو أن تستعيد رشدك، ارتكب الإسكندر بعض الأخطاء بالتأكيد..." بدا أن فيليب قد هدأ قليلاً بعد أن سمع هذه الكلمات التي أكملتها بالقول: "لكن، ألا تفهم ذلك؟ ألا تستطيع أن تبذل ولو محاولة واحدة كي تفهم ابنك؟ ماذا كنت ستفعل لو كنت مكانه؟ لو أن أحداً عاملك علناً وكأنك ابن غير شرعي... وابن زنى؟ أما كنت لتدافع عن شرفك وشرف ابنك؟ أليس ذلك ما كنت تعلم ابنك أن يفعله؟ إنه يشبهك في هذا المجال، لأنه يتصرف بالطريقة التي توقعت منه أن يتصرف بموجبه دائماً. ومع ذلك أنكرته، إنك تريد منه أن يتصرف مثل آخيل!". ثم أدارت وجهها نحو والدها وقد انهمرت الدموع على خديها. "أنت أردت آخيل وحصلت عليه، إن غضب الإسكندر هو غضب آخيل ذاته يا أبي!".

"هكذا إذاً! لكن، إذا كان غضب الإسكندر هو غضب آخيل، فإن غضبي هو غضب زيوس ذاته!".

"لكنه يحبك، إنه يحبك وهو يعاني لهذا السبب، إنني أعرف..." بدأت تتنهد وتُجهش بالبكاء بعد أن ارتمت على الأرض. تطلّع فيليب نحوها بصمتٍ للحظة، وزمّ شفّتيه، ثم استدار واستعد لمغادرة المكان.

وحين وصل إلى الباب، قال قبل أن ينصرف: "تحضّري، لأن الزفاف سيجري في غضون ستة أشهر".

رأى إيومينيس فيليب وهو يعود إلى غرفته، ولاحظ أن المشاكل قد ارتسمت على وجهه، لكنه يتصرف وكأن كل شيء على ما يرام. فتابع مسيره إلى آخر الرواق وهو يحمل رزمة من أوراق البردى.

وحين سمع صوت إغلاق الباب، استدار عائداً، ووضع أذنه عليه،
كان الملك يبكي.

ابتعد إيومينيس بصمت وتوجّه إلى غرفته الخاصة في قاعة المحفوظات الملكية، ثمّ جلس واستغرق بالتفكير لفترة طويلة مسنداً مرفقيه إلى طاولته، ووجهه إلى كفيه. واتخذ قراره في تلك اللحظة بالذات.

تناول رزمة صغيرة من رفّ المحفوظات، وثبت عباءته على كتفيه، ومرّر يده عبر شعره، ثم خرج مجدداً إلى الرواق، وسار مباشرة إلى غرفة الملك.

أخذ نفساً عميقاً ودقّ الباب.

"من الطارق؟".

"إيومينيس".

"ادخل".

دخل إيومينيس، وأغلق الباب وراءه، ورأى فيليب منكباً فوق وثيقة كانت أمامه.

"مولاي! وصلك عرضُ زواج".

رفع الملك رأسه فجأة، وبدا التعب على وجهه، بينما كانت عينه الوحيدة الباقية حمراء من فرط الإنهاك، والغضب، والبكاء.

سأل الملك: "ومن الذي أرسل العرض؟".

"المرزبان ساتراب ملك كاريا، وبيزودورس في الوقت ذاته، إنه يعرض يد ابنته للزواج من أمير من بلاط ملكي".

"قل له أن ينسى الأمر، أنا لا أتعامل مع الفرس".

"مولاي، أعتقد أنه يجب عليك أن تفعل ذلك، إن بيزودورس ليست فارسية بالتحديد. إنه يحكم مقاطعة آسيا الصغرى الساحلية نيابةً عن الملك العظيم، كما يسيطر على قلعة هاليكارناسوس، وإذا كنتَ تحضّر لعبور المضائق فإن هذا الزواج قد يشكّل خطوةً استراتيجية مهمة بالنسبة إليك، وعلى الأخص في هذه الفترة التي يوجد فيها التاج الفارسي في أيدي غير أمينة."

"يُحتمل أنك على حق، سينطلق جيشي في غضون أيام قليلة".
"يعطيك هذا سبباً إضافياً للقبول".

"ومن تختار؟".

"حسناً... كنت أفكر في...".

"آرهيداوس، هذا ما يجدر بنا أن نعطيهم إياه. إن ابني آرهيداوس نصف مغفل، ولا يتسبب بأي متاعب، أما إذا لم يتمكن من إتمام واجباته الزوجية فإنني مستعد للاهتمام بالعروس شخصياً، لكن كيف تبدو؟".

تناول إيومينيس صورةً صغيرةً محفورة على لوحة صغيرة داخل الحقيبة، كانت من رسم أحد الرسامين الإغريق من دون شك، ثم عرضها على الملك.

"تبدو جميلة جداً، لكننا لا نستطيع الوثوق بهذه الرسوم لأنك عندما ترى أصحابها على أرض الواقع ستلقى صدمة حياتك...".
"ماذا تريدني أن أفعل؟".

"اكتب إليه، وأخبره أنني تأثرت وتشرفت بهذا العرض. وأتني اخترت الأمير آرهيداوس لهذه الفتاة، وهو شاب جريء في أوقات الحرب، ويتمتع بحساسية كبيرة، وإلى ما هناك من المهرء الذي تبرع في كتابته. ثم بعد ذلك، أحضر إليّ الرسالة كي أوقعها".

قال إيومينيس وهو يسير نحو الباب: "إنه قرار حكيم يا سيدي، سأهتم بالأمر على الفور". وتوقف بعد ذلك، وكأنه تذكر شيئاً شديداً الأهمية بشكل مفاجئ. "أيمكنني أن أطرح سؤالاً يا مولاي؟".
تطلع فيليب نحوه بتشكك ارتسم على وجهه: "سؤال بشأن ماذا؟".

"من سيكون قائد الجيش الذي سترسله إلى آسيا؟".
"آتالوس وبارمينيون...".
"ممتاز، بارمينيون جندي عظيم. لكن آتالوس...".
حدق فيليب إليه مؤشراً:
"أريد أن أقول إن إرسال آتالوس قد يكون في صالح...".
"إذا أضفت كلمة واحدة فسأقطع لسانك".
تابع إيومينيس من دون أن يخشى شيئاً: "حان وقت استدعاء ابنك يا مولاي. هناك أسباب كثيرة ووجيهة لذلك".
صاح فيليب وهو يضرب بقبضته على الطاولة بقوة: "اصمت!".
أحسن إيومينيس وكأن قلبه قد وقع من مكانه، وتأكد من أن ساعته قد دنت، لكنه فكر في أن المتابعة في مثل هذا الوضع اليائس أمر حكيم، حتى ولو تسبب الأمر بموته. "وثانياً، أقول من وجهة نظري شخصية بحتة، إننا قد اشتقنا إلى الفتى كثيراً. وأنت كذلك أكثر من أي شخص آخر يا مولاي".
"إذا قلت كلمة واحدة بعد فسأمر الحرس بسجنك".
"كما أن الإسكندر ذاته يعاني كثيراً من هذا الوضع".
صاح فيليب: "أيها الحراس! أيها الحراس!".
"أؤكد لك أن ما أقوله صحيح. كما أن الأميرة كليوباترا تذرف الدموع على الدوام".

دخل الحراس وسط قرقة أسلحتهم.
"لدي رسالة هنا من الإسكندر، وفيها..."
وقف الحراس على أهبة الاستعداد كي يمسكوه.
من الإسكندر إلى إيومينيس، مرحباً!
أشار فيليب إلى الحراس كي يتوقفوا.
سررت عندما قرأت الأمور التي كتبتها حول والدي؛ أي أنه بخير، ويستعد
للبدء بمهمته الكبرى ضد البرابرة في آسيا.
أصدر الملك إشارةً أخرى، فغادر الحراس الغرفة.
لكن أخبرك هذه جلبت لي حزناً كبيراً.
توقف إيومينيس وتطلّع نحو الملك الذي بدا وكأنه تلقى صدمة
وغرق وسط مشاعر قوية، كما أن عينه الوحيدة السليمة التمعت تحت
جبهته العابسة والتي بدت مثل جمرة متقدة.
قال الملك: "تابع".

كنت أحلم على الدوام أن أتبع والدي في هذه المهمة العظيمة، وأن أسير
بجوادي معه جانباً إلى جانب، وذلك لكي أحاول أن أثبت له كم أنني
أحاول، عبر مسيرة حياتي، أن أكون على مستوى شجاعته وعظمته
بوصفه ملك مقدونيا.

لكنّ الظروف قادتني - لأسفني العظيم - إلى الإقدام على حركة لا يمكن
إصلاحها، كما دفعني الغضب إلى تخطي الحدود التي يجب على كل ابن أن
يحترمها دائماً مع والده.

لكن، لا بد أن القدر هو الذي شاء أن تحدث هذه الأمور. لأنه عندما يفقد
الرجال السيطرة على أفعالهم، فإنهم يقدمون على الأمور التي شاعت لهم
الأقدار أن يقوموا بها.

إن أصدقائي بخير جميعاً، لكنهم مكتئبون مثلي تماماً، بسبب بعد المسافة
التي تفصلنا عن وطننا وأحبائنا الأعزاء، وأنت بينهم أيها العزيز
إيومينيس من دون شك. ساعد الملك بقدر ما تستطيع، لأنني ومع الأسف
لا أستطيع أن أساعده أبداً، وحافظ دوماً على معنوياتك العالية.

وضع إيومينيس الرسالة على الطاولة ونظر نحو فيليب الذي غطى وجهه يديه الاثنتين.

قال بعد فترة صمت: "لقد سمحت لنفسي..."

رفع الملك رأسه فجأة وقال: "بماذا بالضبط سمحت لنفسك؟"
"بتحضير رسالة..."

"بحق زيوس! سأقتل هذا الإغريقي، سأقتله بيدي الاثنتين!"

شعر إيومينيس في تلك اللحظة وكأنه قبطان سفينة كافح لفترة طويلة الأمواج العاتية التي قويت نتيجة العاصفة بعد أن تمزقت أشعرته وتضرر هيكل السفينة، وبدأ يقترب من الميناء، لكن يتوجب على بحارته المتعبين القيام بمجهود جبار. لذا، أخذ نفساً عميقاً، وتناول ورقة أخرى من الرزمة التي يحملها، وبدأ بالقراءة تحت نظرات فيليب المرتابة:

من فيليب، ملك مقدونيا، إلى الإسكندر. تحية وبعد!

إن ما حدث في يوم زفافي تسبب لي بمرارة غير منقطعة. لذلك قررت، بالرغم من الرابطة التي تربطني بك، أن أستبعدك من مجلسي إلى الأبد. لكن الوقت أمهر المعالجين، وهو كفيلاً بتخفيف أشد الآلام.

تأملست لسوقت طويل بما حدث، واقتنعت أنه يتعين على من هم أكبر سناً، ولديهم خبرات أكثر، أن يكونوا قدوة للذين تعميمهم حماسهم. ولذلك، قررت أن أضع حداً للمنفي الذي فرضته عليك.

كما أعلن لك أنني أبطل حكم المنفي على أصدقائك الذين أهتوني كثيراً حين قرروا اللحاق بك.

وأعلن لك أن الرحمة الأبوية هي التي تغلبت على صرامة القاضي والملك. إنني لا أطلب منك في المقابل إلا أن تعبر عن أسفك على غضبك الذي اضطررت إلى تحمكه، وأن تؤكد لي أن محبتك البنوية ستمنع وقوع حادثة مشابهة في المستقبل.

انتبه جيداً لنفسك.

وقف إيومينيس من دون حراك وسط الغرفة، وفغر فاه لأنه لم يعرف في تلك المرحلة ما يجدر به توقعه. لم يقل فيليب أي شيء. كان

من الواضح أنه يسعى إلى السيطرة على توّثره العاطفي الذي يعتمل في نفسه. وفي الواقع، وقف الملك بحيث لم يرَ إيومينيس سوى عينه العمياء والخالية من الدموع.

وفي نهاية الأمر، تجرأ إيومينيس لي طرح سؤالاً:
"ما رأيك يا مولاي؟".

"ما كنت لأكتب رسالةً أفضل منها".

"هل تتلطف في هذه الحالة بتوقيع هذه الرسالة؟".

مدّ فيليب يده، وتناول ريشة القصب، وغطّسها في الحبر، لكنه توقّف بينما اكتفى مساعده بالمراقبة.

"هل هناك من خطأ يا مولاي؟".

قال الملك خلال توقيعه الرسالة: "كلا، كلا". ثمّ قلب الورقة على الفور وراح يجربش بالريشة على الزاوية السفلى منها، تناول إيومينيس الرسالة مجدداً، ونثر عليها الرماد، ثم نفخ الرماد الزائد، وانحنى متوجّهاً نحو الباب بخطوات واسعة وخفيفة خوفاً من أن يغيّر الملك رأيه. ومن خلفه ناداه فيليب: "لحظة واحدة".

هل غيّر الملك رأيه؟

توقّف إيومينيس: "نعم يا مولاي؟".

"إلى أين سترسل هذه الرسالة؟".

"حسناً... تمكنت من الحفاظ على بعض المعارف، ومن تجميع بعض المعلومات بطريقة سرية...".

هزّ فيليب رأسه وقال: "أتعني أنك كنت تتجسس... هذا هو من أذفع إليه كي يهتم بالشؤون الإدارية في قصري. سأقتل هذا الإغريقي عاجلاً أم آجلاً، أقسم بزيوس إنني سأخنق نسمات الحياة فيه بيديّ هاتين!".

تمكن إيومينيس من الانحناء مرة أخرى، وغادر الغرفة. وما إن
أسرع نحو مكتبه حتى نظر إلى الكلمات التي أضافها الملك تحت توقيعهِ.

إذا حاولتَ ذلك مرةً أخرى فسأقتلك فعلاً.

اشتقت إليك.

والدك

تحرك آتالوس وبارمينيون نحو آسيا من دون أن يلقياً أي مقاومة، واستقبلتهما المدن اليونانية الواقعة على الساحل الشرقي بوصفهما محرّرين، كما أقامت هذه المدن التماثيل للملك مقدونيا، وأقامت لهما احتفالات كبيرة.

أثارت الأخبار التي تلقاها فيليب من مخبريه السرور في قلبه، وأدرك أنه لم يكن في إمكانه أن يشن الحملة في وقت أفضل. إذ كانت الإمبراطورية الفارسية لا تزال تعاني من صعوبات بسبب الأزمة التي ألمت بالأسرة المالكة، بينما امتلك فيليب تحت تصرفه جيشاً وطنياً قوياً وموحداً بشجاعته، وولائه، وتمامه، وتصميمه، بالإضافة إلى مجموعة من القادة الذين يتمتعون بأعلى المستويات التكتيكية والاستراتيجية، والذين تخرجوا من كليته الحربية. كما كان لفيليب وريث للعرش تلقى تثقيفاً بحسب مبادئ هوميروس، وهو الذي يكن احتراماً كبيراً لعقلانية الفكر الفلسفي، أي أنه أمير فخور لا يُقهَر.

والآن، حانت اللحظة المناسبة للانطلاق في آخر مغامراته وأعظمها، كان القرار قد أُتخذ وكل شيء جاهزاً. صمّم الملك على إعادة استقبال الإسكندر، وتقوية علاقاته مع مملكة إبيروس من خلال العرس الباذخ الذي لن يُنسى والذي يعترم إقامته لابنته كليوباترا وشقيق زوجته، كما اعترم اللحاق بأسطوله البحري إلى ما يتعدى المضائق استعداداً للقفزة الكبرى.

أحس فيليب بنوع غريب من القلق الذي أبقاه مستيقظاً طوال الليل، وذلك بالرغم من أن كل شيء بدا وكأنه يسير بحسب ما خطط

له، وعلى الأخص بعد أن بعث الإسكندر برسالة قال فيها إنه سيصل إلى بيلا كي يحضر زفاف شقيقته الضخم.

استدعى فيليب في أحد أوائل أيام الربيع إيومينيس، وطلب منه التوجه إلى الإسطبلات ليكون جاهزاً لنزهة على صهوة أحد الجياد، وذلك لأنه يود أن يناقش معه بعض الأمور. كان ذلك طلباً استثنائياً، لكنّ مساعده وافق على الفكرة، فارتدى سروالاً من صنع تراقيا، وسترة طويلة من صنع سكاثيا، وانتعل حذاءً ثقيلاً، واعتمر قبعة ذات حواف واسعة. وأمر المساعد المرافق بتجهيز بغل مسن، وهادئ يسهل امتطاؤه، واستعدّ قابلاً في انتظار وصول فيليب.

تطلع الملك نحوه بسخرية وقال: "إلى أين تظن نفسك ذاهباً؟ هل ستقهر سكاثيا؟".

"أعطاني خادمي بعض النصائح يا مولاي".

"أجل، لاحظتُ ذلك. هيا بنا، دعنا نطلق". دفع الملك جواده فانطلق بقفزة كبيرة، واختفى في الطريق المؤدي إلى المدينة. كان الفلاحون في حقولهم يحصدون القمح والدّخن، ويهتمون بكروم العنب.

صاح الملك عندما هدأ من سرعة جواده إلى درجة السير العادي: "انظر حولك! انظر حولك! تمكنت في جيل واحد من تحويل هؤلاء السكان الجبلين الذين كانوا شبه برابرة، والذين كانوا رعاة بالأساس، إلى أمة من المزارعين الذين يعيشون في المدن والقرى، ويتمتعون بإدارات منظمة وكفوءة. منحتهم فخر الانتماء إلى بلدهم، وقمت بصياغتهم مثلما يصوغ الحداد معادنه، وجعلت منهم محاربين لا يُقهرون. أنكرني الإسكندر لأنني ثلثت، واقتمني أني عاجز عن القفز بين سرير وآخر...".

"كفّ عن القلق من هذا الأمر يا مولاي، لأنكما عانيتما أنتما الاثنين. صحيح أن الإسكندر قال بعض الأمور التي كان يجدر به ألا يقولها، لكنه عوقب بسببها. أنت ملك عظيم، بل أعظم الملوك، وهو يعرف ذلك كما يفخر بهذا الواقع، أؤكد لك ذلك".

صمت فيليب ومضى بالسير، لكنه ترجّل عن جواده عندما وصل إلى جدول كانت مياهه العذبة والباردة تسيل من أعالي الجبل، وجلس على صخرة منتظراً وصول إيومينيس.

أعلن الملك أمام مساعده: "سأسافر لبعض الوقت".
"أتسافر؟ لكن إلى أين؟".

"لن يعود الإسكندر قبل عشرين يوماً أو نحوها، لذلك أريد أن أذهب إلى دلفي".

"كلا... ابتعد عن ذلك المكان يا مولاي، لأنهم سيجرّونك إلى حرب مبجلة أخرى".

"لن تنشأ بعد اليوم حروب في اليونان طالما أنا حي. سواء أكانت مبجلة أم غير مبجلة. ولا أنوي التوجه إلى مجلس المعبد، لأنني سأقصد المعبد ذاته".

كرّر إيومينيس بدهشة: "إلى المعبد؟ لكن المعبد تحت سيطرتك يا مولاي، يقول الضالع ما تريده أن يقوله".
"أعتقد هذا؟".

بدأت الحرارة تزايد في ذلك الحين، فما كان من إيومينيس إلا أن خلع سترته، وغطّس منديلاً في المياه ومسح جبهته.

"أنا لا أفهمك، لأنك من بين كل الناس تطرح عليّ هذا السؤال بعد أن لمست مناورة المجلس والتي تتلخص في إملائه رغباته على الضالع، بحيث يقول السيد الأشياء التي تعزز سياسة معينة، أو تحالفاً عسكرياً معيناً".

"هذا صحيح، ومع ذلك فإن السيد يتمكّن في بعض الأحيان من قول الحقيقة، بالرغم من زيف الرجال الذين يخدمونه وعدم حيائهم، إنني متأكد من ذلك". وضع ذراعيه فوق ركبتيه، وأخفض رأسه، ثم أصرغى إلى خرير مياه النبع.

بقي إيومينيس صامتاً، ماذا يعني الملك بكلامه هذا؟ ماذا يأمل الرجل الذي عاش حياته في بحبوحة، والذي لمس الحقد الإنساني الذي ظهر أنواع الفساد والازدواجية، والذي لمس الحقد الإنساني الذي ظهر في كل أنواع الأعمال الوحشية، ماذا يأمل هذا الإنسان الذي عانى من الجروح والسندوب المرئية منها وغير المرئية أن يجد في وادي دلفي؟

سأل الملك: "هل تعرف ما نُقش على واجهة المعبد؟".

"أعرف ذلك، نُقش: اعرف نفسك".

"وهل تعرف من الذي كتب تلك الجملة؟".

"هل هو السيد المبجل؟".

أوماً فيليب.

قال إيومينيس حتى من دون أن يفهم: "فهمت".

"سأنطلق غداً. تركت تعليماتي والختم الملكي مع أنتيباتر، أريدك أن تشرف على ترتيب جناح الإسكندر، وأن تأمر بتنظيف كلبه وإسطنبول بوسيفالاس، وأن تلمّع درعه، وتؤكد من قيام ليبتين بواجبها المعتاد في ترتيب سرير ابني وحمامه. يتعيّن أن يكون كل شيء كما كان عندما غادر القصر. لكن، لا أريد احتفالات ولا مآدب، إذ ليس لدينا سبب يدعونا إلى الاحتفال، لأننا حزينان".

أوماً إيومينيس: "لا تقلق يا مولاي، سأهتم بكل شيء طلبته مني، وبأفضل طريقة ممكنة".

راح فيليب يتمتم: "أعرف ذلك". ربّت على كتف مساعده قبل قفزه إلى صهوة جواده، واختفائه عن الأنظار بوثة واحدة.

*

غادر الملك في اليوم التالي عند الفجر برفقة موكب صغير، وتبع الطريق المتجه جنوباً، ثم عبر سهل مقدونيا قبل دخوله أراضي تساليا. ووصل إلى دلفي من جهة فوكيس بعد رحلة استغرقت سبعة أيام، فوجد المدينة مكتظة بالزوار المريدين، أي كما هي على الدوام.

كان الزوار المريدون يأتون من مختلف أنحاء العالم، وحتى من صقلية، وخليج الأدرياتيك حيث تقع مدينة سينا على جزيرة وسط البحر. توزعت على طول الطريق المؤدي إلى المعبد معابد صغيرة عدة بنيتها مختلف المدن اليونانية وكانت مخصصة لأبولو، وكلها مزينة بالتماثيل والمنحوتات التي كانت توضع في الباحة الأمامية للمعبد، أو إلى جانب الباحة حيث كانت توضع مجموعات فريدة من التماثيل البرونزية، أو لوحات من الرسوم الرخامية.

كما تواجدت في ذلك المكان أكشاك عديدة مليئة بسلع كثيرة، مثل الحيوانات التي تقدّم كأضحية، و تماثيل من كل القياسات مكرسة للمعبد، ونسخ من البرونز أو من الطين تمثل السيد المبجل داخل المعبد، أو التماثيل الأصلية الأخرى الموجودة في الجوار.

وإلى جانب المعبد كانت هناك قاعدة ثلاثية ضخمة لتمثال السيد المبجل مزود بوعاء من البرونز يستند إلى ثلاثة ثعابين ملتفة، وكلها مصنوعة من البرونز كذلك، وهو المعدن الذي صُهر من الأسلحة التي غنمها الأثينيون من الفرس في معركة بلاتيا.

انضمّ فيليب إلى صف المرشحين للدخول في سلك الكهنة الذين يغطون رؤوسهم بقبعات معطفهم. ولكن، كان من المستحيل إخفاء

أي شيء عن كهنة أبولو. إذ، لم يتأخر الخبر عن الانتقال من فمٍ إلى فمٍ، أي من الخدم إلى كهنة الطائفة الذين كانوا متوارين في الظلمة المخيَّمة داخل المعبد، وهو المكان السري فيه.

أعلن أحد تابعي الطائفة من الشبان بصوتٍ مخنوق: "إن ملك مقدونيا، رئيس مجلس المعبد، موجود هنا".

سأله أحد الكهنة الذي كان موجَّهاً في ذلك اليوم القيام بمهمات المراسم الدينية، وعمهمة الضالع: "هل أنت متأكد من ذلك؟".

"ليس من السهل الخلط بين فيليب المقدوني وأي رجلٍ آخر".
"وماذا يريد؟".

"إنه يقف في صف التلامذة الجدد، ويريد أن يسأل السيد المبجل".

تنهَّد الكاهن وقال أمراً: "غير معقول، لماذا لم نعرف مسبقاً؟ لا يمكننا أن تُفاجأ بطلب من هذا الرجل القوي... تحرَّك بسرعة! ضع شارات مجلس المعبد، وأحضِرْه إلَيَّ على الفور، إن المنتصر في الحرب المبجلة، والرئيس الأعلى للمجلس، يتمتع بأسبقية قصوى هنا".

اختفى الشاب من خلال بابٍ جانبي صغير، فيما وضع الكاهن ردائه، وربط الأربطة المبجلة حول رأسه، وترك الأربطة تتدلى فوق كتفيه، ثم ما لبث أن دخل المعبد.

كان أبولو هناك قبله جالساً على عرشه، وظهر وجهه ويداه المصنوعة من العاج، والتاج الفضي الذي يمثل أوراق الغار فوق رأسه، بينما كانت عيناه من اللؤلؤ. وبانت ملامح الدهشة في وجه ذلك التمثال الضخم، بالإضافة إلى ثبات النظرة الشاردة، بينما انفرجت شفثاه قليلاً عن ابتسامة غامضة، والتي تكون ساهرة في بعض الأحيان. اشتعلت مبخرة موضوعة عند قاعدة التمثال، وتساعد دخان البخور

الذي شكّل سحابة زرقاء وصلت إلى فتحة متواجدة بين العوارض الخشبية في السقف، والتي يُمكن أن يرى المرء من خلالها جزءاً صغيراً من السماء.

دخلت حزمة من الضوء من خلال المدخل، وهكذا شكّلت فاصلاً بين الظلمة المخيمة داخل المعبد، كما انعكست على الرسوم المزخرفة التي تزّين الأعمدة الدورية، وأضاءت عدداً لا يحصى من ذرات الغبار المعلقة في الهواء الكثيف والثقيل.

وقف شخص ضخم على نحو مفاجئ عند الباب، وامتد ظلّه الطويل، وكاد يصل إلى قدمي الكاهن. ثمّ تقدّم ذلك الشخص نحو تمثال السيد المبجل، وترددت أصدااء خطواته العرجاء التي أحدثها حذاؤه ذو الكعبين السميكين وسط جدران المعبد، وهي الأصدااء التي خرقت أجواء الصمت المخيم على المعبد.

توجّه الكاهن نحوه، وعرف أنه ملك مقدونيا، فسأل بصوت يفيض بالتبجيل: "ما رغباتك يا مولاي؟".

رفع فيليب بصره نحو النظرة المهيبة للتمثال الذي امتد أمامه، وقال: "أريد أن أسال السيد المبجل".
"وما سؤالك؟".

تطلع فيليب نحو الكاهن بعينه المبصرة، وبنظرة لا بد وأنها اخترقت روحه.

"أريد أن أطرح سؤالاً على بيثيا مباشرة، خذني إليها".
أخفض الكاهن رأسه نتيجة الحيرة، وفوجئ بهذا الطلب الذي يستحيل رفضه.

"هل أنت متأكد من أنك ترغب في تعريض نفسك مباشرة لصوت أبولو؟ إن عدد الأشخاص الذين لم يتمكنوا من تحمل هذه

التجربة كبير جداً، يمكن لهذا الصوت أن يكون أشد حدةً من بوقٍ حربي، وأقوى من الرعد...".

أجاب فيليب بشكلٍ صارم: "يمكنني أن أتحمله، خذني إلى بيثيا".
أجاب الكاهن: "كما تريد". تحرك نحو المثلث البرونزي المتدلي من عمود وضربه بعصاه، ترددت أصداء الصوت الرئان عبر الجدران، وتمازجت هذه الأصداء حتى وصلت إلى المكان الأكثر تبجيراً في المبد كله، أي *adyton*. ثم قال عندما تلاشى الصوت وبدأ بالمشي: "اتبعني".

سارا وراء قاعدة التمثال وتوقفا أمام صفيحة معدنية تغطي الجدار الخلفي للحجرة. ضرب الكاهن بعصاه فتسبب بحدوث ترددات عميقة. لكن بدا أن مساحات سفلية غير مرئية قد امتصتها. وعادت الصفيحة البرونزية إلى الصمت، وما لبث أن ظهر درج ضيق يهبط بانحدارٍ شديد إلى الطبقة السفلية.

قال الكاهن من دون أن يلتفت: "لم يسبق لأحد، من الجيل الحالي بالطبع، أن دخل هنا". نزل فيليب ذلك الدرج الضيق وغير المنتظم إلى أن أصبح في مركز الغرفة السرية التي يضيئها عدد قليل من المشاعل الخافتة.

في تلك اللحظة، دخلت امرأة غامضة تغطي نفسها بعباءة طويلة حمراء اللون تصل إلى قدميها. كان وجهها شاحباً جداً، وكانت عيناها المتماثلتان تتحركان بسرعة ومليئتين بالشكوك، أي مثل طريدة وقعت في شرك الصيد. كانت المرأة تمشي بمساعدة كاهنين. حتى إنَّهما كادا يحمالها نحو نوع من وعاء مستند على قاعدة ثلاثية، فوضعها داخله. جهدا بعد ذلك كي يفتحا كوةً حجرية في أرض الحجرة، فانكشفت فوهة هاوية تصاعدت منها أبخرة كثيفة.

قال الكاهن بصوت مرتعش، ولكن من دون تظاهر هذه المرة، بل برعب حقيقي: "هذه هي الهوة، إنها ينبوع الليل، أو آخر فوهة من الفوضى البدائية، لا أحد يعرف أين تنتهي، كما أن كل الذين نزلوا لم يعودوا أبداً". تناول حصاةً من أرض الكهف ورمها في الفتحة، فلم يُسمع أي صوت على الإطلاق.

"إن السيد المبحل على وشك اختراق جسد بيثيا، إنه على وشك أن يملأها بوجوده، راقب".

تنفست الضالعة الأبخرة التي فاحت من الهوة، وراحت أنفاسها تأتي على شكل نوبات وتشنجات عذبت جسدتها. وفي اللحظة التي تلوّت فيها داخل الوعاء وسمحت لذراعيها وساقها بالتدلي بكل حرية ظهر بياض عينيها، وبدأت ترتعش متألمة على نحو مفاجئ، وما لبثت أن أصدرت صوتاً يشبه الخشخشة التي أصبحت أشد حدة أكثر فأكثر حتى أصبحت أشبه بفحيح أفعى. فوضع أحد الكهنة يده على صدرها، وأوماً إلى الكاهن الذي يجاوره.

قال الكاهن بصوت هادئ: "يمكنك أن تسأل السيد المبحل الآن أيها الملك فيليب".

تحرك فيليب إلى الأمام حتى كاد أن يلامس يد بيثيا.

"أيها السيد المبحل، إننا نحضّر لطقوس مهية في قصري، كما أنني على وشك أن أنتقم بسبب كل الأضرار التي أحدثتها البرابرة ذات مرة في معابد الأسياء المبحلة الموجودة في بلادنا. لكن قلبي مثقل، ونومي مضطرب بالكوابيس، ما هو علاج قلقي الذي أشعر به؟".

أصدرت بيثيا أنف طويلة، ثم رفعت جسدتها ببطء، إلى أن لامس رأسها حافة الوعاء، وبدأت بالكلام، لكن بصوت غريب ومرتعش ورتان:

"النور مكلل،

وكل شيء معدّ سلفاً،

وجاهز هو الرجل الذي سيضربه" (*).

وسقطت بعد أن تلفظت بهذه الكلمات متراجعة إلى الخلف،

وبدت ساكنة وهامدة مثل جسد ميت.

تطلع فيليب نحوها بصمتٍ للحظة، ثم استدار نحو الدرج، واختفى

وسط النور الشاحب المتسلل من الأعلى.

(*) ديودوروس سيكولوس XV 91.2.

وصل المبعوث عند منتصف الليل وترجّل عن صهوة جواده الذي كان يعدو أمام منزل الحارس، وما لبث أن سلّم جواده الذي يتصبّب عرقاً، حتى من جانبيه، إلى أحد المساعدين.

نَهَضَ إيومينيس على الفور، وهو الذي تعود على النوم الخفيف، وألقى رداءً فوق كتفيه، ثم حمل مشعلاً وهبط الدرج كي يلتقيه. ما إن رآه يدخل تحت الرواق المعمّد، حتى قاده نحو مستودع الأسلحة، وأمره بالقول: "تعال، أين الملك الآن؟" تبعه الرجل الذي كان لا يزال يلهث.

"إنه على بُعد مسيرة يومٍ من هنا لا أكثر، تعرف أنني لا أضيّع أي وقتٍ في رحلتي هذه".

قاطعه إيومينيس بينما كان يفتح باباً صغيراً مغلقاً بالحديد: "حسناً، حسناً، تعال إلى هنا. لا يستطيع أحد أن يزعجنا في هذا المكان".

كانا في قاعة كبيرة وخالية من الأثاث؛ تُستخدم كمستودع للأسلحة التي تحتاج إلى إصلاح. ظهر مقعدان، حول قرمة خشبية تُستخدم كسندان، ناول إيومينيس أحد المقعدين إلى رفيقه وجلس على الآخر.

"وماذا اكتشفت؟".

"لم يكن الأمر سهلاً. كما أنني دفعت الكثير لأنني اضطررت إلى رشوة اثنين من الكهنة الذين يستطيعون دخول المكان المبحّل adyton".

"إذا؟".

"فوجئوا بوصول الملك فيليب، وكاد ينجح في التخفي، حتى إنه وقف في الصف مع التلامذة الجدد إلى أن تعرّف عليه أحدهم، فنقل بعد ذلك إلى المكان المبجل على الفور. حاول الكهنة معرفة السؤال الذي ينوي طرحه عندما علموا برغبته، وذلك كي يهيئوا له الجواب المناسب".

"إنه إجراء طبيعي".

"بالفعل، لكن الملك رفض. أراد الملك أن يستشير بيثيا مباشرة، لذلك رغب في أن يتوجهوا به إلى المكان المبجل adyton".
غطّى إيومينيس وجهه بيديه: "أوه! يا زيوس العظيم!".

"لم يمتلك الكاهن المكلف بإقامة الطقوس في ذلك اليوم الوقت الكافي كي يُعلم المجلس، لذلك لم يكن لديه خيار آخر غير الرضوخ لطلبه. رافق الكهنة فيليب إلى المكان المبجل وسرعان ما طرح سؤاله على بيثيا ما إن دخلت في حالتها المنتشية".

"هل أنت متأكد من ذلك؟".

"أنا متأكد جداً".

"وماذا كان ردّها؟".

"الثور مكلل، وكل شيء معدّ سلفاً، وجاهز هو الرجل الذي سيضربه".

تلبدت ملامح وجه إيومينيس، وسأل: "ألم تقل شيئاً آخر؟".
تناول إيومينيس من عباءته محفظة مليئة بالمال وناولها إلى مخبره.
"هذا ما وعدتك به، لكنني متأكد من أنك احتفظت بما تبقى من المال بعد أن دفعتَ إلى الكاهنين".
"لكنني...".

"انس الأمر، لا أعرف كيف تسير الأمور. لكن، تذكر أنك إذا ما تلفظت حتى بكلمة واحدة عن هذا الموضوع، وحتى لو اضطرت اضطراباً إلى التحدث عن هذا الموضوع مع أي شخص، فكن متأكداً من أنك ستندم لأن أملك ولدتك".

تناول الرجل المال، وراح يقسم ويعد بأنه لن يتحدث أبداً مع أحد حول هذا الموضوع، ثم غادر المكان.

بقي إيومينيس وحيداً في تلك القاعة الكبيرة والباردة التي ينيرها مشعل واحد، وراح يفكر طويلاً في تفسير ما لجواب بيثيا، والذي يمكن أن يكون بشيراً مناسباً للملكه. ثم غادر القاعة بعد ذلك وعاد إلى غرفة نومه، لكنه لم يتمكن من الاستسلام للنوم مجدداً.

*

وفي اليوم التالي، وصل فيليب إلى القصر وفي وقت متأخر من المساء. تظاهر إيومينيس أنه يحمل بعض الوثائق التي تحتاج إلى توقيع، وذلك من أجل أن يضمن لقاء الملك.

فسأله بينما كان يناوله بعض الأوراق واحدة تلو الأخرى: "أيمكنني أن أسألك عن نتائج زيارتك يا مولاي؟".

رفع فيليب رأسه والتفت نحوه: "أراهن بعشر تالنتات (قطع نقدية) فضية مقابل لا شيء على أنك تعرف الجواب مسبقاً".

"أنا يا مولاي؟ أوه، كلا، لست ذكياً إلى هذا الحد. كلا، إن هذه أمور حساسة، ولا مجال للمزاح فيها".

مد فيليب يده اليسرى ليتناول ورقة أخرى ثم ختمها.

"الثور مكلل، وكل شيء معدّ سلفاً، وجاهز هو الرجل الذي سيضربه".

"هل كان ذلك هو الجواب يا مولاي؟ لكنه جواب استثنائي، ورائع! وفي هذا الوقت الذي تخطط فيه للتحرك نحو آسيا! لم يمض وقت طويل على تنويع ملك فارس الجديد، وما هو شعار برسيبوليس العاصمة؟ الثور، الثور المجنح، لا شك في ذلك، إنه ذلك الثور. إذًا، اقتربت نهايته لأن الرجل الذي سيضربه أصبح جاهزًا، رأت بيثيا انتصارك الوشيك على الإمبراطورية الفارسية.

أتريدي يا مولاي أن أحيرك بما أفكر فيه بالفعل؟ يصعب عليّ أن أصدّق هذه الأخبار، إنني أخشى هؤلاء الكهنة لأنهم محتالون في الواقع، ولا بد من أنهم قد أعطوك جواباً مفصلاً، أي كما تريده أنت. ومع هذا، يبقى ذلك فالاً حسناً، ألا تظن ذلك؟".

"لم يلفقوا شيئاً، لأنني وصلت فجأة، وأمسكت بياقة كاهن الطائفة، وأرغمته على فتح المكان المبجل adyton ورأيت بيثيا. كانت في حالة اللاوعي، ورأيت بياض عينيها، والزبد الذي يطفو على فمها وهي تتنفس الأبخرة المتصاعدة من الهوة chasma".

أوماً إيومينيس مرات عدة: "بالتأكيد... إنها خدعة سريعة وخاطفة لكنها جديرة بك، أفضل على كل حال أن يكون الجواب حقيقياً".

"بالضبط".

"سيحضر الإسكندر في غضون أيام قليلة".

"جيد".

"هل ستوجه لاستقباله عند الحدود القديمة؟".

"كلا، سأنتظره هنا".

"أيمكنني أن أذهب مع كاليستين لاستقباله؟".

"أجل، بالطبع".

"لعلني أستطيع أن أصطحب معي فيلوتاس مع عددٍ من الحراس، أعني لنكون نوعاً من حرس الشرف..."
وافق فيليب.

قال إيومينيس وهو يجمع وثائقه ويتجهز للمغادرة: "جيد يا مولاي. حسناً، سأنصرف إذا لم يكن هناك أي شيء آخر."
"أتعلم الاسم الذي كان جنودي ينادوني به عندما كنت شاباً، وعندما كنت أصطحب امرأتين في ليلة واحدة؟".
التفت إيومينيس ليستطلع نظرة فيليب المنكسرة.
"تعودوا على منادائي الثور".

تخير إيومينيس ثماً عساه يقوله، ثم توجه نحو الباب، وخرج بعد أن انحنى على عجل.

*

وصلت فرقة الاستقبال المرحبة إلى بيرويا حيث عبروا الحدود القديمة لمملكة إمينتاس الأول. أشار إيومينيس إلى الآخرين أن يتوقفوا عند وصولهم قرب معبر هاليكامون، لأن الإسكندر وفرقته كانوا مضطرين إلى عبور النهر عند هذه النقطة.

ترجّل الجميع، وتركوا جيادهم لترعى العشب. تناول بعض المرافقين قِرب مياههم كي يرووا ظمأهم، بينما فضل آخرون تناول الخبز والحب والزيتون والتين المجفف من حقائبهم، ثم جلسوا على الأرض لياكلوا، فيما أرسل أحد الرجال كي يصعد إلى أعلى تلة مجاورة وينتظر ظهور الإسكندر.

أمضوا هناك ساعات عدة بينما بدأت الشمس رحلة انحدارها نحو الأفق، واقتربت من جبال بندوس، لكن لم تظهر أي دلائل تشير إلى حدوث أي شيء.

قال كاليستين: "إنه طريق رهيب صدّقوني، وهي تكتظ بقطاع الطرقات، ولن أفاجأ إذا...".

صاح فيلوتاس: "أوه، قطاع الطرقات. لكنّ تلك الجماعة تأكل قطاع الطرقات على الفطور، صمدت الجماعة خلال الشتاء في جبال إيليريا، أتعرفون ماذا يعني ذلك؟".

لكن إيومينيس كان يتطلع نحو التلة ونحو الحارس الذي بدأ بالتلويح بقطعة قماش حمراء.

أعلن بصوت أقرب إلى الهمس: "إنهم في طريقهم نحونا".
أطلق الحارس بعد فترة قصيرة سهماً وقع على مسافة قريبة منهم.

أعلن المساعد: "يعني ذلك أنهم موجودون جميعاً، أي أنهم لم يفقدوا أحداً". لكنه قال ذلك وكأنه لا يصدّق ما يقوله بالفعل، نزل الحارس في هذه الأثناء من موقعه في أعلى التلة.

قال فيلوتاس آمراً: "يا رجال! إلى صهوات جيادكم". قفز الرجال البالغ عددهم اثني عشر رجلاً إلى صهوات جيادهم، ونظّموا أنفسهم بحاذاة الطريق ممسكين رماحهم بأيديهم. بدأ إيومينيس وكاليستين يسيران من دون جواديهما، فيما كان الإسكندر وفرقة يظهرون على منحدر التلة.

تقدم الثمانية جنباً إلى جنب بينما كانت أشعة الشمس تغيب من ورائهم فأحاطتهم بهالة من الأنوار الأرجوانية، وظهرت مثل سحابة مزخرفة. وتسبّب بعد المسافة، وقرقة خطواتهم، وسط الغبار الذي يتوهج بالضوء في تكوين تأثير بصري غريب. إذ ظهرت المجموعة وكأنها تطير فوق سحابة معلقة في الهواء، وكأنها أتت من زمنٍ آخر، ومن مكانٍ عجيبٍ وبعيدٍ جداً، أي من أقاصي الأرض.

وصلت المجموعة التي كانت تسير بأقصى سرعتها إلى ضفة النهر، وأسرع أفرادها إلى الارتقاء فوق المعبر، وكأنهم لم يعودوا يطيقون الانفصال عن أرض موطنهم ولو للحظة إضافية واحدة. وكوّنت حوافر الجياد رذاذاً ملوناً بألوان قوس قزح بسبب الجريان السريع لمياه النهر، وأشعة تلك الكرة الغاربة والهابطة نحو الأفق.

مرر إيومينيس ذراع سترته فوق عينيه، ونفخ الهواء خارج أنفه بصوت مسموع، كان صوته مرتعشاً عندما قال: "بحق الأسياد في الأعالى... إنهم هم... إنهم هم".

ظهر شخص ذو شعر ذهبي طويل، يلتمع على درعه النحاسي، ثم قفز من الماء وسط الرذاذ والزبد المتطايرين، تاركاً المجموعة وراءه، وما لبث أن قفز قفزةً خطيرة كي يصل إلى صهوة جواد قوي الحوافر بحيث جعل الأرض تهتز من تحته.

صاح فيلوتاس: "أيها الحراس... انتباه!" فاصطف اثنا عشر محارباً في الجانب الآخر رافعين رؤوسهم، وظهورهم مستقيمة بينما توجهت أسنة رماحهم نحو السماء.

لم يستطع إيومينيس السيطرة على عواطفه. فقال وهو يتلثم بفعل دموعه: "الإسكندر... لقد عاد الإسكندر".

رافق إيومينيس وكالستين الإسكندر طوال الطريق حتى وصلوا إلى عتبة غرفة الملك الخاصة، فطرق إيومينيس الباب، وعندما سمع صوت فيليب يدعو ابنه إلى الدخول وضع يده على كتف صاحبه، وقال بلهجة فيها شيء من الخجل: "لا تتفاجأ إذا ذكر لك والدك شيئاً عن رسالة كتبته أنت وأرسلتها إليّ، سمحت لنفسى أن أقوم بالخطوة الأولى نيابة عنك، وإلا لكنت لا تزال على منحدرات الجبال المغطاة بالثلوج".

تطلع الإسكندر نحوه بذهول، لكنه استوعب أخيراً حقيقة ما حدث. لكن كل ما أراده في تلك اللحظة هو دخول غرفة والده، وهذا ما فعله بالضبط.

وجد والده أمامه، ولاحظ أنه تقدّم بالسّن كثيراً. وبالرغم من أن فترة نفيه كانت أقل من سنة بقليل إلا أن التجاعيد التي ظهرت على جبهة فيليب بدت له أعمق بكثير، كما لاحظ أن شعره قد شاب قبل الأوان.

تكلّم الإسكندر أولاً: "إنني مسرور لأنك بصحة جيدة يا والدي".

أجاب فيليب: "وأنت أيضاً تبدو أكثر شباباً، كما أنني مسرور بعودتك، هل أصدقاؤك بخير؟".

"أجل، إنهم بخير جميعاً".

"اجلس".

أطاع الإسكندر أمر والده الذي تناول إناءً وكوبين: "أتريد بعض الشراب؟".

"أجل، شكراً لك".

اقترب فيليب من ابنه حتى أصبح الإسكندر وجهاً لوجه أمام والده، ورأى عين والده الجامدة، وأدرك أنه لم يعد هناك من شك في علامات التعب الظاهرة على جبهته.

"بصحتك يا والدي، ونخب المهمة العسكرية التي بدأتها في آسيا. سمعت عن التوقع العظيم لبثيا في دلفي".

أوماً فيليب وجرع بعض الشراب.

"كيف هي والدتك؟".

"كانت بخير في آخر مرة رأيته فيها".

"هل ستحضر زفاف كليوباترا".

"آمل ذلك".

"وأنا أيضاً".

لبثا فترةً يحذقان إلى بعضهما بعضاً بصمت، وشعر كلاهما برغبة قوية في إطلاق العنان لمشاعرهما، لكنهما كانا رجلين ازدادت صلابتهما بفعل الألم والاستياء، وبفعل لحظة الغضب التي انتهت الآن، لكنها بقيت حية بمرارة. أدرك الوالد وابنه في تلك اللحظة بالذات أنهما كادا يصلان بالصدام إلى حد إهراق أحدهما دم الآخر.

كسر فيليب الصمت المخيم عندما قال فجأة: "اذهب وسلّم على كليوباترا، لأنها اشتاقت إليك كثيراً".

أوماً الإسكندر وغادر الغرفة.

تمركز إيومينيس وكالستين في نهاية الرواق منتظرين تفجر العنف أو السرور، لكن الصمت المصطنع تركهما في حيرة.

سأل كاليستين: "ما رأيك؟".

"قال لي الملك لا أريد احتفالات ولا مآدب، لأنه لا وجود لشيء
نحتفل به ونحن مكبلان بالحزن. هذا ما قاله لي".

سار الإسكندر عبر القصر، وكأنه يسير في حلم. ابتسم الجميع
وأومأوا إليه. ولكن، لم يجرؤ أحد على الاقتراب منه والتحدث معه.
تناهى إلى الأسماك، على نحو مفاجئ، صوت نباح عال من الباحة
الكبرى، وما لبث بيريتاس أن اندفع إلى الرواق الداخلي وكأنه غضبٌ
انطلق من عقاله، وثب على الإسكندر وكاد يرميه على الأرض، ثم
تابع النباح وإحداث الضجيج.

تأثر الأمير الشاب بعرض العاطفة الذي بدر من الحيوان، وكان
تعاطفاً علنياً وحامساً أمام الجميع. ربّت الإسكندر على ظهره لفترةٍ
طويلة، وراح يحكّ له أذنيه ويحاول تهدئته، وخطر في ذهنه أن آرغوس،
وهو كلب يوليسيس (عوليس)، كان الوحيد الذي تعرّف على البطل
عند عودته بعد سنين عديدة من غيابه، وشعر الإسكندر أن عينيه قد
اغرورقتا بالدمع.

فتحت شقيقته ذراعيها كي تعانقه، وراحت تبكي وتذرف
الدموع بغزارة، وذلك ما إن رآته عند باب غرفتها.

تمتم الإسكندر وهو يضمّها إلى صدره: "صغيرتي...".

راحت الفتاة تتهد وتقول: "بكيتُ كثيراً... بكيت كثيراً...".

"يكفي الآن، لقد عدت. وحتى إنني أشعر بالجوع، كما آمل أن
تستبقيني لتناول العشاء معك".

صاحت كليوباترا وهي تكفكف دموعها: "بكل تأكيد! تعال".

أجلسته، ثم أعطت أوامرها بمدّ المائدة على الفور، كما أمرت
بإحضار حوض كي يغسل شقيقها يديه، وذراعيه، وقدميه.

وسألته عندما شرعا في الأكل: "هل ستحضر والدي زفافي؟".
"أمل ذلك، ستتزوج ابنتها من شقيقها، لذلك لا بد أن تحضر،
يُحتمل أن يسرّ والدي لقدومها".

تشجعت كليوباترا، فتحدثا عن كل ما جرى معهما طوال مدة
فراقهما عن بعضهما. كانت الأميرة ترتعش كلما ذكر لها شقيقها
مغامرة مثيرة، أو مطاردة خطيرة عبر الوديان الضيقة، أو في جبل إيليريا.
كان الإسكندر يقطع روايته لهذه المغامرات بين الحين والآخر كي
يسألها عن أحوالها، وعن الملابس التي سترتديها يوم الزفاف، وعما
ستكون عليه حياتها في قصر بوثروتوم. كان يجلس بهدوء في أحيان
أخرى راسماً ابتسامة لطيفة، أو حسب طريقته الفريدة في إسناد رأسه
إلى كتفه اليمنى.

قال عند مرحلة معينة بعد أن استغرق بأفكار جدية: "يا
ليبرديكاس المسكين، كان يحبك بشكلٍ يائسٍ، وعندما علم بشأن
زواجك استسلم لليأس".
"آسفة، إنه شاب رائع ووسيم".

"إنه أكثر من وسيم، لأنه سيكون يوماً ما أحد أفضل قادة
مقدونيا، هذا إذا كنت أعرف رجالي جيداً. لكن، لا يمكننا فعل أي
شيء بهذا الخصوص، لأن لكل شخص قدراً مكتوباً".
أومأت كليوباترا وقالت: "هكذا بالضبط".

خيم صمتٌ مفاجئ على الشابين اللذين كانا يضحكان معاً بعد
غيابٍ طويلٍ عن بعضهما، وجلس كل واحدٍ منهما يصغي إلى صوت
مشاعره.

استأنف الإسكندر الحديث من جديد: "إنني متأكد من أنك
ستكونين سعيدة مع زوجك، إنه ذكي وشاب وشجاع. يستطيع أن

يحلم، وستكونين بالنسبة إليه مثل وردة قلبها الندى، وكابتسامة الربيع.
إنك مثل لؤلؤة مثبتة في إناء من الذهب".

تطلعت إليه كليوباترا بعينين مليئتين بالدموع: "أهذا ما تعتقده
بشأني يا شقيقي؟".

"أجل، وأنا متأكد من أن ذلك يجب أن يكون موقفك". طبع قبلة
على خدّها، ثم غادر الغرفة. كان الوقت متأخراً عندما عاد إلى غرفته
للمرة الأولى منذ سنة، وشم رائحة الزهور التي زينت الغرفة، ورائحة
حمامه المعطر.

نشرت المشاعل أضواءً دافئة ومركزة. رأى حفاّفته، ومشطه،
مرتبتين ومصفوفين إلى جانب حافة حوض الاستحمام، بينما كانت
ليبتين جالسةً على مقعد مرتدية سترة قصيرة.

ركضت نحوه ما إن دخل، وجثت أمام قدميه، واحتضنت
ركبتيه، ثم أمطرتكما بالقبلات والدموع.

سألها الإسكندر: "ألا تريدان مساعدتي على الاستحمام؟".

"أجل... أجل بالطبع يا مولاي، وعلى الفور".

ساعدته على خلع ثيابه، وانتظرت إلى أن وقف في الحوض الكبير،
ثم بدأت تفركه بالإسفنجة بلطف، ثم غسلت شعره المنسدل والناعم،
وجفّفته، وبعد ذلك سكبت فوق رأسه زيتاً ثميناً أحضره من بلاد
العرب البعيدة.

وما إن خرج من تحت الماء حتى غطّته بمنشفة وساعدته على
الاستلقاء في سريره، ثم مسّده لفترة طويلة كي تريح أطرافه، لكنها لم
تستخدم العطور، لأنه ما من عطر يفوق رائحة جلده الطبيعية جمالاً
ولطفاً. وعندما شعرت أنه بدأ يستسلم للنوم استلقت إلى جانبه،
وراحت تنثر قبلاّتها في أنحاء جسمه كافة.

أنجبت يوريديس في نهاية فصل الربيع صبيًا، أي قبل وقت قصير من الوقت المحدد لزفاف كليوباترا والإسكندر حاكم إيبيروس. وزاد قدوم هذا المولود الجديد صعوبة العلاقة، المتوترة أساساً، بين الأمير وابنه. كما زاد قرار فيليب إبقاء أصدقاء ابنه على مسافة محددة بعيداً عن البلاط، وعلى الأخص هيفاستيون، وبيرديكاس، وبطليموس، وسلوقس، من سوء التفاهم والخلافات بينهما.

في ذلك الوقت، كان فيلوتاس في آسيا وكان بارداً تجاه الإسكندر لدى عودته، وحتى إنه بات يمضي الوقت مع ابن عمه إمينتاس الذي كان وريثاً للعرش قبل ولادة الإسكندر.

شكّلت كل تلك الحقائق، إضافة إلى فقدان الإحساس بالتآلف مع حياة البلاط، والشعور الحاد بالعزلة، لدى الإسكندر إحساساً خطيراً بعدم الأمان، مما دفعه إلى القيام بمبادرات خرقاء، وسلوك غير مبرر أبداً. وعندما علم أن فيليب قد رشّح أخاه غير الشقيق آرهيدياوس المتخلف عقلياً ليكون زوجاً لابنة مرزبان كاريا، فقد تحيّر في الموقف الذي يجدر به أن يتخذه. فكّر في الموضوع ملياً، ثم قرر أن مناورة الملك كانت مرتبطة بطريقة ما بحملته في آسيا، فقرر أن يرسل مبعوثاً من قبله إلى بيزودورس ليعرض عليه أن يتزوج ابنته. علم الملك بمبادرة الإسكندر بواسطة مخبريه، فشعر بغضب شديد، لأن عرض الزواج - التحالف المقترح، وهو المشروع الذي بدأ بالتهايوي في الأساس، قد وصل إلى نهاية فاشلة.

كان إيومينيس من نقل إلى الإسكندر الأخبار السيئة.
سأله: "لكن لماذا، بحق السماء، أقدمتَ على هذا الشيء. لماذا لم
تكلمني... لماذا لم تخبرني عن الأفكار التي جالت في رأسك؟ كنت
سأقول لك إن...".

ردّ الإسكندر بحدة، وقلق، واستياء: "كنت ستقول لي ماذا
بالضبط. إن كل ما تفعله هو إطاعة أوامر والدي! إنك لا تتحدث معي
أبداً، وتبقيني جاهلاً بشأن كل شيء!".

أجاب إيومينيس: "لا بد وأنك فقدت صوابك، كيف تصوّرت
أن فيليب يمكن أن يضيّع وريث عرشه بتزويجه من ابنة أحد تابعي
عدوه اللدود، أي ملك الفرس؟".

"لم أعد أعرف من هو وريث فيليب، لم يخبرني أبداً، وهو لا
يقول لي أي شيء. إنه يمضي كل وقته مع زوجته الجديدة وابنه الذي
ولد للتو. وأنت... أنت تخليت عني بدورك، إنك تخشى من تمضية
الوقت معي لأنك تعتقد أنني لن أصبح وريث التاج عندما يحين الوقت!
انظر حولك: كم من الأولاد أنجب والدي؟ وقد يقرّر أحدهم أن يدعم
إمينتاس الذي كان الوريث قبل ولادتي. وها هو فيلوتاس يمضي أوقاتاً
معه أكثر مما يمضي معي، يُضاف إلى ذلك ما تمناه آتالوس من أن تُنجب
ابنته وريثاً شرعياً للتاج، ولا بد من أنك سمعته وهو يقول ذلك، حسناً،
الصبي وُلد كما تمنى".

لم يقل إيومينيس شيئاً، بل اكتفى بمراقبة الإسكندر وهو يذرع
الغرفة جيئةً وذهاباً بخطوات واسعة، ثم انتظره كي يهدأ. وحين رأى
إيومينيس الإسكندر واقفاً أمام النافذة يراقب، قال له: "يتعين عليك أن
تواجه والدك، حتى وإن أحب أن يخنقك، وعلى الفور".
"أترى؟ إنك تقف إلى جانبه".

"توقف عن قول هذه الترهات! وتوقف عن معاملتي بهذه الطريقة! لطالما كنت مخلصاً لعائلتك، كما أنني سعت دوماً للحفاظ على الهدوء بينكما لأنني أعتقد أن والدك رجل عظيم، حتى إنه أعظم رجل عرفته أوروبا خلال القرن الأخير، وكذلك لأنني أحبك، مع أنك من النوع العنيد! تعال الآن، أخبرني عن مرة واحدة آذيتك فيها، أو خذلتك خلال كل تلك السنوات التي عرفنا فيها بعضنا! هيا، تكلم الآن... هيا، إنني أنتظر".

لم يتمكن الإسكندر من الرد بشيء فلقد شبك يديه بشدة، لكنه لم يواجه أيومينيس، وذلك لأنه لم يرغب في إظهار الدموع التي سالت غزيرة من عينيه. شعر أن غضبه يتصاعد مع انسياب دموعه، كما تذكر أن غضب والده ما زال يرعبه، أي كما كان الأمر عندما كان صبياً.

"يتعين عليك أن تواجهه الآن، وهو لا يزال غاضباً بسبب إقدامك على هذا الأمر، دعه يعرف أنك لست خائفاً منه، وأنت رجل، وتستحق الجلوس على العرش في يوم من الأيام، اعترف بخطئك، وقدم اعتذارك. فهنا تكمن الشجاعة الحقيقية".

قبل الإسكندر وقال: "حسناً، لكن تذكر أن فيليب حاول أن يهاجمني شاهراً سيفه بيده".

"كان ثملاً".

"وكيف حالته الآن؟".

"إنك لا تُظهر الإنصاف في هذا المجال، لأنه حَقَّ المستحيل من أجلسك، ألدبك فكرة كم استثمر فيك؟ أتعلم؟ إنني أعرف لأنني أدون السجلات وأشرف على أرشيفاته".

"لا أريد أن أعرف".

"أنفق مئة تالنت على الأقل، وهو مبلغ كبير يساوي ربع ميزانية أثينا عندما كانت في أوج قوتها".
"قلت لك لا أريد أن أعرف!".

"خسر إحدى عينيه في المعركة، وسيظل يعرج لبقية حياته. بنى والدك أعظم إمبراطورية شهدها العالم غرب المضائق. فعل كل ذلك لأجلك، وها هو الآن يقدم إليك آسيا، لكنك فضّلت أن تعيق خطته، واعترضت على المسرات القليلة التي يتوق رجل في سنّه إلى التمتع بها. اذهب إليه أيها الإسكندر وتكلّم معه قبل أن يأتي هو إليك".
"حسناً، حسناً! سأذهب إليه!". غادر الإسكندر، وأغلق الباب وراءه بشدة.

ركض إيومينيس خلفه على طول الرواق: "انتظر! قلت لك انتظر!".
"ما الأمر الآن؟".

"دعني أتكلّم معه أولاً".
سمح له الإسكندر أن يمرّ أمامه، ثمّ هزّ رأسه ومضى مسرعاً نحو الجناح الشرقي للقصر.

طرق إيومينيس الباب، ودخل من دون أن ينتظر سماع الرد.
سأله فيليب ووجهه يتوقد غضباً: "ما الخطب الآن؟".
"يريد الإسكندر أن يتحدّث معك".
"ماذا؟".

"مولاي، أسفّ ابنك لما اقترفه من أفعال. لكن، حاول أن تفهمه، إنه يشعر بالوحدة والعزلة، ولم يعد يشعر أنه قريب منك. بل إنّه يشعر أنه فقدّ حنانك، ألا يمكنك أن تسامحه؟ إنه أكبر قليلاً من صبي في النهاية، يعتقد أنك تخلّيت عنه، لذلك سيطر الخوف عليه".

كان إيومينيس يتوقع أن ينفجر غضب الملك بحيث يخرج عن السيطرة، لكنه ذهل عندما رأى مليكه في حالة من الهدوء التام، وكاد يُصعق.

"هل أنت بخير يا مولاي؟".

"إنني على ما يرام... على ما يرام. دعه يدخل".

خرج إيومينيس إلى حيث كان الإسكندر، الذي بدا شاحباً، ينتظر.

قال له: "إن والدك واقع تحت ضغط كبير، يُحتمل أن يشعر بالوحدة أكثر منك، تذكر ذلك".

عبر الأمير عتبة الباب.

سأله فيليب: "لماذا فعلت ذلك؟".

"أنا...".

صرخ به: "لماذا؟".

"لأنني شعرت أنك استثيتني من عملية اتخاذك للقرارات، وأبعدتني عن خططك، ولأنني كنت وحيداً، ومن دون أن يتواجد أحد معي كي يساعدني، ويرشدني، ويعطيني النصائح. شعرت أنه يتعين عليّ إثبات ذاتي والدفاع عن كرامتي".

"فعلت ذلك من خلال تقديمك عرض زواج من ابنة خادم ملك الفرس؟".

راح الإسكندر يفكر في أن هذه الكلمات هي تلك التي قالها إيومينيس بالضبط.

تابع فيليب كلامه، وإن بنبرة أكثر هدوءاً: "لكن لماذا لم تخبرني؟ لماذا لم تُخبر والدك؟".

"لكن، سبق لك أن فضلت آرهيدياوس عليّ، وهو المعاق عقلياً".

ضرب فيليب بقبضته على الطاولة، وصرخ: "بالضبط! ألا تعتقد أن هذا يعني شيئاً ما؟ هل هذا هو المنطق الذي علّمك إياه أرسطو؟". وقف الإسكندر صامتاً في مكانه بينما هبّ الملك واقفاً، وبدأ يذرّع الغرفة جيئةً وذهاباً بخطواته العرجاء. سأل الأمير بعد فترةٍ من الصمت: "هل الضرر الذي تسببت به كبير جداً؟".

أجاب فيليب: "كلا، حتى ولو كان التحالف، عبر الزواج، مع مَرزبان فارسي مفيداً جداً لي في الوقت الحاضر، أي في أثناء تحضّري للتحرك نحو آسيا. ولكن، لكل مشكلة حلّ مناسب". "أنا آسف، لن يحدث ذلك مرةً أخرى، سأنتظر حتى تحدّد لي مكاني في حفل زفاف كليوباترا".

"أحدّد مكانك؟ مكانك هو ذلك الذي يليق بورث العرش يا بني. اذهب إلى إيومينيس، إنه يُشرف على كل شيء شخصياً، وهو الذي نظّم الحفل بكل تفاصيله الدقيقة".

احمرّ وجه الإسكندر خجلاً عند سماعه هذه الكلمات، وشعر برغبة في معانقة والده، كما كان يفعل عند قدوم فيليب لزيارته في ميسرا، لكنه عجز عن التغلب على خجله وحرجه الذي بات يشعر به الآن عندما يكون في حضرة والده بعد ذلك اليوم المشهود الذي شهدت فيه علاقتهما تحولاً نحو الأسوأ. ومع ذلك، تطلّع نحو والده بلامح متعبة، وحتى متوسلة، ففهم فيليب موقف ابنه وقال له: "اذهب الآن، دعني وشأني".

*

قال إيومينيس يدعوه: "تعال، يجب أن ترى ما يمكن لصديقك أن يفعل، سيكون هذا الزفاف تحفّي التي أفخر بها، استبعد الملك سادة

الاحتفالات وأمناء الخزانة، وأوكل إليّ عملية التنظيم". فتح الباب، وأشار إلى الإسكندر بالدخول، ثم قال: "والآن، انظر إلى هذه!".

دخل الإسكندر إلى إحدى غرفتي الأسلحة الملكية، والتي أفرغت بشكلٍ شبه تام من أجل إفساح المجال لوضع طاولة كبيرة تستند إلى دعائم ضخمة، ورأى على سطحها نموذجاً مصغراً للقصر الملكي في إيجية بكل ما يحتويه من أماكن للعبادة والمسرح.

ظهرت الغرف من دون سقوف، وهكذا ظهرت الأماكن الداخلية للغرف بما تحتويه من تماثيل طينية تمثل مختلف الشخصيات التي ستشارك في هذه الاحتفالات المهيبة.

تقدّم إيومينيس وتناول عصا عن الطاولة، وقال شارحاً ومشيراً إلى غرفة مفتوحة كبيرة المساحة فوق رواق معمّد: "هنا ستجري مراسم الزفاف، وبعد ذلك يتقدم الموكب العظيم، وهو الحدث الاستثنائي الذي لم يرَ العالم مثيلاً له.

تسير العروس بعد الاحتفال، وتتقدمها وصيفاتها إلى غرفة الزفاف لإتمام الحَمَام الطقسي، ولتصفيف شعرها. وحين يتقدم الموكب الكبير، تأتي في المقدمة تماثيل الأولب البالغ عددها اثني عشر تمثالاً، وهي التماثيل التي تراها هنا والتي يحملها الكهنة على أكتافهم. وسيكون تمثال والدك بينها، وهو رمز لولائه لها، وتكريماً لدوره بصفته القائد الوحيد والوصي على كل الإغريق.

بعد ذلك، سيقف الملك في الوسط، وسيرتدي عباءة بيضاء، وسيضع تاجاً من أوراق السنديان الذهبية فوق رأسه. أما مكانك، بوصفك وريثاً للعرش، فهو إلى يمينه مع تقدّمك عليه قليلاً، فيما سيجلس الإسكندر حاكم إيبيروس إلى يساره، وجميعكم ستقدمون نحو المسرح الذي يظهر هنا.

أما الضيوف والوفود الأجانب فسيحتلون مقاعدهم عند الفجر، وستقدّم إليهم وسائل التسلية من عروض وتمثيلات يقدمها ممثلون مشهورون تمّ استقدامهم خصيصاً من أثينا، ومن سيكيون، وكورينث، بمن فيهم تيسالوس الممثل الذي تحبّه كثيراً، وسيستمرّ ذلك إلى حين وصول الموكب".

*

أعاد الإسكندر ترتيب عباءته البيضاء على كتفيه، وتبادل نظرة سريعة مع خاله. كانا يسيران متقدّمين قليلاً فيليب الذي كان يمشي برفقة حرّاسه. ارتدى ملك مقدونيا سترة قصيرة حمراء ذات أطراف مزخرفة بخطوط إهليلجية، وأشكال أوراق نخيل مذهبة، وارتدى فوقها عباءة بيضاء، وحمل عصا مصنوعة من العاج بيده اليمنى، بينما وضع على رأسه تاجاً من أوراق السنديان الذهبية. بدا مثل التمثال الصغير الذي رآه الإسكندر عند إيومينيس، والذي كان موضوعاً داخل نموذج القصر المصغّر داخل قاعة الأسلحة.

أعدّ صانعو أحذية الملك حذاءً له يشبه ذاك الذي ينتعله ممثلو التراجيديا، وكان ذا كعبين سميكين وثقلين لكنّ حاشية عباوته كانت تخفيهما، حتى إن هذين الكعبين كانا يصحّحان بعض عرجه ويضيفان القليل إلى طوله.

جلس إيومينيس في مكانه على منصة خشبية شيّدت فوق أعلى قسم من صحن المسرح، ثم أعطى إشارات إلى المسؤول عن المراسم مستخدماً أعلاماً ملونة، وذلك من أجل تنسيق ذلك الموكب المهيّب.

نظر إلى يمينه من فوق حلقة المسرح نصف الدائرية، والتي كانت مكتظة بالناس الذين فاقت أعدادهم ما توقعه بكثير، وتطلع بعد ذلك إلى نهاية الطريق المؤدي إلى المسرح حيث تمكّن من رؤية مقدمة الموكب

التي اشتملت على تماثيل الأسياذ التي صُنعت على أيدي أمهر الحرفيين، وألبست ثياباً حقيقية، ووُضعت على رؤوسها تيجان ذهبية حقيقية، وأحاطت بها حيواناتها المبحلة، مثل نسر زيوس، وبومة أثينا، وطاووس هيرا، وكلها مصنوعة بواقعية مدهشة، بحيث بدت وكأنها تستعد للطيران في أي لحظة.

مشى الكهنة وراء مقدمة الموكب وقد تزَيَّنوا بأربطتهم المبحلة، وحملوا مباخرهم بأيديهم، ثم ظهر كورسٌ مؤلف من فتيان وسيمين ساروا عراة، وكأنهم مجموعة من مجنحي الحب، وأنشدوا أغاني خاصة بالزفاف على أنغام النايات وقرع الطبول.

وبعد ذلك، ظهر الملك يتقدمه ابنه، وشقيق زوجته وزوج ابنته في الوقت نفسه، أما في الجزء الخلفي فظهر سبعة من الحراس الملكيين بأزيائهم الاستعراضية.

أعطى إيومينيس الإشارة، فأوماً مدير المراسم إلى المنادين من أجل تشغيل أبواقهم وطبولهم، وهكذا بدأ الموكب بالتحرك.

كان منظرًا رائعاً زادت من روعته الشمس، وصفاء ذلك اليوم. في تلك الأثناء، بدأت مقدمة الموكب بدخول المسرح، وبدأت تماثيل الأسياذ بالدخول واحداً تلو الآخر على وقع أنغام الأوركسترا التي وقفت بشكل نصف دائرة، وذلك قبل أخذ مركزها في مقدمة المسرح.

كان كل جزء من الموكب يغيب عن نظر إيومينيس عند دخوله القناطر التي تحيط بالمسرح، لكنه كان يظهر من جديد داخل المسرح بفعل ضوء الشمس.

مرّ الكهنة من خلال سحابة من البخور، ثم مرّ الفتيان الذين كانوا يرقصون ويغنون أناشيد الحب للعروس. رآهم إيومينيس تحت

القنطرة، وما لبثوا أن ظهوروا من جديد في الجهة المقابلة وسط الهتافات التي تصاعدت من الحاضرين.

ظهر في هذا الوقت بالذات الإسكندر المقدوني والإسكندر حاكم إيبيروس، وما لبث الملك أن اقترب أكثر فأكثر. أعطى فيليب، وبحسب خطة مسبقة، الأوامر لحراسه بعدم اللحاق به تحت القنطرة لأنه لا يريد أن يظهر أمام الإغريق وكأنه طاغية يحيط به حراسه.

رأى إيومينيس الشاين يظهران مجدداً داخل المسرح وسط هتافات متحمسة. وفي تلك اللحظة بالذات اختفى الملك في ظلال القناطر الممتدة على الجهة الأخرى، ورأى من طرف عينه الحراس ينسحبون فتطلع نحوهم بسرعة، لكنه عندما دقق النظر أكثر اكتشف أنهم نقصوا واحداً!

في تلك اللحظة بالذات، ظهر فيليب داخل المسرح تحت ضوء الشمس وأدرك إيومينيس ماذا سيحدث، فبدأ بالصراخ بأعلى صوته، لكن ضجيج هتافات الجمهور كان قوياً جداً. حدث كل شيء في لحظة خاطفة. فجأة ظهر ذلك الحارس المفقود من الظلمة، وكان يحمل خنجرًا قصيراً في يده، هاجم الحارس الملك وغرز سلاحه في جانبه حتى القبض، وما لبث أن بدأ بالركض مبتعداً عن المكان.

أدرك الإسكندر أن أمراً فظيماً قد حدث عندما لاحظ ملامح الصدمة بادية على وجوه الحاضرين. والتفت بعد لحظة واحدة من تعرض والده للطعن، فرأى وجهه الذي شُحِب فجأة ليصبح مثل أقنعة الأسياذ العاجية، ثم رأى فيليب وهو يسقط مترنحاً بعد أن وضع يده على خاصرته، فيما سال الدم بسرعة ملوئاً عباءته البيضاء.

ركض رجلٌ خلف فيليب نحو الطريق المؤدي إلى المروج، فيما أسرع الإسكندر نحو والده الذي كان يسقط على ركبتيه. أما

الإسكندر حاكم إبيروس فقد ركض أمامهم وهو يصيح: "أوقفوا الرجل!".

وصل الإسكندر إلى فيليب قبل وصوله إلى التراب، وأمسكه بينما كانت الدماء لا تزال تسيل بغزارة ملوثة ثيابه وذراعيه ويديه.
"أبي!" صرخ من بين أصوات النشيج المتصاعدة، لكنه أمسكه بقوة. "أبي، لا!" أحسّ فيليب بدموع ابنه الحارقة عند سقوطها فوق خديه الخاليين من الدماء.

تحوّلت السماء فوقه إلى نقاط مضيئة لا حصر لها، ولم تلبث الظلمة أن خيّمت على كل شيء. رأى نفسه مجدداً وسط الغرفة الغارقة في الظلمة الحالكة وهو يحمل طفلاً ولد منذ ساعات قليلة. شعر ببشرة الطفل الوليد الناعمة قرب خده المليء بالشعيرات النابتة، وأحسّ بشفتي الطفل فوق كتفه المليئة بالجروح، كما شعر بالعطر القوي لورود بيريا يفوح في الهواء، وغرق بعد ذلك في الظلمة والصمت.

ركض القاتل بأنفاسٍ متقطعة نحو أجمة من الشجيرات حيث كان رجال آخرون ينتظرونه مع جياد. كان من الواضح أن هؤلاء كانوا من المتواطئين معه، ولذلك أسرعوا بالابتعاد على صهوات جيادهم ما إن أدركوا أنهم ملاحقون.

في هذه الأثناء، استدار الرجل الذي أصبح وحيداً فأدرك أنهم يطبقون عليه. رمى الإسكندر حاكم إيبيروس عباءته، وركض شاهراً سيفه عالياً في الهواء، وراح يصرخ: "أمسكوه حياً! أمسكوه حياً!". بدأ القاتل بالركض مجدداً، ولكن بأسرع ما يمكنه هذه المرة، وقبل خطوات قليلة من وصوله إلى جواده حاول أن يقفز إلى صهوته، لكنه تعثر بجذع كرمه، فسقط على الأرض، ثم نهض بسرعة. لكن الحراس كانوا قد أطبقوا عليه، فطعنوه مرات عديدة، وقتلوه على الفور.

ما إن رأى ملك إيبيروس ما فعلوه حتى صرخ بهم بأعلى صوته: "أيها الحمقى! قلت لكم أمسكوه حياً!".
"لكنه كان مسلحاً يا مولاي، كما حاول أن يهاجمنا".
صاح الملك أمراً: "الحقوا بالآخرين! الحقوا بالآخرين، وأمسكوا بهم!".

وصل الإسكندر في هذا الوقت، وكانت ملابسه لا تزال ملوثة بدماء فيليب، تطلع إلى القاتل، ثم تطلع إلى ملك إيبيروس وقال: "أعرف هذا الرجل، واسمه بوزانياس، وكان واحداً من حراس والدي،

جرّده من ثيابه، وعلقوه على عمود عند مدخل المسرح، وتركوه كي يتعفن هناك حتى لا يتبقى منه شيء غير العظام".

في هذا الوقت، تجمّع الناس الذين يريدون المشاهدة حول الجثة وكذلك رجال الحرس الملكي، وقادة الجيش، والضيوف الأجانب.

عاد الإسكندر فوراً إلى المسرح الذي بدأ يفرغ بسرعة من الناس، وشاهد كليوباترا في ثوب زفافها، وهي تبكي يائسة فوق جثة والدها. وقف إيومينيس على مسافة ليست بالبعيدة عنها، وكانت عيناه مليئتين بالدموع، بينما وضع يده على فمه، وكان يهزّ رأسه باستمرار، وكأنه عاجز عن فهم ما جرى. لم يكن هناك من أثرٍ للملكة أولمبيا التي كان من المتوقع وصولها منذ الصباح.

وعلى الفور، أعطى الإسكندر إشارة التجمع لكل الوحدات القتالية الموجودة في المنطقة المجاورة، كما أمر جنوده بنقل جثة والده، وبتحضير مراسم الجنازة، وبعمرافقة كليوباترا إلى جناحها، وطلب إحضار درعين له ولصهره.

صاح بصديقه كي يوقظه من حالة الذهول: "إيومينيس! فتش عن الختم الملكي، وأحضره إليّ، أريدك أن تبعث برُسلٍ وراء هيفاستيون، وبطليموس، وبيرديكاس، وسلوقس، والآخرين. أريدهم أن يكونوا جميعاً هنا غداً مساءً".

وصل حاملو الدروع بعد وقت قصير، وما لبث الشابان أن وضعوا الدروع على صدريهما، كما وضعوا الدروع الواقية للساقين، وثبتا سيفيهما في غمديهما، ثم انطلقا من خلال الحاضرين، تبعتهما مجموعة من الجنود المختارين من أجل احتلال القصر. وُضع جميع أفراد العائلة المالكة في أجنحتهم تحت المراقبة المشددة، ما عدا إمينتاس الذي ظهر مرتدياً دروعه وجاهزاً لتنفيذ أوامر الإسكندر، وقال له:

"يمكنك الاعتماد عليّ، وعلى ولائي لك، لا أريد أن تُسفك المزيد من الدماء".

أجاب الإسكندر: "شكراً لك، لن أنسى لك هذه البادرة".
تمركزت مجموعات من حاملي الدروع ووحدات الفرسان عند
مداخل المدينة، وأسرع فيلوتاس بالمثل طوعاً في القصر، وطلب
الحصول على أوامره على الفور.

" في وقت لاحق من ذلك المساء، ظهر الإسكندر، يحيط به ملك
إيبيروس، وابن عمه إمينتاس أمام الجيش المتجمع. كان مسلحاً،
ويرتدي العباءة والتاج الملكيين، كان المغزى قوياً وواضحاً.
نفخ القادة أبواقهم، وبدأ الرجل يصرخ بتحية ولائهم:
"يحيا الإسكندر، ملك مقدونيا!"

بدأ الجنود عند سماعهم إشارة أخرى بدقّ رماحهم على
دروعهم، وسرعان ما رددت أروقة القصر وأعمدته الضجيج
المدوي.

تلقى الإسكندر سلامَ وحدات جيشه المجمعة، ثم أمر بتجهيز
بوسيفالاس تحضيراً للمغادرة، واستدعى بعد ذلك إيومينيس وكاليسين
اللذين كانا حاضرين في هذه المناسبة.

"ستعني يا إيومينيس بالدي، تأكد من غسله وتحنيطه بحيث
تُحفظ الجثة إلى وقت الجنائز التي ستقوم بتنظيمها بنفسك. أريدك أيضاً
أن تكون في استقبال والدي لدى وصولها، وأريدك كذلك أن تستدعي
المهندس كي يبدأ بالعمل في المقبرة الملكية في أسرع وقت ممكن.

"أما أنت يا كاليسين فستبقى هنا. أريدك أن تعرف كل شيء
ممكن عن القاتل. اجث عن أصدقائه، وشركائه، حاول كذلك أن
تعرف إلى أين ذهب، وماذا فعل في الساعات التي سبقت عملية القتل.

استجوب الحراس الذين قتلوا القاتل بالرغم من الأوامر التي أصدرها صهري، وبممكنك أن تستخدم التعذيب إذا لزم الأمر".
تقدم إيومينيس، وسلّم صندوقاً صغيراً إلى الإسكندر: "الختم الملكي يا مولاي".

تناول الإسكندر الصندوق وفتحه، ثم أدخل الخاتم في إصبعه: "أتخبي يا إيومينيس؟ هل أنت موالٍ لي؟".
"بالتأكيد يا مولاي".

"عليك في هذه الحالة أن تستمر في مناداتي الإسكندر".
توجّه بعد ذلك إلى باحة الاستعراض، وقفز على صهوة بوسيفالاس، وغادر إلى بيلا كي يتسلم العرش ويظهر لنبلاء البلاط أنه الملك الجديد، وذلك بعد أن ترك حامية في إيجية تحت إمرة فيلوتاس.
في هذه الفترة، فرغ المسرح كلياً ولم يبقَ فيه إلا تماثيل الأسياد، وقد تُركت على قواعدها. أما تماثيل فيليب فقد بقي وسط الضوء الآخذ بالتلاشي نتيجة غياب الشمس، وقد حافظ على النظرة الثابتة المنسية.
بدأت الظلمة ترحف على نحو مفاجئ، لكنّ ظلاماً ما بدا وكأنه يظهر من الفراغ، كان رجلاً يضع قناعاً على رأسه، دخل الميدان المهجور وأمضى وقتاً طويلاً في فحص آثار الدماء التي كانت لا تزال على الأرض، ثم التفت بعد ذلك ومرت تحت القنطرة المحاذية للمسرح. كانت عيناه تحدّقان إلى شيء معدني ملطخ بالدماء، لكنه نصف مخبوء في الرمال. انحنى كي يتفحصه بعينين رماديتين وصغيرتين، ثم انتزعه وخبّاه بين ثنانيا عباءته.

تقدّم الرجل إلى وسط الباحة، وتوقف أمام العمود الذي صُلبت عليه جثة القاتل، كان كل شيء محاطاً بالظلام. ولكن، سرعان ما تناهى إلى مسمعه صوتٌ صادرٌ من ورائه:

"خالي أرسطو، لم أتصوّر أنني سأجِدك هنا".
"كاليستين، إنه اليوم الذي كان من المفترض أن يكون يوماً
للبهجة وها قد انتهى به الأمر إلى حزن كهذا".
"كان الإسكندر يأمل أن يراك مجدداً. لكن، حدثت أشياء كثيرة
وبسرعة كبيرة..."

"أعرف، أنا آسف كذلك، أين هو الآن؟".
"إنه على صهوة جواده، ويقود جنوده نحو بيللا. يريد أن يتأكد
من عدم إمكانية قيام انقلاب من جانب إحدى فئات النبلاء. ولكن،
ماذا تفعل أنت هنا؟ إنه ليس بالمشهد الذي يُدخل البهجة إلى النفوس".
"إن اغتيال الملوك نقطة حاسمة في تاريخ الأحداث الإنسانية.
وكما سمعت فقد أعربت ضالعة دلفي عن هذا التوقع: "الثور مكلل،
وكل شيء معدّ سلفاً، وجاهزٌ هو الرجل الذي سيضربه". والتفت بعد
ذلك إلى جسد بوزانياس المشوّه، وقال: "هذا هو الشخص الذي ضرب
الثور، لكن من كان سيخمن معنى التوقع!"

قال كاليستين: "طلب مني الإسكندر أن أحقق في هذه الجريمة،
وأن أحاول اكتشاف الأشخاص الذين يقفون وراء اغتيال والده".
تناهت إلى الأسماع أصوات عويل الأشخاص الذين يندبون موت الملك
من أماكن العبادة الموجودة في القصر، سأل كاليستين: "أتود أن
تساعدني؟ يبدو كل شيء غير منطقي".

قال أرسطو مؤكداً: "هذا هو مفتاح حل الجريمة، لماذا اختار
القاتل هذا النوع من القتل العلني، أي القتل في مسرح عام، وكأنه
مشهد من مأساة يتحقق في الحياة الواقعية، وبدمٍ حقيقي...". تناول
عند هذه اللحظة شيئاً من عباءته "خنجر حقيقي، خنجر من صنع بلاد
السيلتك على وجه الدقة".

"إنه سلاح غير اعتيادي... لكنني ألاحظ أنك بدأت بتحقيقاتك".

سأله مشيراً إلى الجثة مجدداً: "إن الفضول هو مفتاح المعرفة. ماذا تعرف عنه؟".

"أعرف القليل، اسمه بوزانياس، وكان من لينكستس، توظف في عداد حراس الملك بسبب مهاراته الجسدية".

"إنه لا يستطيع، مع الأسف أن يخبرنا أي شيء، وبالتأكيد فإن ذلك هو جزء من الخطة، هل حققت مع الجنود الذين قتلوه؟".

"حققت مع واحد أو اثنين، لكنني لم أحصل منهم على أي شيء هام، زعموا جميعاً أنهم لم يسمعوا أمر الملك الإسكندر القاضي بعدم قتله. إن صدمتهم بسبب قتل الملك فيليب جعلتهم غاضبين جداً. لقد أحسّوا بالغضب الشديد، لذلك ما إن أبدى القاتل أدنى درجة من المقاومة كي يدافع عن نفسه حتى قاموا بقتله".

"إنها قصة قابلة للتصديق، لكنها قد تكون غير صادقة. أين هو ملك إيبيروس؟".

"غادر برفقة الإسكندر، وها هما الآن في طريقهما إلى بيللا".

"إذاً، هل تخلى عن ليلته الأولى مع عروسه؟".

*

"فعل ذلك لسبيين، وكلاهما مفهومان: أولاً، من أجل دعم شقيق زوجته في هذا المنعطف الحاسم من انتقال السلطة. وثانياً، لإظهار احترامه حداد كليوباترا على والدها".

وضع أرسطو إصبعه على فمه إشارةً إلى ابن شقيقته كي يلتزم الصمت. إذ تناهى إلى سمعه وقع حوافر جواد يقفز بعيداً، وكان الصوت يقوى كلما اقترب الجواد.

قال الفيلسوف: "هيا نتحرك، ونبتعد عن هذا المكان، لأن الشخص الذي يظن أنه بعيد عن المراقبة يتصرف بطريقة طبيعية أكثر".
تحول صوت القفز إلى إيقاع لطيف لمسير جواد حتى توقف الصوت كلياً. قفز شخصٌ يلف نفسه بثياب سوداء إلى الأرض، وتقدم قليلاً إلى أن وقف أمام الجثة المصلوبة على العمود، ثم ما لبث أن أرجع غطاء رأسه إلى الوراء، فكشف عن رأسٍ يكلله شعر متموج جميل.
* همس كاليستين في أذن خاله: "بحق الأسياد! إنها أوليمبيا!".

اقتربت الملكة أكثر، وتناولت شيئاً ما من ثنانيا عباءتها ثم وقفت على أطراف أصابع قدميها أمام الجثة، رأى الفيلسوف إكليلاً من الورود حول رقبة بوزانياس، وذلك قبل أن تبتعد كي تنضم إلى مرافقها مجدداً.

قال كاليستين: "بحق زيوس! لكن ذلك يعني أن...".
هزّ أرسطو رأسه، وقال: "أتظن أنك تعرف ماذا يعني ذلك؟ الأمر ليس واضحاً، لأنه إذا كانت قد استأجرت قاتلاً، فهل تظن أنها قد تقدم على هذه المبادرة أمام مرافقها وهي تعلم جيداً أن شخصاً ما يراقب جثة بوزانياس؟".

"لكنها إذا كانت تعلم ذلك كله فإنها قد تتصرف بطريقة غريبة من أجل دفع أي رجل يحقق في القضية إلى استبعادها لهذه الأسباب بالذات".

قال أرسطو ملاحظاً: "هذا صحيح، لكنه من الحكمة أن يحاول الإنسان اكتشاف الدوافع التي يُحتمل أنها دفعت بالمشتبهِ به إلى ارتكاب الجريمة، بدلاً من أن يخمن أفكار الآخرين. أريدك أن تُحضر لي مشعلاً قبل أن نذهب إلى المكان الذي لقي فيه بوزانياس مصرعه".
"لكن، ليس من الأفضل لنا أن ننتظر حتى فجر الغد؟".

"يُحتمل حدوث أشياء كثيرة قبل الفجر، سأنتظرك هناك".
وانطلق الفيلسوف نحو غابة السنديان والدردار القريبة من المكان
الذي لقي فيه القاتل مصرعه.

مع حلول الظلام، وصل هيفاستيون وبطليموس وسلوقس وبيرديكاس مرتدين دروعهم، وهم في حالة من التعب الشديد، وكان الأربعة يتصبون عرقاً. سلّموا جيادهم للسانة، وأسرعوا بصعود درج القصر، ثم توجهوا إلى قاعة الاجتماعات حيث كان الإسكندر في انتظارهم.

أما ليوناتوس ولايسيماخوس فقد كان من المنتظر وصولهما في اليوم التالي لأنهما سيأتيان من لاريسا وتساليا البعديتين.

رافقهم أحد الحرس إلى القاعة المضاة بالمشاعل، فوجدوا الإسكندر في انتظارهم مع فيلوتاس، والقائد أنتيباتر، والإسكندر حاكم إيبيروس، وإمينتاس، وبعض قادة فرقة الفالانج، وفرسان فرقة الرفاق. كان جميع الحاضرين قد حملوا دروعهم بمن فيهم الملك، كما وضعوا خوذهم على رؤوسهم، ووضعوا سيوفهم أمامهم على الطاولة في متناول أيديهم، وهي إشارة أكيدة على أن الوضع لا يزال خطراً.

تقدم الإسكندر نحوهم والتأثر الشديد باد على وجهه: "أصدقائي... أخيراً اجتمعنا مجدداً".

تكلم هيفاستيون بالنيابة عنهم جميعاً: "إننا آسفون جداً لموت الملك فيليب، وحزننا لا يوصف. لم نعد حانقين عليه لأنه فرض علينا المنفى، إننا نتذكره على أنه ملك عظيم، وأكثر المقاتلين شجاعة، وأكثر الحكام حكمة. كان بمثابة والد بالنسبة إلينا جميعاً. كان صارماً لا يتراجع، لكنه كان كذلك كريماً وقادراً على القيام بأنبل المبادرات. إن

حزننا عليه صادقٌ وعميقٌ جداً. كان ذلك حادثاً فظيعاً، لكن يتعين عليك تحمّل المسؤوليات التي كان يتحمّلها، كما أننا نعترف بك كوريث له، وكملك علينا".

تقدّم هيفاستيون من الإسكندر بعد أن أنهى خطابه القصير وقبله على وجنتيه، وحذا الآخرون حذوه. حيّا هيفاستيون الإسكندر حاكم إبيروس، وكذلك فعل جميع القادة الحاضرين، ثم جلسوا على مقاعدهم حول الطاولة.

تابع الإسكندر حديثه من حيث قطعه: "لن تتأخر أخبار موت فيليب عن الانتشار في كل مكان، لأن الاغتيال حدث في حضور آلاف الناس. ويصعب علينا توقع عواقب هذا الحادث. ولكن، يتعين علينا أن نتحصّر للتحرك سريعاً لمنع أي شيء، وكل شيء، قد يُضعف مملكة والدي، أو يهدّد الإنجازات التي حققها، وبأي طريقة من الطرائق، سأشرح لكم خطتي.

يجب علينا أن نجتمع معلومات عن أوضاع الحدود الشمالية، وكذلك عن رد فعل حلفائنا الجدد، أي أثينا وسكان طيبة وكذلك..." والتفت نحو فيلوتاس عند هذه النقطة، وحدجه بنظرة ذات معنى. "حول نوايا القادة الذين يقودون حملتنا في آسيا، أعني آتالوس وبارمينيون، أعتقد أنه من الضروري أن نعرف نواياهما على الفور، لأنهما يقودان جيشاً مؤلفاً من خمسة عشر ألف جندي".

سأل فيلوتاس بصوتٍ ينم عن قدرٍ معيّن من التفهم: "وماذا تنوي أن تفعل؟".

"لا أرغب في أن أضع أيّاً منكم في موقفٍ محرج، لأنني سأرسل تعليماتي إلى قائد يوناني يدعى هيكتايوس، يقود كتيبة صغيرة في منطقة المضائق. وقررت كذلك أن أعفي آتالوس من مهام القيادة،

وأنا متأكد من أنكم ستفهمون جميعاً الأسباب التي دفعتني إلى اتخاذ هذا القرار".

لم يعترض أحد من الحاضرين، لأن ما جرى قبل سنة في أثناء حفل زفاف فيليب لا يزال ماثلاً بقوة في ذاكرتهم.

قال الإسكندر: "أعتقد أن العواقب الناتجة عن موت الملك ستظهر في وقت قريب، سرى بعض الناس في موته فرصة للرجوع بالزمن إلى الوراء، أي استعادة الطرائق التي كانت سائدة قديماً. وعندها، سيتعين علينا إقناع هؤلاء بأنهم مخطئون، وما إن نعالج هذا الخطر الداهم حتى نكون قادرين على البدء في تنفيذ خطط والدي مجدداً".

سكت الإسكندر، وأدرك الجميع في تلك اللحظة أن الزمن قد تجمد، وأن مستقبلاً يتعدى قدرة أي شخص على التصور يجري تحضيره في هذه القاعة. إن ذلك الشاب الذي علمه فيليب وهذبه، طيلة سنوات طويلة من العمل الشاق والتضحيات، يجلس الآن على عرش الأركاديين، كما أنه يُمسك، وللمرة الأولى في حياته بزمام قوة هائلة لم يسبق له أن رأى مثيلاً لها إلا في أشعار الملاحم.

*

توجه الإسكندر برفقة سميّه وصهره إلى إيجية، تاركاً قيادة مختلف وحدات فرقة الفالانج، وHetairoi بأيدي أصدقائه، بينما أوكل إلى هيفاستيون إدارة القصر الملكي. كان ينبغي دفن فيليب إلى جانب معالجة عدة قضايا خطيرة في العاصمة القديمة.

التقوا عند منتصف الطريق مع مبعوث أرسله إيومينيس بمهمة عاجلة. صاح المبعوث وهو يناوله رزمة من أوراق البردى الملفوفة بإحكام: "من حسن حظي أنني التقيت بك يا مولاي، يريدك إيومينيس أن تقرأ هذه الأوراق على الفور".

فتح الإسكندر الرزمة وقرأ الرسالة المختصرة:

من إيومينيس إلى الإسكندر، ملك مقدونيا، سلامٌ عليك!
وُجد طفل يورديدس الصبي مقتولاً في مهده، وأنا أخشى على حياة
يورديدس ذاتها.
وصلت الملكة أولمبيا إلى هنا في الليلة التي غادرت فيها إلى بيل.
يجب أن تحضر على الفور.
انتبه إلى نفسك.

سأل الإسكندر صهره: "لقد وصلت والدتي إلى هناك فور
مغادرتنا؟ هل تعرف شيئاً عن هذا الموضوع؟".

هزّ ملك إبيروس رأسه: "لم تقل لي شيئاً عندما غادرت
بوثروتوم، لكنني لم أظن أبداً أنها ستحضر الزفاف. كانت تعتبر الزفاف
مجرد إهانة أخرى بالنسبة إليها، واعتبرت أن تلك هي طريقة فيليب في
عزلها تماماً، وذلك لأنني سأضطر بعد الزفاف إلى تأمين سلامة حدوده
الغربية بشكلٍ رسمي. لم أظن أبداً أنها قد تلحق بي إلى إيجية".
قال الإسكندر وهو ينخس جواده كي يثب وثباً: "على كل
حال، إنها هناك الآن. ويبدو أنها قامت ببعض المبادرات الحاسمة، دعنا
نتحرك قبل أن تُقدم على شيء لا يُمكن إصلاحه".

وصلا إلى إيجية في مساء اليوم التالي بينما كانت الشمس تتهياً
للمغيب، وتمكنا من سماع أصوات النحيب والبكاء آتية من القصر
البعيد. وما إن وصلا إلى مدخل القصر حتى وجدا إيومينيس في
استقبالهما.

"بقيت تبكي هكذا لمدة يومين، وقالت إن والدتك هي التي قتلت
الصبي، رفضت تسليم جثته، لكن الوقت يمضي... وأنت
تعرف...".
"أين هي؟"

أجاب إيومينيس: "إنها في الجناح الجنوبي، تعالَ معي".
أوماً الإسكندر إلى حارسه كي يتبعه في أثناء تجواله في أنحاء
القصر. كان الجنود المسلحون يحرسون كل قسم من أقسام القصر،
وكان عدد كبير من هؤلاء الحراس من إيبيروس، أي من أفراد حرس
صهره.

"من أمر بوضعهم هنا".

أجاب إيومينيس وهو يسير بأنفاسٍ متقطعة وراء الإسكندر:
"والدتك الملكة".

تصاعدت أصوات العويل كلما اقتربوا أكثر، وكان يتحوّل بين
الحين والآخر إلى صراخٍ حاد قبل أن يصبح نشيجاً طويلاً وضعيفاً.
وصلوا إلى الباب، وأسرع الإسكندر إلى فتحه من دون تردد،
لكنّ ما رآه في الغرفة جعله يجمد في مكانه على الفور. فلقد استلقت
يوريديس في الزاوية، وقد بدا شعرها مشعثاً وعيناها منتفختين وحمراوين،
فيما بدت نظراتها مجنونة. كانت تحمل جثة ولدها وتضمها إلى
صدرها، وكان رأس الصبي وذراعيه تتدلى إلى الخلف في حين كان
اللون الأزرق لأطرافه علامة أكيدة على أن عملية التحلّل قد بدأت.
كانت ملابسها ممزقة وشعرها كتلة واحدة بفعل الدم المتجمد،
أما الخدوش والجروح فقد غطت وجهها وذراعيها. كما فاحت
الرائحة الكريهة والمثيرة للقرع كالعرق، والبول، والتعفن في جميع أنحاء
الغرفة.

أغمض الإسكندر عينيه للحظة فتذكّر رؤية يوريديس في أوج
روعتها، أي عندما جلست إلى جانب والده الملك. كانت الفتاة التي
أحبها الملك ودّلّها كثيراً، والتي حسدها الجميع. شعر بالهلع في أعماقه،
وأحسّ بالغضب يملأ صدره وشرائنه.

التفت إلى إيومينيس، وسأله بصوتٍ مليء بالغضب: "من فعل ذلك؟".

خفض إيومينيس رأسه، والتزم بالصمت.

صاح الإسكندر: "من فعل هذا؟".

"لا أعرف".

"أريدك أن تستدعي شخصاً ما كي يعتني بها على الفور. أحضر طبيي فيليب، واطلب منه أن يهتم بها، وأن يعطيها شيئاً يجعلها ترتاح... وتنام".

بدأ بالابتعاد، لكن إيومينيس استوقفه: "لن تترك الطفل، ماذا يمكننا أن نفعل؟".

توقف الإسكندر، والتفت نحو يوريديس التي هبطت أكثر نحو الزاوية مثل حيوان خائف.

تحرك نحوها ببطء، وركع أمامها، ثم حدّق إلى عينيها، حرّك رأسه قليلاً كي يخفف من قوة نظرتة، وكأنه يريد أن يحيطها بهالة من التعاطف، ثم مدّ يده وراح يلامس خدها.

أغمضت يوريديس عينيها، وأرجعت رأسها إلى الخلف حتى استندت إلى الجدار، ثم أطلقت تنهيدة طويلة محزنة.

مدّ الإسكندر ذراعيه وقال لها بهدوء: "أعطيني إياه يوريديس، أعطيني الصغير، ألا تظنين أنه متعب؟ يجب أن نضعه في سريره".

سالت دمعتان كبيرتان ببطء فوق خدّي يوريديس ووصلتا إلى شفتيها، ثم قالت هامسة: "نم"، وما لبثت أن أرخت قبضتها عن جسد الصبي، فأخذه الإسكندر برفق، وكان الطفل نائم فعلاً، ثم خرج إلى الرواق.

في هذا الوقت، أرسل إيومينيس في طلب امرأة. وحين وصلت قالت للإسكندر: "أعطني إياه يا مولاي". وضع الإسكندر الطفل بين ذراعيها، ثم أمرها: "ضعيه إلى جانب والدي".

*

صرخ ما إن دخل الغرفة: "لماذا؟ لماذا؟".
وقفت الملكة أوليميا أمامه وعيناها تغليان غضباً: "أبحرؤ على دخول غرفتي بسلاحك؟".

صاح الإسكندر: "أنا ملك مقدونيا! أستطيع أن أفعل ما يحلو لي! لماذا قتلتَ الطفل، ولماذا فعلتَ هذه الأفعال البربرية بأمه؟ من أعطاك هذا الحق؟".

أجابت أوليميا من دون اكتراث: "أنت ملك مقدونيا بسبب موت هذا الطفل، أليس ذلك ما أردته؟ أنسيتَ كم شعرتَ بالخوف لأنك لم تعد الولد المفضل لدى فيليب؟ أم أنك نسيتَ ما قلته لآتالوس في يوم زفاف والدك؟".

"لم أنس، لكنني لا أقتل أطفالاً، ولا أهاجم نساء لا يتمتعن بالحماية".

"لا توجد طرائق أخرى أمام الملك، وهو يبقى وحده على الدوام. لا وجود لقانون يحدّد الشخص الذي يجب أن يعتلي العرش، كان يمكن لأي جماعة من النبلاء أن تقرر وضع الطفل تحت حمايتها، وأن تحكم باسمه إلى أن يبلغ سن الرشد. إنني أسألك: ماذا كنت ستفعل لو حدث ذلك؟".

"كنت سأحارب حتى أستولي على العرش!".

"وكم من الدماء كانت ستراق؟ أجبني عن هذا السؤال! وكم كان عدد الأرامل اللواتي سيلبسن الثياب السوداء حداداً على

أزواجهن، وكم عدد الأمهات اللواتي سيلبسن الأسود حداداً على أولادهن الذين ماتوا قبل أوانهم؟ ما عدد الحقول التي كانت ستُحرق وتتحول إلى رماد؟ وما عدد المدن والقرى التي كانت ستُهدم وتسوى بالأرض؟ ففي كل الحالات كانت الإمبراطورية التي بناها فيليب بالدماء، وبعد إحداث دمار كبير، معرضةً للتفكك".

استعاد الإسكندر رباطة جأشه، وكانت ملامح وجهه تعكس التأثير، وكأن مشاهد المذابح والحداد التي تحدثت عنها والدته قد أثرت فيه بشكلٍ مفاجئ دفعة واحدة، مثقلةً روحه بالحزن.

أجاب الإسكندر: "إنه القدر الذي يحتم على الإنسان تحمّل الجروح والأمراض والآلام والموت قبل أن يتهاوى في ثنایا العدم. لكنّ الإنسان يستطيع أن يتصرّف بشرف، وأن يكون رحوماً كلما كان ذلك ممكناً، لأن ذلك يقع في نطاق قدرته، كما أنها خيارات حقيقية، هذا هو الشرف الحقيقي الذي يُمنح للإنسان في أثناء حياته على هذه الأرض، وهو النور الوحيد الذي يضيء قبل مجيء الليل اللامتناهي...".

في اليوم التالي، أبلغ إيومينيس الإسكندر أن مدفن فيليب أصبح جاهزاً، وأنه أصبح في الإمكان الآن إتمام مراسم الدفن. لكنه، وفي واقع الأمر لم يتم إنهاء إلا الجزء الأول من التمثال الكبير، وتم ذلك بسرعة كبيرة، وكان من المقرر أن يتم إنشاء غرفة ثانية تحتوي على كل الأشياء الثمينة التي سترافق الملك في رحلته الأبدية.

أُلبس فيليب أهي ثيابه، كما وُضع إكليل من أوراق السنديان الذهبية فوق رأسه. وضع جنود الملك جثته في المحرقة التي تُستخدم في المآتم، ووقفت كتيبتان من قوات الفالانج، وكتيبة من فرقة الرفاق لتأدية التحية.

استُخدم الشراب من أجل إطفاء ألسنة اللهب، ثم وُضع الرماد والعظام في قماش أرجواني مذهب على شكل عباءة عسكرية مقدونية، ووُضعت حزمة القماش هذه في صندوق من الذهب الخالص، وكان طرفا الصندوق على شكل قائمتي ومخالب أسد، كما وضعت نجمة أركادية ذات ست عشرة زاوية على غطاء الصندوق.

كما وُضع في الصندوق الذهبي درع صدر الملك المصنوع من الحديد والجلد والذهب، ودروع وقاية الساقين البرونزية، وسهمه الذهبي، ودرعه المخصّص للاستعراضات والمخطط بطبقة من الذهب والمزخرف بمشهد ديونيزي، وكلها محفورة بالعاج. أما سلاحه، أي سيفه ورمحه، فقد أُلقيا في نيران المذبح، ثم قوَّسا بعد ذلك جرياً على العادة كي لا يُعاد استخدامهما مجدداً.

ووضع الإسكندر أغراض والده الشخصية إلى جانبه: وعاء كبير من الفضة الخالصة ذو مسكتين مزخرفتين ورأس ذو لحية، وكوبان فضيَّان جميلان، لكنهما خفيفان إلى درجة أنهما يبدوان من دون وزن. أما مدخل المدفن فكان مغلقاً بباب مزدوج من الرخام، يحيط به عمودان دوريان، وكلها مزينة برسوم تحاكي الزخرفات الموجودة في مدخل القصر الملكي في إيجية. كما قَدِمَ فنان من بيزنطة وعمل على صنع إفريز يحاكي مشاهد الصيد الرائعة الموجودة على قواعد الأعمدة.

لم تحضر الملكة أوليمبيا مراسم الجنازة لأنها لم ترغب في تقديم ندور فوق محرقة زوجها، وكذلك لأنها لم ترغب في الالتقاء بيوريديس. بكى الإسكندر عندما أغلق الجنود الباب الرخامي الكبير. كان يحب والده كثيراً، ولذلك شعر أن شبابه هو الذي يُدفن في المقبرة. أمّا يوريديس فقد استسلمت لليأس، ولم تتناول شيئاً من الطعام حتى ماتت جوعاً مع ابنتها أوروبا الصغيرة. حاول الطبيب فيليب أن يفعل كل ما في وسعه، لكنه لم يُفلح في إنقاذ حياتيهما.

أمر الإسكندر ببناء مقبرة رائعة لها، كما أمر بأن يوضع العرش الذي اعتلاه والده عندما كان يجلس بصفته قاضياً تحت شجرة السنديان في إيجية، داخل المقبرة. كان عرشاً فخماً مزيناً برسوم ذهبية تمثل طائر العنقاء، وأبا الهول، بالإضافة إلى عربة تجرها أربعة أحصنة مرسومة على مسنده. وبعد ذلك، عاد الإسكندر إلى بيلا بعد أن فرغ من القيام بواجباته، وبعد أن امتلأت روحه حزناً.

*

كان القائد أنتيباتر أحد ضباط الحرس القديم لفيليب، وموالياً لعرشه، لذا كان بإمكان الإسكندر الوثوق به بالكامل. فأسند إليه

مهمة تتبع أنشطة هيكاتيوس وهي المهمة التي كان يتولاها بارمينيون وآتالوس، لكنه كان قلقاً من عواقب هذه الخطوة.

أدرك الإسكندر أن برايرة الشمال، أي الترياليين وسكان إيليريا الذين هزمهم والده منذ وقت قريب قد يثرون في أي لحظة، وأن الإغريق قد قبلوا تحالف سلام كورينث بسبب المجزرة التي حدثت في تشايرونيا. وعلم كذلك أن جميع أعدائه، وديموستين على وجه الخصوص، كانوا أحياء ويتحركون بنشاط، يُضاف إلى ذلك أن آتالوس وبارمينيون يسيطران على منطقة المضائق، وكانا يقودان حملة استكشافية قوامها خمسة عشر ألف رجل.

بدا الأمر وكأن كل هذه التهديدات لا تكفي، إذ وصلت أخبار تفيد أن عملاء للفرس يقيمون اتصالات مع مجموعات معارضة للمقدونيين في أثينا، ويعرضون مبالغ ضخمة من المال على شخص قادر ومستعد للقيام بحركات تمرد.

شاعت الاضطرابات في البلاد بحيث إذا قدر لهذه المشاكل أن تتحوّل إلى مشاكل حقيقية، فإن الملك الجديد سيجد نفسه أمام صعوبات جدية.

وصلت أولى الإجابات عن أسئلته مع بداية فصل الخريف، إذ طلب أنتياتر الاجتماع بالملك. وهكذا، استقبله الإسكندر في الغرفة التي كانت مقراً لوالده. كان أنتياتر رجلاً عسكرياً قلباً وقالباً، لكنه لم يتفاخر بمركزه، حتى إنه كان يرتدي عادة لباس مواطن عادي، وكانت هذه الميزة دليلاً واضحاً على توازنه، وثقته الشديدة بنفسه.

قال ما إن دخل الغرفة: "مولاي، هذه هي الأخبار التي وردتني من آسيا: رفض آتالوس الانصياع للأمر والرجوع إلى بيلا، كما أظهر مقاومة مسلحة قُتل خلالها، أما بارمينيون فيؤكد لك ولاءه التام".

"أريد يا أنتيباتر أن أعرف رأيك الحقيقي ببارمينيون. أنت تعرف أن ابنه فيلوتاس موجود هنا في البلاط، ويُحتمل أن يعتبره رهنيتي بطريقة أو بأخرى. هل هذا، برأيك، السبب الذي يجعله يعلن الولاء لي؟".

أجاب القائد المسن من دون أي تردد: "كلا، إنني أعرف بارمينيون جيداً. إنه يحبك كثيراً منذ أن كنتَ طفلاً تجلس على ركبتي والدك في أثناء انعقاد مجالس الحرب في مستودع الأسلحة الملكية".
تذكّر الإسكندر فجأة الأغنية التي كان ينشدها عند رؤيته شعر بارمينيون الأبيض:

ينطلق الجندي القديم إلى الحرب
ويقع على الأرض، يقع على الأرض!

شعر الإسكندر بحزن عميق يحتم عليه وهو يفكر كيف يُمكن للسلطة أن تغيّر العلاقات بين الناس.
تابع أنتيباتر حديثه: "لكن، إذا كانت الشكوك تساورك حول هذه المسألة فهناك طريقة واحدة لحسمها".
"أن أرسل إليه فيلوتاس".
"بالضبط، لأن ولديه الآخرين نيكانور وهيكتور يتواجدان معه بالفعل".

"وهذا ما سأفعله، سأرسل إليه فيلوتاس مع رسالة تدعوه إلى الرجوع إلى بيلا، إنني أحتاج إليه هنا لأن عاصفة ما توشك على الوقوع".

"يبدو لي أن هذا قرار حكيم يا مولاي، إن بارمينيون يضع شيئاً واحداً فوق كل الأمور الأخرى، وهو الثقة".
"هل من أخبار عن الشمال؟".

"هناك أخبار سيئة، ثار الترياليون، وأحرقوا بعض المواقع الحدودية".

"ماذا يجب أن أفعل برأيك؟".

"أرسلت إليهم إنذارات. إذا تجاهلوا يمكنك أن تضربهم بكل قسوة".

"بالتأكيد. لكن، ماذا عن الجنوب؟".

"ما من أخبار سارة هناك أيضاً، إن الجناح المعادي للمقدونين يتصاعد، وحتى في تساليا. إنك شاب، ويوجد بعض الناس الذين يظنون...".

"قل ما عندك أنتيتر".

"يظنون أنك مجرد فتى ليست لديه تجربة، وأنتك لن تنجح في الاحتفاظ بالسيطرة التي تمتع بها والدك".

"سيضطرون إلى التراجع عن ظنونهم".

"بقي أمر آخر".

"ما هو؟".

"ابن عمك آرخیلاوس...".

ازدادت ملامح الإسكندر جدية، لكنه حثَّ محدثه على متابعة الحديث: "تابع".

"تعرض لحادث عندما كان في رحلة صيد".

"هل مات؟".

أوما أنتيتر.

"عندما تولى والدي العرش لم يقتل آرخیلاوس أو إميئاس، مع أنهما كانا مؤهلين لولاية العرش".

كرر أنتيتر بهدوء: "كان حادث صيد يا مولاي".

"أين إمينتاس؟".

"إنه في الأسفل، في مقر الحرس".

"لا أريد أن يلحق به أي أذى. بقي إلى جانبي بعد اغتيال والدي مباشرة".

أوما أنتيباتر كي يُظهر أنه فهم، ثم توجه نحو الباب.

نهض الإسكندر، ووقف أمام الخريطة الكبيرة التي خططها أرسطو، والتي وضعها في غرفته الخاصة. أدرك أن الجهتين الغربية والشرقية كانتا آمنتين، لأن الحدود الغربية يحرسها الإسكندر حاكم إيبيروس، أما الحدود الشرقية فكانت بعهدة بارمينيون، على افتراض أنه يستطيع الوثوق بذلك القائد العجوز. لكن الجهتين الشمالية والجنوبية تشكلان تهديدين خطيرين، لذا تعيّن على الإسكندر أن يضرب بأقصى سرعة ممكنة، وبطريقة حاسمة لكي لا يترك أي شكوك في حقيقة كون ملك مقدونيا الجديد يتمتع بالقوة ذاتها التي كان يتمتع بها فيليب.

توجه إلى الشرفة المواجهة للشمال، وتطلع نحو الجبال التي أمضى فيها فترة نفيه. كانت الغابات على وشك أن تغير ألوانها مع قدوم فصل الخريف، كما أن الثلج لن يتأخر في الوصول، وسيخيم الهدوء على تلك المنطقة حتى قدوم الربيع. أما المهمة الملحة في الوقت الحاضر فهي إخافة أهالي تساليا وطيبة. وبدأ الإسكندر يفكر في خطة التحرك خلال انتظاره رجوع فيلوتاس وبارمينيون من آسيا.

وبعد مرور أيام على عودتهما، دعا الإسكندر إلى عقد مجلس

حربي.

أعلن الإسكندر بثقة: "سأدخل تساليا بجيشٍ مستعد للحرب، وسأؤكد من تثبيت لقب تاجوس ليكون لقبني بعد أن كان لقب والدي، كما سأصل بقواتي إلى حدود طيبة. أريد أن يفهم سكان

تساليا أنه أصبح لديهم قائد جديد، أما بالنسبة إلى سكان طيبة فإنني أريد أن أخيفهم حتى الموت، سيتعين عليهم أن يدركوا، حقيقة، أنني أستطيع أن أضرب في أي وقتٍ كان، وبأي طريقة كانت، وحيث شئت".

تدخل هيفاستيون عند هذه النقطة: "لكن، تبقى هناك مشكلة. أقدم سكان تساليا على إغلاق وادي العواصف بتحصينات عن يمين النهر ويساره، إننا معزولون".

تقدم الإسكندر قليلاً نحو خريطة أرسطو، وأشار إلى جبل أوسا، وإلى المنحدر الذي يطل على البحر.

أجاب: "أعرف ذلك، لكننا سنمرّ من هنا".

سأل بطليموس: "وكيف؟ ليست لدينا أجنحة، وعلى الأقل لم تكن لدينا في آخر مرة تطلعت فيها".

أجاب الإسكندر: "لدينا المطارق والأزاميل، سنشق ممراً في الصخور، أحضر إليّ خمسة عامل منجم من جبل بانجايوس. أريد الأفضل من بين العمال. أطعمهم جيداً، وزودهم بالملابس والأحذية، وعندهم بمنحهم الحرية إذا أكملوا المهمة في عشرة أيام. سيعمل هؤلاء على شكل فرق متناوبة، وسيبدأون العمل بدءاً من البحر وصعوداً، وهكذا لن يتمكن التساليون من رؤيتهم".

سأل سلوقس: "هل أنت جاد؟".

"أنا لا أمزح في أثناء انعقاد مجالس الحرب. والآن، دعونا نتحرك".

نظر كل الحاضرين إلى بعضهم بذهول. كان من الواضح بالنسبة إليهم عدم وجود عقبة، أو مانع بشري أو غير ذلك، يمكنه إيقاف الإسكندر.

كان ممر الإسكندر جاهزاً في غضون سبعة أيام. فأسرع جنود الهجوم من حامي الدروع إلى التسلّل إلى سهل تساليا من دون أن يضطروا إلى رفع أسلحتهم ولو لمرة واحدة. وتمكّن مبعوث يمتطي جواداً، وبعد مرور ساعات عدة، من نقل هذه الأخبار إلى قائد التساليين. ولكن، من دون أن يقدّم أي تفسير، وذلك لسبب بسيط وهو أن أحداً لا يمتلك أي تفسير لما حدث. "أتريد أن تقول لي إن الجيش المقدوني أصبح خلفنا بقيادة الملك؟".

"أجل سيدي".

"وكيف تمكّنوا من ذلك برأيك؟".

"لا أحد يعرف يا سيدي. لكنّ الجنود موجودون هناك بالتأكيد. وهناك عدد كبير منهم".
"كم يبلغ عددهم؟".

"ما بين ثلاثة وخمسة آلاف، وهم مجهزون بأسلحة كافية، حتى إن هناك بعض الجياد، ليست أعدادها كبيرة، ولكن يوجد عدد منها على كل حال".

"هذا مستحيل، لا يستطيعون المرور من جهة البحر، وما من طريق لهم عبر الجبال كذلك". كان القائد الذي يُدعى شاريديموس لا يزال يتكلم عندما أبلغه أحد جنوده أن كتيبتين من قوات الفالانج، وفرقة واحدة من الخيالة تتقدم من جهة النهر نحو التحصينات. ويعني

ذلك أن التساليين سيقعون بين فكّي كماشة ويُسحقون على أيدي جيشين. وحضر أحد الجنود بعد مرور وقتٍ قليل ليخبره أن ضابطاً مقدونياً يدعى كراتيروس يطلب التفاوض.

قال شاريديموس أمراً: "قل له إنني سأقابلة على الفور". وأسرع من خلال باب خلفي كي يلتقي ذلك الضابط المقدوني.

عرّف الضابط عن نفسه: "اسمي كراتيروس. أتيت كي أطلب منك أن تسمح لنا بالمرور الآن عبر منطقتك، إننا لا ننوي أذيتكم، لأننا، وببساطة، ننوي الالتحاق بملكنا ورجالنا المتواجدين في منطقتك والذين هم في طريقهم إلى لاريسا، حيث نريد دعوة التحالف التسالي".

قال شاريديموس: "ليست لدي خيارات كثيرة".

أجاب كراتيروس: "ليست لديكم خيارات كثيرة بالفعل".
"حسناً، دعنا نتفاوض، لكنني أريد أن أعرف شيئاً".

أعلن كراتيروس بلهجةٍ رصينة: "سأجيبك إذا كان ذلك في استطاعتي".

"كيف تمكن جنودكم المشاة من الوصول إلى هنا؟".

"شقنا ممراً في الجهة البحرية لجبل أوسا".

"أقول ممراً؟".

"أجل، شقنا ممراً، وهو الممر الذي كنا بحاجةٍ إليه للتواصل مع حلفائنا من التساليين".

شعر شاريديموس بالصدمة التامة، لكنه اعترف أنه ليس لديه أي خيار غير السماح لهم بالعبور من منطقته.

بعد يومين، وصل الإسكندر إلى لاريسا، ودعا إلى اجتماع لأعضاء التحالف التسالي، وأعلن عن تثبيت لقبه تاجوس لمدى الحياة.

وبعد ذلك، انتظر الإسكندر وصول فرق جيشه الأخرى، وذلك قبل التقدم عبر بواتيا، والاصطفاف بمحاذاة أسوار طيبة في عرضٍ مهيبٍ للقوة.

قال الإسكندر: "لا أريد سفك الدماء. لكن، يجب أن نصيهم بالهلع، نفّذ هذا الأمر يا بطليموس".

أمر بطليموس الجيش بالاصطفاف بالترتيب ذاته الذي اتخذته في معركة تشايرونيا، وطلب من الإسكندر وضع الدرع ذاته الذي استخدمه والده، كما قام بتحضير طبل الحرب الضخم والمدولب الذي تجره أربعة جياد.

كان في الإمكان سماع صوت ذلك الطبل الرهيب من خلال أسوار المدينة وبوضوح. وكان سكان طيبة قد حاولوا منذ أيام قليلة مهاجمة الحامية المقدونية التي تتمركز في قلعة كادميان، وساعدهم الصوت على تذكر الإصابات التي لحقت بهم، بالإضافة إلى وجود جيش يطلق تهديداته، مما أدّى إلى تهدئة النفوس الثائرة. لكن ذلك لم يكن كافياً لإطفاء نار الحقد التام، والرغبة في الثأر.

سأل الإسكندر هيفاستيون وهو يسير بجيشه بمحاذاة أسوار طيبة: "هل هذا كاف؟".

"أعتقد أنه كاف الآن، لكن لا تخدع نفسك. ماذا ستفعل بالمدن الأخرى التي طردت منها حامياتنا؟".

"لن أفعل شيئاً، أريد أن أكون قائد الإغريق، وليس طاغيتهم، يتعيّن عليهم أن يفهموا أنني لست عدواً، وأن العدو يقبع هناك وراء البحر، العدو هو بلاد فارس التي تصرّ على حرمان المدن اليونانية من حريتها".

"هل صحيح أنك أمرت بإجراء تحقيق بقضية مقتل والدك؟".

"أجل، طلبت من كاليستين أن يهتم بالأمر".

"وهل تعتقد أنه سيتوصل إلى حقيقة ما حصل؟".
"أعتقد أنه سيفعل ما في وسعه".
"وماذا سيحصل إذا اكتشف أن الإغريق هم المسؤولون؟ أو
الأثينيين، على سبيل المثال؟".
"سأقرّر ما ينبغي عمله عندما يحين الوقت".
"شاهد كاليستين مع أرسطو، هل علمتَ بذلك؟".
"بالطبع".
"وكيف تفسّر حقيقة أن أرسطو لم يأتِ كي يتحدث معك
شخصياً؟".
"لم يعد التحدث معي سهلاً بالنسبة إلى أي شخص، أو لعله يريد
الحفاظ على استقلالية كاملة في تقييم الوضع".
تفرقت آخر فرقة من الرفاق مع تلاشي قرع الطبل الضخم،
كما عقد سكان طيبة المجلس المخصّص من أجل اتخاذ القرارات
الهامة. ووصلت إلى المجلس رسالة من ديموستين الموجود في كالوريا
يحثّهم فيها على عدم فقدان الأمل، والتحضير والاستعداد لثورتهم
القادمة.
جاء في الرسالة: "إن فتى صغيراً يتربع على عرش مقدونيا، من
الواضح أن الوضع يسير لصالحنا".
سرّ جميع الحاضرين تقريباً بكلمات ذلك الخطيب. لكنّ بعض
أعضاء مجلس طيبة فضّلوا أن يكونوا أكثر تعقلاً. وطلب أحد المستنّين
الذي فقد ولدين في معركة تشايرونيا الكلام، فقال: "تمكّن ذلك الفتى
الصغير كما يسميه ديموستين من قهر تساليا في غضون ثلاثة أيام ومن
دون خوض أي معركة، كما أنه بعث إلينا رسالة واضحة تمثلت في
هذا الاستعراض الذي أجراه تحت أسوار مدينتنا".

أما الأصوات الغاضبة التي تمكنت من إسماع آرائها إلى مختلف الأحياء، فقد تمكنت من إضعاف الأصوات التي تدعو إلى التعقل، وهكذا تحضر سكان طيبة لتوجيه ضربتهم عند ظهور أول فرصة. وصل الإسكندر إلى كورينث من دون أي عوائق على الإطلاق، وأسرع على الفور إلى دعوة مجلس التحالف الهليني، كما طلب تثييته بصفته قائداً للجيش الاتحادية.

أصدر الإسكندر إعلاناً في أثناء اعتقاله المقعد الذي كان يستخدمه والده: "ستكون كل دولة من الدول الأعضاء حرة في حكم نفسها كما تريد، ولن يكون هناك أي تدخل في أنظمتها الداخلية ودساتيرها. إن غاية الاتحاد الوحيدة هي تحرير الإغريق الآسيويين من النير الفارسي، والحفاظ على السلام الدائم بين الإغريق الذين يعيشون في شبه الجزيرة".

وقعت الوفود على هذا الإعلان باستثناء أفراد وفد إسبارطة الذين لم يدعموا مبادرة فيليب كذلك.

أبلغ موفد إسبارطة الإسكندر: "تعودنا على قيادة الإغريق، وليس على الخضوع لقيادتهم".

أجاب الملك: "أنا آسف لأن الإسبارتيين جنود متمرسون. وفي الوقت الراهن، إن المقدونيين هم أقوى الشعوب الإغريقية. وهكذا فإن توليهم القيادة أمر صائب. لذا، يجب أن يكونوا القادة، وأن يتمتعوا بحق السيطرة". أظهرت هذه الكلمات بعض الأسف لأنه كان يعرف الشجاعة التي أبدتها جنود إسبارطة في ثيرموبايلاي وبلاتيا. وكان يدرك تماماً أنه ما من قوة يمكنها أن تقاوم عوامل الزمن، لأن الشيء الوحيد الذي يبقى ويستمر مع الزمن هو مجد الذين عاشوا بشرف.

زار الإسكندر دلفي في رحلة عودته، فأعجب بها، وتأثر كثيراً
بمعجائب تلك المدينة المبهجة. توقف أمام واجهة معبد أبولو، وراح
يتفحص الكلمات المزخرفة المحفورة فيها:

اعرف نفسك

سأل كراتيروس الذي لم يسبق له أن فكّر كثيراً بالمسائل
الفلسفية: "ماذا تعني هذه الجملة؟".

أجاب الإسكندر: "إنها واضحة، إن معرفتنا أنفسنا أصعب مهمة
نقوم بها لأنها لا تشتمل على المنطق وحده، بل تتضمن كذلك معرفة
مخاوفنا وطموحاتنا كذلك. وإذا كنا قادرين فعلاً على معرفة أنفسنا
فسنكون قادرين على فهم الآخرين، والحقيقة التي تحيط بنا".

ثم وقف الإسكندر ومرافقوه يراقبون الموكب الطويل من الناس
الذين قدموا من مختلف الأنحاء حاملين نذورهم وطلباتهم، ويشتمل
الموكب على قادمين من كل أنحاء العالم اليوناني.

سأله بطليموس: "هل تعتقد أن ما تقوله الضالعة هو
الحقيقة؟".

"لا تزال أصداء الإجابة التي تلقاها والذي ترن في أذني".

قال هيفاستيون: "كان ذلك جواباً غامضاً".

أجاب الإسكندر: "لكنه صحيح في النهاية. ولو كان أرسطو هنا
لقال إن التوقعات هي التي تجعل الأحداث المستقبلية تتحقق، بدلاً من
الاكتفاء بتوقعها...".

أوما هيفاستيون وقال: "هذا محتمل تماماً. سمعت مرة أحد دروسه
في مييزا عندما قال إنه لا يثق بأحد، ولا حتى بالأسياء، لأن كل شيء
يستند إلى عقله".

*

استرخى أرسطو على مقعده، وشبك أصابع يديه واضعاً إياهما فوق بطنه: "وماذا بشأن ضالعة دلفي؟ هل فكّرت في جواب بيثيا؟ إنه مثير للشك أليس كذلك؟ تذكر أن التوقع يستمرّ استناداً إلى مصداقيتها. لكنّ تكوين هذه المصداقية يتطلب مقداراً لا حدّ له من المعرفة، وليست لدى أي شخصٍ من الأحياء معرفة تفوق معرفة كهنة معبد أبولو، ولهذا يتمكنون من توقع المستقبل، أو من تحديده، إنه الشيء ذاته في نهاية الأمر".

حمل كاليستين لوحاً كتب عليه أسماء كل المشتبه بهم حتى اللحظة في إصدار الأمر باغتيال فيليب.

عاود أرسطو الكلام مجدداً: "ماذا تعرف عن القاتل؟ مع مَنْ أمضى الوقت قبل لحظة اغتياله الملك مباشرة؟".

قال كاليستين: "هناك تطوّر مثير للأحداث من هذه الناحية يا خالي. إن آتالوس والد يوريديس متورّط في الجريمة، أو دعنا نقول - على الأصح - إنه غارق فيها حتى أذنيه".

"لكنّ آتالوس قُتل".

"بالضبط".

"وماتت يوريديس كذلك".

"بالفعل، ولا تنسَ أن الإسكندر قد أمر ببناء قبرٍ جميل لها".

قال أرسطو: "يُضاف إلى ذلك أنه تشاجر مع والدته أوليمبيا بشدة لأنها هاجمت يوريديس، ولأنه يُحتمل أن تكون هي المسؤولة عن مقتل ابنها".

"إن هذا يبرّئ الإسكندر".

"يتعيّن علينا ألا ننسى في الوقت ذاته أن هذه الوفيات قد ساعدته كثيراً على اعتلاء العرش".

سأل كاليستين: "هل تشك فيه؟".

"كلا، لا أشك فيه بحسب معرفتي به. لكن معرفة حدث جنائي، أو الشك في إمكانية حدوثه من دون القيام بأي شيء لمنعه، يمكن أن يكون نوعاً من الشعور بالذنب".

"إن المشكلة الحقيقية هنا هي أن عدداً كبيراً من الناس قد امتلكوا دوافع لقتل فيليب. يتعين علينا الاستمرار في تجميع المعلومات حتى نصل إلى الحقيقة من خلال قوة الدلائل التي نجتمعها ضد أحد المشتبه بهم، أو ضدهم جميعاً. تابع تحرياتك عن تورط آتالوس، ودعني أعرف ما تتوصل إليه. لكن، دع الإسكندر يعرف كذلك، لأنه هو الذي كلّفك بهذه المهمة".

"هل يجدر بي أن أقول له كل شيء؟".

"أجل، قل له كل شيء، وتأكد من ملاحظة رد فعله".

"أيمكنني أن أقول له إنك تساعدني؟".

أجاب الفيلسوف: "بالطبع. أولاً، لأنه سيسرّ عند سماعه هذا الخبر. وثانياً، لأنه يعرف ذلك مسبقاً".

عند نهاية فصل الخريف، عاد القائد بارمينيون إلى بيلا مع ابنه فيلوتاس وذلك بعد أن ضمن أن حملة آسيا الاستكشافية ستمضي الشتاء من دون أي مشاكل كبيرة.

استقبله أنتيباتر لأنه كان يحمل الختم الملكي في ذلك الوقت، وكان يعمل بصفته الوصي الرسمي على العرش.

قال بارمينيون: "أسفت كثيراً لأنني لم أتمكن من حضور جنازة الملك، ويتعين عليّ أن أقول إن موت آتالوس قد أحزنني كثيراً. لكن، لا يمكنني القول إنني لم أتوقعه".

"على كل حال، أظهر الإسكندر ثقته التامة بك عندما أرسل فيلوتاس إليك. أراذك أن تكون حراً في اتخاذ أي قرارٍ تشعر أنه يلزمك أكثر من غيره".

"هذا هو السبب الذي دفعني إلى المجيء. لكنني أعترف بأنني فوجئت عندما رأيت الختم الملكي في إصبعك، لأن الملكة الأم لم تحبك أبداً، وسمعت أنها لا تزال تمارس تأثيراً قوياً على الإسكندر".

"هذا صحيح. لكنّ الملك يتخذ قراراته بنفسه، وهو يتمتع بثقة كبيرة بما. أما الآن، فإن كل ما يريده هو أن تبتعد والدته عن السياسة نهائياً".

"وماذا بشأن السياسة؟".

"ماذا تظن؟ تمكّن الرجل في غضون ثلاثة أشهر من إعادة تأسيس التحالف التسالي، ومن إخافة سكان طيبة، ومن تعزيز التحالف الهليني،

ومن استعادة القائد بارمينيون، وهو مفتاح حملته إلى الشرق. إن ذلك ليس بالقليل بالنسبة إلى فتى، كما يحب أن يسميه ديموستين".

"أنت على حق. لكن الشمال لا يزال مشكلةً بالنسبة إلينا، إن الترياليين متحالفون الآن مع الجيتاين الذين يعيشون على الضفاف السفلى لنهر إستر، وقد شنّ الطرفان معاً غارات على مناطقنا بصورة مستمرة تقريباً، حتى إننا خسرنا بعض المدن التي أسسها الملك فيليب".

"أعتقد أن هذا هو السبب الذي دفع بالإسكندر إلى استدعائك إلى بيلا. إنه ينوي الزحف شمالاً عند منتصف فصل الشتاء كي يفاجئ العدو، وسيطلب منك قيادة الصف الأول من جنود المشاة، وينوي وضع أصدقائه، بصفتهم قادة كتائب، تحت تصرفك. يريدون أن يتعلموا من قائد ماهر".

"وأين هو الآن؟"

"إنه يجتاز تساليا بحسب آخر الأنباء، لكنه توجه إلى دلفي".

امتقع وجه بارمينيون، وقال: "هل استشار الضالعة؟".

"أجل، بطريقة ما".

"ماذا تعني بذلك؟"

"يُحتمل أن الكهنة أرادوا تجنب حدث يماثل زيارة فيليب، ولذلك أبلغوا الإسكندر أن بيثيا ليست بخير، وأنها لا تستطيع الإجابة عن أسئلته. لكن الإسكندر جرّها بالقوة إلى المذبح بنية إجبارها على إعطائه توقيعاً". كان وجه بارمينيون وعينه تعبر عن شكّه في ما يسمعه من أنتيباتر. "جنّ جنون بيثيا من الغضب عند هذه المرحلة، وبدأت بالصراخ بشراسة: لكن، لا يُمكن لشيء أن يوقفك يا بني! توقف الإسكندر عند هذا الحد بعد أن صدمته هذه الكلمات، وقال ببساطة: إنه ردّ كافٍ، ثم غادر المكان بعد ذلك".

هز بارمينيون رأسه: "لقد أعطته توقعاً جيداً... وسطراً يجدر بممثلٍ عظيم أن يتلوه".
"وهذا ما هو عليه الإسكندر بالضبط، أو بالأحرى إنه ممثلٌ عظيم بالإضافة إلى صفاته الأخرى، سترى".
"أتظن أنه يصدّق التوقعات؟".

مرّر أنتياتر يده من خلال لحيته الكثيفة وقال: "نعم ولا. إن المنطق الذي يتميّز به كل من فيليب وأرسطو يسري في الإسكندر، بالإضافة إلى الطبيعة الغامضة والفطرية والبربرية لوالدته. لكنه رأى والده يسقط مثل ثور يُضحى به أمام المذبح. وفي تلك اللحظة، لا بد أن كلمات التوقع قد تفجرت مدوية في ذهنه مثل قصف الرعد، وهو لن ينسى ذلك المشهد طوال حياته".

أرعى المساء سدوله فخيّمت أجواء الكآبة على المحاربين القدماء، وأحسّا أن زمنهما قد شارف على المغيب مع موت الملك فيليب، وأن الأيام قد شارفت على النفاد مع ألسنة اللهب المتراقصة التي اشتعلت حول محرقة الملك القتل.

تمتم بارمينيون على نحو مفاجئ: "ربما لو كنا إلى جانبه...".
"لا تقل كلمة أخرى يا صديقي. لا يقدر أحد على تغيير ما يرسمه القدر، إننا نأمل أن يكون ملكنا قد حضّر الإسكندر ليكون خليفته، كما أننا نهبه ما تبقى من أيامنا".

*

عاد الملك إلى بيلا على رأس قواته، وسار مستعرضاً الجنود في أنحاء المدينة وسط خطّين من المتفرجين المبتهجين. كانت هذه هي المرة الأولى التي يعود فيها الجيش منتصراً من حملة عسكرية من دون خوض أي معركة، ومن دون تكبد الخسائر. أما هذا الشاب الوسيم بوجهه،

وملابسه، ودروعه، فقد كان متألقاً إلى حدّ أن الجميع اعتبروه تجسداً
لسيد مبجل شاب، أو لبطل ملحمي. ورأى الناس في أعين رفاقه النور
ذاته الذي ينعكس من عينيه العميقتين والمتقدتين بالحماسة.
تقدّم أنتيباتر كي يلتقيه ويُرجع الختم الملكي إليه، ويُبلغه بعودة
بارمينيون.

قال له الإسكندر أمراً: "خذني إليه على الفور".
ترجّل القائد عن جواده، وتقدم الطريق إلى منزل منزّل يقع
خارج المدينة مباشرة.

نزل بارمينيون على الدرج وقلبه يقفز بين أضلعه فور الإعلان
عن وصول الملك، ومعرفته أن الملك لم يصل إلى القصر حتى الآن بعد
عودته من رحلته، وجد بارمينيون الإسكندر واقفاً أمامه عندما خرج
من الباب.

بادره الإسكندر بالتحية وعانقه قائلاً: "أيها الجندي! يا محاربي
القديم! شكراً لك لأنك عدت".

أجاب بارمينيون بصوت تملأه الغصة: "مولاي! كان موت والدك
صدمةً كبيرة لي، كنت أود أن أفتديه بحياتي لو كان ذلك ممكناً، وودت
لو أن جسدي كان درعاً له... كنت أود...". لم يتمكن الرجل من
إكمال كلماته لأن صوته بدأ بالتقطع.

أومأ الإسكندر وقال: "أعرف ذلك". وضع الملك يديه على
كتفي بارمينيون، وحدّق إلى عينيه مباشرة. "كنت لأفعل الشيء ذاته لو
أمكنني ذلك".

نظر بارمينيون إلى الأسفل.
"حدث الأمر كالصاعقة أيها القائد، ولا شك في أن رجلاً عبقرياً
عديم الرحمة قد خطط للأمر. في تلك اللحظة، حدث هياج وجلبة

كبيران. كنت أتقدمه في ذلك الوقت مع الإسكندر ملك إبيروس. صاح إيومينيس بشيء لم أتمكن من سماعه أو فهمه، فالتفت. وعندما أدركت أن أمراً ما يحدث كان قد بدأ بالسقوط على ركبتيه مضرجاً بدمائه".

"أعرف يا مولاي. لكن دعنا نتوقف عن الحديث عن هذه الأمور المحزنة. سأتوجه غداً إلى إيحية، وسأضع نذراً عند قبره، أمل أن يسمعي. لكن، لماذا أتيت لزيارتي الآن؟".

"أردت أن أرحّب بك، وأن أدعوك إلى تناول طعام العشاء معي، وسيكون الجميع هناك. كما أريد أن أشرح خططتي لهذا الشتاء، ستكون هذه آخر مهامنا في أوروبا، وسنزحف بعد ذلك إلى الشرق، نحو البلاد التي تطلع منها الشمس".

امتطى الإسكندر صهوة جواده، فيما عاد بارمينيون إلى المنزل ونادى خادمه وقال آمراً: "حضّر لي حمامي وأفضل ثيابي، سأتناول طعامي مع الملك هذا المساء".

وفي الأيام التي تلت هذه الأحداث، اشترك الإسكندر في تدريبات عسكرية، كما شارك في رحلات صيد عديدة، لكنه أدرك أن سلطته معترف بها حتى في البلاد البعيدة، واستقبل وفوداً، ليس فقط من المدن الإغريقية في آسيا. ولكن، من صقلية وإيطاليا كذلك. أهدته وفود بعض مدن شواطئ البحر التيراني إناءً ذهبياً، كما طلبوا منه مساعدتهم.

سرّ الإسكندر كثيراً، وسأل عن مصدر الهدية. فشرحت له الوفود بلهجة لم يسبق له أن سمعها، لكنها ذكّرتَه بالطريقة التي يتكلم فيها سكان جزيرة إيوبويا: "من نيوبوليس، ومديدا، وبوسايدونيا".

"وماذا أستطيع أن أفعل من أجلكم؟". أجاب أكبر عضو في الوفد: "أيها الملك الإسكندر، هناك مدينة تقع إلى شمال مدننا، وتدعى روما". أجاب الإسكندر: "سبق لي أن سمعت بها. قيل لي إن آينياس، بطل حرب طروادة، هو الذي أسسها".

"هذا صحيح، لكنها مدينة تقع على ساحل أراضي الرومان، وتسكنها مجموعة من القراصنة الذين يسببون المتاعب والاضطراب في خطوطنا البحرية. إننا نريد أن نضع حداً لهذا الوضع، ونريدك أن تتدخل لمساعدتنا على ذلك. فلقد انتشرت شهرتك في كل مكان، لذلك نثق بأنّ رأيك تأثيراً مهماً في هذه القضية".

"سأفعل ذلك بكل سرور، كما آمل أن يسمعو نصيحتي. ولكن، أريدكم أن تبقوني على علمٍ بنتيجة هذه المبادرة".
وأوماً بعد ذلك إلى كاتبه وبدأ بإملاء الرسالة.

من الإسكندر، ملك مقدونيا، وقائد التحالف الهليني، إلى سكان مدينة روما، تحياتي إليكم!
أبلغني إخواننا في المدن الواقعة على خليج تيرانة أنهم يعانون من أضرارٍ كبيرة على يد بعض مواطنيكم الذين يعملون في مجال القرصنة.
ولهذا السبب، إنني أطلب منكم أن تحلّوا هذه المشكلة بأسرع وقتٍ ممكن.
أما إذا كنتم عاجزين عن حلها بأنفسكم فيمكنكم أن تسمحوا لغيركم بمعالجتها.

ثمّ ختم الإسكندر الرسالة وأعطاهها إلى ضيوفه الذين شكروه بشدة، وغادروا بعد أن شعروا بالارتياح لنتائج مهمتهم.
سأل الإسكندر إيومينيس الذي كان جالساً قربه: "إنني أتساءل عن مفعول تلك الرسالة، وما الذي سيفكر فيه الرومان عن ذلك الملك البعيد الذي يتدخل في شؤونهم الداخلية".
قال إيومينيس: "لكنه ليس بعيداً جداً، أعتقد أنهم سيردون على رسالتك".

وصل موفدون آخرون حاملين أخباراً أخرى، لكنها أسوأ بكثير، وهذه المرة عن الحدود الشمالية. أفادت هذه الأخبار أن التحالف القائم بين الترياليين والجيتاين، قد تعزّز أكثر، وصار يقف حجر عثرة أمام فتوحات فيليب في تراقيا. كان الجيتايون مخيفين لأنهم يعتقدون أنهم مخلصون، ولذلك كانوا يحاربون بوحشية وشراسة، كما كانوا يتجاهلون الأخطار الشخصية، فقد هوجمت مدن كثيرة أسّسها والد الإسكندر، كما تعرضت للنهب، وتعرض سكانها للمجازر أو الاستعباد. بالرغم من ذلك، بدا الوضع هادئاً، في ذلك الوقت، لأن

محاربي الشمال قد عادوا جميعاً إلى قراهم كي يستعدوا لفصل الشتاء القاسي.

قرّر الإسكندر أن يدفعهم إلى الانسحاب حتى مسافات أبعد، وأن يضع خطته موضع التنفيذ، فأرسل أمراً إلى الأسطول المربط في بيزنطة كي يبحر نحو إستر. وكان ذلك الأمر يستغرق مدة خمسة أيام حتى يصل الأسطول إلى حيث يلتقي ذلك النهر مع نهر بيوكيس. وفي الوقت ذاته، استنفر الإسكندر وحدات جيشه في بيلا، وأناط ببارمينيون قيادة قوات المشاة، كما أنه تسلم شخصياً قيادة وحدات الفرسان قبل أن تنطلق الحملة.

عبرت الحملة جبل رودوب، ثم هبطت إلى وادي يوروبوس، ثم بدأ الزحف الصعب نحو معابر هابمون التي كانت لا تزال مغطاة بطبقة من الثلج. رأى الإسكندر في أثناء تقدمه المدن المنكوبة والحقول، المنهوبة، والجثث المعلقة على أعمدة، بينما كانت جثث أخرى مقيدة ومحرقة، فتصاعد غضب الملك المقدوني، وتنامي، حتى أصبح كالعاصفة التي تحرك نهرًا في أوج فيضانه.

نقذ الإسكندر مناورة غير متوقعة عندما نزل بخيالاته إلى سهل جيتاي، وحرق القرى والمعسكرات، وأفسد المحاصيل، وقتل الماشية.

تراجع السكان مذعورين ومرتعبين نحو نهر إستر، ولجأوا إلى جزيرة تقع عند منتصف النهر، حيث ظنوا أن الإسكندر لن يقدر على الوصول إليهم. لكن الأسطول البيزنطي وصل في تلك الأثناء، ونقل الجنود المهاجمين، وحاملي الدروع، وفرسان فرقة الطليعة.

كانت المعركة التي جرت فوق الجزيرة شرسة جداً. حارب الجيتايون والثريليون بشراسة وبطاقة تكاد تكون فوق احتمال البشر، لأنهم كانوا يدافعون ليس فقط عن آخر أراضيهم، بل لأنهم كانوا

يدافعون عن زوجاتهم وأطفالهم. قاد الإسكندر بنفسه الهجوم على مواقعهم، وذلك وسط الرياح الهوجاء والأمواج القوية لنهر إستر الذي زاد منسوبه مع الأمطار الغزيرة. واحتلط دخان الحرائق مع مياه الأمطار المختلطة بالثلوج، بينما تصاعدت صرخات الجنود، وأنين الجرحى، وصهيل الجياد، وامتزج كل ذلك مع دوي الرعد وصفير الرياح الشمالية.

شكّل الرجال الذين كانوا عرضة للهجوم دائرة محكمة، وقربوا دروعهم من بعضها، كما ثبتوا رؤوس رماحهم في الأرض من أجل تكوين حاجز من هذه الرماح ضد هجمات الفرسان. وقف الرماة خلف هذا الحاجز، وأطلقوا سيلاً من السهام المميتة التي كانت بحوزتهم. لكن الإسكندر ذاته امتلك قوة هائلة.

ذهل بارمينيون الذي سبق له أن شاهد طريقة قتاله في تشايرونيا قبل ثلاث سنوات، وعلى الأخص عندما رآه يقاتل وجهاً لوجه ومن دون أن يكثر لأي شيء. فلقد بدا الإسكندر وكأنه مدفوع بغضب لا يستطيع السيطرة عليه، وامتلك طاقة لا تنضب، وراح يصرخ، ويحصد رؤوس الأعداء بسيفه وفأسه، ودفع بوسيفلاس بدرعه البرونزي مقتحماً صفوف خصومه كي يفتح ثغرة يستطيع من خلالها قيادة فرقة الفرسان المسلحة تسليحاً ثقيلاً، بالإضافة إلى قوات المشاة الهجومية.

استسلم الترياليون بعد أن حوصروا وطوردوا واحداً تلو الآخر، بينما تابع الجيتايون القتال حتى النهاية المريعة، وحتى خمدت آخر شرارة من طاقتهم.

بعد انتهاء المعركة، تحركت العاصفة قادمة من الشمال، ووصلت إلى الجزيرة، ثم ما لبثت أن اختلطت مع الرطوبة المتصاعدة من نهر إستر

فهدأت قليلاً، فيما بدأ الثلج بالتساقط فجأة. تساقط في البداية على شكل رقائق ممزوجة بالمطر، ثم بدأت بلورات دقيقة من الجليد تتساقط مع المطر، وسرعان ما بدأت تكبر وتزداد سماكة، إلى أن أصبحت على شكل رقائق كبيرة، غطت الجثث المدماة الملقاة على الأرض بغطاء أبيض، فانطفأت النيران، وسرعان ما خيم صمتٌ كثيب على المكان، ولم تكسره هنا وهناك غير صرخات مكتومة، أو صهيل الجياد في أثناء تنقلها وسط العاصفة.

رجع الإسكندر إلى ضفة النهر، فرآه الجنود الذين تركهم كي يجرسوا الميناء وهو يظهر على حين غرة من وراء ستارة من الثلج والضباب. كان قد فقد درعه، لكنه كان ممسكاً بسيفه وفأسه المزدوج، كما كان مغطى بطبقة من الدماء من رأسه وحتى أخمص قدميه. فيما كانت الدروع البرونزية التي تحمي صدر بوسيفالاس وجبهته، ملطخة بالدماء وبالعرق المتصبب من جسم الجواد. بدا الجواد مثل حيوان آت من مخيلة منحرفة، ومثل مخلوق آت من أحد الكوابيس. وبعد وقت قصير، التحق بارمينيون بالإسكندر وكان الذعر بادياً على كل أنحاء وجهه، ثم قال: "كان يجب عليك ألا...".

نزع الملك خوذته، وكشف عن شعره أمام الرياح الباردة، لكن القائد القديم لم يميز صوته عندما قال: "لقد انتهى كل شيء يا بارمينيون، دعنا نعود".

*

أرسل الإسكندر قسماً من الجيش إلى الوطن عبر الطريق ذاته الذي سلكه في طريقه شمالاً، فيما قاد بقية الجنود والفرسان غرباً. محاذاة نهر إستر حتى وصل إلى بلاد السلتيين، وهم الشعب الذي تمتد جذوره إلى ما وراء المحيط الشمالي، وهناك عقد تحالفاً معهم.

جلس مع زعيمهم تحت خيمة مصنوعة من جلود الحيوانات المدبوغة، وهو رجلٌ ضخَمُ الجثة ذو شعرٍ أشقر، ويعتمر خوذة فوقها طائر يرفرف بجناحيه مصدراً صوتاً يشبه الصرير عندما يحرك رأسه. قال البربري: "أقسم إنني سأكون مخلصاً لهذا الحلف طالما أن الأرض لا تغرق في البحر، ولا يصعد البحر كي يغطي الأرض، وطالما أن السماء لا تنطبق على رؤوسنا".

فوجئ الإسكندر بهذا القَسَم الذي لم يسمع مثله من قبل، وسأله: "أي من هذه الأمور تخشاها أكثر من غيرها؟". رفع الزعيم السلتي رأسه، فتنحَّرك جناحا الطائر صعوداً وهبوطاً، وراح يفكّر للحظة قبل أن يجيب برزانة: "أخاف أن تنطبق السماء على رؤوسنا".

لم يكتشف الإسكندر أسباب ودوافع هذا الجواب. عبر الإسكندر بعد ذلك بلاد الدردانيين والأغريانيين، وهم سكان متوحشون من أصول إيليرية، وسبق لهم أن نكثوا بعهودهم مع فيليب من أجل الانضمام إلى الجيتاين والترياليين، فقمعهم الإسكندر وأجبرهم على تقديم الجنود لأن الأغريانيين كانوا مشهورين بقدرتهم على تسلق سفوح أكثر الجبال انحداراً بكامل أسلحتهم. ولقد اعتقد الملك الشاب أن الاستفادة من هذه المهارات قد تكون أنسب من شقّ ممر وسط الصخور لمشاته، أي كما فعل في جبل أوسا. استغرق الجيش وقتاً طويلاً في الزحف، وشقّ طريقه عبر الأودية والغابات الكثيرة التي تزخر بها هذه المناطق غير المأهولة، وذلك إلى حد أن الشائعات سرت حول سقوط الملك في فخٍ قُتل على إثره. سرت هذه الشائعة مثل النار في الهشيم، وما لبثت أن وصلت إلى أثينا عن طريق البحر أولاً، ثم عن طريق طيبة.

عاد ديموستين على الفور من كالوريا التي لجأ إليها إلى أثينا. وسارع إلى إلقاء خطاب حماسي أمام الجمهور. أرسلت رسائل داعمة إلى طيبة مرفقة مع عتاد من السلاح الثقيل لجنود المشاة، وهو الأمر الذي كانت تفتقده تلك المدينة. أسرع أهل طيبة إلى الثورة وحمل السلاح، وحاصروا الحامية ثم احتلوا قلعة كادميان، وحفروا الخنادق وشيدوا الحواجز من كل الجوانب، وهكذا فقد المقدونيون كل أمل في تلقي الإمدادات من الخارج.

علم الإسكندر بأمر هذه الانتفاضة ضد قواته، وغضب كثيراً عندما علم بأمر خطابات ديموستين ضد مقدونيا وملكها الجديد. استغرقه الأمر ثلاثة عشر يوماً للانتقال من ضفاف نهر إستر إلى أسوار طيبة، وتزامن ذلك مع قرب استسلام حامية حصن كادميان بسبب الضعف الذي أصابها من جراء الحصار. لم يصدّق الجنود أعينهم عندما رأوا الملك على صهوة بوسيفالاس، وعندما سمعوه يأمر سكان طيبة بتسليمه قادة الانتفاضة المسلحة.

صرخ الإسكندر: "سَلِّمُونِي إِيَّاهُمْ كَيْ أَحْفَظْ مَدِينَتَكُمْ!". اجتمع سكان طيبة لاتخاذ القرار. كان ممثلو المجموعات الديمقراطية الذين نفاهم فيليب قد عادوا، وصمّموا على تنفيذ انتقامهم من مقدونيا.

قال أحدهم، ويدعى ديودوروس: "إنه مجرد فتى، ماذا تخشون؟ إن الأثينيين معنا، وكذلك التحالف الإيطولي، وحتى إسبارطة ذاتها قد تنضم إلينا بعد وقت قصير. حانت اللحظة التي ستخلّص فيها، وإلى الأبد، من الطغيان المقدوني! كما أن ملك الفرس العظيم قد وعد بمساعدتنا بمَدِّنا بالأسلحة والأموال من أجل تعزيز ثورتنا، وهي في طريقها إلى أثينا في أثناء حديثي معكم".

سأل مواطن آخر: "لماذا لا نتنظر في هذه الحالة وصول الإمدادات؟ يُحتمل أن تستسلم الحامية المتحصنة في قلعة كادميان، وستتمكن عندها من استخدام الرجال في المفاوضات. أي سندعهم يذهبون بسلام مقابل انسحاب الجنود المقدونيين بالكامل من أراضينا. ويمكننا كذلك أن نتنظر وصول جيش حليف لنا يستطيع التمرکز خلف الإسكندر، ثم نحاول شنّ الهجوم".

أصرّ ديودوروس على موقفه: "كلا! إن كل يوم يمر يصعب الأحوال علينا، إن كل الذين يعتقدون أنهم عانوا من الظلم أو القهر على يد مدينتنا سيّتحذون مع المقدونيين. إن هناك جنوداً يتقدمون في أثناء حديثي معكم الآن من فوكيس، وبلاشيا، وثيسبياي، وأوروبوس، وكلهم يكرهوننا إلى درجة أنهم يسعون إلى دمارنا بالكامل. لا تخافوا يا سكان طيبة! سنتقم للذين قتلوا في تشايرونيا مرةً وإلى الأبد!".

تحمس المواطنون عند سماعهم هذه الكلمات الحماسية، فوقفوا متحدّين وبدأوا بترداد كلمة "الحرب!" حدث ذلك من دون أن ينتظروا انتهاء الجلسة بصورة رسمية، وهرع الجميع إلى منازلهم من أجل تجهيز أسلحتهم.

أما الإسكندر فقد دعا من جهته إلى عقد مجلسٍ حربي في خيمته.

بدأ الإسكندر حديثه على هذا النحو: "إن كل ما أريده هو إرغامهم على المفاوضات بالرغم من رفضهم".

اعترض هيفاستيون بالقول: "لكنهم أعلنوا عن تحديهم لنا. دعنا نهاجمهم الآن حتى تثبت لهم أننا الأقوى!".

قال بارمينيون: "إنهم يعرفون مسبقاً من هو الأقوى، إننا موجودون هنا بجيش قوامه ثلاثون ألف رجل، وثلاثة آلاف فارس،

وكلهم من المتطوعين الذين لم يخسروا أي معركة، سيضطرون إلى
المفاوضة".

قال الإسكندر: "القائد بارمينيون على حق. لا أريد سفك
الدماء، إنني على وشك أن أغزو آسيا، وكل ما أريده هو أن أترك
خلفي سلاماً بين كل الإغريق، وأن أعرف أنني ربّما أتمتع بتأييدهم في
المشروع الذي أزمع على القيام به، سأعطيهم الوقت كي يفكروا في
هذه الأمور".

سأل هيفاستيون: "إذاً لماذا، بحق السماء، سرنا ثلاثة عشر يوماً
ونحن نـزحف بمشقة كبيرة؟ ولماذا نجلس هنا بين الخيام كي ننتظر
قرارهم حول ما يريدون أن يفعلوه؟".

"إن هدي في هو إظهار تمكني من الضرب في أي وقت أريده،
وضمن مهلة قصيرة، وأن أظهر لهم عدم بُعدي عنهم. بما يكفيهم لتنظيم
قواهم. ولكن، إذا طلبوا السلم فسأمنحهم إياه بكل سرور".

مرّت الأيام ولم يحدث أي شيء، إلى أن قرّر الإسكندر إخافة
سكان طيبة بشكل أكثر حزمًا، والضغط عليهم كي يشرعوا
بالتفاوض، فأمر أن يصطفّ الجيش بتشكيلات قتالية، ثم سار به نحو
الأسوار. وبعد ذلك، أرسل منادياً كي يعلن:

"يا سكان طيبة! يعرض عليكم الملك الإسكندر السلم الذي قبله
كل الإغريق، كما يعرض عليكم استقلالكم وحريتكم في اختيار أي
نظام سياسي تريدونه. لكن، إذا رفضتم هذا العرض، فإنه سيستمر في
عرضه استقبال الذين يريدون المغادرة من بينكم. إنه يريد أن تعيش
طيبة الآن بسلام أو من دون أي أحقاد وسفك دماء!".

لم يتأخر ردّ سكان طيبة، إذ صاح أحد المنادين من فوق أحد
الأبراج:

"أيها المقدونيون! إن أي شخص يريد الانضمام إلينا، وإلى ملك فارس العظيم، في مهمة تحرير الإغريق من كل طغيان سيكون مرحباً به هنا في طيبة، وسنفتح أبوابنا له".

أساءت هذه الكلمات كثيراً إلى الإسكندر، لأنها جعلته يشعر أنه طاغية بربري، وهو الأمر الذي يخالف الحقيقة، فهو لا يريد أن يصبح كذلك في يومٍ من الأيام. وتمكّن هذا الإعلان الذي صدر عن سكان طيبة من تحطيم أحلام الإسكندر، وأحلام والده فيليب في لحظة واحدة. فلقد شعر أنه تعرّض للرفض والإهانة. لذا، لم يعرف غضب الإسكندر أي حدود، كما أن عينيه أظلمتا مثل سماءٍ تلبدت فيها الغيوم التي تُنذر بهبوب عاصفة.

صاح الإسكندر: "آن الأوان، لم يتركوا لي أي خيار، لكنني سأجعل هذه المدينة أمثلة بحيث لن يتجرأ أحد على خرق السلم الذي أنشأته لكل الإغريق".

أما من جهة طيبة، فلم تسكت كل الأصوات التي دعت المدينة إلى التفاوض، كما ظهرت عدة أمور تُنذر بالشؤم، والتي نشرت أجواء القلق بين السكان. فلقد شوهد بيت عنكبوت كبير في معبد ديمتر، وذلك قبل ثلاثة أشهر من وصول الإسكندر إلى الأسوار التي يتمركز فيها جنوده. كان بيت العنكبوت هذا على شكل عباءة والتمع بألوان مميزة، مثل قوس قزح.

وعندما طُلب من ضالعة دلفي تفسير هذه الظاهرة قدّمت هذا الجواب:

أرسلت الأسبياد هذه العلامة إلى كل البشر الفاتين

إلى البواتيين أولاً، ثم إلى جيرانهم

استُشيرت ضالعة طيبة القديمة كذلك، فكان جوابها التالي:

شبكة العنكبوت مهلكة لأحد الناس
بينما هي نعمة بالنسبة إلى إنسان آخر^(*)

لم يُفلح أحد في تفسير هذه الكلمات. لكن الإسكندر وصل ذات صباح مع جيشه، فبدأت التماثيل الموضوعة في باحة السوق في طيبة بالتعرق، وسرعان ما تغطت بطبقة من نقاط سائلة كبيرة تدرجت ببطء إلى الأرض.

تلقى مندوبو المدينة تقارير تفيد أن نوعاً من أنواع أصوات الأنين سُمع من جهة بحيرة كوبياس، كما شوهدت تموجات في المياه القريبة من ديرك، تشبه التموجات التي تحدث عندما يُرمى حجر في مياه النهر، لكن هذه التموجات تلونت بألوان الدم وامتدت فوق سطح مياه البحيرة بكامله. وأخيراً وليس آخراً، روى بعض المسافرين الذين وصلوا من دلفي أن سقف المعبد الموجود في ذلك المكان المبجل، والذي شُيّد تخليداً لذكرى الغنائم التي غنمتها المدينة من الفينيقيين خلال الحرب المبعلة، قد ظهرت عليه بعض بقع الدماء.

قال الضالعون الذين شغلوا أنفسهم بهذه الإشارات إن بيت العنكبوت داخل المعبد يعني أن الأسياد تخطط للتخلي عن المدينة، بينما ينذر تعدد الألوان بوقوع كوارث عديدة، وقالوا كذلك إن التماثيل المتعرقة تشير إلى قرب وقوع كارثة، بينما تشير بقع الدماء إلى قرب وقوع مجزرة.

شعر كثير من سكان المدينة أنه بوجود كل هذه الدلائل المنذرة بالسوء لا يمكن عمل أي شيء لتغيير وجهة الأقدار في ميدان المعركة، أي أنه من الأفضل السعي من أجل التوصل إلى تسوية من خلال التفاوض.

(*) ديودوروس سلوقس XVII.10.3.

لم يشعر سكان طيبة في أعماقهم، وبالرغم من كل ذلك، بالقلق بشكلٍ خاص، لكنهم كانوا أشد حرصاً على الحفاظ على سمعتهم بصفتهم أفضل المحاربين في بلاد اليونان، كما أن ذكريات انتصاراتهم التاريخية العظيمة كانت حيةً في الأذهان. ولأنهم كانوا عالقين جميعاً في قبضة جنون جماعي، فلقد تصرفوا انطلاقاً من شجاعة عمياء أكثر مما تصرفوا بحنكةٍ وتفكيرٍ ملي، فاندفعوا لكل هذه الأسباب، نحو الدمار والخراب، وتسببوا بخراب مدينتهم وأراضيهم.

جهّز الإسكندر كل خطته للحصار، وحضّر كل الآلات الخارقة للأسوار، فيما برز سكان طيبة واصطفوا استعداداً للمعركة، ووقف الخيالة في الجناح الأيسر وقد احتموا بحاجز دفاعي، أما في الوسط والجناح الأيمن فقد اصطف مشاة الصف الأمامي المزودون بأسلحة ثقيلة، ولجأت النسوة والأطفال المتواجدون داخل المدينة إلى المعابد حيث تضرعوا إلى الأسياء من أجل خلاصهم.

قسّم الإسكندر قواته إلى ثلاث فرق، وكانت مهمة الفرقة الأولى مهاجمة الحاجز الدفاعي، أما مهمة الفرقة الثانية فكانت التغلب على مشاة مدينة طيبة، فيما استبقى الفرقة الثالثة كي تعمل كفرقة احتياط بقيادة بارمينيون.

صدحت الأبواق، فبدأت المعركة بعنف، وكانت أسوأ من ذلك اليوم الحاسم في تشايرونيا. ففي واقع الأمر، أدرك جنود طيبة أنهم تخطوا حدودهم، وأدركوا أنه إذا حقق المقدونيون النصر فلن يُظهروا الرحمة، وكان من الواضح بالنسبة إليهم أنه في حالة تلقيهم الهزيمة فإن منازلهم ستعرض للنهب والحرق، وأن نساءهم سيتعرضن للاغتصاب، وأولادهم للبيع. لذا، حارب جنود طيبة بتهوّر، ومن دون أي اهتمام بسلامتهم الشخصية، وواجهوا الموت بشجاعة لا توصف.

ارتفع ضجيج المعركة، وامتزج مع صيحات القادة، ومع أصوات الأبواق الحادة، والصليل المصاحب لها، بينما تردد من أعماق الوادي قرع طبل تشايرونيا الضخم والإيقاعي الذي يتميز بالكآبة. اضطر جنود طيبة إلى التراجع قليلاً في بداية المعركة لأنهم، وببساطة، لم يتمكنوا من تحمّل شدة الهجوم الذي شتّه جنود مشاة فرقة الفالانج. ولكن، عندما انتهوا إلى القتال وجهاً لوجه فوق أرض أشد صلابة أثبتوا قدراتهم المتفوقة. استمر القتال على هذا المنوال بحيث بدت قوة الفريقين متوازنة، وكأن الأسياد قصدت أن تضع الفريقين في توازن تام.

عند هذه المرحلة، دفع الإسكندر بقواته الاحتياطية، وقسم قوات الفالانج التي كانت تحارب إلى قسمين، وأمر القوات الجديدة بالتقدم، لكنّ جنود طيبة، وبدلاً من أن يشعروا بالخوف بسبب القتال مع تعزيزات جديدة، شعروا بقوة جديدة تحركهم. فلقد صرخ ضباطهم بأعلى أصواتهم: "انتبهوا أيها الرجال! إن هزيمة أحد جنود طيبة تستلزم جنديين مقدونيين! دعونا ندفع الجنود الجدد إلى الخلف من حيث جاءوا، أي كما فعلنا مع الفوج الأول". بذل جنود طيبة أقصى طاقاتهم في هجوم من شأنه أن يقرّر ليس فقط أقدارهم وحدهم، بل مصير مدينتهم بكاملها.

في تلك اللحظة بالذات، رأى بيرديكاس الذي كان عند الجناح الأيسر باباً جانبياً وهو يُفتح من أجل إيصال الإمدادات إلى جنود طيبة، فأرسل فرقةً كي تحتل هذا المدخل، ثم ما لبث أن أرسل ما أمكنه من الجنود المقدونيين إلى داخل الأسوار.

تراجع جنود طيبة بسرعة كي يسدّوا هذه الثغرة، وكانوا من الكثرة بحيث وجدوا أنفسهم يتكومون واحداً فوق الآخر، الجياد

والرجال على حد سواء، وتسببوا بجرح بعضهم بعضاً، ولكنهم عجزوا عن إيقاف جنود العدو عن الانتشار داخل المدينة.

تمكّن الجنود المقدونيون الذين كانوا محاصرين داخل قلعة كادميان من فكّ حصارهم. وشنّوا غارة على خصومهم من الخلف، واشتبكوا معهم وجهاً لوجه داخل الأزقة الضيقة التي تربط بين منازل هؤلاء الخصوم.

لم يستسلم أي جندي من جنود طيبة، ولم يركع أي منهم طالباً العفو عن حياته، لكن هذه الشجاعة اليائسة لم تُفلح في زرع أي نوع من أنواع الرحمة في القلوب. وفي الحقيقة، كان إيقاف عملية الثأر القاسية من المستحيلات. فلقد دخل المقدونيون الغاضبون، وقد سكرُوا بمذاق الدماء والعنف، إلى المعابد، وانتزعوا النساء والأطفال من فوق مذابحها وارتكبوا بحقهم شتى أنواع الفظائع.

تردد في شوارع المدينة صراخ الأولاد والفتيات الذين طلبوا مساعدة أهاليهم من الرجال والنساء الذين عجزوا عن مساعدتهم، حتى ولو تمكّنوا من سماعهم.

إذ لم يعد المقدونيون وحدهم في هذه المعركة، لأن كل الإغريق انضموا إليهم، بما فيهم البواتيون والفوكيون الذين لطالما عانوا في السابق من طغيان مدينة طيبة. وأظهر هؤلاء الجنود قسوةً لا مثيل لها، واستمروا في ممارسة العنف حتى مع وجود أكوام من الجثث التي كانت تنتشر في كل زاوية وكل باحة، وذلك بالرغم من أنهم يتكلمون اللغة، واللهجة ذاتها مثل سكان طيبة.

انتهت المجزرة مع حلول الظلام، وساعدت حالات التعب والسُكْر التي سيطرت على الجنود على انتهاءها.

وفي اليوم التالي، جمع الإسكندر أعضاء التحالف لتقرير ما يجدر به فعله بالنسبة إلى طيبة.

في البداية تكلم ممثلو بلاتيا: "لطالما خان سكان طيبة قضية الإغريق المشتركة، كانوا الشعب الوحيد من بين شعوبنا خلال الغزو الفارسي الذي أقدم على التحالف مع الملك العظيم ضد إخواننا الذين كانوا يحاربون في سبيل حريتهم. ولم يُظهروا أي رحمة عندما دُمّر اليرابرة مدينتنا وسوّوها بالأرض، وعندما كانت نساؤنا يتعرضن للاعتداء، أما أطفالنا فقد أخذوا كعبيد إلى بلادٍ بعيدة كي لا يقدر أحد على إيجادهم".

قال مندوب ثيسبيائي: "أما الأثينيون فقد ساعدوا سكان طيبة، ولكن، سرعان ما تخلّوا عنهم في ساعة شدّتهم عندما حلّت عليهم ساعة العقاب العادل... وهل يُحتمل أن الأثينيين قد محوا من ذاكرتهم حادثة إحراق الفرس لمدينتهم، وهدم معابد الأسىاد وتسويتها بالأرض؟".

أما مندوبو الفوكيين والتساليين فقد اقترحوا ما يلي: "إنّ جعل مدينة واحدة أمثلة تأديبية لغيرها من المدن من شأنه منع حدوث حروب في المستقبل، كما أنه سيردع الآخرين عن خرق السلام بسبب الحقد والتحيز الأعمى".

اتخذ القرار بأغلبية كبيرة. وبالرغم من أن الإسكندر كان ضد هذا القرار، إلّا أنّه لم يتمكن من معارضته لأنه سبق له أن أعلن أنّه سيحترم قرار المجلس. لذا، بيع نحو ثمانية آلاف شخص من سكان طيبة كعبيد، وسوّيت مدينتهم الموغلة في القدم، والتي تجّدها هوميروس وبندار بالأرض، وأزيلت طيبة عن وجه الأرض، وكأنّها لم تتواجد يوماً.

ترجل الإسكندر عن صهوة جواده، وكأنه سقط عنه، ثم ما لبث أن جرّ نفسه جراً إلى خيمته، كان رأسه يضج بصراخ الرعب، والتوسلات المحزنة، أما يدها فكانتا مليئتين بالدماء.

رفض تناول الطعام وشرب المياه، وفكّ أسلحته، ثم هالك فوق سريريه، وأحسّ بتشنجات مرعبة تحتاج جسده. بدا الأمر وكأنه فقد السيطرة على عضلاته وحواسّه، ورأى كوابيس وهلوسات أمام عينيه، والتي اخترقت روحه مثل عاصفة تدمّر كل شيء في طريقها، أو مثل إعصار يهب في عقله، وهو الأمر الذي محا كل فكرة خطرت له.

كانت هذه هي الساعات التي تلت اجتياح طيبة مباشرة، كما أن الألم واليأس الناتجين عن تدمير مدينة إغريقية بالكامل قد سحقا روحه مثل حجر الرحي. وكان الإحساس بالقمع قوياً جداً إلى درجة أنه صرخ صرخة قوية كادت أن تكون وحشية بسبب المعاناة، لم يميز الذين سمعوا هذه الصرخة بينها وبين الصرخات الأخرى التي تصاعدت في تلك الليلة المشؤومة، والتي أرخت بظلالها على الأشخاص الثملين، والأرواح المشرّبة بالدماء.

اخترق صوت بطلليموس الصمت على نحو مفاجئ، فأثقل ضميره.

"لم تشبه تلك المعركة أي معركة تجري في ميادين المعارك المفتوحة، ولم تشبه كذلك المعركة التي نشبت على ضفاف نهر إستر. لم يكن سقوط طروادة الذي تغنى به هوميروس يقارن بسقوط هذه

المدينة، وكذلك بالنسبة إلى تدمير عدة مدن زاهرة أخرى محتها ذاكرة الزمن".

لم يقل الإسكندر شيئاً، بل جلس في سريره بينما كان بطليموس يتحدث معه، وكانت تعابير وجهه تظهر رجلاً ممسوساً يكاد يصل إلى حدّ الجنون، لم يستطع إلا أن يتمتم: "أنا... أنا لم أشأ حدوث هذا الأمر".

قال بطليموس وهو يخفض رأسه: "أعرف أنك لم تدخل المدينة". مرّت فترة صمت قبل أن يتابع: "لكنني أؤكد لك أن الذين قاموا بأشنع الأعمال، وأقساها، والأشخاص الذين شوها أولئك الأوغاد كانوا من جيرانهم. أي أنهم من الفوكيين والبلاتيين والتساليين، وجميعهم يمتّون بصلّة القرابة إلى سكان طيبة، هذا إذا لم يكونوا الشعب ذاته من ناحية اللغة والأصول والتقاليد والمعتقدات.

هُزم الأثينيون منذ سبعين عاماً، وأجبروا على الاستسلام لأخصامهم الإسبارطيين وجنود مدينة طيبة، ومن دون شروط. هل تعرف ما الذي أرادت مدينة طيبة فعله؟ أنت تعرف، أليس كذلك؟ أرادت أن تحرق أثينا، وأن تزيل أسوار المدينة، وأن تذبح السكان أو تبيعهم كعبيد. ولو لم يكن ليساندر الإسبارطي حازماً جداً في معارضته خطط قادة تلك المدينة، لكنت وجدت مجد هذا العالم، وأجمل مدينة شيّدت فيه، كومة من الرماد، وحتى إن اسمها كان سيختفي.

إن المصير القاسي الذي أنزله أجداد الطيبين بعدوهم الضعيف، والبريء قد غطى على أحقادهم، إنه المصير المحتوم بالنسبة إليهم. ومع ذلك، أقول إن الظروف مختلفة، لأنك عرضت عليهم السلام مقابل قدرٍ قليل من تقييد حريتهم.

أما الآن فإن جيرانهم، وأعضاء الاتحاد البواتي، يتجادلون حول كيفية تقاسم أراضي مدينتهم الأم، كما أنهم يدعونك إلى التوسط بينهم في هذه العملية".

اقترب الإسكندر من وعاء مليء بالماء، وغطس رأسه فيه، ثم جفّ وجهه بعد ذلك وقال: "أهذا هو السبب الذي أتيت من أجله؟ لا أريد أن أراهم".

"كلا، أتيت كي أخبرك أن منزل الشاعر بندار لم يتعرض للهدم، وذلك بحسب أوامرك، كما نجحتُ في إنقاذ عددٍ كبيرٍ من أعماله من ألسنة النيران".

أوماً الإسكندر.

"وأردت كذلك أن أخبرك... أن بيرديكاس يُشرف على الموت، جرح الرجل جرحاً بليغاً في هجوم يوم أمس، لكنه فضّل ألا يُعلمك بالأمر".

"ولماذا؟".

"لأنه لا يريد أن يحوّل تفكيرك عن مسؤولياتك في القيادة في مثل هذه الفترة الحاسمة. ولكن، الآن...".

صاح الإسكندر: "إذاً هذا هو السبب الذي منعه من المثول بين يدي! أوه، بحق الأسياد! خذني إليه على الفور".

خرج بطليموس، وتبعه الملك على الفور إلى خيمة منصوبة في الطرف الغربي من المخيم حيث كانت المشاعل مضاءة.

استلقى بيرديكاس على سريره فاقدًا وعيه، وغارقاً في عرقه، ويكاد يغلي من الحمى، فيما كان فيليب الطبيب جالساً قربهِ، منهمكاً في عصر سائل صافٍ من إسفنجة وضعها في فم بيرديكاس.

سأل الإسكندر: "كيف حاله؟".

هزّ فيليب رأسه: "حرارته عالية جداً، كما أنه فقد كمية كبيرة من الدماء. إنه جرح خطير تسبب به رمحٌ دخل عظمة ترقوته، لم يصل الرمح إلى رئته، لكنه اخترق عضلات عدة، ولهذا فإن النزيف رهيب، لكنني لجأت إلى كيه، ثم قمت بخياطته وتضميده. إنني أحاول الآن إعطائه القليل من السائل المزوج بدواءٍ من شأنه تخفيف الألم، وتخفيض حرارته، لكنني لا أعرف مقدار ما يدخل جسمه من الدواء بالفعل، وكم يلفظ منه..."

اقترب الإسكندر أكثر ووضع إحدى يديه على جبهة بيرديكاس.
"يا صديقي، لا أريدك أن تموت، لا تتركني".

سهر الإسكندر مع فيليب طوال الليل كي يراقبا بيرديكاس، بالرغم من أنه كان متعباً ولم يذق طعم النوم مدة يومين كاملين. فتح بيرديكاس عينيه وتطلع حوله، فوكز الإسكندر فيليب الذي كان قد استسلم للنوم في هذا الوقت.

استيقظ الطبيب، وألقى نظرةً على الجرح، ثم وضع يده على جبهة مريضه فلاحظ أن الحرارة لم تبارحه بالرغم من أنها انخفضت كثيراً.

قال فيليب قبل أن يعود إلى النوم مجدداً: "يُحتمل أنه سينجو".
وبعد قليل، دخل بطليموس إلى الغرفة. وسأل بهدوء: "كيف حاله؟".

"يعتقد فيليب أنه سينجو".

"هذا جيد. لكن، عليك أن ترتاح الآن، إنك تبدو في حالة فظيعة".

"كان كل شيء فظيئاً هنا، كانت تلك أسوأ أيام حياتي".

اقترب منه بطليموس أكثر، وكأنه أراد أن يقول شيئاً، لكنه لم يتمكن من ذلك.

سأل الإسكندر: "ما الخطب؟".

"أنا... أنا لا أعرف... لو مات بيرديكاس ما كنت لأنفوه بكلمة. ولكن، بما أنه قد ينجو فإنني أعتقد أنه يجب أن تعرف...".
"أعرف ماذا بحق الأسياد... لا تؤخر كلماتك أكثر من ذلك".
"أعطاني بيرديكاس رسالة قبل أن يفقد وعيه".
"رسالة إليّ أنا؟".

"كلا، بل إلى شقيقتك ملكة إبيروس، كانا متحابين، لذلك طلب منها في الرسالة ألا تنساه أبداً. أنا... أو بالأحرى نحن، سخرنا من هيامه هذا. لكن، لم يعتقد أحد أنهما كانا بالفعل...". وهنا أعطى بطليموس الرسالة إلى الإسكندر.

قال الإسكندر: "كلا، لا أريد رؤيتها. إنه أمر طبيعي، لأن شقيقي كانت فتاة صغيرة مليئة بالحياة، ولهذا فأنا لا أرى أي خطأ في اشتياقها إلى رجل تحبه، لم تعد مراهقة بعد الآن، كما أنها تنهياً للزواج بـرجل تحبه، أما بالنسبة إلى بيرديكاس فإنني لا ألومه لأنه أراد تخصيص آخر أفكاره للفتاة التي أحبها".

"إذاً، ماذا تريدني أن أفعل بهذه الرسالة؟".
"احرقها. ولكن، إذا سألك عنها قل له إن كليوباترا تسلّمتها شخصياً".

توجه بطليموس نحو مشعل، وأمسك بورقة البردى فوق ألسنة اللهب، وسرعان ما التهمت النيران إعلان الحب الذي كتبه بيرديكاس، فاختفى في الدخان الذي تبدّد في الهواء.

*

تردّدت أصداء عقاب مدينة طيبة القاسي، وتسببت بردات فعلٍ مرعبة في بلاد اليونان، لأنه لم يسبق لمدينة شهيرة أن سوّيت بالأرض

بهذا الشكل. إذ كانت جذور مدينة طيبة تمتد بعمق في التاريخ بحيث إنها تختلط مع الجذور العميقة للأساطير ذات الجذور الإغريقية. لذا، امتد اليأس الذي أصاب عدداً قليلاً من سكان طيبة الناجين إلى كل الإغريق الذين وُحِدوا بين مواطنيهم وبين تلك المدينة التي ولدوا فيها. أما المعابد، والينابيع، والباحات التي تذكرهم بأصولهم فقد حموها بمحبة.

كانت المدينة تعني كل شيء للإغريق. لذا، انتشرت التماثيل في زاوية كل شارع، وكذلك الصور واللوحات القديمة التي بليت مع مرور الزمن، والتي كانت تحمل بطريقة أو بأخرى روابط مع الأساطير، ومع الأحداث التي كانت كلها جزءاً من تراثهم المشترك. ولقد امتلك كل ينبوع صوته الخاص به، وكل شجرة صوتهما، وكل حجر تاريخه. كانت آثار الأسياد، والأبطال، والأجداد منتشرة في كل مكان حيث نشر الناس معابدهم.

كانت خسارة المرء مدينته تماثل روحه، كما تشبه موت المرء قبل أوانه، أو أن يُصاب بالعمى بعد تمتعه بضوء الشمس وألوان الأرض لمدة طويلة. إنه أمرٌ أسوأ من كونه عبداً، لأن العبيد لا يتذكرون ماضيهم عادةً.

تمكّن لاجئون من طيبة من الوصول إلى أثينا حيث كانوا أول من نقل الأخبار التي سرعان ما تسببت بنشر أجواء الكرب العميق في المدينة. وبعث ممثلو المدينة منادين في جميع أنحائها داعين إلى عقد اجتماع، وذلك لأنهم أرادوا أن يسمع الجميع أخبار ما حصل من شهود عيان، وليس عبر أخبار منقولة عن آخرين.

ظهرت حقيقة الأحداث أمام الجميع بكل جوانبها المساوية، فوقف قائد بحري قديم في الجيش يدعى فوكيون، وهو الرجل الذي قاد البعثة الأثينية في المضائق ضد أسطول فيليب، ليتكلم.

"يبدو واضحاً بالنسبة إليّ أن ما حدث في طيبة يُمكن أن يحدث هنا في أثينا كذلك. فنحن قد نكثنا بعهدنا مع فيليب تماماً مثلما فعل سكان طيبة، يُضاف إلى ذلك أننا قمنا بإرسال السلاح إليهم. إذاً ما الذي سيدفع بالإسكندر إلى إظهار تساهله تجاهنا؟

من الصحيح كذلك وجود مسؤولين بيننا عن هذه القرارات، أي الذين يقنعون الناس كي يصوتوا على إجراءات كهذه، والذين حرّضوا مدينة طيبة على تحدي ملك مقدونيا، ثم تركوها لتواجه وحيدة، والذين يعرّضون الآن مدينتهم لمخاطر فظيعة. أريد أن يتذكر هؤلاء الأشخاص أن التضحية بعدد قليل هي أفضل من فناء عدد كبير من الناس، أو فناء المدينة بكاملها. وآته يتعيّن عليهم أن يكونوا شجعاناً بما يكفي كي يسلموا أنفسهم ويواجهوا المصير الذي تجاهلوه بشكل متهور.

أيها المواطنون، عندما أدنت هذه القرارات اهتمت بأثني متعاطف مع المقدونيين. وعندما كان الإسكندر في تراقيا قال عنه ديموستين إنه فتى صغير تسلق عرش مقدونيا، ثم ما لبث أن اعتبره مراهقاً عند وصوله إلى تساليا، ثم اعتبره شاباً عندما ظهر بين أسوار طيبة. وها أنا اليوم أسأله، أيّ وصف سيطلق عليه الآن بعد أن أظهر قوته الساحقة؟ وكيف سيتوجه بالكلام إليه؟ هل سيعترف أخيراً أنه الرجل الذي لديه قوته الهائلة، وقدراته، التي لا حصر لها؟

لدي شيء آخر أود قوله، أعتقد بقوة أنه من الضروري أن نمتلك الجرأة سواء أكان ذلك في أفعالنا، أم في قناعاتنا.

وقف ديموستين ليدافع عن أفعاله وأفعال مناصريه، وتوجّه كعادته إلى عاملي الإحساس بالحرية والديمقراطية اللذين أبصرا النور في أثينا، وختم كلامه قائلاً إنه سمح للمجلس بتقرير مصيره الشخصي:

"لست خائفاً من الموت، لأنني قابلته وجهاً لوجه في ميادين تشايرونيا، حيث بالكاد نجوت منه عندما اختبأت بين أكوام الجثث قبل هروبي عبر الجبال. وسأستمر في خدمة هذه المدينة في هذه الأوقات الصعبة مثلما خدمتها في الماضي، وإذا طلب مني هذا المجلس أن أسلم نفسي فإنني سأفعل ذلك".

تمتع ديموستين بالدهاء على الدوام ولا سيّما عندما قدّم نفسه فداءً عن الآخرين. لكنه، في حقيقة الأمر تكلم بمهارة شديدة، بحيث إن كل الذين استمعوا إلى كلامه اعتبروا أن خياراً كهذا يشبه تدنيس الأشياء المبجلة.

ناقش المجلس الوضع لفترةٍ من الوقت، وأعطى قادة الأجنحة السياسية الوقت الكافي لإقناع مناصريهم.

وكان بين الحضور فيلسوفان معروفان تماماً: سبيوسيوس الذي أصبح مدير الأكاديمية بعد موت أفلاطون، وديموفان.

قال سبيوسيوس لصديقه وهو يتسم ابتسامة ساخرة: "أتعلم بماذا أفكّر؟ أعتقد أنه عندما حرم أفلاطون والأثينيون أرسطو من إدارة الأكاديمية، توجه بدافع الانتقام كي يصنع الإسكندر".

صوّت المجلس ضد اقتراح تسليم ديموستين ومناصريه إلى المقدونيين، وقرّر المجلس كذلك إرسال وفدٍ إلى الإسكندر يتكوّن من أولئك الذين يتمتعون بأكبر فرصٍ للاستماع إليهم، بالإضافة إلى ديماديس الذي تقرر أن يرأس الوفد.

التقى الإسكندر ديماديس في الطريق المؤدي إلى كورينث، حيث قرّر دعوة ممثلي التحالف الهليني مجدداً كي يثبت قيادته لهذا التحالف بعد الأحداث التي جرت في طيبة وليكون القائد الأعلى في الحرب ضد الفرس.

جلس الإسكندر في خيمته وإيومينيس إلى جانبه.
ودهش الحاضرون عندما كان أول سؤال طرحه: "كيف حال جرحك يا ديماديس؟".
رفع الخطيب ديماديس عباءته ليظهر جرحه: "لقد شفي تماماً أيها الإسكندر، إن جراحاً حقيقياً ما كان ليقوم بالعمل أفضل منك".
"يعود الفضل في ذلك إلى معلمي أرسطو، الرجل الذي كان أحد مواطنيك ذات مرة. وبالمناسبة، ألا تعتقدون أنه حان الوقت لإقامة تمثال له في سوق مدينتكم؟ إن أثينا تفتقد إلى هذا التمثال، أليس كذلك؟ إنها تحتاج إلى تمثال لأرسطو في مكان عام".
تطلع المندوبون إلى بعضهم بعضاً، وبدأ أن حيرتهم قد زادت.
قال ديماديس معترفاً: "كلا، لم نتم هذا الأمر بعد".
"فكّروا في هذا الأمر، كما أريد أن أقول أمراً آخر، أريد أن تسلموني ديموستين، ولايكورغوس، وكل الذين قادوا التمرد ضدي".
خفض ديماديس رأسه، وقال: "توقعنا يا مولاي هذا الطلب، ونحن نعرف ما تفكر فيه. تعرف جيداً أنني سعبت شخصياً إلى تحقيق السلام، وذلك بالرغم من أنني قمت بواجبي على الدوام، وحاربت مثل كل مواطن آخر كلما دعتنا مدينتنا إلى ذلك. ولكنني مقتنع، بالرغم من هذا كله أن ديموستين والآخرين قد تصرفوا بنوايا طيبة، أي مثل وطنيين حقيقيين".
صاح الإسكندر: "أقول وطنيين؟".
كرّر ديماديس بكل اقتناع: "أجل أيها الملك الإسكندر، إنهم وطنيون".
"لماذا لا يسلمون أنفسهم إذاً في هذه الحالة؟ لماذا لا يتحملون مسؤولية أفعالهم؟".

"لأن المدينة صوتت ضد هذا القرار، كما أن المدينة مستعدة لمواجهة أي خطر، وأي تحدٍّ. اسمعني أيها الإسكندر، أثينا مستعدة لقبول مطالب معقولة. ولكن، لا تدفعنا إلى إجراءات يائسة، لأنك حتى لو ربحت فإن النصر الذي ستحرزه سيكون أمرًا من الهزيمة.

هُزمت مدينة طيبة، أما إسبارطة فلن تتحالف معك أبداً. وإذا دمرت أثينا، أو جعلتها عدوتك إلى الأبد، فماذا سيقى من اليونان إذاً. تنجح الرحمة أكثر بكثير من القوة، أو الغطرسة في غالب الأحيان".
لم يرد الإسكندر، لكنه وقف وراح يذرع الخيمة جيئةً وذهاباً، وجلس بعد ذلك مجدداً، وسأل: "ماذا تريدون؟".

"لن يسلم أي مواطنٍ أثيني، ولا نريد حدوث أعمال انتقامية ضد المدينة، ونطلب كذلك أن تمنح حق اللجوء إلى لاجئي مدينة طيبة وأن تساعدناهم. وفي المقابل، سنحدّد عضويتنا في التحالف الهليني، وفي معاهدة السلام. فإذا تحركت بقواتك نحو آسيا، فستحتاج إلى أسطولنا لتغطية خلفية جيشك. إن أسطولك صغير جداً، ولا يتمتع بخبرة عظيمة تمكنه من التحرك من دون مساعدة".

اقترب إيومينيس أكثر من الإسكندر وهمس شيئاً في أذنه: "تبدو لي هذه الاقتراحات معقولة".

فأمره الإسكندر وهو يهبط واقفاً: "إذاً، حضّر وثيقة ووقعها". ونزع الختم الملكي من إصبعه ووضعه في يد إيومينيس قبل مغادرته الخيمة.

أغلق أرسطو حقييته، وتناول عباءته من حيث كانت معلقةً على الجدار، ثم تناول مفتاح الباب عن أحد المسامير، وألقى نظرةً أخيرةً في أنحاء الغرفة وقال في نفسه: "لا أعتقد أنني نسيت أي شيء".
سأله كاليستين: "إذاً، ستغادر بالفعل؟".

"أجل، قررت أن أعود إلى أثينا لأنه يبدو لي أن الوضع قد هدأ قليلاً".

"هل عرفت أين ستسكن؟".

"اهتمّ ديماديس بكل هذه الأمور، ووجد لي مبنى سكنياً كبيراً مع رواق معمد يقع قرب لايكاييتوس، وهو يشبه المبنى الذي كنت أسكن فيه في مييزا، وأستطيع أن أفتح فيه مدرسة. ويتسع المبنى لإقامة مكتبة، وقاعة للعلوم الطبيعية، كما سيكون هناك قسم مخصّص للبحث الموسيقي. أنهيت نقل كل المواد إلى المرفأ، ولم يبقَ أمامي إلا أن أنطلق بحراً".

"وهكذا تتركني كي أتابع التحقيق بمفردي".

"بالعكس تماماً، لأنني أستطيع أن أجمع معلومات في أثينا أكثر من مقدونيا، يُضاف إلى ذلك أنني قد عرفت كل شيء ممكن هنا".
"وما هو؟".

تناول أرسطو بعض الأوراق المليئة بالملاحظات من أحد الأدراج، وقال: "اجلس، إن الأمر الوحيد المؤكد حتى الآن هو أن موت فيليب قد سبب توتراً أثار موجة من الهمسات، والشائعات، والافتراءات،

والتلميحات. يشبه الأمر إلقاء حجر كبير في طبقة من الوحل الذي يتواجد في مستنقع مياه صافية. يضطر المرء إلى الانتظار كي يترسب الوحل ليتمكن مجدداً من الرؤية بوضوح من خلال المياه.

نشأت أفعال بوزانياس - وهي أمور متوقعة - من جراء علاقة شاذة، وهي أخطر علاقات الحب. وأقول إذا أردت اختصار قصة طويلة إن بوزانياس، وهو شاب وسيم، وماهر في استعمال أسلحته، قد تمكّن من الانضمام إلى حراس فيليب، ولاحظ الملك وجوده وأعجب به، لكن آتالوس وضع ابنته المسكينة يوريديس في سرير الملك، فوجدها فيليب لا تقاوم.

جنّ جنون بوزانياس من الغيرة، فأصابته نوبة من الصراخ خلال اجتماع له مع آتالوس، لكن القائد أطلق أتباعه، وبدا بالفعل أنه يخطط لأمر ما. وبعد مدة، دعا القائد بوزانياس كي يتناول الطعام معه كعلامة على النوايا الطيبة، وذلك بعد جولة صيد في الجبال.

كان المكان منعزلاً جداً. وبعد أن تناول الجميع الشراب بكثرة، وشعروا بالسرور والحماسة، اختفى آتالوس في لحظة محددة، وترك بوزانياس بين أيدي صياديه الذين أقدموا على القيام بأفعال منافية للحشمة معه بشكل متكرّر طوال الليل، وبكل الطرائق التي يُمكن تصوّرها، وتركوه بعد ذلك أقرب إلى الموت مما هو إلى الحياة.

أفقد هذا العمل بوزانياس صوابه، فطلب من فيليب أن يسمح له بالانتقام. ولكن، من الطبيعي ألا يسمح الملك أن يلحق الأذى بوالد زوجته المستقبلية. أراد بوزانياس أن يقتل آتالوس، لكن ذلك لم يكن بالأمر الممكن لأن فيليب عيّنه، بالاشتراك مع بارمينيون، ليكون قائد الحملة الاستكشافية في آسيا، فتحول غضب بوزانياس، لهذا السبب، إلى الهدف الوحيد الذي تبقى لديه، أي إلى فيليب، وتمكّن في النهاية من قتله".

ترك أرسطو يده اليسرى تسقط على رزمة ورق البردى محدثة دويًا، وذلك كي يوضح ما يقوله.

حدّق كاليستين إلى عينيّ الفيلسوف الصغيرتين والرماديتين، والملمّعتين بتعبير غامض يقع ما بين إدراك الأمور والسخرية.

"لا أستطيع أن أقرّر ما إذا كنتَ تصدّق كل هذا، أو أنك تتظاهر بتصديقه".

"ينبغي على المرء ألا يقلّل من تأثير العواطف التي تكون دائماً عامل تحفيز قوياً في السلوك الإنساني. وعلى الأخص سلوك شخص يفترق إلى التوازن العقلي، وهو الأمر المحتّم الذي ينتهي إليه كل قاتل. يُضاف إلى ذلك أن تعقيدات القصة تدل على أنها قد تكون صحيحة".

"قد يكون الأمر...".

"حقاً! لكنّ هناك أموراً غير مقنعة فيها. أولاً، انتشرت أحاديث كثيرة عن علاقات فيليب غير السوية. لكن، لم يسبق لأي شخص أن روى أخباراً عن فيليب تتجاوز المغامرات العابرة... وحتى في هذه المرة. أيمكنك أن تتصور أن رجلاً في وضع فيليب يمكنه أن يتورط مع رجلٍ مجنون يعمل حارساً لديه؟"

ثانياً، إذا حدثت الأمور بهذه الطريقة، فلماذا لم ينتظر بوزانياس طويلاً قبل تنفيذ انتقامه؟ ولماذا فعل ذلك بهذه الطريقة المتهورة؟ ثالثاً، من هو الشاهد الرئيس على كل ذلك؟ إنه آتالوس بالطبع. ولكنّ آتالوس قد مات؛ لقد اغتيل".

"وماذا يعني ذلك؟".

"يعني أن أكثر الأمور احتمالاً هو أن الشخص الذي استأجر القاتل قد لفّق، بالفعل، هذه العقدة؛ وهي قصة مقنعة بالأساس، وتلقي باللوم على الشخص الذي لا يستطيع تأكيد، أو نفي، براءته نتيجة لكونه ميتاً".

"يبدو الأمر مثل النظر من خلال الوحل".
"يُحتمل ذلك، لكنني ألاحظ أمراً بدأ بالظهور".
"وما هو؟".

"هوية الرجل - أو المرأة - الذي يقف وراء كل ذلك، ونوع الحلقة التي ظهرت منها كل هذه الأحداث. لدي نسخة في حقيبي عن الملاحظات التي دوّنتها، يمكنك الاحتفاظ بهذه الأوراق يا كاليستين لأنني أريدك أن تستفيد منها، أما أنا فسأتابع تحقيقاتي من زاوية أخرى".

أجاب ابن شقيقته: "في الحقيقة، ليس لدي الوقت لمتابعة تحرياتي، إن الإسكندر مشغول الآن تماماً بحملته الآسيوية، وقد طلب مني أن ألتحق به، لأنني سأكتب تاريخ هذه الحملة".

أوماً أرسطو، وأغمض عينيه نصف إغماضة: "يعني ذلك أن الإسكندر قد وضع خلفه الماضي وأوزاره. إنه يندفع الآن نحو المستقبل، يندفع نحو المجهول".

ثم تناول حقيته، وألقى عباءته فوق كتفيه، وتوجّه إلى الطريق. كانت الشمس في بداية طلوعها من وراء الأفق، وقد بدأت بإظهار أشكال القمم العارية لجبل كيسوس التي يقع خلفها سهل مقدونيا الذي يحتضن عاصمتها ومنتجعها المنعزل في مبيزا.

قال أرسطو ملاحظاً وهو يسير نحو عربة صغيرة كانت تنتظره كي تقله نحو المرفأ: "إنه لأمر غريب ألا تتسنى لي، أو للإسكندر، فرصة الالتقاء مجدداً".

"لكنه يفكر فيك دائماً، وربما سيأتي لزيارتك في أحد الأيام قبل أن يغادر".

قال الفيلسوف وكأنه يحدّث نفسه: "أشك في ذلك. لأنه منجذب إلى بدء مغامرته مثلما تنجذب الفراشة إلى لهيب مشعل. أما

عندما يظن بالفعل أنه يريد أن يراني، فسيكون الوقت قد تأخر بالنسبة إليه للعودة. وعلى كلّ حال، سأرسل إليك عنواني في أثينا بحيث يمكنك أن تكتب إليّ في أي وقت تشاء. إنني متأكد من أن الإسكندر سيفعل كل ما في وسعه كي يبقي خط التواصل مفتوحاً مع المدينة. وداعاً كاليستين، اعتنِ بنفسك جيداً".

عانق كاليستين خاله، لكنه أيقن أنه رأى، وللمرة الأولى على الإطلاق، شعلةً من العاطفة في العينين الرماديتين الصغيرتين.

كان المعبد القديم الذي يقع في طرف الغابة بالكاد يبدو مرئياً في عتمة الليل، أما المشاعل التي انتشرت أسفل جدرانه فقد أضاءت أخشاب قواعد الأعمدة، فظهرت عليها عوامل الزمن، وعناصر الطبيعة، وتعاقب القرون.

فيما عكست الزخرفات الطينية الملونة للأعمدة، والمساحات فوق الأعمدة، أعمال ديونيسيوس. كما أن انعكاسات اللهب المتراقص أعطت الرسوم نوعاً من الحركة، وكأنها تبعث فيها الحياة.

كان الباب مفتوحاً، بحيث بدا داخل المعبد. فكان في الإمكان رؤية تمثال ديونيسيوس وسط الضوء الشاحب. بدا التمثال رزيناً في سكونه الأبدي، ووضع مقعدان قرب قاعدة التمثال بينما نُشرت ثمانية مقاعد على مسافة قريبة منه، وبموازاة صفوف الأعمدة التي تدعم عوارض السقف.

وصل بطليموس أولاً، ثم تبعه كراتيروس وليوناتوس معاً، أما لايسيمachus، وسلوقس، وبيرديكاس، الذين لم يتعافوا تماماً من جروحهم فلم يتأخروا عن الوصول، وما لبث أن وقف وراءهم إيومينيس وفيلوتاس اللذان دعيا إلى الاجتماع، أما الإسكندر فقد وصل على صهوة بوسيفالاس مع هيفاستيون، وكانا آخر الواصلين.

عندها، دخل الجميع وأخذوا أماكنهم على طول صف أعمدة المعبد المهجور والساكن.

جلس الإسكندر، وسرعان ما جلس هيفاستيون إلى يمينه ثم أشار إلى الآخرين كي يخذوا حذوه. شعر الجميع بالتوق، وبفراغ الصبر، كي يعرفوا غاية هذا الاجتماع الليلي.

بدأ الملك حديثه بالقول: "حانت اللحظة للانطلاق في تنفيذ المهمة التي لطالما حلم بها والدي، لكن الموت المفاجئ والعنيف قد حرّمه منها. وأعني بذلك اجتياح آسيا!".

هبت نفحة ريح من خلال الباب الرئيس، فتمايلت ألسنة لهب المشاعل بشدة، وأضفت حركةً على ابتسامة ديونيسيوس الغامضة. "إن اختيار مكان اجتماعنا هنا الليلة لم يأت صدفةً أبداً. إن ديونيسيوس قد سافر برفقة موكب من أسياد الغابات المبحلة والمولعة بالقصف المعربد وبالانغماس في الملذات. فبرؤوس مكلّلة بأوراق العرائش، سيُرينا الطريق إلى الهند البعيدة التي لم يطأها أي جيش إغريقي من قبل.

إن الصراع بين آسيا واليونان صراعٌ قديم لم يُسفر عن رابحين أو خاسرين. أما حرب طروادة فقد استمرت عشر سنوات، وانتهت بنهب مدينة واحدة فقط وتدميرها. كما أن أحدث الغزوات، وهي المحاولات التي أقدم عليها الأثينيون أولاً، ومن بعدهم الإسبارطيون، والتي هدفت إلى تحرير الإغريق القاطنين في آسيا من الهيمنة الفارسية، قد فشلت. وحدث الأمر ذاته بالنسبة إلى محاولات الفرس غزو اليونان. فلقد حفلت كل هذه الأحداث بالمجازر، والحرائق، والغارات التي لم توفر حتى معابد الأسيا.

ولكن، تغيرت الأزمان الآن. إننا أقوى جيش وُجد على سطح هذه الأرض، ولدينا أفضل الجنود. وفوق ذلك كله..." وهنا تطلع إلى وجه كل واحد من الحاضرين، "إن الذين يجلسون هنا هذه الليلة

متحدون برابطة مشتركة من الصداقة العميقة والمخلصة. لقد كبرنا معاً في قصر بيلا، ولعبنا معاً عندما كنا أولاداً، والتحقنا بالمدرسة ذاتها، وتعلمنا معاً كيفية مواجهة أولى صعوباتنا، وأول الأخطار التي أهددت بنا".

أضاف بطليموس متسبباً بانطلاق الضحكات في المكان: "كما أننا ذقنا جميعاً ضربات العصا ذاتها".

قال الإسكندر: "أنت محقٌ تماماً!".

سأل سلوقس: "هل هذا هو السبب في عدم دعوتك بارمينيون؟ وإذا لم تختفي ذاكرتي فقد سرقنا أنا وأنت العصا ذات مرة من القائد المسن، وذلك بناءً على أوامر محددة من والدك". ضحك الإسكندر وقال: "بحق زيوس! أرى أنك تتمتع بذاكرة جيدة".

سأل لايسيماخوس: "ومن هو الذي يستطيع نسيان العصا؟ أعتقد أن آثارها لا تزال ماثلةً على ظهري".

قال الإسكندر بعد أن استحوذ على انتباه رفاقه مجدداً: "كلا، ليس ذلك هو السبب الذي دفعني إلى عدم دعوة بارمينيون. إنني لا أخفي أي أسرار عنه، وها هو ابنه فيلوتاس موجود معنا هذه الليلة.

سيكون بارمينيون محور مهمتنا، ومستشارنا، ومستودع مهارتنا وخبرتنا التي تمكّن والدي من تجميعها. لكنّ بارمينيون كان صديق والدي وأنتيتار كذلك، بينما أنتم أصدقائي أنا، أريد أن أطلب منكم هنا، والآن، وأمام ديونيسيوس وكل الأسياد، أن تبعوني وتحاربوا معي في أي جهة نقصدها، وحتى لو وصلنا إلى أقاصي الأرض!".

فصرخوا جميعاً بعد أن هبوا واقفين، وتحلقوا حول الملك: "نحن معك حتى ولو وصلنا إلى أقاصي الأرض!".

وحيّمت عليهم حماسة شديدة، وهياج يصعب السيطرة عليه،
ورغبة قوية في المغامرة، والتي أصبحت أكثر إلحاحاً بسبب رؤيتهم
الإسكندر واحتكاكهم معه، لأنه يجسد حلم فيليب أكثر من أي
شخصٍ آخر.

تابع الملك حديثه بعد أن هدأوا قليلاً: "أريد أن يتسلم كل واحد
منكم قيادة فرقة من الجيش، وسيحمل كل واحد منكم لقب حارس
الملك الشخصي. لم يحمل شبان مثلكم من قبل هذه المسؤولية الجسيمة،
لكنني أعرف أنكم على قدر هذه المسؤولية لأنني أعرفكم، ولأنني
كبرت معكم، ولأنني رأيتمكم تحاربون في ميدان المعركة".
سأل لايسماخوس: "ومتى سننطلق؟".

"سننطلق قريباً، أي في هذا الربيع، ولذلك أريدكم أن تستعدوا...
جسدياً وروحياً. أما إذا طرأت على بال أحدكم أفكار أخرى، أو إذا
غير رأيه تماماً، فلا أريد منه أن يتردد في إبلاغي، يمكنني أن أستفيد من
أصدقاء أثق بهم في البلاد".

سأل بطليموس: "كم من الرجال ستقود إلى آسيا؟".
"سأقود ثلاثين ألف جندي من المشاة، وخمسة آلاف فارس، وكل
ما نستطيع أخذه معنا من دون أن نترك الأرض المقدونية مكشوفة جداً.
إنني لست متأكداً من المدى الذي نستطيع الوثوق فيه بحلفائنا
اليونانيين. وعلى كلّ حال، طلبت منهم أن يقدموا إلينا فرقة عسكرية،
لكنني لا أعتقد أنهم سيتمكنون من تقديم ما يزيد عن خمسة آلاف
رجل".

صاح هيفاستيون: "إننا لا نحتاج إليهم".
أجاب الإسكندر: "لكننا نحتاج إليهم بالفعل، إنهم جنود ممتازون،
ونحن جميعاً نعرف ذلك. يُضاف إلى ذلك أن هذه الحرب هي ردنا على

الغزوات الفارسية للأراضي اليونانية، وعلى التهديد المستمر الذي تمثله آسيا ضد البلاد الهلينية".

هَبْ إيومينيس واقفًا: "أيمكنني أن أتكلم؟".

قال كراتيروس ضاحكًا: "دعوا سيادة الأمين العام يتكلم!".

ردَّ الإسكندر: "نعم، دعوه يتكلم، أريد أن أعرف بماذا يفكر".

"لن يستغرق التعبير عن أفكاره وقتاً طويلاً أيها الإسكندر.

يتلخص واقع الأمر في أنني إذا عملت مجد من الآن وحتى بداية الحملة

فإنني سأتمكن من جمع موارد للحملة تكفي للجيش لمدة شهر واحد".

صاح بيرديكاس: "يفكر إيومينيس بالمال على الدوام!".

أجاب الإسكندر: "يفترض بأحدهم التفكير بهذه الأمور، ولهذا

ندفع إليه مرتبه. إن المسألة التي أثارها ليست مزحة، لكنها مسألة أعرجها

تفكيراً كثيراً، ستقدم إلينا المدن الإغريقية في آسيا مساعدات، لكنها

تشرط أن نقوم بهذه المهمة كي نساعدنا بدورنا، سنرى ما سيحدث

بعد ذلك".

سأل إيومينيس وكأنه لا يستطيع تصديق أذنيه: "سنرى ما

سيحدث؟".

تدخل هيفاستيون قائلاً: "ألم تسمع ما قاله لك، قال الإسكندر

سنرى، أليس ذلك واضحاً بما يكفي؟".

تمتم إيومينيس: "ليس الأمر واضحاً بتاتاً، لأنه إذا كان عليّ تدبر

التموين الذي يكفي أربعين ألف رجل، بمن فيهم حلفاؤنا الإغريق،

بالإضافة إلى خمسة آلاف فارس، فإنني أريد أن أعرف من أين ستأتي

كل هذه الأموال بحق هرقل!".

رَبَّت الإسكندر على ظهره وقال: "ستدبر المال بطريقة ما، لا

تقلق يا إيومينيس. أنا متأكد من أنك ستجد المال، أريدك فقط أن

تشغل نفسك بتجهيز كل ما يلزم لبدء الحملة، لأننا لن نتأخر في الانطلاق.

أيها الأصدقاء، مرّت ألف سنة منذ أن دخل سلفي آخيل إلى آسيا كي يحارب مدينة طروادة بالتحالف مع الإغريق الآخرين، إننا لن نكتفي اليوم بتحقيق إنجاز مماثل، بل نحن متأكدون من أننا سنحقق إنجازاً أكبر. يُحتمل ألا نحصل على رجلٍ مثل هوميروس كي يكتب قصتنا، لكنّ شجاعتنا لن تقل عن شجاعة جنود آخيل.

إنني متأكد من أننا نستطيع تحقيق أعمال تماثل أعمال الأبطال الذين تحدثت عنهم الإلياذة. لقد حلمنا بهم معاً أكثر من مرة، أليس كذلك؟ هل نسيتم كيف كنا ننهض في مسكننا بعد أن ينتهي ليونيداس من جولاته، ثم نشرع في رواية أخبار مغامرات آخيل، وديوميديس، ويوليسيس؟ كنا نتأخر في السهر حتى نستسلم للنوم ونحن متعبون؟".

خيم الصمت في أرجاء المعبد، لأنهم استعادوا جميعاً كل ذكريات شباهم التي مضت الآن لكنها لا تزال ترافقهم. وترافقت هذه الذكريات مع قدرٍ من الملح من المستقبل القادم والغامض بسبب معرفتهم أن الحرب والموت يترافقان معاً على الدوام.

تطلعوا نحو الإسكندر، ولاحظوا تغيّر لون عينيه تحت أضواء المشاعل الباهتة، وقرأوا فيهما قلقاً غامضاً، ورغبةً شديدة في المغامرات التي لا تنتهي، وأيقنوا أنهم سينطلقون جميعاً في مغامرة كبرى، لكنهم لا يعرفون أبداً متى يعودون، هذا إذا عادوا.

اقترب الملك من فيلوتاس وقال: "سأتحدث مع والدك، أفضل ألا تخبره أبداً عما حدث هذا المساء".

أوما فيلوتاس: "أنت على حق، يجب أن نتحدث معه. إنني مسرور لأنك طلبت مني أن أشارك في هذه الحملة".

شعر الجميع أن جو الاجتماع مثقل بالقلق، لكن بطليموس كسر الصمت المخيم بجملته بسيطة: "إنني جائع الآن، ما رأيكم بفكرة تناولنا لحوم الحجل المشوي في مطعم إيوفيثوس؟".
أبدى الجميع موافقتهم: "نعم! إنها فكرة جيدة!".
صاح هيفاستيون: "سيدفع إيومينيس ثمن الطعام!".
ردّد الجميع بمن فيهم الملك: "نعم! نعم!".
وبعد وقت قصير، تحول المعبّد إلى مكان مهجور، وكان كل ما يُسمع فيه أصوات قفز الجياد وهي تختفي وسط ظلمة الليل.

*

استعدت كليوباترا، التي كانت في قصر بوثروتوم الذي شيّد فوق مرتفع صخري، في تلك اللحظة بالذات لفتح باب غرفة نومها وذراعيها لزوجها، فلقد انتهت فترة الحداد المفروضة على زوجة شابة مثلها.

فرحبت به مجموعة من الوصيفات اللواتي ارتدين ثياباً بيضاء، وحملن مشاعل ترمز إلى الحب المشتعل في قلب ملك المولوشوين، وتقدمته الوصيفات صعوداً على الدرج المؤدي إلى باب نصف مغلق، ثم نزعن إحداهن عباءته البيضاء عن كتفيه، وأغلقت الباب بهدوء. وسرعان ما اختفت جميع الوصيفات معاً في أسفل الممر، وهن يمشين بخفة الفراشات الليلية.

رأى الإسكندر ضوءاً ذهبياً مرتعشاً يلامس رأساً ذا شعر يماثل زبد أمواج البحار نعومة. كان رأس كليوباترا. تذكر تلك الفتاة الصغيرة والحجولة التي كان يلمحها في أحيان كثيرة وهي تراقبه سراً في قصر بيلا، لكنها كانت تركض بساقيها النحيلتين إذا ما التفت كي يتطلع نحوها. وشاهد الإسكندر وصيفتين تهتمان بهما، واحدة تمشط لها

شعرها، بينما انشغلت الأخرى بفك حزام عباءة زفافها، كما فكّت المشابك الذهبية والكهرمانية التي تثبت العباءة على كتفيها اللتين تماثلان العاج نعومة. في هذه الأثناء، التفتت الملكة الشابة نحو الباب من دون أن يلامس شيء جسمها غير ضوء المشعل.

دخل زوجها واقترب منها كي يتفحص جسدها الذي يكاد يكون مثلاً للجمال، ولكي يُشبع نظره من ملاحظها. حدّقت إلى عينيهِ المتلهفتين من دون أن تخفض رموشها الطويلة والمشبعة بالرطوبة، والتهبت نظرهما في تلك اللحظة بقوة تماثل شراسة أوليمبيا، والتوقد الحالم لعيني الإسكندر، وسرعان ما تاه الملك في عينيها قبل أن يشدّها إلى ذراعيه.

راح يداعب وجهها بيده بلطف وقال: "يا عروستي، يا سيديتي... كم من الليالي المؤرقة أمضيتها في هذا المنزل وأنا أحلم بك...". وانتقلت يده نزولاً إلى بطنها الناعم الملمس، ثم قادها بقوة إلى السرير.

قبل فمها قبلة ملتهبة، فاستجابت بحماسة مماثلة، وبقوة أكثر عمقاً وجراً، فأدرك أنها ليست عذراء، وأن شخصاً آخر قد امتلكها قبله... فأخفى وجهه وسط سحابة شعرها الناعم، وراح يبحث عن عنقها قبل أن يبدأ بتقيل كتفيها.

شعر أنه برفقة سيدة مبجلة، لأنه ما من إنسان فان يستطيع أن يطلب أي شيء من سيدة مبجلة، وهو يكون مُمتناً لما يتلقّاه منها فقط.

وعندما انتهى، استلقى إلى جانبها منهكاً بينما أخذت ألسنة لهب المشاعل تنطفئ الواحدة تلو الأخرى. فلم يبقَ إلا ضوء القمر اللامع الذي كان نصف بدر، والذي اخترق الغرفة.

استسلمت كليوباترا للنوم فوق صدر زوجها الرحب بعد أن
أُهكت، وكذلك نتيجة النعاس الذي استولى فجأة على عينيها البريئتين.
فكر ملك مولوشيا بما ملياً لأيام وليالٍ، وكرّس لها كل وقته،
وأعطاهما كل انتباه ممكن، وكل التفاتة، وذلك بالرغم من أنه شعر في
أعماق قلبه بوخزاتٍ من الألم الناتج عن الغيرة. ولكن، حدث شيء
غير متوقع أنعش اهتمامه بالعالم الخارجي مجدداً.

فبينما كان يتنزّه مع كليوباترا في ممرات القصر ويستمتع بنسيم
المساء، رأى وعلى نحوٍ مفاجئ، أسطولاً صغيراً يبحر في غرض البحر
متجهاً نحو الميناء، ورأى كذلك سفينة كبيرة لها مقدمة بشكل تمثال
دولفين، كما شاهد أربع سفنٍ حربيةٍ مرافقة مليئة برماة الأسهم
بالإضافة إلى جنودٍ مشاة يحملون جميعاً دروعاً برونزية.

بعد ذلك بقليل، اقترب منه أحد الحراس وقال له: "يا مولاي،
وصلنا الآن ضيوف أجانب من إيطاليا، ومن مدينة مهمة تدعى
تارانت، وطلبوا عقد اجتماع معك يوم غد".

تطلع الملك نحو الشمس الغاربة بألوانها الحمراء، والتي كانت
تختفي ببطء تحت خط الأفق، وأجاب: "قل لهم إنني سألتقيهم بسرور".
وسكب بعد ذلك كوباً من الشراب الخفيف والملمع لكليوباترا،
وهو من نوع الشراب ذاته الذي يستمتع به شقيقها، ثم سألهما: "أتعرفين
هذه المدينة؟".

أجابت وهي تقرّب الكوب من شفيتها: "أعرفها بالاسم فقط".
"إنها مدينة قوية جداً وغنية جداً، لكنها كانت ضعيفة على الدوام
في أوقات الحروب، أتحبين أن تعرفي قصتها؟".

كانت الشمس في هذه الأثناء قد نزلت إلى ما دون خط الأفق،
وكان كل ما تبقى فوق الأمواج انعكاسات لنور أرجواني.

"بالتأكيد، شرط أن تكون أنت من يقصها علي".

"حسناً، إن ما يجب أن تعرفه في البداية هو أنه في قديم الزمان حاصر الإسبارطيون مدينة آيثوم في ميسينيا. استمر الحصار سنوات عدة، وعجز السكان عن فك الحصار بأنفسهم. فقلق القادة الإسبارطيون بسبب قلة عدد المواليد الجدد في مدينتهم، وذلك نتيجة الغياب المطول لآلاف وآلاف الجنود الذين كانوا منشغلين بحصار آيثوم. وشعر هؤلاء أن اليوم الذي يفقدون فيه الشبان المهيئين للانخراط بجيشهم سيكون قريباً جداً، وهكذا ستبقى مدينتهم من دون حماية.

وسرعان ما وجد القادة حلاً لهذه المشكلة، فتوجهوا إلى آيثوم، واختاروا مجموعة من الجنود الأكثر شباباً وقوة، وزودوهم بأوامر تقضي بأن يعودوا إلى موطنهم بمهمة تبعث على السرور أكثر من مهمة فرض الحصار لمدة طويلة. كانت المهمة تبعث على سرور أكبر، لكنها لا تقل عن مهمتهم الأولى صعوبةً وتطلباً.

ابتسمت كليوباترا بنجش، وقالت: "أعتقد أنني أستطيع تخمين طبيعة تلك المهمة".

تابع الملك كلامه: "بالضبط، كانت مهمتهم هي جعل كل عذارى المدينة حاملات. أدى الشبان هذه المهمة بكل إحساس بالمسؤولية وبالشجاعة التي أبدوها في ميدان المعركة. ونجحوا فيها إلى حدّ أن إسبارطة قد شهدت ولادة عدد كبير من الأطفال في السنة التالية.

لكنّ الحرب انتهت بعد وقتٍ قليل من عودتهم إلى منازلهم. لذلك سعى الجنود الآخرون إلى تعويض ما خسروه من أوقات مع زوجاتهم، وهو الأمر الذي أدى إلى ولادة المزيد من الأطفال. كبر كل الأطفال، لكنّ الأطفال الشرعيين ادّعوا أن كل الأطفال المولودين من عذارى لا

يجوز اعتبارهم مواطنين حقيقيين في إسبارطة، بل يجب معاملتهم على أنهم أولاد غير شرعيين.

شعر أولاد العذارى بالسخط، وبدأوا بالتمرد. وكان على رأس المتمردين شابٌ يحمل اسم تاراس. ولسوء حظهم، اكتشفت الخطط التي كانوا يعدونها، فتلقوا أمراً بمغادرة مدينتهم. استشار تاراس ضالعة دلفي التي نصحتهم بالذهاب إلى مكان في إيطاليا حيث سيتمكنون من تأسيس مدينة لا تزال قائمة حتى الآن، وهي تارانت التي أخذت اسمها من تاراس.

قالت كليوباترا وسط مسحة من الحزن الذي خيم على عينيها: "إنها قصة ممتعة، لكنني أتساءل عما يريد هذا الوفد".

ردّ الملك وهو يقف مستأذناً إياها بقبلة: "سأعلمك ما إن ألتقيهم. لكن، عليّ أن أذهب الآن كي أعطي تعليماتي ليتلقى الضيوف التكريم الذي يستحقونه".

بعد مرور يومين، غادر الأسطول التارانتى الصغير، ولم يرجع الإسكندر حاكم إيبيروس إلى مخدع عروسه إلا بعد أن غابت أشعة الأسطول وراء الأفق.

أعدت كليوباترا طعام العشاء في غرفتها التي كانت معطرةً بالزنابق، كما تمّددت على سريرها مرتديةً غلالة شفافة.

وما إن دخل زوجها إلى الغرفة واستلقى إلى جانبها حتى سألته: "ماذا يريدون؟".

"أتوا كي يطلبوا مساعدتي، و... ليعرضوا عليّ إيطاليا".

لم تقل كليوباترا شيئاً، لكنّ ملامحها أظهرت بعض القلق.

فسألته بعد فترة صمت طويلة: "هل ستغادر المدينة؟".

أجاب الملك: "نعم". لكنه شعر أن حملته التي يُزمع على القيام بها، وكذلك الحرب، وحتى مخاطر الموت في أثناء المعركة، لن تؤثر فيه

أكثر من تلك الفكرة التي تتنامى في رأسه يوماً بعد يوم. وهي أن كليوباترا قد امتلكها رجل آخر ذات يوم، ولعلها لا تزال تتذكره، أو حتى تحبه.

"هل صحيح أن شقيقي سينطلق في مهمة هو الآخر؟".

"نعم، لأنه سينطلق إلى الشرق، وسيحتاج آسيا".

"وأنت ستنتطلق غرباً، أما أنا فسأترك وحيدة".

أمسك الملك يدها وداعبها بصمت قليلاً، وقال لها بعد ذلك: "اسمعي، عندما كان الإسكندر ضيفاً هنا ذات يوم في هذا القصر رأى حُلماً أريد أن أحدثك عنه الآن...".

*

حدّق بارمينيون إلى عيني الإسكندر، وارسم الشك على ملامح وجهه: "لا يمكن أن تكون جاداً".

وضع الإسكندر يداً على كتفه، وقال: "لم أكن أكثر جدية في أي يوم من أيام حياتي. كان هذا حلم والدي فيليب كما كان حلمي أنا على الدوام، سننتطلق مع نسائم الربيع الأولى".

قال أنتياتر: "لكن، يا مولاي، لا يمكنك أن تبدأ الحملة بهذه الطريقة".

"ولم لا؟".

"لأن أي شيء يُمكن أن يحدث في أوقات الحرب. وأنت ليست لديك عروس ولا وريث، يتعيّن عليك أولاً أن تختار عروساً، وأن تترك وراءك وريثاً لعرش مقدونيا".

ابتسم الإسكندر وهزّ رأسه: "لم أفكر في الأمر على الإطلاق، إن اتخاذ زوجة هو عملية طويلة جداً، سيتعيّن علينا أن نقمّ كل المرشحات المحتملات للعب دور الملكة، كما يجب أن أمضي وقتاً كي أقرّر أيّ فتاة

هي الخيار الأفضل، كما يجب أن أعالج رد الفعل السلبي للعائلات التي استبعدت عن فرصة إقامة روابط مع العرش.

سيتعين عليّ كذلك تحضير زفاف، ولائحة المدعوين، والاحتفال، وغير ذلك من أمور... كما يتوجب عليّ بعد ذلك أن أجعل الفتاة حاملاً، وهو الأمر الذي لا يحدث فوراً بالضرورة. يُضاف إلى ذلك أنه حتى إذا حملت الفتاة فلن يكون في وسعي أن أضمن أن يكون المولود صبياً، وفي هذه الحالة يجب أن أنتظر سنة أخرى، أما عندما يولد ابني في نهاية الأمر فسيوجب عليّ القيام بما فعله يولييس مع تيلماخوس، أي أن أتركه وهو طفل صغير، وألا أراه مجدداً إلا بعد مدة لا يعرف أحد مداها. كلا، أريد أن أنطلق على الفور، ولقد اتخذت قراراً في هذا الخصوص.

لقد استدعيتك إلى هنا ليس لمناقشة أمر زواجي، بل كي نناقش حملتي إلى آسيا. إنني أعتبركما أنتما الاثنين ركيزتي مملكتي، أي مثلما كنتما في عهد والدي، كما أرغب في تحميلكما مهمات تحمل في طياتها مسؤوليات كبيرة جداً، وآمل أن تقبلاها".

قال بارمينيون الذي لم يستطع أن ينادي الملك الشاب باسمه الأول: "تعلم يا مولاي أننا ندين لك بالولاء، كما ننوي أن نخدمك طالما تسمح لنا قوانا بذلك".

قال الإسكندر: "أعرف ذلك، وأعرف أن هذه الحقيقة تجعلني رجلاً محظوظاً. ستأتي يا بارمينيون معي، وستكون لك القيادة العامة على الجيش بأكمله، أي أن قيادتك تأتي بعد الملك مباشرة. بينما سيبقى أنتيتر في مقدونيا مزوداً بكل صلاحيات وسلطات الوصي على العرش، هذه هي الطريقة الوحيدة التي أستطيع بواسطتها أن أترك بيلا وأنا مرتاح البال، لأنني متيقن من أنني سأترك عرشي بيد أفضل رجل يمكنني الاعتماد عليه".

أجاب أنتياتر: "أغدقت عليّ شرفاً كبيراً يا مولاي، وعلى الأخص لأن والدتك الملكة ستبقى في بيلا و...".

"أعرف تماماً ما تلمح إليه يا أنتياتر، لكنني أرجوك ألا تنسى الكلمات التي سأتلفظ بها الآن. لا أريد أن تتدخل والدتي في شؤون الحكم في المملكة، وبأي طريقة كانت، لا أريدها أن تتصل رسمياً بالوفود الأجنبية، كما أن دورها في الدولة سيكون رمزياً بالكامل. ولا أريدها أن تلعب أي دور في العلاقات الدبلوماسية إلا بناءً على طلبك، وحتى في هذه الحال أريد أن تكون تحت إشرافك الصارم. لا أريد أي تدخل من قبل الملكة في أي شأن ذي طبيعة سياسية، لأنك ستتولى شخصياً كل هذه الأمور.

أرغب في أن تكون محترمة ومكرّمة، وأن تلبّي كل رغبة من رغباتها إذا كان ذلك ممكناً. لكن، يجب أن يمر كل شيء من خلالك، وأنت ستحمل الختم الملكي، لا الملكة".

أوماً أنتياتر وقال: "كما تشاء يا مولاي، إنني أتمنى ألا يولد هذا الأمر أي مشاكل، لأن لوالدتك شخصية قوية و...".

"سأصدر بلاغاً عاماً عن حقيقة كونك الشخص الذي يتولى المسؤولية في غيابي، ولذلك ستكون مسؤولاً أمامي، وأمامي فقط، عن قراراتك. سنكون على تواصل بشكل مستمر، وسأعلمك بكل خطواتي وتحركاتي. وأنت ستحدو حدوي، وستبقيني على علم بما يحدث في مدن حلفائنا الإغريق، وبالأمر التي تحدث بين أصدقائنا وأعدائنا على السواء. لهذا السبب، يتعين علينا أن نتأكد من الحفاظ على خطوط اتصالات آمنة تكون مفتوحة في كل الأوقات.

سنخصّص وقتاً من أجل وضع تفاصيل واجباتك يا أنتياتر. لكنّ الواقع يبقى في كونك رجلاً أثق به، ولذلك ستمتلك حرية كاملة في

اتخاذ القرارات التي تريدها. كانت الغاية من هذا الاجتماع، وببساطة، أن أعرف ما إذا كنتم أنتم الاثنان توافقان على عرضي، وأنا مسرور جداً لأنكما قبلتما".

نفض الإسكندر عن مقعده، ونفض القائدان المستن معهما احتراماً. لكن أنتياتر تكلم قبل مغادرة الملك الغرفة: "أريد أن أستفهم عن أمر واحد فقط يا مولاي. برأيك كم ستطول مدة الحملة، وإلى أين ترغب في الوصول؟".

"ليس لدي جواب عن هذا السؤال، لأنني لا أعرف الجواب".

غادر الملك وهو يومي، فيما وقف القائدان وحدهما في مستودع الأسلحة الملكية المهجور، قال أنتياتر: "أنت تعرف أنك تمتلك مؤناً ومالاً كافيين لسنة واحدة فقط، أليس كذلك؟".
أوماً بارمينيون: "أعرف ذلك. لكن، ماذا يمكنني أن أقول؟ كان والده أسوأ بكثير في أيامه".

*

عاد الإسكندر إلى جناحه في تلك الليلة متأخراً جداً بحيث كان كل الخدم نائمين، لكن الحراس كانوا يراقبون غرفته التي يستخدمها مع لبيتين التي كانت تنتظره مع مشعل مضاء كي يأخذ حمامه، وكانت المياه ساخنة ومعطرة.

ساعدته على خلع ثيابه، وانتظرته كي يصعد إلى حوض الاستحمام الحجري، ثم سكبت الماء على كتفيه من وعاء فضي. كان ذلك أمراً علماً إياه الطبيب فيليب. إذ إن تأثير المياه كان أنعم حتى من يديها، لأنها تريحه وتريح عضلات كتفيه ورقبته، وهي النقاط التي يتركز فيها الشعور بالتعب والتوتر.

سمح الإسكندر لنفسه بالاسترخاء تدريجياً حتى تمدّد كلياً، بينما تابعت ليبتين صبّ الماء فوق بطنه وفخذه حتى أشار إليها بالتوقف، فوضعت الوعاء على حافة حوض الاستحمام. ومع أن الملك لم يكن قد تفوّه بكلمة بعد، إلا أنها تجرأت على أن تبدأ الحديث.

"يقولون إنك على وشك أن تنطلق على رأس حملة عسكرية يا مولاي".

لم يجب الإسكندر. لكنّ ليبتين أخذت نفساً عميقاً قبل أن تتابع:

"يقولون إنك ذاهب إلى آسيا، وأنا...".

"أنت ماذا؟".

"أحبّ أن أرافقك، أتوسل إليك، فأنا الوحيدة التي تعرف كيف تعتني بك، أنا الوحيدة التي تعرف كيف ترحب بك عند عودتك إلى المنزل في المساء قبل تجهيزك استعداداً لتمضية الليل".

أجاب الإسكندر وهو يخرج من حوض الاستحمام: "ستأتين معي". امتلأت عينا ليبتين بالدموع، لكنها لم تقل شيئاً، وبدأت بتجفيفه بمنشفة من الكتان.

استلقى الإسكندر عارياً في سريره، ومدّ أطرافه بينما وقفت هي للحظة تحدّق إليه على عادتها، وكأنها فتنت به. ثمّ نزعَتْ عنها ثيابها واستلقت إلى جانبه، وراحت تداعبه بلطف بالغ.

*

سألت ليبتين الإسكندر عندما تمدّد على ظهره إلى جانبها: "هل سأتمكن فعلاً من المحييء معك؟".

"أجل، وذلك إلى أن نلتقي بأناس تفهمين لغتهم، أي اللغة الغامضة التي تتكلمين بها أحياناً في أثناء نومك".

"ماذا تعني يا مولاي؟".

أمر الإسكندر لبيتين: "استديري". أدارت لبيتين ظهرها، أما هو فقد تناول مشعلاً وحمله فوقها.

"أتعرفين أن لديك وشمًا على كتفك؟ لم أرَ مثيلاً له من قبل. أجل، ستأتين معي، وربما سنجد ذات يوم شخصاً يتمكن من جعلك تتذكرين المكان الذي أتيت منه. لكن، يتعين عليك أن تعرفي شيئاً واحداً الآن: ستكون الأمور مختلفة في آسيا عما هي عليه الآن. ستكون آسيا عالماً مختلفاً: هناك أناس آخرون، ونساء أخريات، وحتى أنا سأكون مختلفاً. وصلنا الآن إلى نهاية مرحلة من حياتي، وستبدأ مرحلة أخرى، هل تفهمين ما أعنيه؟".

"إنني أفهم يا مولاي. لكن، بالنسبة إليّ يكفي أن أكون قريبة منك، وأن أعرف أنك بخير، إنني لا أطلب أي شيء آخر في هذه الحياة، لأنني حصلت بالفعل على أكثر مما كنت أتمناه منها".

التقى الإسكندر بملك إبيروس قبل شهرٍ واحد من انطلاقه نحو آسيا، وذلك بعد أن رتّباً موعداً سرياً في إيورديا. رتّب ساعون سريعون هذا اللقاء، فلم ير الملكان بعضهما بعضاً لمدة تزيد عن السنة، أي منذ مقتل فيليب. وحدثت أمورٌ كثيرة خلال هذه الفترة، ليس في مقدونيا واليونان فقط، بل في إبيروس كذلك.

نُجح الملك الإسكندر في توحيد كل القبائل التي تعيش في بلاده الجبلية، وجعلها ضمن اتحاد، واعترفت به قائداً أعلى، وأعطته قيادة الجيش ومسؤولية تدريبه. فتدرّب جيش إبيروس على الطريقة المقدونية، وهكذا جرى تقسيمه إلى كتائب من مشاة مسلحين تسليحاً ثقيلاً، وإلى فرق من الفرسان، بينما تبنت الأسرة المالكة النماذج الإغريقية في ما يتعلق بالاحتفالات الرسمية، وبسكّ العملات الذهبية والفضية، وبطريقة ارتداء الملابس والسلوك، فتحوّل ملك إبيروس وملك مقدونيا إلى صورتين متماثلتين، وكأن أحدهما انعكاس لصورة الآخر في المرآة.

اقتربت اللحظة المحددة للاجتماع، وكان ذلك قبل طلوع الفجر بقليل، تعرّف الشبان على بعضهما من مسافة بعيدة، فدفعا حصانيهما نحو شجرة دلب عالية، انتصبت وحيدة قرب نبع مياه وسط سهلٍ فسيح. شجّ الجبل بلون أخضر داكن، ولكنه ملتمع بطريقة غريبة، وذلك بسبب المطر الذي تساقط منذ وقت قريب، وبسبب قرب وقت تغيير الفصول، بينما كانت رياح خفيفة تدفع سحباً بيضاء كبيرة عبر السماء التي كانت لا تزال داكنة، نحو البحر.

نزلا عن حصانيهما وتركاهما حرّين ليرعيا، ثم تعانقا بحماسة الشبان.
سأل الإسكندر: "كيف حالك؟".
أجاب صهره: "أنا بخير، علمت أنك على وشك أن تنطلق بحملة
عسكرية".

"سمعت بدوري أنك سوف تفعل الأمر ذاته".
"هل أخبرتك كليوباترا؟".
"هكذا تفيد الشائعات".
"أردت أن أخبرك شخصياً".
"فهمت... شكراً لك".

"تعتبر مدينة تارانت إحدى أغنى المدن في إيطاليا. ولقد طلب مني
سكان المدينة مساعدتهم على القتال ضد البرابرة الذين يعيشون في
الغرب، والذين اعتادوا على شنّ الغارات على المناطق التي يعيش فيها
البروسيون واللوكانيون".

"إنني أستجيب بدوري إلى نداء للمساعدة قدّمته المدن اليونانية في
مقاومتها ضد الفرس، أليس ذلك مدهشاً؟ لدينا الاسم ذاته، والدم
ذاته، وكلانا ملكان وقائدا جيّشين، ونحن منطلقان في مغامرتين
متشابهتين، أتذكر حلمي الذي حدّثتك عنه والمتعلق برؤيتي شمسين؟".
"إنه أول شيء خطر في ذهني عندما أتت وفود تارانت وشرحت
لي مشكلتها، يُحتمل أن الأسياد تريد أن تبعث لنا برسالة ما".

أجاب الإسكندر: "إنني متأكد من ذلك".
"إذاً، أنت لا تقف ضد توجهي نحو الغرب؟".
"إن الشخص الوحيد الذي قد يعارض هذه الخطوة هو كليوباترا،
شقيقتي المسكينة. فلقد شاهدت مقتل والدها يوم زفافها، وها هو
زوجها ينطلق الآن في مغامرة، ويتركها وحيدة".

"سأحاول طلب الصفح منها، هل أنت فعلاً لا تعارض خطوتي هذه؟".

"أعارضها؟ إنني أشجعك عليها. اسمعني: لو لم تطلب مني عقد هذا الاجتماع لكنت بادرتُ إلى طلب عقده، أتذكر خريطة أرسطو الكبيرة؟".

"لدي نسخة منها في قصري في بوثروتوم".

"إن اليونان هي مركز العالم في هذه الخريطة، كما أن دلفي هي نقطة ارتكاز اليونان. وتقع بيلا وبوثروتوم على بعدين متساويين من الغرب البعيد؛ أي من أعمدة هرقل، ومن الشرق البعيد؛ أي حيث تتواجد مياه محيط ساكن من دون أمواج.

يتعين علينا أن نلتزم بعهد جدّي هنا، وأن نُشهد السماء والأرض عليه: إننا نعد بالمضي قُدماً، أنا نحو الشرق، وأنت نحو الغرب، ويجب علينا ألا نتوقف حتى نصل إلى شواطئ المحيط الذي يُحيط بالأرض، ويجب أن نُقسم إنه في حال سقط أحدنا في أثناء تأدية هذه المهمة، فإن على الآخر أن يأخذ مكانه ويستمر في تنفيذ ما التزمنا به، إننا غمضي من دون أن نترك ورثين لعرشنا يا صديقي. وهكذا سوف يكون كل واحد منا وريث عرش الآخر، هل أنت مستعد لفعل كل ذلك؟".

قال ملك المولوشوين: "من كل قلبي أيها الإسكندر".

ردّ الملك المقدوني بالقول: "من كل قلبي أيها الإسكندر".

تناولا سيفيهما من غمديهما، وأحدثا جرحين صغيرين في معصميهما، ومزجا دمهما في إناء فضي صغير.

سكب الإسكندر حاكم المولوشوين بعضاً من هذا الدم على التراب، ثم أعطى الإناء إلى الإسكندر المقدوني الذي رمى بقية محتوياته في الهواء، أي نحو السماء، قال ملك مقدونيا بعد ذلك: "شهدت

السماء والأرض على عهدنا، ولا يوجد رباط أقوى، وأكثر إلزاماً. إن كل ما يتبقى الآن هو أن نغادر، وأن نتمنى حظاً طيباً لبعضنا، فنحن لا نعرف متى سنرى بعضنا مجدداً. ولكن، عندما يحدث هذا فإنه سيكون يوماً عظيماً بالفعل، وأعظم يوم يشهده العالم".

في تلك اللحظة بالذات، ظهرت شمس ذلك اليوم الربيعي من وراء جبال إيورديا، وغمرت بأنوارها الشفافة قمم الجبال العالية، والوديان، ومجاري المياه فتلاأت كل نقطة من نقاط الندى، وكأن أمطاراً من اللآلئ قد سقطت خلال الليل على المروج، وعلى أغصان الأشجار، أو كأن العناكب قد نسجت شباكها الفضية في الظلام.

وتجاوبت الرياح الغربية مع ظهور ذلك الوجه المشع لسيد النور، وأظهرت تجاوبها على شكل تموجات في ذلك البحر العظيم من العشب الذي امتد حولهما، فيما داعبت الرياح رزم القصب الذهبية، ومجموعات الزعفران الأرجوانية، والتويجات الحمراء للزنابق الجبلية، وطارأت أسراب الطيور في الهواء قاصدة كبد السماء، ومواجهة السحب البيضاء العالية المتناثرة في الأجواء، وكأنها أسراب حمام بري، أو قطعان غزلان تخرج من الغابة راكضة نحو مجاري المياه الملتمة والمراعي الخضراء.

في تلك اللحظة، ظهرت على إحدى قمم التلال، صورة حورية رشيقة هي ترتدي سترة قصيرة تكشف عن ساقها النحيلتين والعاريتين. كانت شابة ذات شعر ذهبي طويل تمتطي حصاناً أبيض يتهادى ذيله خلفه فيما يتمايل عرفه فوق رقبته.

قال ملك إيبيروس: "أرادت كليوباترا أن تراك، لم أستطع منعها".
"ليس هناك من حاجة لمنعها، أردت بشدة أن أراها بدوري، انتظري هنا".

ثم قفز على صهوة حصانه الذي راح يشب نحو تلك الشابة التي
جلست في انتظاره، وراحت ترتعش من فرط التأثر، وبدت متألفة مثل
تمثال آرميس.

ترجل كلاهما وركضا نحو بعضهما وتعانقا، ثم تبادلوا القبلات
على الحدود، وفوق الجفون، وعلى شعر رأسيهما. احتضن أحدهما
الآخر بعذوبة متبادلة، وبقلق مؤثر.
قال الإسكندر عندما نظر نحوها بشوق لا ينتهي: "شقيقي الحبيبة
والحلوة واللطيفة..."

"أيها الإسكندر، يا مليكي، وسيدي، وشقيقي الحبيب. يا نور
عيني..." لم تستطع إكمال جملتها، وسألت أخيراً بعينين مليئتين
بالدموع: "هل سأراك مجدداً؟".

"لا يعرف أحد الإجابة عن هذا السؤال يا شقيقي، لأن الأسياد
تمسك بأقدارنا. لكنني أقسم إنك ستظلين في قلبي على الدوام،
وسأذكرك عند سكون الليل مثلما سأذكرك في أثناء صخب المعارك.
وسأذكرك فوق رمال الصحراء الحارقة، كما في برد الجبال القارس.
سأنادي اسمك كل مساء قبل أن أستسلم للنوم، وأتمنى أن تحمل الرياح
صوتي إليك. وداعاً، وداعاً يا كليوباترا".

"وداعاً يا شقيقي، سأصعد كل مساء إلى أعلى برج في القصر
وسأظل أصغي حتى تحمل الرياح صوتك إليّ، وعطر شعرك، وداعاً،
وداعاً يا شقيقي الإسكندر..."

ذرفت كليوباترا الدموع حتى انسابت على حصانها، لم تقدر على
احتمال مشهد مغادرة شقيقها. فيما رجع الإسكندر ببطء إلى صهره
الذي كان في انتظاره، وكان يتكئ على جذع الشجرة الكبيرة. ترجل
الإسكندر ومدّ كلتا يديه نحو سمّيه، وتكلّم بصوت مخنوق بالعبيرات:

"هكذا يتعيّن علينا أن نفترق، وداعاً يا ملك الغرب، وملك الشمس الحمراء وجبل آتلاتيس، وملك أعمدة هرقل. فعندما نرى بعضنا مجدداً، سيكون ذلك من أجل الاحتفال بمناسبة بداية حقبة جديدة للإنسانية جمعاء. ولكن، إذا أراد القدر، أو أحد الأسياد أن يجرمنا من هذا اللقاء فإنني أريد لعناقنا هذا أن يكون أقوى من الزمن، وأقوى من الموت، وأريد أن يظل حلمنا متوقداً إلى الأبد، وذلك بغضّ النظر عن القدر الذي ينتظرنا نحن الاثنين".

تعانقا وغمرتهما العاطفة، بينما شبك النسيم خصلات شعرهما التي تشبه خصلات شعر الأسد، وتمازج دمعهما مثل دمهما، كان ذلك مشهداً محزناً ومؤثراً بحضور السماء والأرض، ووسط قوة الرياح. ثم قفز كل واحد منهما على صهوة حصانه، ودفعاهما قدماً. توجه ملك المولوشوين إلى حيث الليل ومغيب الشمس، فيما توجه الملك المقدوني إلى حيث الصباح والفجر. لم يكن في وسع أحد، حتى الأسياد، في تلك اللحظة معرفة المصير الذي ينتظرهما، لأن القدر الغامض وحده، هو الذي يعرف مصير رجلين عظيمين مثلهما.

بدأ الجيش بالتجمع مع وصول نسائم الربيع الأولى، بدءاً بكتائب المشاة المسلحين تسليحاً ثقيلاً والمسماة pezhetairoi، والمجهزة تجهيزاً تاماً، والتي يحمل جنودها sarissae ضخمة على أكتافهم. وقف الشبان في الصفوف الأمامية، فظهرت النجمة الأركادية على دروعهم النحاسية الملتصقة، ثم ظهر بعد ذلك الجنود الأكثر خبرة الذين يحمل كل منهم النجمة البرونزية، وأخيراً ظهر قدامى المحاربين الذين يحمل كل منهم النجمة الفضية.

وضع كل الجنود على رؤوسهم خوذ على شكل قبعات فريجية، وهي خوذ مزودة بأغطية شفافة للوجوه. كما ارتدوا سترات وعباءات حمراء. أما عندما كانوا يشاركون في تمرينات عسكرية، ويتبادلون أداء الأدوار الهجومية في ميدان المعركة، فإن sarissae كانت تصطدم واحدة بالأخرى، وهو الأمر الذي يحدث ضجيجاً كبيراً يشبه ذلك الصوت الذي تحدثه الرياح عند مرورها بين أغصان أشجار غابة برونزية. وحين كان الضباط يصدرون أمراً للجنود بخفض حراهم، فإن جنود الفالانج كانوا يأخذون شكلاً مربعاً يشبه حيوان النيص المليء بأشواك من الفولاذ. أما مشاة هيتايروي فقد تم اختيارهم من بين أبناء النبلاء، وجاءوا من كل المقاطعات، كما أنهم مزودون بدروع ثقيلة تغطيهم حتى مستوى بطونهم، ويضعون على رؤوسهم خوذ ذات حواف عريضة صُنعت في بواتيا، ويمتطي هؤلاء جياداً من تساليا، وهي التي تربت في مراعي سهول خصبة، وعلى ضفاف أنهار كبيرة.

تجمعت سفن الأسطول في الموانئ الشمالية، وانضمت إليها بعض قطع الأسطولين الأثيني والكورينثي بسبب مخاوف من حدوث هجوم تشنه البحرية الملكية الفارسية، والتي يقود أسطولها أميرال يوناني يدعى ممنون، وهو رجلٌ مرعبٌ يتميز بالدهاء والخبرة، ولكنه فوق كل شيء رجل يحترم كلمته والتزاماته مهما تكن النتيجة.

التقاء إيومينيس ذات مرة في آسيا، ولكنه عندما عاد حذر الإسكندر عندما أتى ليتفحص الأسطول على متن سفينة القيادة، فقال له: "كن حذراً أيها الإسكندر. إن ممنون من المرتزقة ومن ذوي المبادئ، وهو يبيع سيفه مرة واحدة، وإلى شخص واحد فقط. إن سعره عالٍ. ولكن، ما إن يُقسم يمين الولاء لبلادٍ جديدة حتى يعجز أي شيء عن تغيير ولائه وعلمه.

يقود أسطولُه بحارة من الإغريق والفينيقيين، كما يستطيع الاعتماد سراً على دعم من أعداد كبيرة من خصومك الذين ما زالوا متواجدين في اليونان. تصوّر ماذا يمكن أن يحدث إذا ما قرّر ممنون شنّ هجوم مفاجئ في أثناء قيامنا بنقل الجيش في المضائق من جهةٍ إلى أخرى.

قام المخبرون الذين يعملون لدي بإنشاء نظام من الإشارات الضوئية ما بين السواحل الآسيوية والأوروبية، وذلك من أجل الإنذار المبكر عن قدوم أسطول ممنون المفاجئ. فنحن نعرف كذلك أن مرزبانان حكام الولايات الفارسية الغربية قد ثبتوا قيادته على كل قواتهم في آسيا. إن مهمته تكمن في إلهاء قوات غزونا وشلّها، لكننا لا نمتلك حتى اللحظة أي أخبارٍ عن خططه الحربية. إن معلوماتنا قليلة بهذا الخصوص".

سأل الإسكندر: "كم سيستغرق الأمر لتجميع المزيد من المعلومات".

"ربما سيستغرق شهراً كاملاً".

"إنها فترة طويلة جداً، سننطلق في غضون أربعة أيام".

تطلع إيومينيس نحوه بدهشة: "أربعة أيام؟ لكنّ هذا جنون، لم نجمع ما يكفي من المؤن بعد، سبق أن أبلغتك أن ما لدينا الآن يكفي ما يقارب الشهر الواحد. ويتعيّن علينا على الأقل أن ننتظر وصول الشحنات الجديدة عبر جبل بانجايوس".

"كلا يا إيومينيس. لن أنتظر مدةً أطول، إن كل يوم يمر يعني إعطاء فرصة للعدو لتنظيم دفاعاته، وتوظيف مرتزقة... وحتى من اليونانيين. يتعيّن علينا أن نضرب في أسرع وقتٍ ممكن، كيف سيتصرف ممنون برأيك؟".

"سبق لممنون أن حارب بنجاح ضد قادة والدك. يمكنك أن تسأل بارمينيون عن مدى سهولة توقع تحركاته".

"لكن، ماذا سيفعل برأيك؟".

قال صوت من خلف إيومينيس: "سيدفعك براً إلى أبعد مسافة ممكنة، نحو الداخل، ويدمر الحقول في هذه الأثناء، وسيقوم أسطوله بعد ذلك بقطع خطوط اتصالاتك وتموينك البحرية".

سأل إيومينيس: "أتعرف الأميرال نيرماخوس؟".

صافح الإسكندر الرجل: "تحيةً أيها الأميرال!".

قال نيرماخوس وهو رجلٌ قوي البنية، عريض الكتفين، وأسود الشعر والعينين، وهو من سكان كريت: "أعذرني يا مولاي، كنت مشغولاً بالتحضيرات، لهذا لم أتمكن من الاجتماع بك قبل الآن".

"هل ما قلته لتوك هو رأيك الحقيقي بالوضع؟".

"بصراحة... نعم. يعرف ممنون أنه إذا تحدّك في ميدان مفتوح فهذا الأمر يشكل خطراً عليه، إذ ليس لديه عدد كافٍ من الجنود

كبي يواجه مشاتك، لكنه يعرف بالتأكيد أنك تفتقد إلى جنود الاحتياط".

"وكيف له أن يعرف ذلك؟".

"إن نظام تجميع المعلومات الاستخبارية الفارسي لا يمتلكه أحد. إذ إنّ لديهم جواسيس في كل مكان. وهؤلاء يتلقون أجوراً عالية، يُضاف إلى ذلك أنه يمكنهم الاعتماد على متعاطفين في أثينا وإسبارطة، وكورينث، وحتى هنا في مقدونيا. إن كل ما يحتاجه هو كسب بعض الوقت ثم تنفيذ بعض المناوشات خلفك في البر والبحر. وسنقع حينها في مشاكل كثيرة، وربما سنقع في مصيدة".

"أعتقد ذلك حقاً؟".

"أريدك أن تكون على حذر يا مولاي. إنّ ما ترمع القيام به ليس مشروعاً عادياً".

كانت السفينة تمخر عباب البحر المفتوح وأواجه، بينما كان الرذاذ يتطاير، وكان كبير المجذفين يدقّ الإيقاع على الطبل، بينما أحني المجذفون ظهورهم الملتزمة تحت أشعة الشمس الساطعة، وراحوا يغطّسون مجاذيفهم الطويلة ثم يرفعونها من جديد.

بدا الإسكندر مشدوداً بالإصغاء إلى إيقاع الطبل، ونداءات المجذفين في أثناء محاولتهم الحفاظ على التوقيت المناسب.

وقال فجأة: "يبدو أن ممنون يزرع الخوف في نفوس الجميع".

قال نيرماخوس مؤكداً: "إنه لا يزرع الخوف يا مولاي. إننا نستعرض الأوضاع المحتملة فقط، ولهذا أرى هذا الأمر مشهداً محتملاً جداً".

"أنت على حق أيها الأميرال، إننا الأضعف والأشدّ تعرضاً للهزيمة في البحر، لكننا لا نُقهر في البر، ولا يستطيع أحد التغلب علينا".

قال إيومينيس: "يصدق هذا في الوقت الحاضر".
قال الإسكندر معترفاً: "في الوقت الحاضر".
سأل إيومينيس مجدداً: "وماذا سنفعل إذا؟".
"إن أقوى الأساطيل تحتاج إلى موانئ، أليس ذلك صحيحاً أيها
الأميرال؟".

"ليس في ذلك من شك يا مولاي. لكن...".
قال إيومينيس: "إذا أردت أن تقطع عليه طريقه سيتعين عليك أن
تحتل كل الموانئ المتواجدة على طول الساحل الممتد من المضائق وحتى
دلتا نهر النيل".
أجاب الإسكندر من دون أن يرف له جفن: "بالضبط".

*

وعشية انطلاقهم، عاد الإسكندر عند بهيم الليل من إيجية كي يضع
النذر على قبر فيليب، ثم توجه على الفور إلى جناح والدته، كانت الملكة
لا تزال مستيقظة، ومنشغلة في تطريز عباءة على ضوء مشعل. طرق
الإسكندر الباب، فأسرعت الملكة إليه وضمته بين ذراعيها.
قالت، وهي تحاول إخفاء مشاعرها: "لم أتصور أن تأتي لحظة
كهذه".

"شاهدتني، يا أمي، وأنا أنطلق بحملات عسكرية أخرى".
"لكن الأمر مختلف هذه المرة، أشعر به، كما أنني أحلم أحلاماً
غريبة يصعب تفسيرها".

"أتخيل ذلك، يقول أرسطو إن الأحلام هي من بنات عقولنا،
ولهذا يجدر بنا أن نبحث عن تفسيرها في أعماق أنفسنا".
"بحثت عن تفسير لها، لكنني اكتشفت أن النظر في أعماق نفسي
يعطيني إحساساً بالدوار، وحتى بالخوف".

"أنا متأكد من أنك تعرفين السبب".

"ماذا تعني بذلك؟".

"لا أعني شيئاً. أنت أمي، ومع ذلك فأنت أكثر الناس غموضاً من بين الذين عرفتهم".

"لست إلا امرأة غير سعيدة. وها أنت تنطلق الآن في حرب طويلة وتركني هنا، إن ما يحدث الآن هو أمر مكتوب ومقدّر وقدرك أن تحرز إنجازات استثنائية فوق مقدرة البشر".
"ماذا تعنين بذلك؟".

استدارت أوليمبيا نحو النافذة، وكأنها تبحث عن صور وذكريات بين النجوم، أو عن وجه القمر. "حدث ذات مرة، وقبل أن تولد، أن حلمت أن سيداً قد لمسني عندما كنت نائمة إلى جانب والدك في غرفة نومنا. فتوجهت ذات يوم إلى دودونا عندما كنت حاملاً بك. وعندها، هبّ الريح من خلال أغصان أشجار السنديان المقدسة، وما لبثت أن همست باسمك:

الإسكندر

هناك رجال يولدون من أرحام نساء فانيات، لكنّ أقدارهم تختلف عن البشر الفانين العاديين، وأنا متأكدة من أنك واحدٌ منهم يا بنيّ. شعرت دوماً بالفخر لكوني والدتك، لكنّ وداعك الآن يُشعري بمرارة أكثر لهذا السبب".

"أشعر بالأمر ذاته أمي، وأنا الذي فقدت والذي منذ فترة قصيرة، أتذكرين؟ أخبرني أحدهم أنك وضعت إكليلاً حول رقبة القاتل".

"ثأر لي ذلك الرجل من فيليب بسبب الإهانات القاسية التي أنزلها بي، كما أن ما فعله قد جعلك ملكاً".

"قام ذلك الرجل بتنفيذ أوامر شخصٍ آخر، لماذا لا تضعين إكليلاً حول عنق ذلك الرجل أيضاً؟".

"إنني لا أعرف ذلك الرجل".

"لكنني سأعرفه عاجلاً أم آجلاً، وسوف أعلّقه على عمود".

"وماذا لو كان والدك الحقيقي سيّداً؟".

أغمض الإسكندر عينيه فرأى فيليب مجدداً وهو يسقط على بركة من الدماء، رآه يسقط ببطء، وكان ذلك يحدث في حلم، وتمكّن من تمييز كل خطوط الألم التي ارتسمت بقسوة على وجه والده قبل مقتله، فشعر بالدموع الحارقة التي سالت من عينيه بغزارة.

"إذا كان والدي سيّداً فإنني سوف ألتقيه ذات يوم. لكنني متأكد من أنه لن يستطيع أن يفعل ما أنجزه فيليب لأجلي، قدّمت نذوراً طلباً للأخذ بثأره أُمّي".

تطلّعت أولمبيا نحو السماء وقالت: "أعطيني ضالعة دودونا توقّعاً لمولّدك. وستعطيك ضالعة أخرى وسط لهيب رمال الصحراء الحارقة توقع ولادة جديدة". ثمّ استدارت فجأة، وارتمت بين ذراعيه. "فكّر في يا ولدي، لأنني سوف أفكر فيك كل يوم وكل ليلة، ستحميك روحي في ميدان المعركة، وستشفي جروحك، وسترشدك في الظلمات، وستحميك من كل التأثيرات السابقة وتهزمها، وستشفيك من الحمى. إنني أحبك أيها الإسكندر أكثر من أي شيء في العالم".

"إنني أحبك أيضاً يا أُمّي، وسأفكر فيك كل يوم. والآن، دعيني أغادر لأننا سوف ننطلق قبل الفجر...".

قبّلته أولمبيا على خديّه، وعلى أجنانه، وعلى جبهته، واستمرت في احتضانه وكأنّها عاجزة عن تركه.

انسحب الإسكندر بلطفٍ من هذا العناق بقبلةٍ أخيرةٍ منه، وقال:
"وداعاً يا أمي. أريدك أن تعتني بنفسك".

أومات أولمبيا بينما سالت الدموع الغزيرة على خديها،
وتلاشت أصداء خطوات الملك في ممرات القصر، وعندها فقط أمكنها
أن تتمتم:

"وداعاً أيها الإسكندر".

بقيت مستيقظة طوال الليل كي تراه مرة أخيرة من شرفتها. وضع
درعه على ضوء مشعل، كما ثبتت خوذته بعرفها العالي، وثبت سيفه
إلى جانبه، وأدخل ذراعيه من خلال أربطة درعه الذي يحمل علامة
النجمة الذهبية الأركادية، حدث كل ذلك بينما كان الحصان يصهل
ويصدق الأرض بحوافره وهو نافذ الصبر، فيما راح بيريتاس ينبح بشدة
محاولاً الإفلات من قيده.

وقفت أولمبيا بسكون وراحت تراقب ابنها وهو يتعد على
صهوة جواده، وانتظرت حتى تلاشى آخر صدى لوقع جواده قبل أن
تبتلع الظلمة.

أعطى الأميرال نيرماخوس أوامره لرفع العلم الملكي ولنفض الأبواق، فتهادت السفينة العظيمة بيسرٍ وسط الأمواج. ويقع عند أسفل السارية الرئيسة، ووسط متن السفينة، كان طبل تشايرونيا الضخم يقبع هناك. واظب أربعة رجال على قرع إيقاع التجذيف. مضارب كبيرة ذات رؤوس ملفوفة بالجلد، وحملت الرياح أصوات القرع إلى السفن كافة التي تبحر في الخلف.

وقف الإسكندر في المقدمة مرتدياً درعه المطلي بطبقة من الفضة، بينما ارتفعت فوق رأسه الخوذة الملمعة والمصنوعة من المعدن ذاته، لكنها كانت على شكل رأس أسد بفكين مفتوحين وكانت النقوش فوق دروع ساقيه منقوشة بنمط معين، كما أنه حمل سيفه ذا المقبض العاجي الذي كان يستخدمه والده بيده اليسرى، فيما أمسك بيده اليمنى رمحاً مصنوعاً من الخشب ash-wood ذا رأس ذهبي يلتصق مثل صاعقة زيوس عند كل حركة يقوم بها.

بدا الملك مصمماً على تنفيذ حلمه، فوقف هناك ساعحاً للرياح المحملة بالملوحة ولنور الشمس الشفاف بمداعبة وجهه. وكذلك وقف رجال الإسكندر المنتشرون على متن مئة وخمسين سفينة من سفن الأسطول، وراحوا يحدقون إلى سفينة المقدمة، فلقد بدا الإسكندر وكأنه تمثال سيد.

سمع الإسكندر شيئاً، وما لبث أن وضع يده على أذنه، التفت بقلق، وكأنه يبحث عن شيء ما، فاقترب منه نيرماخوس، وقال: "ما الأمر يا مولاي؟".

"اسمع... ألا تسمع ما أسمعه؟".

هزّ نيرماخوس رأسه: "لا أسمع أي شيء يا مولاي".

"بلى... أصغ، يشبه الصوت... لكن، لا يُعقل".

نزل عن مقدمة السفينة وسار بمحاذاة حافتها إلى أن تمكّن من سماع صوت نباح كلب، وبوضوح. لكنّ الصوت بدأ يضعف شيئاً فشيئاً. التفت خلفه نحو الأمواج المزبدة فرأى بيريتاس يسبح يائساً، وكان على وشك الغرق، صاح الإسكندر: "إنه كلبى! إنه بيريتاس، أنقذوه! أنقذوه بحق هرقل!".

غطس ثلاثة بحارة على الفور، وربطوا الحبال حول ذلك الحيوان، ثم رفعوه إلى متن السفينة. استلقى الكلب على متن السفينة وكأنه قد فقد الحياة. تأثر الإسكندر كثيراً، وركع إلى جانبه، وراح يربّت على ظهر كلبه المخلص ويمسّده، رأى جزءاً من قيد الكلب حول رقبته، بينما كانت مخالبه تنزف دماءً نتيجة الرحلة الطويلة.

راح الإسكندر ينادي: "بيريتاس، بيريتاس، لا تمّت".

قال أحد المهندسين في الجيش والذي أسرع إلى تقديم مساعدته: "لا

تقلق يا مولاي، سينجو، لكنه يبدو شبه ميت نتيجة الإهناك".

بدأ بيريتاس بإظهار بعض علامات الحياة بعد أن أفلحت أشعة الشمس بتجفيفه وتدقيقته، وما لبث بعد فترة قصيرة أن بدأ بالنباح مجدداً. فوضع نيرماخوس يده على كتف الملك، وقال له: "مولاي... آسى".

شرع الإسكندر بالركض متجهاً نحو المقدمة، ولاحق أمامه سواحل آسيا بخلجانها الصغيرة المميزة، والتي تتناثر خلفها القرى التي تحتضنها التلال المكسوة بالأشجار، والتي تشرف على الشواطئ المغمورة بأشعة الشمس.

قال نيرماخوس متابعاً حديثه، بينما شرع البحارة في إنزال الأشرعة تمهيداً لإنزال المرساة: "إننا نحضّر للرسو".

تابعت السفينة إبحارها إلى الأمام قاطعة الأمواج المزبدة بمقدمتها البرونزية الضخمة، حدّق الإسكندر إلى البر الذي أخذ يقترب أكثر فأكثر، وكأن الحلم الذي لطالما تعلّق به قد تحقّق. صاح القبطان: "ارفعوا مجاذيف السفينة!".

رفع البحارة مجاذيفهم من المياه، فسمحوا للسفينة بأن تتقدم مدفوعةً بزخمها نحو الشاطئ. أمسك الإسكندر رمحاً عندما اقتربوا من الشاطئ، ثم ركض فوق متن السفينة وما لبث أن رماه بأقصى ما أوتي من قوة.

اخترق رأس الرمح الهواء راسماً شكلاً قوسٍ واسع، والتمع تحت ضوء الشمس كالنيزك، وما لبث أن اتجه نحو الأرض بسرعة وانغرز بعمقٍ فيها، متسبباً بهزةٍ في أنحاء آسيا.

الإسكندر: فتى الحلم

فاليريو ماسيمو مانفريدي هو أستاذ علم الآثار الإغريقية في جامعة لويجي بوكوني في ميلانو. نشر المؤلف اثني عشر عملاً قصصياً بما في ذلك ثلاثية الإسكندر، التي تُرجمت إلى أربع وثلاثين لغة في خمسة وخمسين بلداً، وذلك بالإضافة إلى مؤلفاته الأكاديمية العديدة. أما روايته *The Last Legion* فقد ظهرت في فيلم سينمائي مهم. كتب المؤلف عدداً كبيراً من الأفلام الوثائقية التي تدور حول العالم القديم وساهم فيها، كما كتب نصوصاً لعددٍ من الأفلام السينمائية والبرامج التلفزيونية.

إيان هاليداي وُلد في اسكتلندا في العام 1960. نال شهادة من قسم الدراسات الأميركية جامعة مانشستر، وعمل في إيطاليا ولندن قبل أن ينتقل إلى صقلية حيث يعيش الآن. يدرّس هاليداي حالياً الإنكليزية في جامعة كاتانيا، بالإضافة إلى عمله كمترجم.

«وأنت أيها الإسكندر المستيقظ في بهيم الليل:

إلى أين تحوم بك عيناك؟

وأين يجول بك قلبك؟

تريد قهر البلاد البعيدة

حيث تغيب المجرات،

وحيث تتلاشى آخر أمواج المحيط».



«الإسكندر: فتى الحلم»، الكتاب الذي حقق نجاحاً عالمياً منقطع النظير هو الجزء الأول
الرائع من ثلاثية فاليريو ماسيمو مانفريدي، وهو يستكشف الحماسة المتقدمة،
والمغامرات الكبرى التي طبعت اليونان القديمة.

من ذا الذي يولد، غير سيد، ليقهر العالم؟ وغير ابن ملك عظيم، فيليب المقدوني،
ومليكتة المثيرة أوليمبيا، ليكبر الإسكندر ويصبح شاباً يمتلك إمكانيات هائلة لا يمكن
إدراكها، وليتحول تحت رعاية أرسطو العظيم، وفي ظل بطليموس وهيفاستيون إلى
أقوى المحاربين وأكثرهم جاذبية، إلى أن تمكن من إخضاع العالم المعروف ووضعه
تحت سيطرته.

رواية مذهلة عن إحدى أعظم شخصيات التاريخ، ومسعاها لقهر
العالم المتحضر في ذلك الزمن.



ISBN 978-614-01-0083-1



9 786140 100831



جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات. كوم

www.nwf.com



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

www.asp.com.lb - www.aspbbooks.com